



بسم الله الرحمن الرحيم

Republic Of Iraq
Ministry Of Higher Education &
Scientific Research
Research and Development



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
دائرة البحث والتطوير

No :

Date:

العدد: ب ت ٤ / ١٣٨٢
التاريخ: ٦ / ١٠ / ٢٠١٣

ديوان الوقف الشيعي / الامانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

م/ مجلة المصباح

تحية طيبة...

اشارة الى كتابكم المرقم ١٤٩٩٦ في ٢٩/٩/٢٠١٣ والحاقا بكتابتنا المرقم ب ت ٤ / ٨٠٣٣ في ٦/٦/٢٠١٣ بالإمكان اعتماد "مجلة المصباح" الصادرة عنكم لأغراض الترقية العلمية .
....مع وافر التقدير

أ.م.د. محمد عبد عطية السراج
المدير العام لدائرة البحث والتطوير
٢٠١٣/١٠/٦

نسخة منه إلى/

- دائرة البحث والتطوير/ الشؤون العلمية.
- الصادرة.
١٠/٦/١٣

Website: www.rddiraq.com

mail : gd_office@rddiraq.com .scientificdep@rddiraq.com

الهاتف / ٧١٩٤٠٦٥



العتبة الحسينية المقدسة

المصباح

مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات والأبحاث القرآنية

تصدر عن

الإمانة العامة

للعتبة الحسينية المقدسة

العدد الحادي والعشرون - ربيع (٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ)

الصفحة السادسة

المشرف العام

سَمَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْمُهْدِيِّ الْكُرْبَلَاءِيِّ

الأمين العام للعبة الحسينية المقدسة

رئيس التحرير

محمد علي هادي

مدير التحرير والعلاقات العامة

د. حميد مجيد هادي

سكرتير التحرير

لبراهيم مجيد حمود

هيئة التحرير

أ.د. علي رحيم هادي الحلواني

أ.د. صالح مهدي عباس

أ.د. زهير غازي زاهد

أ.د. علي محسن مال الله

أ.م.د. عبد الجواد البيضاني

أ.د. عمار عبودي نصار

الريادة الاستشارية

أ.د. عبد الجبار ناجي

بيت الحكمة - بغداد

أ.د. احمد مطلوب

رئيس المجمع العلمي العراقي

أ.د. محمد علي آذرشب

جامعة طهران - ايران

أ.د. حازم سليمان الحلبي

جامعة بابل - العراق

أ.د. محمد كريم ابراهيم

جامعة بابل - العراق

أ.د. علي ابو الخير

مجمع البحوث الاسلامية - جمهورية مصر العربية

أ.د. عبد النبي اصطيف

جامعة دمشق - سورية

أ.د. عبد الامير كاظم زاهد

جامعة الكوفة - العراق

أ.د. عبود جودي الحلبي

جامعة كربلاء - العراق

أ.د. محمد جواد الطريحي

جامعة بغداد - العراق

المصباح

مجلة علمية فصلية محكمة
تُعنى بالدراسات والأبحاث القرآنية

الترقيم الدولي :

ISSN: 2226 - 5228

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق

٢٠١٠ / ١٤١٤

العنوان الموقعي

مجلة المصباح - شارع السدرة
كربلاء المقدسة - جمهورية العراق

الاتصالات

مدير التحرير والعلاقات العامة

٠٧٨١٠٨٠٠٦٢٧

٠٧٧٠٣٢٨٥٠٧٨

سكرتير التحرير

٠٧٨٠٢٥٧٩٥٣٢

ادارة المجلة

٠٠٩٦٤ ٣٢ ٣١٠٠٥٥

٠٠٩٦٤ ٣٢ ٣١٠٠٦٦

داخلي: ٥٦١

التنسيق والمتابعة والتوزيع

علي افضيلة الشمري (العراق)

٠٧٨١٠٤٢٧١٣٠ / هـ

معمد الترجمة الانكليزية

سعد شريف طاهر

الاخراج والتصميم

قاسم سالم محمد

التنضيد العربي والمراسلة

غازر عبد الامير الطريحي

البريد الإلكتروني: almissbah@imamhussain.org

موقعنا على شبكة الإنترنت: www.almissbah.imamhussain.org



٩	« كلمة الافتتاح/ رئيس التحرير
١٥	« سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن/ أ.د. احمد مطلوب
٤٧	« اختلاف العلماء في مسألة ترتيب القرآن الكريم/ سماحة السيد علي الشهرستاني
٨٣	« القصص القرآني/ سماحة العلامة المحقق محمد هادي معرفة
١١١	« استراتيجيات احتواء النفاق في المنظور القرآني/ أ.م.د. محمد ميرزائي
١٣٧	« شروط المتحدي من منظور نظرية الاعجاز المقامي للقرآن/ د.تومان غازي الخفاجي
١٧٩	« التعقيب المصدري في القرآن الكريم (الجزء الثاني)/ د.وائل عبد الامير الحربي
٢٠١	« الإنسجام الصوتي في سورة الزلزلة/ حازم كريم عباس الكلابي
٢١٥	« رؤية دلالية في وجوب الوحدة الاسلامية في القرآن/ رجا محسن محمد
٢٣١	« القرية... في القرآن الكريم/ سعد شريف طاهر
٢٥٧	« الملامح المعتمدة في قصة ذي القرنين/ أ.م.د. حسن كاظم اسد
٢٩١	« المدلولات النفسية في سورة يوسف/ محمد مهدي ياسين الخفاجي
٣٠٩	« أثر التعبير القرآني في النصوص العلوية/ عادل عبد الرحمن البدري
٣٢٩	« مرجعية اهل البيت في التعامل مع القرآن/ ساجد صباح ميس العسكري
٣٤٧	« دلالة (فعلان) و (فعليل) في البسملة/ أ.م.د. اسعد خلف العوادي
٣٦٣	« كبائر الذنوب كما وردت في القرآن الكريم/ أ.د.عبد اللطيف حمودي الطائي
٣٨٩	« نافذة الصباح

ضوابط النشر

١. أن يكون البحث منسجماً مع اختصاص المجلة وتوجهها في نشر الابحاث التي تتعلق بالقرآن الكريم حصرياً.
٢. أن لا يكون البحث منشوراً في مجلة داخل العراق وخارجه، أو مستلاً من كتاب أو رسالة جامعية أو محملاً على الشبكة العنكبوتية على أن يلتزم الباحث بذلك بتعهد خطي.
٣. أن لا يكون البحث نمطياً أو مما أشبع موضوعه بحثاً، أو سردياً أو إحصائياً أو إجرائياً مما لا يتمثل فيه جهد الباحث الفكري.
٤. يرسل البحث محملاً على CD أو فلاش او بوساطة البريد الالكتروني للمجلة مع احتفاظ الباحث بنسخة الأصل عنده. ولاتستوفي المجلة أية مبالغ نقدية عن نشر الابحاث المطلوبة للتحكيم والترقية.
٥. تقوم المجلة باشعار الباحث بوصول البحث، ثم تشعره بقبول النشر في حال موافقة هيئة التحرير على ذلك وعندها يكون البحث ملكاً للمجلة لايحوز تقديمه للنشر في مجلة أخرى.
٦. ترتيب الابحاث في المجلة يخضع لسياق فني صرف ولا علاقة لأهميته أو لمكانة الباحث بذلك.
٧. يهمل كل بحث لا يحمل المعلومات المطلوبة عن الباحث (اسمه -درجته العلمية -مكان عمله -عنوانه الكامل ورقم هاتفه أو عنوان بريده الالكتروني).
٨. يستحسن للباحث الإشهار بنشاطه العلمي والثقافي في سطور قليلة.
٩. تحتفظ هيئة التحرير بحق حذف أو تعديل ما لا يتماشى وسياسة المجلة في نشر علوم القرآن الكريم حصرياً أو ماخرج منها عن منهج البحث العلمي أوالموضوعي أو مامس جوهر العقائد الاسلامية ورموزها الفكرية والدينية.

كلمة الافتتاح

بقلم رئيس التحرير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى اله ومن والاه. وبعد: فها هي العتبة الحسينية المقدسة، قد شاء الله - سبحانه - لها بتوفيقه اياها باصدارها مجلة المصباح، أن تبدأ السنة السادسة من عمرها الحافل بالعطاء بجهود من قد أسهموا في تحريرها وإخراجها الى دنيا الوجود، من كُتَّاب وباحثين وعاملين، يعرضها الاهتمام الجاد من لدن الامين العام للعتبة المطهرة سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي - دام عزه - أيامنا منه وفهما بأن ميدان القرآن الكريم، بما ضم من علوم ومعارف إلهية، ميدان يستحق الاهتمام والخوض وجلاء مكنوناته، وسبر أغواره، واقتحام لجبهه، واكتناه مراميه السامية التي تحقق خير الدارين، بما أوتي هذا الكتاب الكريم من إعجاز، وبما حاز من مقام مسدّد من لدن حكيم خبير، فشكراً لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

لقد اتخذت المجلة، طوال مسيرتها الدائبه، منهجاً لم تحد عنه، تمثل في إبراز وتجلية مواطن العظمة في نظم كتاب الله وإعجاز استعماله المفردة العربية والجملة البيانية حين يعرض لامور ليست جديدة على أهل الأديان السابقة من يهود أو نصارى أو مجوس أو صابئة أو أحناف، أمور عداها

كلمة الإفتاح المصباح

اولئك سطوا على التوراة والانجيل واقتباسا منهما وتأثراً بهما، وهم بهذا تجاهلوا أن هذه الامور هي مما سنه الله - تعالى - لعباده عبر اديان تكلف بها انبياء مرسلون من عند الله، ولم يكن القرآن الكريم بدعاً من فرض تلك السنن أو التحدث عنها أو فرضها على بني البشر الذين لا يختلف عند الله أولهم عن آخرهم في شيء:

﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴾ [سورة الاحزاب: ٦٢]

﴿ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ** ﴾ [١٣٧] هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ [سورة آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨]

﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [سورة النساء: ٢٦]

﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴾ [سورة الفتح: ٢٣]

وبذلك تنهات دعوى المناوئين مجيء القرآن بجديد على صعيد العبادات والانباء والاخلاق، بل على كل الاصعدة العقدية والاجتماعية والتاريخية . كل ما في الامر، أن القرآن قد صحح سنن الله في الخلق وأعاد اليها روعتها ورونقها وسموها، فنحن نسمع من مرضى القلوب والنفوس ان الحج شعيرة جاهلية أقرها الاسلام تعصبا منه للعرب، قوم محمد أو انه لايعدو أن يكون تراثا فولكلوريا للعرب، ونسي هذا الأعمى أن القرآن الكريم قد أخبر بأن ابراهيم الخليل ﷺ كان أول من أمر بالحج على هيأته الراهنه اليوم وحين تقادم الزمن على هذه العبادة ودخلت الوثنية ارض العرب، لعبوا بمناسكه وزادوا فيها وأسقطوا منها بما يتلاءم و توجههم الشركي ف جاء الاسلام ليعيد حج ابراهيم ﷺ الى نصابه، كان هذا مثلاً واحداً مما طعن به على القرآن الكريم من اولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم , والقرآن الكريم مشحون بالدليل على هذه المسألة.

لم تشهد رحلة (المصباح) أي عائق يحول دون اختيار الموضوعات المناسبة للنشر فيها، ذلك أن القائمين عليها لاتفوتهم شاردة ولا واردة في رسم سياستها وأختيار

المناسب لها من الابحاث الرصينة التي لا تتخطى الموضوعية والمنهجية البحثية، ولا تُؤثّر جانبا من العلوم على آخر، كما انها لم توظف صحائفها لتروج الدعاية الى فئة دون فئة ولا الى ترجيح رأي على رأي (على فرض صحة الرأيين) كما أنها لم تهمل بحثاً من دون النظر فيه وتقييمه وإبلاغ الباحث برأي هيئة التحرير فيه، وقد طمأننا السادة العلماء والباحثين بذلك مراراً وتكراراً وها نحن أولاء نؤكد هذا العهد إذا صبر علينا الباحث وأعطانا النَّصْفَ من نفسه، عذيرنا في ذلك كثرة البحوث وتكدسها واستعجال كتابها وكون المجلة فصلية محكمة يجب تقديم ابحاث الترقية فيها على ابحاث المشاركة وآخر ما نرجوه من الاخوة الباحثين تدقيق بحوثهم، لغوياً واسلوبياً وطباعياً، قبل ارسالها الينا للتخفف من معاناتنا في تقويم وتصحيح بعض البحوث كما نرجو أن لا ينسى الباحث رسم عنوانه البريدي الالكتروني ووسيلة مخاطبته المباشرة (رقم هاتفه) ليتسنى لنا تعريفه بما يجب أن يعرف عن بحثه علماً بأن المجلة دأبت على أدراج كل بحث في مختبر التقويم والتصويب والتعديل بما لا يتعارض مع الفكرة الواردة فيه وبما لا يمس جوهره (ان كانت هناك حاجة لذلك) فقد يكون البحث مبرءاً من كل عيب سواء الاسلوبي منه أو الطباعي، او الخلو من الغلط اللغوي والنحوي أو الانحراف المنهجي وهي أمور لانجدها عند ذوي الكفاية من الكُتّاب والباحثين، الحوزويين منهم والاكاديميين، وهم كثر والحمد لله، ويبقى موعد النشر الذي لا يعدو أن يكون مسألة وقت لا غير، فالمجلة فصلية لاتتحمل اكثر مما هي عليه من الصفحات.

﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العادلين

الحمد لله الرحيم، مالك يوم الدين

إياك نعبد وإياك نستعين اهتدنا

الضراط المستقيم صراط الذين

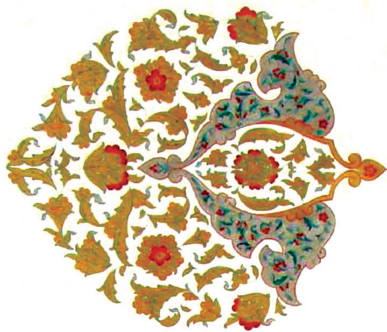
أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم

ولا الضالين

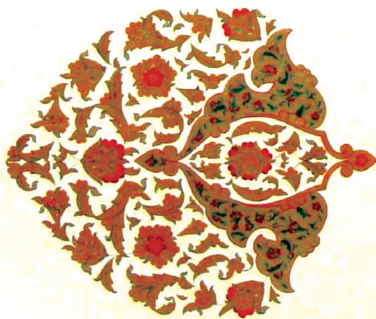
بحوث العدد



البحوث وما تتضمنها من آراء وافكار تعبر عن رأي كاتبها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كَتَبَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَأَرْوَحُ فِيهَا إِذَا دُرِّيَتْهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٧٨

سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام

بروايات القرآن الكريم

أ.د. احمد مطلوب

رئيس المجمع العلمي العراقي

فحوى البحث

يحاول السيد الباحث حصر شؤون نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام بكل ما اكتنف عمره الشريف من أحداث ليست بالسهلة أو ضمن حدود قدرة البشر على تحمل أمثالها، وخلص إلى أن القرآن الكريم هو أصدق المصادر التي يمكن اعتمادها في تسجيل سيرة خليل الرحمن، إذا اخذنا بنظر الاعتبار مبالغات اليهود والنصارى في توثيق معظم تلك الاحداث. والذي للقصاص دور كبير في فبركة الاحداث فيه. كما تطرق السيد الباحث بما أوتي من قدرة على الإقناع بالدليل، الى مسألة من هو الذبيح من اولاده وأثبت أنه إسحاق. كما اثبت خطأ من ذهب الى دعوى كون اسمه عليه السلام أعجميا، وأن كل الاشارات التي تعين مكان ولادته، لادليل عليها. وقد ختم البحث باستنتاجات مهمة.

سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **المصباح** •

(١)

الطينية البابلية والاشورية اسمُ خليل الله بصيغة (اباراما) او (ابرامو) واكد ذلك الدكتور (سامي سعيد الاحمد). وقال الدكتور (خالد اسماعيل علي) ان اسم (ابراهيم) -لعله مركب من (اب + رهم) بمعنى: اب رحيم، او (اب ره) اُلْحِقَ به الميم من الأصل (ي ره) وقد تكون له صلة اشتقاق بالاسم الحبشي (ابرهة)^(٢).

وقال (حبيب تومي): ابراهيم او ابرام، ومعنى (ابرام) الاب الرفيع، او الاب المكرم، ومعنى ابراهيم او ابورهام او ابوراها، ومحكياً تلفظ (ابوراها) وتعني أبا الجمهور^(٣) وقال الدكتور (انمار عبد الجبار جاسم): ((ابراهيم اسم مذكر عبري الاصل، مركب من كلمتين (أب + راهام) المقطع الاول بمعنى (أب)، اما المقطع الثاني فهو بمعنى (ملاً)، (كثرة) والمعنى العام للاسم (ابو الملاً) وله صيغة ثانية يأتي بها (ابرام) بمعنى رفيع. ورد في التوراة

العراق مهد الرسل والأنبياء، وموطن الصالحين والأولياء، كان منذ آلاف السنين مهد الحضارة التي استظلت بها الشعوب، يوم كانت لا تخط بالقلم، وفي منطقة الفرات الأوسط حيث يخيم عليها حكم (بابل) التي ذكرها القرآن الكريم فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ﴾ [سورة البقرة:

١٠٢] اطل مولود أراد الله ان يكون هادياً للعالمين ومبشراً ونذيراً، هو (ابراهيم) الذي سماه الكتاب المقدس (العهد العتيق): إبرام، "ولما تجلى له الرب قال له لا يكون اسمك (ابرام) بعد، بل يكون اسمك (ابراهيم) لاني جعلتك ابا جمهورٍ أمم"^(١).

حار الباحثون باسمه وقالوا ماوسعهم القول، وما اظهرته معرفتهم، وخص الدكتور (ستار الفتلاوي) بعض ما قالوه، اذ وُجِدَ في بعض الالواح

(٢) مجلة المصباح - العدد الثاني عشر ص ١٥٤، وينظر مفصل العرب واليهود في التاريخ ص ٥٠٢.

(٣) معجم الالفاظ المحكية المشتركة ص ٤٣٩.

(١) الكتاب المقدس (العهد العتيق) - سفر التكوين - الفصل السابع عشر ص ٣٠.



(١٧٥) مرة بصيغة (ابراهيم و(٦١) مرة بصيغة (ابرام)^(٤)، وقال: ان اسم (ابراهيم) ورد في العهد الجديد (٧٤) مرة وبصيغة واحدة هي (ابراهيم)^(٥).
وتكلم الدكتور (ثامر كاظم الخفاجي) على اسم (ابراهيم) وذكر الاراء المختلفة فيه، وقال: انه غير عربي^(٦).

يبدو ان الباحثين المعاصرين اعتمدوا بعض الحفريات والكتاب المقدس باللغات الاجنبية، مثل ما جاء في (الانجيل) الانكليزي الجديد -العهد القديم^(٧) وترجماته العربية التي وردت فيها الاسماء المختلفة ل(ابراهيم عليه السلام)، فلم يرجعوا الى (القرآن الكريم) الذي نزل بلسان عربي مبين. ان اسم (ابراهيم عليه السلام) في التوراة بالعبرانية القديمة هو (تارح بن ناحور) قال (ابو الفرج الاصبهاني):

- (٤) مجلة المصباح (العدد الثاني عشر) ص ١٥٤.
(٥) مجلة المصباح (العدد الثاني عشر) ص ١٥٤.
(٦) مجلة المصباح (العدد الثاني عشر) ص ٢١٥.
(٧) جاءت فيه الاسماء: نوه (نوح)، ابراهام، ابرام، هران (حران)، ساري (سارة)، جاكوب (يعقوب)، ايمو (عيسو)، لوت (لوط)، ناهور (ناحور)، جوزيف (يوسف)، ارون (هارون).

((ان ابراهيم بن ازر هو اسمه بالعربية كما ذكره الله -تعالى- في كتابه وهو التوراة بالعبرانية: تارح بن ناحور))^(٨)، او (ناحور بن تارح) قال (ابن حزم الاندلسي) في (رسالة الرد على ابن النغيلة اليهودي): ((ان من عجائب اليهود ان (سارة) ام (اسحاق) كانت اخت ابراهيم ابنة والده تارح))^(٩).

ومعنى هذا ان (تارح) هو ابو (ابراهيم) وليس (ابراهيم) وهو ما جاء في الكتاب المقدس (العهد العتيق) ((عاش (تارح) سبعين سنة، وولد ابرام وناحور وهارون))^(١٠).

وفيه ان ((تارح ابو ابراهيم وابو ناحور))^(١١).

قال (ابن قتيبة): ((هو ابراهيم بن تارح بن ناحور))^(١٢).

- (٨) الاغانى: ج ١ ص ١٣.
(٩) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ٣ ص ٥٨، وينظر (تعقيب) في مجلة المصباح العدد (١٤) ص ٣٨١.
(١٠) الكتاب المقدس (العهد العتيق) ص ٢٣.
(١١) الكتاب المقدس (العهد القديم) ص ٤٠١.
(١٢) المعارف ص ٣٠.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **النَّبِيِّ**

**لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًّى أَوْ لَتُنَجِّيَنَّكَ يُتَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾**
[سورة فصلت: ٤٤].

جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد انه نزل بلسان عربي مبين، وان الله لم يرسل الانبياء الا بلسان قومهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة ابراهيم: ٤]، هذا ما قاله الله تعالى للنبي محمد ﷺ والنبي عربي لا ريب فيه، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [سورة مريم: ٩٧].

وذكر كثير من القدماء ان (القرآن) يخلو من الاعجمي، ومن اولئك (الامام الشافعي) و(ابو عبيدة) وغيرهما (١٦)، و(الطبري) الذي قال: ((ان الله - جل ثناؤه - انزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيره من ألسن سائر اجناس الامم، وعلى فساد قول من زعم ان منه ما ليس بلسان العرب ولغتها)) (١٧)، وذكر

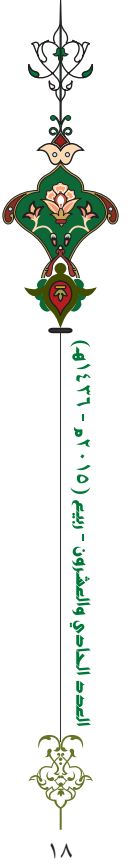
وقال ابن هشام: ((ابراهيم خليل الرحمن بن تارح، وهو آزر بن ناحور)) (١٣). وقال (النويري): وهو الجد الحادي والثلاثون لسيدنا رسول الله ﷺ (١٤).

ويرجع نسب (ابراهيم) الى (نوح) عليه السلام، قال تعالى وهو يذكر (نوحا): ﴿وَإِذْ مِنْ شِعْبِئِهِ إِذْ يُرَاهِمَهُ﴾ [سورة الصافات: ٨٣] فهو ابراهيم بن تارح بن ناحور بن اسرغ بن ارغوا بن فالغ بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح (١٥).

يبدو ان الحيرة في اسم (ابراهيم) قديمة، والاصل عند الكلام عليه الرجوع الى (القرآن الكريم) الذي نزل بلسان عربي مبين ف ﴿لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣] ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ

(١٦) حركة التعريب في العراق ص ٣٧.
(١٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن - المجلد الاول ص ٢٣.

(١٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٣٤، وينظر ص ٣٦.
(١٤) نهاية الارب في فنون الادب ج ٢ ص ٣٢٢.
(١٥) المعارف ص ٣٠.



(الجاحظ) ان الله تعالى سمي الانبياء، اذ ((ربما كانت الاسماء باسماء الله عز وجل مثل ما سمي الله -عزوجل- ابا ابراهيم آزر))^(١٨)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الانعام: ٧٤].

على الرغم من ذلك ظل بعضهم يذكر ان اسم (ابراهيم) اعجمي، ولم يذكروا اللغة التي عرب منها سوى العبرانية وقد مر آنفاً، ان الاسم بها (تارح بن ناحور) او (ناحور بن تارح)، قال الاب (أنستاس ماري الكرمليني): ((ابراهيم الخليل معناه: ابو الجماعات وهي عبرانية مأخوذة من (أب) و (رهيم) جمع (رهو) كالعربية، ومعناها الجماعة الكثيرة))^(١٩).

وجاء في (المعجم الكبير) الذي اصدره (مجمع اللغة العربية في القاهرة): ((ابراهيم في (التوراة) ابرام ومعناه: الاب عال، وفيه لغة بهاء بين الراء والميم

(١٨) الحيوان ج١ ص٣٢٧.

(١٩) المساعد ج١ ص١٠٩.

(ابراهيم)، وهو -حسب التوراة- ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفخشد بن سام، ويوصف بخليل الله إشعياً.

نبي الله ابراهيم الخليل، جد العرب و (اليهود)؟. ابو اسماعيل واسحاق، وفي القرآن الكريم سورة باسمه، ورد ذكره في عدة سور اخرى، وفيه لغات اشهرها، ابراهيم، و ابراهام، وقرئ بها في السبع، و ابراهم و ابراهم، وقرئ بها في الشواذ.

ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل انه كان يقول في آخر تلييته، وقيل: بل لعبد المطلب:

عُدْتُ بِمَا عَادَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ

مُسْتَقْبَلِ الْقِبْلَةِ وَهُوَ قَائِمٌ

أنفي - لك اللهم - كان راغم

مهها تُجَسِّمُنِي فاني جاشم

وتصغيره (بُرَيْه) بطرح الهمزة

والميم، وكأنه جُعل عربياً، وتصرف

فيه بالتصغير، لان الاسماء الاعجمية

لا يدخلها شيء من التصريف، وقيل:



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **التصنيف** •

عبد المطلب قال:
عُدْتُ بِمَا عَادَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ
مُسْتَقْبَلِ الْقِبْلَةِ وَهُوَ قَائِمٌ
ويروى لعبد المطلب ايضا:

نَحْنُ آلُ اللَّهِ فِي كَعْبَتِهِ
لَمْ يَزَلْ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ
واسماعيل فيه لغتان: (اسماعيل) و
(اسماعيلين) بالنون، قال الراجز:
قال جوارى الحىِّ لما جينا
هذا وَرَبِّ الْبَيْتِ إِسْمَاعِينَا
واسحاق اعجمي وإن وافق لفظ
العربي، يقال: اسحقه الله يسحقه
اسحاقا.

واما اسرائيل ففيه لغات، قالوا
(إسرائيل) كما قالوا: (ميكال) وقالوا:
(اسرائيل) وقالوا ايضا (اسرائين)
بالنون، قال امية على (اسرال):
لا ارى مَنْ يُعِينُنِي فِي حَيَاتِي
غيرَ نَفْسِي الا بنِي (إسرائيل)
وقال اعرابي صاد ضبًّا فجاء به الى
اهله، وقال: انشد الحربي:

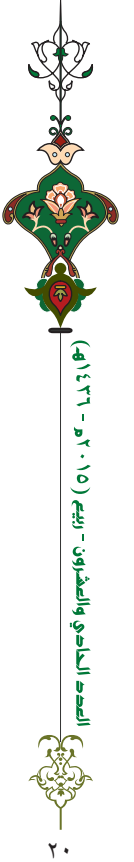
يقول اهلُ السوقِ لما جينا
هذا وَرَبِّ الْبَيْتِ إِسْرَائِينَا

إن تصغيره (أبْرَه) بحذف اخره مثل
(سفيرج) وقيل: (بُرَيْم) وقد تحذف
ألفه في الرسم تخفيفا كما في: (اسماعيل)
و (اسحق)، و (اسرائيل) من الاسماء
الاعجمية ((٢٠)).

لم يكن هذا من ذنب المعاصرين
وانما من ذنب القدماء الذين قالوا
بعجمة اسم (ابراهيم) القرآني، فقد قال
الجواليقي: ((اسماء الانبياء - صلوات الله
عليهم - كلها اعجمية، نحو (ابراهيم)
و (اسماعيل) و (اسحاق) و (الياس)
و (ادريس) و (اسرائيل) و (ايوب) الا
اربعة اسماء وهي: (آدم) و (صالح) و
(شعيب) و (محمد)) (٢١).

فاما (ابراهيم) ففيه لغات، قرأت
على ابي زكريا عن ابي العلاء قال: ابراهيم
اسم قديم ليس بعربي وقد تكلمت به
العرب على وجوه فقالوا: ابراهيم وهو
المشهور، و ابراهام وقد قرئ به، و ابراهم
على حذف الياء، و ابرهم، ويروى ان

(٢٠) المعجم الكبير ج ١ ص ٣٤.
(٢١) لولا الخشية من الناس لقال الجواليقي
ان اسم (محمد) و (احمد) اعجميان ايضا.



وقال: اراد (اسرائيل) اي: مما مسخ من بني اسرائيل، قال: وكذلك نجد العرب اذا وقع اليهم مالم يكن من كلامهم تكلموا فيه بالفاظ مختلفة كما قالوا: (بغداد) و (بغداد) و (بغدان).

قال ابو علي: وقياس همزة (أيوب) ان تكون اصلا غير زائدة لانه لا يخلو ان يكون (فَيْعُولًا) او (فَعُولًا) فان جعلته (فَيْعُولًا) (٢٢) كان قياسه - لو كان عربيًا - ان يكون من (الايوب) مثل (قيوم) ويمكن ان يكون (فَعُولًا) على (سَفُود) و (كَلُوب) وان لم يعلم في الامثلة هذا، لانه لا ينكر ان يجيء العجمي على مثال لا يكون في العربي، ولا يكون من الاوب وقد قلبت الواو فيه الى الياء، لان من يقول: (صِيَم) و (صَوِّم) لا يقلب اذا تباعدت من الطرف، فلا يقول: (صَوِّام) وكذلك هذه العين اذا تباعدت من الطرف وَحَجَرَ الواوُ بينه وبين الاخر، لم يجز فيه القلب. وآزر:

(٢٢) هذا من تحمل النحاة، والاستحواذ على العقول.

اسم اعجمي)) (٢٣).

تمسك النحاة بعجمة اسم (ابراهيم) وقالوا: انه منع من الصرف للعجمة والعلمية، فال (سيبويه) في (باب الاسماء الاعجمية) وهو يتحدث عن الصرف ومنعه: ((و اما (ابراهيم) و (اسماعيل) و (اسحاق) و (يعقوب) و (هرمز) و (فيروز) و (قارون) و (فرعون) (٢٤) واشباه هذه الاسماء فانها لم تقع في كلامهم الا معرفة على حد ما كانت في كلام العجم ولم تكن في كلامهم كما تمكن الاول ولكنها وقعت معرفة لم تكن من اسمائهم العربية فاستنكروها ولم يجعلوها بمنزلة اسمائهم العربية. اما (صالح) فعربي وكذلك (شعيب) واما (نوح) و (هود) و (لوط) فتصرف على كل حال لخفتها)) (٢٥).

وقال السري الزجاج: ان اسم (ابراهيم) اعجمي منع من الصرف

(٢٣) المغرب ص ١٣ وما بعدها.

(٢٤) ما علاقة هرمز وفيروز باسماء الانبياء القرآنية.

(٢٥) كتاب سيبويه ج ٣ ص ٢٣٥.



للعلمية والعجمة^(٢٦). وعلى الرغم مما ذهب اليه الامام الشافعي وابو عبيدة، وابن فارس والباقلاني من خلو كتاب الله من الاعجمي، وعلى الرغم مما جاء به الدكتور الجنابي من ادلة بيّنة، فان عروبة اسم (ابراهيم) واسماء الانبياء المذكورة في (القرآن الكريم) لا تحتاج الى ادلة اكثر مما قاله الله - سبحانه - في كتابه العزيز الذي نزل بلسان عربي مبين، وسمى احدى سوره (سورة ابراهيم).

(٢)

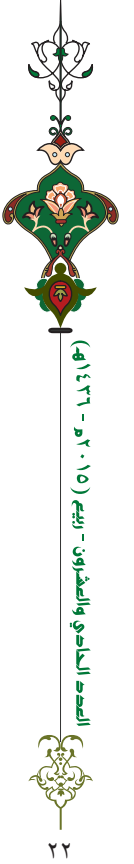
هذا ما كان من امر اسم (ابراهيم) عليه السلام اما مكان ولادته فقد اختلفوا فيه، قال (ابن جبير) وهو يتحدث عن (دمشق): ((مولد ابراهيم) - صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم - وهو بصفح جبل (قاسيون) عند قرية تعرف ببرزة وهي من اجمل القرى، وهذا الجبل مشهور بالبركة من القديم لانه مصعد الانبياء - صلوات الله عليهم - ومطلعهم، وهو في الجهة الشمالية من البلاد وعلى مقدار فرسخ، وهذا المولد المبارك غارٌ مستطيلٌ ضيقٌ وقد بني

في ذلك المفسرون فقال (السمرقندي) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤]: ((قرأ ابن عامر (ابراهيم) وروي عنه انه قرأ (ابرهيم) وهي لغة بعض العرب، وقرأ غيره (ابراهيم) في جميع القرآن وهي اللغة المعروفة. وهو اسم اعجمي ولهذا لا ينصرف))^(٢٧).

وكان (الفيروزآبادي) قد ذكر ان بعض المتكلمين قالوا: بان اسم (ابراهيم) قريب من (البراء) و(البرء) و(البراءة)^(٢٨).

وذهب الدكتور (احمد نصيف الجنابي) الى ان لفظ (ابراهيم) مشتق من مادة عربية هي (برء) ومنها قالوا: (ابره الرجل) اذا انجلب الناس واتى بالعجائب^(٢٩).

(٢٦) ما ينصرف وما لا ينصرف ص ٤٥.
(٢٧) تفسير القرآن الكريم (بحر العلوم) ج ١ ص ٤٧١.
(٢٨) بصائر ذوي التمييز ج ٦ ص ٣٢.
(٢٩) تأصيل عروبة لفظه ابراهيم - مجلة الضاد ج ٢ ص ١٧٨ وما بعدها.



(ابراهيم) عليه السلام بها، وهي قرية بمقربة من بلد ذي الكفل وبها قبره)) (٣٢).

وذكر الدكتور (احمد سوسه) ان اكثر الباحثين في تعيين مكان ولادة (ابراهيم) متفق على انه كان من (كوثي) قرب (بابل) (٣٣).

وكان (ابن وحشية) قد ذكر ان ((ابراهيم من (كوثي ربا)) (٣٤) وذكر شجرة باسمه وتحدث عن قصتها (٣٥).

عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة، وعليه صومعة عالية، ومن ذلك الغار رأى عليه الكوكب ثم القمر ثم الشمس حسبما ذكره الله - تعالى - في كتابه - عز وجل - وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج (اليه)) (٣٠).

وقال: ((وفي الجهة الشرقية من البلد عن يمين الطريق الى مولد ابراهيم عليه السلام قرية تعرف ببيت لاهية، يريدون (الالهة) وكانت فيها كنيسة هي الان مسجد مبارك وكان (آزر) ابو (ابراهيم) ينحت فيها الالهة ويصورها فيجئ (الخليل ابراهيم) - صلوات الله عليه وعلى نبينا فيكسرها، وهي اليوم مسجد)) (٣١).

وذكر (ابن بطوطة) ما ذكره (ابن جبير) ولكنه استدرك وقال: ((وقد رأيت ببلاد (العراق) قرية تعرف بـبرص - بضم الباء الموحدة واخرها صاد مهممل - مابين (الحلة) و (بغداد) يقال: ان مولد

(٣٠) رحلة ابن جبير ص ٢٦٢، يريد ما جاء في القرآن الكريم سورة الانعام ٧٥ وما بعدها.

(٣١) رحلة ابن جبير ص ٢٦٥.

(٣٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٣٢٧، وقال الدكتور عبد المهادي التازي وكان سفير المغرب في العراق مرتين ان كلمة (برص) لم يعد لها صدى في العراق حسب علمي حيث كنت اسأل عنها زملائي باستمرار، وربما كان لها صلة من الموقع القديم الواقع الى الشمال (حاشية) (٢٧٤ من الرحلة ص ٣٢٧). وقال الدكتور ثامر كاظم الجنابي ان (ابراهيم) ولد في بابل وفي هذا المكان المقدس وبقربه تل النمرود الذي نسميه اليوم في الحلة بتل برس. (مجلة المصباح ع ١٢ ص ٢٢٤).

(٣٣) مفصل العرب و اليهود في التاريخ ص ٥٠٧، و ص ٧٩٦.

(٣٤) الفلاحة النبطية ج ١ ص ٢٦٤.

(٣٥) الفلاحة النبطية ج ١ ص ١٨٦، ج ٢ ص ١٢٦١.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم المصباح

ولد في وسط (العراق) ومنه رحل الى ارض الله الواسعة هو واسرته، قال (ابن قتيبة): ((فساق تارح ابنه ابراهيم ولوطا ابن ابنه، وخرج معهم الى ارض (حران) فحلوا بها، ثم مات (تارح) في ارض حران)) (٣٩).

(٣)

ينتمي (ابراهيم) عليه السلام بحسب رواية (التوراة) ((الى القبائل الارامية وهي قبائل عربية نزحت من موطنها الاصيلي في (جزيرة العرب) واستقرت على ضفاف الفرات في شمال (سوريا) ثم نزلت بعض اسرها الى (العراق)، ومن جملتهم اسرة (ابراهيم الخليل)) (٤٠). فالخليل ابراهيم على هذا الاساس عراقي بالولادة، عربي في قوميته التي ترجع الى موطنه الاصيلي الجزيرة العربية. عاش (ابراهيم) عليه السلام في (العراق) حيث الحضارة زاهرة، والحياة باهرة غير ان الناس كانوا يعيدون عن عبادة الله،

قال (ياقوت الحموي): ((كوثي - بالضم ثم السكون والثاء مثلثة والف مقصورة - تكتب بالياء لانها رابعة الاسم، كوثر في سواد العراق، وسمي بكوثر بني ارفخشذ بن سام بن نوح وهو الذي كراه فنسب اليه، وهو جد (ابراهيم) عليه السلام وكوثر بالعراق كوثران: احدهما كوثر الطريق، والآخر كوثر ربي، وبها مشهد (ابراهيم الخليل) عليه السلام وبها مولده، وهما من ارض بابل، وبها طرح ابراهيم في النار، وهما ناحيتان)) (٣٦).

وذكر الاستاذ (طه باقر) ان (كوثر) تسمى ((تل ابراهيم او جبل ابراهيم)) (٣٧).

وذكر الدكتور انمار عبد الجبار جاسم ان ابراهيم عاش الجزء الاول من حياته مع ابيه واخوته في (اور الكلدانية) (٣٨)، ومهما يكن من امر فان النبي ابراهيم عليه السلام لم يولد في الشام وانما

(٣٦) معجم البلدان ج٤ ص٤٨٧.

(٣٧) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص١٠، وغيرها.

(٣٨) مجلة المصباح العدد (١٢) ص١٥٢.

(٣٩) المعارف ص٣١، وفي غيره (تارح).

(٤٠) مفصل العرب واليهود في التاريخ

ص٥٠٨.



وكانوا يسجدون للاصنام التي قيل: ان اياه تارح (آزر) كان ينحت الالهة ويصورها، فيجئ الخليل فيكسرها^(٤١). قال (النويري): ((انصرف تارح حتى دخل بيت الاصنام فاذا هي قد سقطت، فامر خدامها باعادتها، وعجب من ذلك))، وقال: ((وعبر تارح يوما الى الاصنام فاضطربت اضطرابا شديداً فسجد لها))^(٤٢).

كان هذا - في التصور - قبل مولد (ابراهيم) عليه السلام وحين ولد وادرك الحياة علم ان لا قيمة للاصنام، لانها حجر لا ينطق، وان الابتعاد عن عبادة الله - سبحانه وتعالى - كفر، وشاء الله ان يكون نبيا يهدي الناس الى عبادة الله خالق الكون، ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [سورة النساء: ١٦٣].

اخذ يث اياه وقومه على ترك عبادة الاصنام، والتوجه الى الله - سبحانه

(٤١) رحلة ابن جبير ص ٢٦٥.

(٤٢) نهاية الاربع ج ١٣ ص ٩٩.

وتعالى - وقد جعل سبحانه النبوة في ذريته ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ [سورة الحديد: ٢٦] وقرن الله (ابراهيم) بالنبى (نوح) لانه كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ﴾ [سورة الصافات: ٨٣].

واتاه الرشد ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴾ [سورة الانبياء: ٥١] واوحى اليه ليكون مبشراً ومنذراً، كما اوحى الى غيره من الانبياء والرسل [النساء: ١٦٣-١٦٤] وانزل عليه صحفا [سورة النجم: ٣٦-٣٧]، [سورة الاعلى: ١٩] وجعله اماما للناس ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

شعر ابراهيم بالمسؤولية وتحملها على الرغم مما كان يعاني من عنت ابيه وقومه، وكان كلما دعاهم الى الهدى تعنتوا وكذبوه، وهو ما عاناه النبي



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **النَّبِيُّ**

بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ
مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ
الْأَقْلَامُونَ ﴿﴾ [سورة الشعراء: ٦٩-٧٦].

وظل ابراهيم عليه السلام يبحث اباه وقومه
على ترك عبادة الاصنام ولكن من غير
جدوى، (كما ورد في سورة الصافات
الايات ٨٥-٩٩).

واستمر عليه السلام في النصيح والارشاد
فما استجابوا ﴿﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ
الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ
وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿﴾ [سورة
العنكبوت: ١٦-١٧].

﴿﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ
قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ
إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ
بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم
بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن

محمد ﷺ وقد قال الله له: ﴿﴾ وَإِنْ
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿﴾
[سورة الحج: ٤٢-٤٣].

كان صاحب الملك في (بابل) وما
حولها قد حاجه، قال تعالى: ﴿﴾ أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
فإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا
مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

كانت حجة ابراهيم دامغة حين
جاءته من الله - سبحانه وتعالى - وهو ما
حكته سورة الانعام الاية ٧٤-٨٣.
نهى اباه وقومه عن عبادة الاصنام،
ووجههم الى عبادة الله، (كما ورد في
سورة الانبياء، الايات ٥١-٧١).

وقال الله لنيبيه محمد ﷺ ﴿﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿﴾ ثم ماذا؟ ﴿﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَنْظِلُ لَهَا عَذَابَيْنِ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكُم أَوْ يَبْضُرُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا



تَنْصِرِينَ ﴿٢٥﴾ * فَامَنَّ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿سورة العنكبوت: ٢٥-٢٦﴾.

لم يستجب ابوه وقومه لدعوته اذ كذبوه، واراد ان يستغفر لابييه [سورة الممتحنة: ٤] ولكنه لا يملك من الله شيئا لان الله هو الغفار. وظل خائفا على ابيه و ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ فكان جواب ابيه:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ فقال له ابراهيم: ﴿ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعِزَّنَاكَ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤٢-٤٨].

من احترام نبوته استغفر له وحين عصى امر الله تبرأ منه ﴿ وَمَا كَانِ

أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿سورة التوبة: ١١٤﴾.

كانت براءته من ابيه وقومه لانهم لم يستجيبوا لدعوته، وظلوا في غيهم يعمهون، وازداد ايمانه بالله وثقته بقدرته على تحمل المسؤولية، وكان سؤاله عن احياء الموتى قد ثبتت ايمانه وان كان يعلم ان الله وحده يخلق ويحي الموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُ ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿سورة البقرة: ٢٦٠﴾.

(٤)

يئس ابراهيم عليه السلام من هداية قومه فشد الرحال متوجهاً الى (حاران) ((اذ ساق تارح ابنه ابراهيم ولوطا ابن ابنه، وخرج معهم الى ارض (حاران) فحلوا بها)) (٤٣) قال (ابن قتيبة): ((ولما (٤٣) المعارف ص ٣١.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **التَّحْتِئَةُ** •

﴿ وَتَحْتِئَةُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (وهي حراء) (٤٦).

ولعل هذا ما جعل (ابن جبير) يقول بعد ان ذكر حَرَ (حران) اذ اشتق - كما ذكر من اسمها - ثم استغفر الله وقال: ((كفى بهذا البلد شرفا وفضلا انها البلدة العتيقة المنسوبة لابينا (ابراهيم) ﷺ ولها بِقَبْلِيَّهَا نحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك فيه عين جارية كان مأوى له ولسارة-صلوات الله عليها -ومتعبدا لهما. ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدان مقرا للصالحين المتزهين، ومثابة للسائحين المتبتلين)) (٤٧).

غادر (حران) هو واسرته ولوط متوجها الى (فلسطين)، ولعله مر بدمشق واستقر فيها ردحا من الزمن بجبل (قاسيون) الذي قال فيه (ابن جبير) و (ابن بطوطة) انه ولد فيه، والقى رحله بعد ذلك في ارض (كنعان) في الاردن وفلسطين، واستقر في هذه الديار بعد ان خرج منها وورثها، وانزل الله عشرين

(٤٦) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٢٥.

(٤٧) رحلة ابن جبير ص ٢٣٢.

نجى الله - عز وجل - ابراهيم من النار خرج من ارض (بابل) وكان بكوثى الى الارض المقدسة، وخرج بسارة وابن اخيه (لوط) وكان آمن له في رهط معه من قومه واتبعوه حتى وردوا (حران) فاقاموا بها زمنا، ثم خرجوا الى الاردن فدفعوا الى مدينة فيها جبار من الجبابرة من (القبط؟) يقال له (صادوف) وهو الذي عرض له في (سارة) حتى منعها الله منه، ومتع (سارة) بهاجر (ام اسماعيل) وكانت قبضية)) (٤٤). وذكر ان اول من بنى حران اخوان لابراهيم يقال لهما: هاران وبه سميت (حران) وناهر وهو ابو (رفقا) امرأة اسحاق (٤٥).

وهذا ما ذكره (ياقوت الحموي) اذ قال: ((قيل: سميت بهاران اخي ابراهيم ﷺ لانه اول من بناها فعربت، فقيل (حران)... وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ انه اراد (حران) وقالوا في قوله تعالى:

(٤٤) المعارف ص ٣٢، وينظر الكتاب المقدس العهد العتيق ص ٢٤ والعهد الجديد ص ٢١٣.

(٤٥) المعارف ص ٣١.



(٥)

تزوج (ابراهيم) عليه السلام (سارة) بنت عمه (هاران) ولم تنجب وكانت في نفسه رغبة في الانجاب فتزوج (هاجر) وولدت منه (اسماعيل)، وكانت (سارة) قد زوجته بها قائلة ((ان الله قد حرمني الولد فادخل بامتي لعنا نتعزى منها بولد)) (٤٩) واراد الله ان يكون لسارة ولد فبشرها الله باسحاق:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ ﴾ وكانت ﴿ وَأَمْرًا تُدْ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَوَرَاءَ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ [سورة هود: ٦٩] وما بعدها، ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبْشُرُكَ بِعَلْمٍ عَلَيْ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبْشُرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفٰنِطِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٥١-٥٥].

ويذكر ابن قتيبة ان (ابراهيم) تزوج ((امراة من الكنعانيين يقال لها (قطورا)

(٤٩) المعارف ص ٣٢.

صحيفة عليه (٤٨) وهي الصحف التي ذكرها الله تعالى في (القرآن الكريم) قال: ﴿ أَمْ لَمْ يَبْتَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [سورة النجم: ٣٦-٣٧] و [سورة الاعلى: ١٨-١٩].

وفي هذا البلد ظل يدعو الى التوحيد ويستنكر عبادة الاصنام، وكان ابن اخيه (لوط) قد استقر في (سدوم) وكان اهلوها على صراط لا يرضاه الله، وقد حذرهم، ولكنهم لم يعبأوا بتحذيره. وقد اورد القرآن الكريم قصصهم في مواضع متعددة منها في سورة الاعراف الايات [٨٠-٨٤] وسورة العنكبوت [٢٨-٣٥] وسورة هود [٦٩-٨٣]، وتنظر سورة الحجر وما بعدها والذاريات ٢٤ وما بعدها.

قضى الله امره ودمر القوم الفاسقين، وسار (لوط) باسارته الا امراته، تاركا بلدة (سدوم) التي وصفت باللعنة والمنكر وسوء المصير.

(٤٨) المعارف ص ٣٢.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **التصنيف** •

ولادة البيت والحكام بمكة لا ينازعهم ولد اسماعيل في ذلك لخؤولتهم وقرابتهم، واعظاما للحرمة ان يكون بها بغى او قتال، فلما ضاقت (مكة) على ولد اسماعيل انتشروا في البلاد فلا يثأرون قوما الا اظهروهم الله عليهم بدينهم فوطؤوهم)) (٥٣).

قال (ابن هشام): ((كان عمر (اسماعيل) فيما يذكرون مئة سنة وثلاثين سنة، ثم مات رحمة الله وبركاته عليه - ودفن في الحِجْر (حجر الكعبة) مع امه (هاجر) - رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ)) (٥٤).

وقال (ابن قتيبة): ((وعاش (اسماعيل) مائة وسبعا وثلاثين سنة ودفن في (الحجر) وفيه دفنت امه (هاجر)) (٥٥).

في (القرآن الكريم) ان (اسماعيل) لم يكن يهوديا او نصرانيا [سورة البقرة: ١٤٠] وانزل الله عليه وعلى ابيه واخيه (اسحاق) وابنه (يعقوب) والاسباط

فولدت له اربعة نفر، وتزوج اخرى يقال لها (حجورا) فولدت له سبعة نفر، فكان جميع ولد ابراهيم ثلاثة عشر رجلا)) (٥٠).

لم يذكر ((القرآن الكريم)) من اولاده (اسماعيل) و (اسحاق) وقد وهبها الله له على الكبر ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ [سورة ابراهيم: ٣٩]، هذان هما ولداه اللذان ذكرهما الله تعالى، اما (اسماعيل) فهو ابن (هاجر) وهي من (ام العرب) قرية كانت أمام (الفرما) من (مصر) (٥١) وقالوا ان اسمه اعجمي كأبيه والانبياء الاخرين، وليس الامر كذلك، لان الاسم قرآني، ولان العرب ((كلها ولد اسماعيل وقحطان، وبعض اهل اليمن يقول: قحطان من ولد اسماعيل أبي العرب كلها)) (٥٢) و((نشر الله ولد (اسماعيل) بمكة واخوانهم من جرهم

(٥٣) السيرة النبوية ج ١ ص ١١٨.

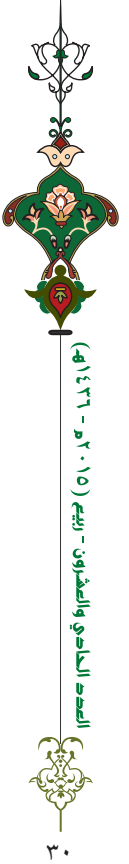
(٥٤) السيرة النبوية ج ١ ص ٦.

(٥٥) المعارف ص ٣٤، وتنظر رحلة ابن جبير ص ٦٣.

(٥٠) المعارف ص ٣٣.

(٥١) السيرة النبوية ج ١ ص ٧.

(٥٢) السيرة النبوية ج ١ ص ٨.



ما فيه هداية البشرية [سورة ال عمران: ١٦٣] ووصفه الله - سبحانه وتعالى - بصدق الوعد ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٤] وانه كان من الصابرين [سورة الانبياء: ٨٥] ومن الاخيرار [سورة ص: ٤٨].

اما (اسحاق) فقد بشر الله ابراهيم به، ووهبه اياه على الكبر [سورة ابراهيم: ٣٩]، [سورة الحجر: ٥١] وجعله نبيا [سورة مريم: ٥٩] وصالحا [سورة الانبياء: ٧٢]، [سورة الصافات: ١١٢]، [سورة الذاريات: ٢٤] وحين ولد (اسحاق) قال الكنعانيون: ((اما تعجبون لهذا الشيخ والعجوز وجدا غلاما لقيطا فتنبياه، فصور الله (اسحاق) على صورة (ابراهيم) فلم يكن يفصل بينهما فوسم الله (ابراهيم) بالمشيب)) (٥٦).

كان (اسحاق) هو الذبيح الذي بشره الله به ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلْقَمٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي

(٥٦) المعارف ص ٣٠.

الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِن الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُمِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

[سورة الصافات: ١٠١ - ١٠٧].

اختلف في الذبيح، اهو (اسماعيل) أم (اسحاق)، ذكر ابن قتيبة ان ((اسحاق هو الذبيح على ذلك اكثر اهل العلم ووجدته في التوراة الذبيح)) (٥٧). وقال قوم إنَّ الذبيح اسماعيل، ويبدو مما ذكره (ابن جبير) ان الذبيح هو (اسماعيل) قال: ((وبعد الحجرة الاولى يعرج عن الطريق يسيرا، ويلقى منحر الذبيح عليه حيث فدي بالذبيح العظيم)) (٥٨) وهذا استنادا الى ان الذي رحل مع ابيه الى مكة المكرمة) هو (اسماعيل) ولكن ما جاء في (القرآن الكريم) من بشرى ولادة

(٥٧) المعارف ص ٣٥، وينظر نهاية الارب

ج ١٣ ص ١٢٠.

(٥٨) رحلة ابن جبير ص ١٤١.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم التَّوْبَاتُ

الدين الجعبري) احد العلماء المرصيين والائمة المشهورين، سألته عن صحة قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لي: كل من لقيته من اهل العلم يصححون ان هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام - وقبور زوجاتهم، ولا يطعن في ذلك الا اهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه)) (٦٢).

لم يذكر (القرآن الكريم) من اولاد (اسحاق) عليه السلام الا (يعقوب) عليه السلام واسمه عربي لان (القرآن الكريم) خلا من الاعجمي اذ نزل بلسان عربي مبين، و (يعقوب) ذَكَرُ القبيح، ولكن (ابن منظور) قال: ((يعقوب اسم (اسرائيل) ابي (يوسف) عليه السلام لا ينصرف في المعرفة للعجمة والتعريف لانه غَيْرٌ عن جهته، فوقع في كلام العرب غير المعروف. وسمي (يعقوب) بهذا لانه ولد مع (عيسو) في بطن واحد، ولد (عيسو) قبله و (يعقوب) متعلق بعقبه، خرجا معا)) (٦٣)، فكيف يكون الاسم اعجميا

(اسحاق) وما تبعه من الرؤيا تدل على ان (اسحاق) عليه السلام هو الذبيح. واستقر عند كثير من الناس ان (اسحاق) هو الذبيح، قال (حافظ ابراهيم):

وكم أزرّت بنا الأيام حتى

فَدَتْ بِالكَبْشِ إِسْحَاقَ الذَّبِيحَا (٥٩)

تزوج (اسحاق) رفقا بنت ناحور بن تارح، وهي ابنة عمه، فولدت له (عيسو) و (يعقوب) توأمين في بطن واحد... وعاش (اسحاق) مئة وثمانين سنة فلما مات قَبَرَهُ ابنه في المزرعة التي اشتراها ابراهيم، عند قبر (ابراهيم) عليه السلام (٦٠).

ذكر (ابن بطوطة) ان في مسجد الخليل: ((قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب - صلوات الله على نبينا وعليهم - ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور ازواجهم)) (٦١)، وقال عن مدينة الخليل: ((ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب (برهان

(٥٩) ديوان حافظ ابراهيم ج ٢ ص ٣٨.

(٦٠) المعارف ص ٣٨.

(٦١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٣٩.

(٦٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٤٢.

(٦٣) لسان العرب (عقب).



وهو من الفعل (عقب) كما ذكر ابن منظور - ولكن بعضهم ينقل من غير تدبر.

واسمه الاخر الذي تردد في القرآن الكريم) اسرائيل، وقيل: ان الاسم ((عبري معناه يجاهد مع الله)) (٦٤).

قال (السمرقندي): ((وقيل: انها سمي (اسرائيل) لانه اسره ملك يقال له: (ايل)..، ويقال: لانه اسره جني يقال له: (ايل)، وقال (السدي): وقعت بينه وبين اخيه (عيسو) عداوه فحلف (عيسو) ان يقتله، وكان (يعقوب) يختفي بالنهار ويخرج بالليل فسمي اسرائيل لسيره بالليل، واصله من اسراء الليل، والله اعلم)) (٦٥).

هذا كله ضرب من الخيال، وعلم الاسماء عند الله وهو الذي سماه (اسرائيل) وقال: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [سورة

ال عمران: ٩٣] وقال: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ ابْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ [سورة مريم: ٥٨] وقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَّهَا﴾ [سورة يوسف: ٦٨] فيعقوب واسرائيل اسمان

قرآنيان -، اي هما عربيان سمي الله تعالى بها ابن اسحاق عليه السلام الذي ذكره وحده في كتابه العزيز، وهو ((اسرائيل الذي وَلَدَ الاسباطَ كلهم)) (٦٦)،

وكان ابوه قد امره ان لا ينكح امرأة من الكنعانيين، وانما ينكح امرأة من بنات خاله (لا بان بن ناهر بن آزر) وكان مسكنه الفرات فسار الى خاله وتزوج ابنتيه (لايا) و (راحيل) وفارق (يعقوب) خاله وعاد حتى نازل اخاه (عيسو) وعاش في ارض (مصر) سبع

عشرة سنة، ثم عاد الى الخليل ودفن عند قبر ابيه (ابراهيم) - صلوات الله عليهما - (٦٧) ومن ابنائه (يوسف) عليه السلام

(٦٦) المعارف ص ٣٩.

(٦٧) المعارف ص ٣٩. وقصة يعقوب واخيه عيسو تشبه هابيل وقايل اذ قتل هابيل اخوه قايل [سورة المائدة: ٢٧-٣١]، كما =

(٦٤) معجم الالفاظ المحكية والمشاركة ص ٤٤١.

(٦٥) تفسير القرآن الكريم (بحر العلوم) ج ١ ص ٣٣٣.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **التصنيف** •

وعلى ابيه امتحانا عسيرا، ووصفه الله
كما وصف اباه وابنه يعقوب بانهم ذوي
الايدي ﴿ **وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**
أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ
بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ ﴿٤٦﴾ **وَلِيَنَّهُمْ عِنْدَنَا لِمَن**
الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ **وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ**
وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ سورة
ص: ٤٥-٤٨.]

(٦)

امر الله (ابراهيم) بالتوجه الى مكة
المكرمة) باسماعيل وامه، واخبره بانه
قد بوأه البيت الحرام، وانه يقضي على
يديه عمارته، وينيط باسماعيل سقايته. و
(مكة) من المدن العريقة التي لا يعرف
تاريخها بدقة، وقد ورد اسمها في (القرآن
الكريم) بصيغتين:

الاولى: مكة، كما في قوله تعالى:
﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ**
بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ [سورة الفتح: ٢٤].

الثانية: بكة، كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ**
أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ [سورة البقرة: ١٢٥].

من زوجته (راحيل) وقد اكرم اباه
(يعقوب) ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ**
ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن
شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩١﴾ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى**
الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿٩٢﴾ [سورة يوسف:
٩١-٩٢].

جعل الله (اسحاق) نبيا وكرمه
في (القرآن الكريم) ووصاه ابوه ان
لايموت الا وهو مسلم ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَا**
إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ
لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٣١﴾
[سورة البقرة: ١٣٢] وقال تعالى:
﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ**
وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ **ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا**
مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ [سورة آل
عمران: ٣٣-٣٤].

كان (اسحاق) كايه واخيه
(اسماعيل) حنيفا مسلما، ولم يكونوا
هودا او نصارى، وكان ما انزل عليه

=تشبه قصة يعقوب وزواجه من بنتي خاله
في العراق قصة شعيب وموسى [سورة
هود: ٨٤] وما بعدها و [سورة القصص:
٢٢] وما بعدها، وينظر نهاية الارب ج ١٣
ص ١٨٤ وما بعدها.



تحدث القدماء عن (مكة المكرمة) وقال ياقوت الحموي: انها بيت الله الحرام وقد ذكرها (بطليموس) وسميت (مكة) لانها تمك الجبارين -اي تذهب نخوتهم - ويقال: سميت مكة لازدحام الناس فيها، وكذلك سميت بكة، ويقال ان (مكة) اسم المدينة و (بكة) اسم البيت، وقال اخرون: مكة هي بكة و الميم بدل من (الباء)، وقيل بكة الكعبة و المسجد، ومكة ذو طوى وهو بطن الوادي الذي ذكره الله في [سورة الفتح: ٢٤].

ولها اسماء غير ذلك: النساسة، وام القرى، ام رحم، ومعاد، والحاطمة، والبلد الامين^(٦٨).

ووصف (ابن جبير) مكة وصفا مطولا، وفعل مثله (ابن بطوطة)^(٦٩).

وفي مكة المكرمة (الكعبة المشرفة) التي هي اول بيت وضع فيها، وجعلها الله مقاما للناس ومثابة وامنا، ويبدو

(٦٨) معجم البلدان ج ٥ ص ١٨١ وما بعدها.
(٦٩) رحلة ابن جبير ص ٩٨ وما بعدها، وتنظر رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٣٧٠ وما بعدها.

انها قديمة قدم العالم، ولكن (ابن قتيبة) يقول: ((انه لما كان الغرق زمن (نوح) ﷺ رفع الكرسي الذي كان (ادم) ﷺ يجلس عليه، ((ومكثت الارض خرابا الفى سنة حتى امر الله -تبارك وتعالى - (ابراهيم) ان يبني بيته... فبنى هو و (اسماعيل) البيت... فهو اول بيت وضع للناس))^(٧٠).

وقال ياقوت الحموي: ((ان اول ما خلق الله في الارض مكان الكعبة ثم دحا الارض من تحتها فهي سررة الارض ووسط الدنيا، وام القرى واولها الكعبة وبكة حول مكة، وحول مكة الحرم، وحول الحرم الدنيا)) ثم قال: ((بعد الطوفان بالفى سنة بقيت الارض خرابا في موضع الكعبة فامر الله (ابراهيم) ان يبنيه هو وابنه (اسماعيل) و ((كان الناس قبله يحجون الى (مكة) و الى موضع البيت حتى بواً الله مكانه لابراهيم كما اراد الله من عمارته واطهاره دينه وشعائره، فلم يزل البيت منذ هبط (ادم) الى الارض

(٧٠) المعارف ص ٥٥٩.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم التَّوْبَاتِجُ •

وامر الله -تعالى (ابراهيم) و
(اسماعيل) بتطهير البيت للطائفين،
والتطهير هنا تطهيره من الاصنام وعبادة
الاوثان، ومن الشرك بالله، و الطائفون
هم الذين يأتون البيت الحرام من غربه،
والعاكفون هم المقيمون عليه، وقيل: هم
اهل البلد الحرام.

ودعا (ابراهيم) ربه ان تظل (مكة)
بلدا امنا من الجبابرة وغيرهم، وان يرزق
اهله من الثمرات، والرزق هنا المؤمني اهل
(مكة) دون كافرينهم، ويمتع الكافرين
قليلا ثم مصيرهم عذاب النار، وبئس
المصير.

واختلف اهل التأويل في (القواعد)
التي رفعها (ابراهيم) و (اسماعيل) فقيل:
هي قواعد بيت كان (ادم) ابو البشر قد
بناه بامر الله، ثم درس مكانه وتعفى
اثره بعده حتى بوأه الله (ابراهيم) عليه
السلام. وقيل: ان البيت اهبط ياقوته
واحدة او درة واحدة حتى اذا أغرق الله
قوم (نوح) رفعه وبقي اساسه فبوأه الله
لابراهيم فبناه بعد ذلك. وقيل: وجدوا
في مكة حجرا مكتوبا عليه ((فاني انا الله

معظما محرما تناسخه الامم والملل امة
بعد امة، وملة بعد ملة)) (٧١).

ويبدو مما ذكره (ابن قتيبة) و
(ياقوت) ان الكعبة لم تكن مبنية وانما
كان مقامها يحج الناس اليه حتى جاء
(ابراهيم) عليه السلام الى مكة فاقام الكعبة
المشرفة هو وابنه (اسماعيل)، وكان
الاعتماد على قول الله تعالى ﴿وَإِذْ أُنزِلَتْ
إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَوَيْدُيْتُ قَالَ لَا يَبْتَأَلُ
عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً
لِلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْتَضُوا مِنْ مَقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى
وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي
لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

[سورة البقرة: ١٢٤].

ذكر (ابن جرير الطبري) في هذه
الايات عدة اقوال، فالمثابة ما يثوبون
اليه كل سنة لايدعه الانسان اذا اتاه مرة
ان يعود اليه، ولا يخاف فيه من دخله اذ
يتخذ من مقام (ابراهيم) مصلى، فهو
يصلي خلف المقام، وقيل: ان الحج كله
مقام (ابراهيم).

(٧١) معجم البلدان ج ٤ ص ٤٦٣ وما بعدها.



وبكة بنيته يوم صنعت الشمس والقمر وحففته بسبعة املاك حفا)).

وقيل: خلق الله موضع هذا البيت قبل ان يخلق شيئاً من الارض بالفى سنة، واركانه فى الارض السابعة.

ثم يدعو (ابراهيم) ربه ان يتقبل منه ما فعله، وان يجعله مع ذريته مسلمة له، وان يريهم مناسك الحج، اى: ارنا نسكنا وحجنا، وعلمنا عبادتك واين نعبدك، وما يرضيك عنا فنفعله^(٧٢).

(٧)

نفذ (ابراهيم) عليه السلام امر الله وسار بزوجته (هاجر) وابنها (اسماعيل) متوجهين الى حيث امره الله ليقيم قواعد الكعبة، ويؤذن بالحج، وعن اهل العلم ((ان الله لما بوأ (ابراهيم) مكان

البيت خرج اليه من الشام، وخرج معه (اسماعيل) وامه (هاجر) واسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا على البراق ومعه جبريل يده على موضع البيت ومعالم الحرم، فخرج معه جبريل فقال: لا يمر بقرية الا قال اهذه امرت يا

(٧٢) جامع البيان ج ١ ص ٦٧٦ وما بعدها.

جبريل؟. فيقول جبريل: امضه حتى قدم به (مكة) وهى اذ ذاك عضاه سلم، وسمر يريها (يملكها) اناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة فقال: ابراهيم

لجبريل: اهنا امرت ان اضعها؟. قال: نعم. فعمد بهما الى موضع عريشا... ويزعمون والله اعلم- ان ملكاً من الملائكة اتى (هاجر) ام (اسماعيل) حين انزلها (ابراهيم) مكة قبل ان

يرفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت فاشارلها الى البيت وهو ربوة حمراء مدرة فقال لهما: هذا اول بيت وضع فى الارض، وهو بيت الله العتيق واعلمي ان (ابراهيم) و (اسماعيل) هما يرفعانه))^(٧٣).

وتذكر بعض الكتب ان (ابراهيم) تركهم فى الوادي، وعاد الى الشام، وكلام الله لا يدل على هذا وانما يفهم منه ضمنا ان (مكة) كانت آهلة بالسكان، وان الناس يفتدون اليها ليحجوا، والا كيف يتركها بلا جليس

(٧٣) جامع البيان ج ١ ص ٦٩٧.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **التصنيف** •

تشير الآية الكريمة الى ان (الكعبة) كانت قائمة حين وصل (ابراهيم) الى مكة فهي البيت المحرم الذي امر هو وزوجته وابنها ان يقيموا الصلاة فيه بعد ان يقيموا قواعده.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْ أَمْنَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ يدل على وجود ناس عسى ان تلين قلوبهم ليعيش اهله معهم بامن وسلام، ويرزقهم من الثمرات.

فالاية الكريمة تدل على ان (مكة) اهله بالسكان والاكيف يترك (ابراهيم) زوجته وابنها وكيف يامر الله ان يقيم هو واسماعيل الطفل قواعد البيت، وكان (الطبري) قد ذكر قصة طويلة نقلتها الكتب عنه وهي تتصل بعطش (اسماعيل) لما وضع زوجته وابنها في (مكة) وعاد الى الشام، وبما قالته (هاجر): مَنْ أَمَرَكَ ان تقضي بارض ليس فيها ضرع وزرع ولا انيس ولا زاد ولا ماء؟. قال: ربي امرني، قالت: فانه لا يضيعنا^(٧٥).

ان الله امره ان يذهب الى مكة المكرمة،

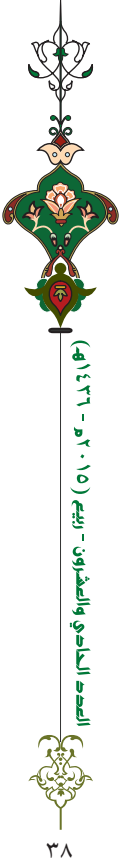
(٧٥) جامع البيان ج ٢ ص ٥١٢٣.

و لا انيس؟. قيل: ان الوادي مكة وان الجبال تحيط بها من عدة جهات، وليس فيها زرع ولا ضرع، وذكر (ابن جبير): ((والوادي المذكور هو الوادي المنسوب لابراهيم عليه السلام ومجراه على باب الصفا المذكور، وكان السيل قد خالف مجراه فكان يأتي على المسيل بين (الصفا و المروة) ويدخل الحرم فكان مدة مده بالامطار يطاف حول الكعبة سبحا، فامر (المهدي) برفع موضع في اعلى البلد يسمى (رأس الردم). فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم الى مجراه، واستمر على باب (ابراهيم) الى الموضع الذي يسمى المسفلة، ويخرج عن البلد ولايجري الماء الا عند نزول ديم المطر الكثير، وهو الوادي الذي عني عليه (ابراهيم) بقوله: حيث حكي الله تبارك وتعالى عنه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فسبحان من ابقى له الايات البينات))^(٧٤).

يفهم من هذا ان (ابراهيم) نزل في

احد وديان مكة حيث لا زرع ولا ضرع.

(٧٤) رحلة ابن جبير ص ٨٦-٨٧.



ولكن (التوراة) تذكر ان زوجته الاولى (سارة) قالت له: ((اطرد هذه الامة وابنها، فان ابن هذه الامة لا يرث مع (اسحاق) فساء هذا الكلام جدا في عيني ابراهيم من جهة ابنه، فقال الله لابراهيم لايسوء في عينيك امر الصبي وأمر أمّتك، كل ما تقوله (سارة) فاسمع لقولها لانه باسحاق يدعى لك نسل، وابن الامة - ايضا - أجعلُ أمة فإنه نسلك)) (٧٦).

وهذا ما لا يمكن ان يصدر من خليل الله (ابراهيم) اذ ينفذ امر زوجته (سارة) في حين ان الله - سبحانه وتعالى - امره ان يذهب الى (مكة المكرمة) ليقيم هو وابنه (اسماعيل) قواعد البيت، اذ كيف يزود هاجر وابنها بالماء والزاد ويصرفهما ليتها في (بئر سبع) فينفد الماء والزاد وتضيق بهاجر وابنها الحياة ورأت بئر ماء فمضت وملأت القربة وسقت (الغلام)) (٧٧).

وعلى (التوراة) اعتمد المؤلفون في

(٧٦) الكتاب المقدس - العهد العتيق ص ٣٧.

(٧٧) نفسه ص ٣٧.

سرد هذه الحكاية، ومنهم الدكتور (احمد سوسه) الذي قال عن (بئر سبع) انها ((ترجع الى عهد ابراهيم الخليل حيث تشير التوراة الى ان ابراهيم هو الذي حفرها واعطى سبع نعاج الى الامير هناك شهادة على حفرها اياه ومن هنا سميت (بئر سبع). وغرس ابراهيم أثلاً فيها، وكذلك حفر اسحاق بن ابراهيم بئراً عند (بئر سبع)، ثم اطلق على المدينة اسم (بئر سبع)) (٧٨).

وصل - اذن - ابراهيم الى مكة ((وامره الله ببناء البيت فبناه هو وابنه اسماعيل، فلما بناه قيل: أذن بالحج)) (٧٩).

يبدو من اكثر ما قيل عن (مكة المكرمة) و (الكعبة المشرفة) انها كانتا موجودتين منذ القدم، ولا يعقل ان الله تعالى ارسله الى مكان موحش ليس به انيس، ولا حياة لان زوجته (سارة) امرته بذلك، ولا يمكن لنبي

(٧٨) مفصل العرب واليهود في التاريخ

ص ٨٠٨.

(٧٩) جامع البيان ج ١٠ ص ٦١٦٣.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم البصائر

وقال: ((قبة بئر زمزم مقابل الركن، ومنها اليه اربع وعشرون خطوة، والمقام المذكور الذي يصلى خلفه عن يمين القبة ومن ركنها عشر خطا، وداخلها مفروش بالرخام الابيض الناصع البياض، وتور (مفجر الماء) البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط من جهة الجدار الذي يقابل البيت المكرم وعمقها احدى عشرة قامة حسبا ذرعناه، وعمق الماء سبع قامات))^(٨١).

نقل (ابن بطوطة) ما ذكره (ابن جبير) وقال: ((وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الاسود))^(٨٢)، وفي هذا اشارة الى قربها من الكعبة.

لم يشيرا الى قصة تفجير (بئر زمزم) وقد تكون متدفقة قبل وصول (ابراهيم) الى مكة المكرمة ثم درست، ثم تفجرت، ثم ردمت الى ان اعادها (عبد المطلب) جد النبي (محمد) ﷺ.

انجز (ابراهيم) ﷺ ما امره الله به، وعاش الى ما شاء الله، اذ قيل: انه عاش

بله انسان ان يؤذي اهله، ومن هنا ترد اهمية الماء الذي جعل الله منه ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الانبياء: ٣٠]، وتذكر المصادر ان (ماء زمزم) تفجر حين كانت (هاجر) تبحث عن الماء لتطفئ غلة ابنها (اسماعيل) بعد ان نفذ الماء والزاد، قال (ابن هشام): ((هي بئر اسماعيل بن ابراهيم ﷺ التي سقاه الله حين ظمى وهو صغير فالتمست له امه ماء فلم تجده فقامت الى (الصفاء) تدعو الله وتستغيث لاسماعيل، ثم اتت (المروة) ففعلت مثل ذلك، وبعث الله تعالى جبريل ﷺ فهمز بعقبه في الارض فظهر الماء، فجاءت تشتد نحوه فوجدته يفحص بيديه عن الماء من تحت خده، ويشرب فجعلته حسيًا)). ثم ذكر ان (جرهم) دفنت (زمزم) عند ((خروجها من مكة ومن ولي امر مكة بعدها الى ان حفر (عبد المطلب) زمزم))^(٨٠).

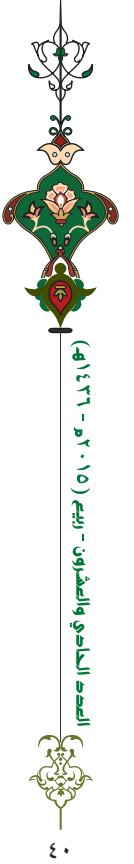
وتحدث (ابن جبير) عن (بئر زمزم)

(٨١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٣٧٥.

(٨٢) معجم البلدان ج ٣ ص ١٤٧ وما بعدها.

(٨٠) رحلة ابن جبير ص ٦٣، وينظر ٧٦، ٧٧،

٧٩، ١٠٢، ١٢٠.



((مائة وخمسا وسبعين سنة، وَقُفِرَ فِي مزرعة (حبرون) وقد اشتراها وفيها قُفِرَتْ سارة))^(٨٣)، وقيل: ((هي مزرعة عفرון))^(٨٤).

لم يكن (ابراهيم يهوديا او نصرانيا وانما كان حنيفا مسلما) ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة ال عمران: ٦٧] وقد اتخذه الله خليلاً ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [سورة النساء: ١٢٥].

وفي (القرآن الكريم) ثناء عاطر عليه، واليه يرجع نسب النبي العربي (محمد) ﷺ^(٨٥)، ولذلك وصف بانه ابو العرب ومن نسله (اسماعيل) عليه السلام.

(٨)

اصبحت سيرة النبي (ابراهيم) من سير الانبياء الذين يؤمن بهم المسلمون

الصادقون، وظلت كتب البلدان والسير والرحلات تروي قصة حياته وصراعه مع الباطل حتى حقق رسالة السماء، وقد ذكر (ابن جبير) ان في (منية ابي الخصب) بمصر مسجد منسوب الى ابراهيم، ويقال: ((ان بفنائها اثر الدابة التي كان يركبها الخليل - صلوات الله عليه)).

وفي (مكة المكرمة) ((مبواً الخليل ابراهيم)) و ((القبة التي فيها مقام ابراهيم) و (باب ابراهيم) وعلى ((باب ابراهيم صومعة)) وفي خارج مكة على جانبي الطريق الى زاهر، جبال اربعة وهي التي جعل ابراهيم عليها اجزاء الطير التي دعاهن حسبا حكي الله - عز وجل - حين سؤاله اياه ان يريه كيف يحيي الموتى، وحول تلك الجبال الاربعة جبال غيرها قيل: ان التي جعل ابراهيم عليها الطير سبعة منها^(٨٦).

وفي عرفات مسجد قديم فسيح

(٨٦) حدث هذا له في العراق قبل ان يرحل الى حران، لان منطوق الاية يشير الى بداية هدايته ﷺ وقبل رحيله.

(٨٣) المعارف ص ٣٣.

(٨٤) نهاية الارب ج ٢ ص ٣٢٢.

(٨٥) تنظر السيرة النبوية ج ١ ص ٣٣ وما بعدها.



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم (التصحيح)

وفي مسجد الكوفة كان للخليل في موضع منه مصلى، وفي (مسجد الخليل) قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب ويقابلها ثلاثة قبور هي قبور زوجاتهم^(٨٨).

كانت سيرة (ابراهيم) عليه السلام في (القرآن الكريم) افقا ممتدا صاغها المعاصرون قصة تنبض بالحياة كقصص الانبياء عليهم السلام التي اصبحت مجالا للبحث و التأليف، وستظل حديثا يتردد في قلوب المؤمنين والنفوس التي تتوق الى الروحانية والصفاء.

نتائج البحث:

اوحى نبوة (ابراهيم) عليه السلام ببحوث ودراسات دينية وتاريخية، ولكن كثيرا منها لم يتأمل ما ذكر عنه في (القرآن الكريم) تأملا عميقا، ومن هنا جاءت هذه الورقة لتوضح ضمنا ما ينبغي ان ينظر فيه، وانتهت الى امور واضحة هي:

١. اعتماد ما ورد في (القرآن الكريم) من آيات لا تحتاج الى التأويل لوضوحها على الرغم من ان ما كتب لا يدعو الى

(٨٨) تنظر رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٣٦٨ وما بعدها.

البناء بقي منه الجدار القبلي ينسب الى (ابراهيم) عليه السلام، وفي (الكوفة) مسجد يقال: انه كان مصلى ابراهيم الخليل عليه السلام. ويقال: ان مدينة (حران) منسوبة لابراهيم عليه السلام وكانت قلعة (حلب): ((ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - بغنيمات له فيحلبها هناك، ويتصدق بلبنها، وبذلك سميت حلب)).

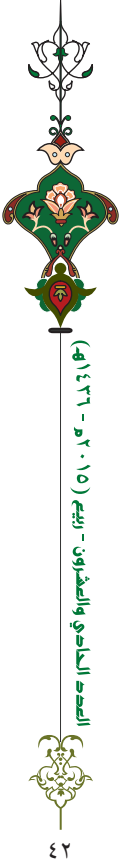
وفي (جبل قاسيون) غار ينسب الى ابراهيم عليه السلام^(٨٧).

وذكر (ابن بطوطة) مشاهد ابراهيم عليه السلام ومن ذلك الموضع الذي سجد فيه في مدينة الخليل شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط.

وفي (مسجد ثغر عسقلان) ((بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام)).

وفي (مكة المكرمة) بالبيت الحرام ((مبوا ابراهيم)) و ((مقام ابراهيم)) و ((باب ابراهيم)) وفي جهة التنعيم جبال الطير الاربعة، و ((تحت الميزاب في الحجر قبر اسماعيل عليه السلام)).

(٨٧) تنظر رحلة ابن جبير ص ٥٦ وما بعدها.



طويل في كتب شتى، وبعد ان اتخذت ايات (القرآن الكريم) منهاجا يوصل الى المعرفة واليقين. ولعلها تحظى بقبول حسن، و الا ما هي الا كلمات خُطَّت وفيها روح ايمانية، وحقيقة بيانية، وما الهدى الا من الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو فوق كل ذي علم عليم.

المصادر:

القرآن الكريم مادة هذه الاوراق لانه اصدق ما يكون اما المصادر فهي للاستئناس.

١. اسم النبي ابراهيم وصفاته في الكتاب المقدس والقرآن - دراسة مقارنة للدكتور ستار الفتلاوي (مجلة المصباح-العدد ١٢-٢٠١٣م-١٤٣٤هـ).

٢. الاغاني - ابو الفرج الاصفهاني - ط دار الكتب - القاهرة.

٣. انبياء احتضنتهم ارض بابل (ابراهيم خليل الرحمن) للدكتور ثامر كاظم الخفاجي - (مجلة المصباح - العدد ١٢-٢٠١٣م-١٤٣٤هـ).

٤. بصائر ذوي التمييز - محمد بن

الاعذبه كل الاخذ، وانما اتخاذا كتاب الله العزيز منطلقا وسيلا.

٢. اظهار الاسم الحقيقي لابراهيم (عليه السلام) وهو ما كان تعقيبا نشر في (مجلة المصباح) سنة ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، اثر ما نشر عن اسم (ابراهيم).

٣. ترك كل ما لا يوصل الى الحقيقة، و الابتعاد عن الاراء التي توقع في الخطأ المبين.

٤. اظهار مواقف ابراهيم الايمانية وما حدث له في مطلع حياته، ودعوته الى هجر الاصنام، والدعوة الى عبادة الله خالق الكون.

٥. اظهار الهدف من رحيل (ابراهيم) الى (مكة المكرمة) وتنزيهه مما لحقت به الاسرائيليات التي اعتمدتها بعض الكتب القديمة والحديثة.

٦. الاخذ بالمنطق العقلي والمنهج العلمي في البحث والدراسة وكتابة المقالات الدعوية التي قد تسى الى من كرمهم الله، ومن اتخذه خليلا.

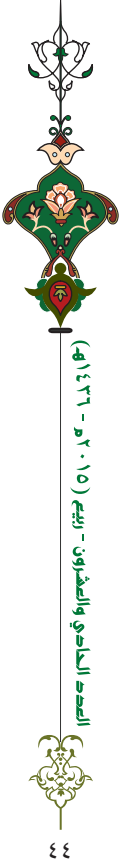
وبعد:

فهذه اوراق صدرت بعد نظر



سيرة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بروايات القرآن الكريم **التصنيف** •

- يعقوب الفيروزآبادي - القاهرة ١٩٦٤-١٩٧٣ م.
١٠. أحمد مطلوب - الكويت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.
٥. تأصيل عروبة لفظة ابراهيم للدكتور أحمد نصيف الجنابي (مجلة الضاد التي اصدرتها الهيئة العليا للعناية باللغة العربية - العراق (ج ٢-١٩٨٩ م)).
١٠. الحيوان - عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق عبد السلام محمد هارون - القاهرة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨ م.
١١. رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي - تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي - الرباط ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م.
١٢. رحلة ابن جبير - محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي الغرناطي - تحقيق الدكتور حسين نصار - القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥ م.
١٣. رسائل ابن حزم الاندلسي - تحقيق الدكتور احسان عباس - بيروت ١٩٨١ م.
١٤. السيرة النبوية - عبد الملك بن هشام - تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي - الطبعة الاولى، القاهرة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦ م.
٦. تعقيب على بحث (اسم ابراهيم وصفاته في الكتاب المقدس والقرآن الكريم للدكتور ستار الفتلاوي المنشور في العدد الثاني عشر، للدكتور احمد مطلوب (مجلة المصباح العدد ١٤-٢٠١٣م-١٤٣٤هـ).
٧. تفسير القرآن الكريم (بحر العلوم) - ابو الليث نصر بن محمد بن احمد بن ابراهيم السمرقندي - تحقيق الدكتور عبد الرحيم احمد الزقة - بغداد ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م.
٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن - ابو جعفر محمد بن جرير الطبري - بيروت ١٤٢٩هـ - ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.
٩. حركة التعريب في العراق - الدكتور



١٥. على هامش السيرة - الدكتور طه حسين - القاهرة ج ١ سنة ١٩٣٣م، ج ٢ سنة ١٩٣٨م، ج ٣ سنة ١٩٤٣م.
١٦. الفلاحة النبطية - الترجمة المنحولة الى ابن وحشية ابي بكر احمد بن علي بن قيس الكسداني - تحقيق توفيق فهد - دمشق ج ١ سنة ١٩٩٣م، ج ٢ سنة ١٩٩٥م.
١٧. كتاب سيبويه - ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه - تحقيق عبد السلام محمد هارون - القاهرة ١٩٦٦م وما بعدها.
١٨. الكتاب المقدس (العهد العتيق والعهد الجديد) دار المشرق - بيروت ١٩٨٦م.
١٩. لسان العرب - محمد بن مكرم المعروف بابن منظور.
٢٠. ما ينصرف وما لا ينصرف - ابو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج - تحقيق هدى محمود قراة - القاهرة ١٩٧١م.
٢١. المساعد - الاب انستانس ماري الكرملي - تحقيق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي - بغداد ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
٢٢. المعارف - ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - تحقيق ثروة عكاشة - القاهرة ١٩٦٠م.
٢٣. معجم الالفاظ المحكية والمشاركة - حبيب يوسف صادق تومي (اربيل - العراق) ٢٠١١م.
٢٤. معجم البلدان - ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي - بيروت ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
٢٥. المعجم الكبير - مجمع اللغة العربية بالقاهرة - القاهرة ١٩٧٠م.
٢٦. المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم - ابو منصور الجواليقي موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر - تحقيق احمد محمد شاكر - القاهرة ١٣٦٠هـ.
٢٧. مفصل العرب واليهود في التاريخ - الدكتور احمد سوسه - بغداد ١٩٨١م.





إِخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي مَسْأَلَةِ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (بَحْثٌ رِوَايِيٌّ اسْتِدْلَالِيٌّ)

سماحة السيد علي الحسيني الشهرستاني

مؤسسة أهل البيت لإحياء التراث

مشهد - جمهورية إيران الإسلامية

فحوى البحث

تَحَجَّرَتْ الروايات بشأن نزول القرآن وتدوينه وجمعه وترتيبه على قصة تناقلها الرواة كإبراً عن كابر من دون عرضها على العقل ليحكم فيها بحكم ما يجوز وما لا يجوز علماً بأن أكثر تلك الروايات تافه قد لا يرقى الى مستوى الحاجة ، وبرزها في ذلك قصة الآيات الثلاث من أواخر سورة (التوبة) والتي ضاعت حتى من علي عليه السلام وأبي بن كعب وابن مسعود وجمهور الصحابة ليجدوها عند ابي خزيمة!!! . أي عقل تافه يمكن أن يصدق هذا الخبر الذي ينبئ بحالة لامبالاة الصحابة بقرآنهم...؟! . والذي زمر له المستشرقون وطبلوا عبر عصور طويلة. وقد تصدى سماحة العلامة المحقق السيد الشهرستاني لهذه المباحث بالنفس الاكاديمي العقلي الاستدلالي فناقش الروايات مناقشة هادئة كما وردت في كتب الجمهور ، وقد يكون سماحته أول من فعل ذلك على أمل أن تنشر المجلة لسماحته ابحاثاً اخرى ضمن هذه الصد أن شاء الله - تعالی - .

بسم الله الرحمن الرحيم

اختلف الباحثون في ترتيب سور القرآن وآياته، هل جميعه توقيفي، أم أن ترتيب الآيات في السور يختلف عن ترتيب السور نفسها، فالأول توقيفي والثاني مختلف فيه؟.

فبعضهم ذهب إلى توقيفية السور، وآخرون إلى أنّها من اجتهادات الصحابة، ورأي ثالث ذهب إلى رأي وسط، وهو توقيفية الترتيب في جميع السور إلا براءة والأنفال^(١)، ومثله الأمر بالنسبة إلى ترتيب الآيات في السور.

وقد استدّلوا على توقيفية الآيات وأنها كانت تحت إشراف رسول الله بأحاديث، منها: حديث زيد بن ثابت: كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع^(٢).

وما أخرجه الترمذي وأحمد وأبو داوود والنسائي عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى (١) هذا ما ذهب إليه البيهقي، أنظر: تفسير روح المعاني ١: ٢٧.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٧٣٤ ح ٣٩٥٤، مسند أحمد ٥: ١٨٤ ح ٢١٦٤٧.

الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتهم بينها ولم تكتبوا بينها سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)؟...^(٣) إلى آخر الخبر.

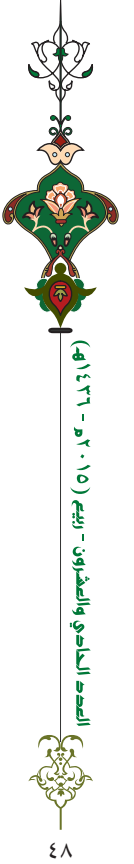
ومنها: ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير، قال: قلت لعثمان: **﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا...﴾** قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها ولم تدعها؟. قال: يا ابن أخي، لا أُغَيِّر شيئاً منه من مكانه^(٤).

ومنها: ما رواه مسلم عن عمر، قال: ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، حتى طعن بإصبعه في صدري، فقال: «يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»^(٥).

(٣) سنن الترمذي ٥: ٢٧٢ ح ٣٠٨٦، مسند أحمد ١: ٥٧ ح ٣٩٩ و٦٩ ح ٤٩٩، مسند عثمان بن عفان، سنن أبي داوود ١: ٢٠٨ ح ٧٨٦، سنن النسائي الكبرى ٥: ١٠ ح ٨٠٠٧ الباب ٣٠ السورة التي يُذكر فيها كذا.

(٤) صحيح البخاري ٤: ١٦٤٦ / ٤٢٥٦.

(٥) صحيح مسلم ١: ٣٩٦ / ٥٦٧، ٣: ١٦١٧ / ١٢٣٦.



ومنها: الأحاديث في خواتيم سورة البقرة^(٦).

ومنها: ما رواه مسلم عن أبي الدرداء مرفوعاً: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنَ الدَّجَالِ»^(٧).

هذه هي الاخبار التي ذكرها السيوطي في الإتيان، وأضاف: ومن النصوص الدالة على ذلك إجمالاً ما ثبت من قراءته ﷺ لسور عديدة.

ثم أخذ السيوطي يعدد تلك السور، وقال:

... تدلّ قراءته لها بمشهد من الصحابة أنّ ترتيب آيها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر.

نعم، يشكل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود في (المصاحف) من طريق محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد

(٦) أنظر: صحيح مسلم ١: ١٥٧ / ١٧٣، سنن الترمذي ٥: ٣٩٣ / ٣٢٧٦، وغيره.

(٧) صحيح مسلم ١: ٥٥٥ / ح ٨٠٩ الباب ٤٤ في فضل سورة الكهف وآية الكرسي.

بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة، فقال: أشهد أنّي سمعتها من رسول الله ووعيتها. فقال عمر: وأنا أشهد لقد سمعتها. ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها في آخرها.

قال ابن حجر: ظاهر هذا أنهم كانوا يؤلفون آيات السور باجتهادهم، وسائر الأخبار تدلّ على أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلا بتوقيف.

قلت: يعارضه ما أخرجه ابن أبي داود أيضاً من طريق أبي العالية، عن أبي بن كعب، أنهم جمعوا القرآن، فلما انتهوا إلى الآية التي في سورة براءة:

﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ

قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٧]،

ظنوا أنّ هذا آخر ما أنزل، فقال أبي: إنّ

رسول الله أقراني بعد هذا آيتين: ﴿لَقَدْ

جَاءَكُمْ رَسُولٌ..﴾ إلى آخر

السورة^(٨).

(٨) الإتيان ١: ١٦٩.



كانت بأمر رسول الله ﷺ ومثله: من قرأ آخر سورة الحشر ثم مات من يومه أو ليلته كفر عنه كل خطية، وأمثالها.

ونظرة واحدة الى فضائل السور في كتاب بحار الأنوار توقفك بوضوح على ترتيب السور والآيات وعلى توقيفية الآيات^(١١).

فهذا بعض الكلام عن توقيفية الآيات داخل السورة عند الفريقين، وهو يؤكد توقيفية الترتيب في القرآن المنزل ووحدته، لكن في مطاوي كلمات علماء آخرين ترى شيئاً آخر، وهو اختلاف ترتيب النزول عن ترتيب التلاوة، مع قبولهم بأن كليهما قرآن.

سر تكرر العرضات كل عام

ويمكننا أن نوضح هذا المدعى من خلال بيان سرّ تكرر العرضات بين جبرئيل الأمين والصادق الأمين ﷺ في كل عام، وأنّ هذا اللقاء الثنائي بينهما لا يمكن أن يكون لغواً، بل فيه هدف مهمّ وفائدة عظمى، وهو إرجاع المُنزَلِ نجوماً - إلى ذلك الحين - إلى

(١١) انظر: بحار الأنوار ٩٢: ٢٦٢ - ٣٦٩.

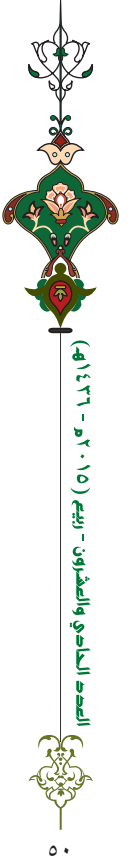
كان هذا كلام السيوطي، وقد أضاف بعضهم أدلة وقرائن أخرى في توقيفية الآيات، بأنه لو كان اجتهادياً لكان الأولى تقديم النهار على الليل في قوله تعالى في سورة الليل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ على غرار قوله في سورة الشمس ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ وأمثالها وحيث لم نقف على هكذا شيء عرفنا بأن النص القرآني توقيفي لا يجوز التغيير فيه.

ويؤيده ما رواه الشيخ الصدوق والكليني، عن علي بن الحسين قال: قال رسول الله: من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة، وآية الكرسي، وآيتين بعدها، وثلاث آيات من آخرها، لم ير في نفسه وماله شيئاً يكرهه...^(٩) تأكيداً على تحديد أماكن الآيات في السور.

وجاء قريب من هذا في البخاري: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه^(١٠) ومعناه أن ترتيب الآيات

(٩) الكافي ٢: ٦٣ ح ٥ من باب فضل القرآن والصدوق في ثواب الأعمال: ١٠٤ وعنه في بحار الأنوار ٩٢: ٢٦٥ ح ٩.

(١٠) صحيح البخاري ٤: ١٩١٤ ح ٤٧٢٢.



المنزل دفعة، مع التأكيد على أن المنزل
نجوماً قد يكون سورةً سورة؛ لقوله
تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [سورة
النور: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا

أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [سورة التوبة: ١٢٤].

و﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ
سُورَةٌ نُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة

التوبة: ٦٤] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ

وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ

مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ [سورة محمد:
٢٠] وأمثالها.

وقد تُنزلُ آياتٌ متقطعة ويؤلف
منها سورٌ لقوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُ إِلَّا بِالْقَدَرِ مَعْلُومٍ﴾
[سورة الحجر: ٢١]، وقوله تعالى:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ
وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦]،

وأمثالها. وإنَّ الشارع المقدس لم يسمح
بقراءة تلك الآيات المتفرقة والنازلة في

مناسبات متعددة في الصلاة إلا بعد جمعها

من قبل رسول الله وإقرارها من قبل رب
العالمين بواسطة جبرئيل الأمين على أنها
قرآن، وتأكدهم من عدم التغيير فيها،
لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَعِزَّ بِقُرْءَانِهِ﴾
[سورة القيامة: ١٨].

وعليه، فالسورة قد تنزل متفرقة ثم
تجمع، وقد تنزل كاملة ثم تبدأ الأحداث

الواقعة فيها، أي: أنَّ جبريل الأمين
كان يأتي مرّةً أخرى إلى النبيّ بالآيات

المرتبطة بتلك الوقائع النازلة في تلك
السورة، فيقرأها النبيّ ﷺ على الناس،

فيظهر لهم أنهم كانوا قد سمعوها قبل
ذلك، لأنَّ الناس عموماً لا يدركون

عمق حقائق القرآن ودقائقه، وهذه
الطريقة كان يظهر إعجاز القرآن لهم

بصورة يفهمونها، لأنَّ الإخبار بالمغيّبات
قبل حدوثها دليلٌ على صدوره من

عند علام الغيوب، فلما جاءهم رسول
الله ﷺ بالآيات قبل وقوع الأحداث

فهموا بأنّه منزلٌ من عند الله.
وقد تُنزلُ آية آية ثم يؤلف منها

سورة سورة طبقاً لما نزل من اللوح
المحفوظ، وذلك بالتنسيق بين



اختلاف العلماء في مسالة ترتيب القرآن الكريم

التصنيف

القيامة: ١٦ - ١٨].
نعم، إنّ بعض المستشرقين ذهب-
تبعاً للنصوص الموجودة في مدرسة
الخلافة- إلى القول بأن جمع القرآن
بشاهدين، وعدم وقوف زيد على بعض
الآيات إلاّ بعد إخبار أبي خزيمة أو
خزيمة له إشارة إلى عدم توقيفية الآيات
في السور. لأن القرآن إما كان مجموعاً
على عهد رسول الله أو غير مجموع، فإذا
كان مجموعاً فعمل زيد يكون لغواً، وإن
كان غير مجموع فتنظيم زيد أو عثمان أو
غيره للآيات والسور باطل لأنّه ليس
من مهامه وصلحياته.

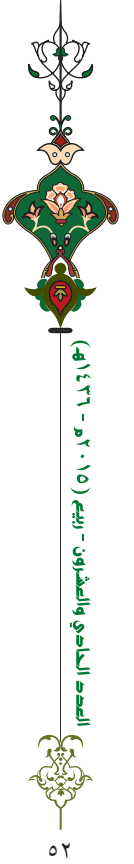
ولا يخفى عليك بأنّ المستشرقين
غالباً ما يأنسون بما تقوله مدرسة
الجمهور، فقد قال كانون سل:

إنّ السور القرآنية التي تلاها رسول
الله على المسلمين في ٢٣ عاماً لم تجمع أو
تصنف في حياته، وهذه السور كانت
مكتوبة على سعف النخل والجلود...
وقسم منها محفوظة حفظاً عن ظهر قلب،
هذه السور لم تكن مجموعة بل كانت
مفككة، وكان العرب يعتمدون على

جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ، لقوله
تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. ﴿١٧﴾ فَإِذَا
قَرَأْتَهُ فَأَنبِئْ قَوْمَهُ. ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. ﴿١٩﴾﴾
[سورة القيامة: ١٧-١٩].

ومن هنا التبس الأمر على بعض
الصحابة فأراد عمر بن الخطاب أن
يؤلف من ثلاث آيات سورة على
حدة، فقال: (لو كانت ثلاث آيات
لجعلتها سورة على حدة). أو قوله في
آخر: (لو لا أن يقال إن عمر زاد في
كتاب الله لكتبتها بيدي). إذ إنّ جمع
وتأليف القرآن ليس لكلّ أحد، بل
إنّه يُقرَّر من قبل الله تعالى بعد اللقاء
الثنائي بين المعصومين^(١٢) وهو مهمة
الله ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ وليس على
أحد جمعه، وحتى إنّ الصادق الأمين
محمد بن عبد الله لا يمكنه أن يستعجل
بتلاوته قبل إقرار الباري جلّ وعلا
له، كما جاء في سورة القيامة: ﴿لَا
تُحْرِكُ بِوَجْهِكَ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
وَقُرْآنَهُ. ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَأَنبِئْ قَوْمَهُ. ﴿١٨﴾﴾ [سورة

(١٢) الصادق الأمين محمد بن عبد الله ﷺ
والأمين جبرئيل عليه السلام.



ذاكرتهم حتى تلاوته في الصلاة...

ثم استطرد كانون سل بذكر حث الخليفة الأوّل على القرآن بعد واقعة اليمامة ومسايرة عمر له، آخذاً في التحدث عن تدوين عثمان وجمعه للقرآن على يد زيد، وأنه كان يسعى للحصول على مكاسب سياسية لدعم موقفه من خصومه الذين كثروا وباتوا يورقونه فأراد بذلك أن تنسب له فضيلة يتقوى بها عليهم^(١٣).

وقال جون جيلكرايست: وبما أن زيدا - وهو كاتب هذا القرآن - كانت له حرية القيام بذلك - أي عملية الجمع - بأمر من عثمان وليس من محمد، فكذلك الترتيب الذي جاء عليه النص القرآني لم يكن أمراً إلهياً أيضاً، لأنه في المرتين كانت القضية موكلة لزيد^(١٤).

وبهذا فقد عرفت بأن النصوص

(١٣) مجلة المصباح العدد ٥ صفحة ١٤٣ (كانون سل وتدوين القرآن).

(١٤) مجلة المصباح العدد ٥ صفحة ١٢٦ (أثر روايات جمع القرآن في الفكر الاستشراقي، دراسة في كتاب جمع القرآن للمستشرق جون جيلكرايست).

الموجودة في مدرسة الجمهور هي التي جرأت أمثال هؤلاء المستشرقين للقول بهذا وأمثاله ولا لوم.

اختلاف ترتيب التلاوة عن

ترتيب النزول

هناك كلمات للأعلام تؤكّد وجود ترتيبين في القرآن، أحدهما للتلاوة والآخر للنزول: وبمعنى آخر: أحدهما رتب طبق المنزل دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

والآخر طبق المنزل نجوماً بحسب الحوادث والوقائع.

والرسول الأعظم كان ينتظر نزول الوحي لإكمال الآيات وتعيين مكانها في السور من قبل رب العالمين، وهذه هي فائدة اللقاء والعرضة من كلّ عام.

وقد تتقدّم حادثة ويؤخّر مكانها في السورة، وقد تؤخّر آية وهي مقدّمة على سابقتها زماناً في قرآن التلاوة، مثل تأخير آية البلاغ على آية الإكمال في سورة المائدة وهي مقدّمة زماناً على آية الإكمال، ومثل هذا التقديم والتأخير بين



رسول الله ﷺ مدة حياته عند الحاجة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦]، فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة، وكان هذا الاتفاق من الصحابة سبباً لبقاء القرآن في الأمة، ورحمة من الله على عباده، وتسهيلاً وتحقيقاً لوعده بحفظه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩]، وزال بذلك الاختلاف واتفقت الكلمة.

قال أبو عبد الرحمان السلمي: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة، كانوا يقرؤون القراءة العامة، وهي القراءة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبرئيل مرتين في العام الذي قبض فيه.. (١٥).

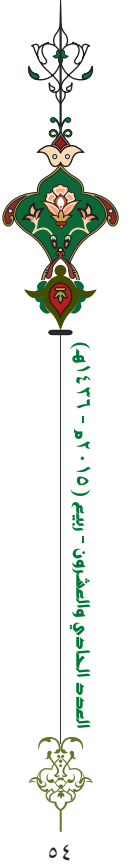
وهذا النص صريح بأن النبي والصحابة - قبل تسلّم بعضهم

(١٥) البرهان في علوم القرآن ١: ٢٣٧، وانظر: كنز العمال ٢: ٢٥٠ ح ٤٨٠٢، شرح السنّة للبخاري ٤: ٥٢١-٥٢٢.

الآيات تراه كثيراً في القرآن. وقد يذكر الباري - في قرآن التلاوة- النسخ قبل المنسوخ، والآية المكية في السورة المدنية، وأمثالها لمصالح غيبية خافية على البشر، وأهمها عدم امتداد يد التحريف إلى الكتاب العزيز. وعليه، فالتب في أماكن الآيات من السور لا يمكن إلا بقرار من رب العالمين، وذلك بعد الاجتماع الثنائي بينه وبين جبرئيل الأمين وإقراره من قبله سبحانه، لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِئْ قُرْآنَهُ ﴾ [سورة القيامة: ١٨].

قال الزركشي في (البرهان):... فثبت أنّ سعي الصحابة في جمعه في موضع واحد، لا في ترتيب؛ فإنّ القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب الذي هو في مصاحفنا الآن، أنزله الله جملة واحدة إلى سماء الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [سورة القدر: ١]، ثم كان ينزل مفرقاً على



الخلافة - كانوا يقرؤون بقراءة رسول الله، وقد كانت تلك القراءة واحدة، لكن بعد رسم المنهجية المغلوطة في جمع القرآن تعددت القراءات وأدت إلى خلط القراءة الصحيحة بالسقيمة وهذه سببت مشكلة للمسلمين لم تحل إلا على يد أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فأبو بكر تراه لا يعتمد في جمعه على كبار قراء الأئمة والذين عرضوا قراءتهم على رسول الله، فلا يكلف معاذ بن جبل وأبياً وابن مسعود مع أنهم من الأربعة الذين كانوا ممن أمر رسول الله في الاخذ عنهم في القراءة^(١٦).

وعمر يقول: إنا لندع لحن أبي بن كعب^(١٧)، فإنه أقرأ للمنسوخ^(١٨) وأنه

(١٦) في البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: خذوا القرآن من أربعة من عبدالله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، صحيح البخاري ٤: ١٩١٢ / ح ٤٧١٣، صحيح مسلم ٤: ١٩١٣ / ح ٢٤٦٤.

(١٧) صحيح البخاري ٤: ١٩١٣ / ح ٤٧١٩. (١٨) تاريخ ابن شبة ٢: ٣٧٧ / ح ١١٧٦، الدر المنثور ٨: ١٦١، فتح الباري ٨: ٦٤٢.

سيد القراء.

وعثمان جمع الصحابة على قراءة زيد بن ثابت مع وجود كبار الصحابة في وسط الأمة، أمثال: ابن مسعود - الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من أحب أن يقرأ القرآن غصاً طرياً، كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أمّ عبد»^(١٩) - وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وعبادة بن الصامت وغيرهم.

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، قال: وذكر ابن وهب في جامعه قال: سمعت سليمان بن بلال يقول: سمعت ربيعة يُسأل: لم قُدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلها بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة؟. فقال ربيعة: قد قُدمتا وأُلف القرآن على علم ممن أُلّفه، وقد اجتمعوا على هذا بذلك، فهذا مما ننتهي إليه، ولا نسأل عنه^(٢٠).

(١٩) تاريخ بغداد ٤: ٣٢٦ / ت ٢١٣٨، البحر الرائق ٤: ٣٧٢.

(٢٠) الجامع لأحكام القرآن ١: ٥٩ - ٦٠. وبعثتقادي أنّ المقطع الأخير من كلام ربيعة (فهذا ممّا ننتهي إليه ولا نسأل عنه) ممّا وضع لتأييد ترتيب مصحف عثمان،



وقال القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) في (الانتصار):
الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمرنا بإثبات رسمه ولم ينسخه ويرفع تلاوته بعد نزوله، هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه (٢٣) مصحف عثمان، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه... وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من أي السور (٢٤)، لم يقدم من ذلك مؤخرًا ولا آخر منه مقدمًا، وأن الأمة ضبطت على النبي ترتيب أي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القرآن وذات التلاوة (٢٥).

(٢٣) لم يقل المؤلف: اختص به عثمان، بل قال: حواه.

(٢٤) انظر إلى القيد (أي السور)، فهو يؤكد بأن ضبط ترتيب أي السور كانت من قبل الله وقد ضبطت بإشراف النبي.

(٢٥) الانتصار للباقلاني ١: ٥٩ - ٦٠ تمهيد، وعنه في: المرشد الوجيز لأبي شامة ١: ٤٧. لكن الامام علياً كان له ترتيب آخر مضافاً للترتيب الموجود في المصحف الراجح الذي كان يقرأ به في صلاته وفي لياليه وأيامه والترتيب الثاني كان كتاب تاريخ =

وجاء بعد ذلك قوله: ومما يدل على أنه يجب إثباته في المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع في السورة المكية (٢١). وعليه فإن كلام الزركشي الأنف صريح بأن ترتيب النزول غير ترتيب التلاوة، وأن المنزل من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور غير الذي نزل منجماً لحاجة أو لحكمة فيها صالح العباد ويسر الدين.

وإن كثيراً من الصحابة (٢٢) كانوا قد سعوا لجمع القرآن بين الدفتين، لكن كانت مصاحفهم ناقصة وقد كتبوها كما سمعوا من رسول الله ﷺ، وإن اختلفوا في ترتيب السور، أما ترتيب الآيات فيها فكان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه بها ويعلمهم الترتيب الموجود في مصاحفنا اليوم، كما جاء ذلك في كلام من ذكرناهم فيها سبق وفيما يأتي.

لأنه كان بإمكان أن يقول: إننا قدمنا لتقدم مكانها في النزول الدفعي وإن تأخرتا في النزول التدريجي.

(٢١) الجامع لاحكام القرآن ١: ٦١.

(٢٢) وليس عثمان وزيد بن ثابت فقط.



ثم أضاف الباقلاني:

غير أننا لا نقول - مع إثبات اختلافهم في ترتيب السور - أنه قد كان من النبي ﷺ توقيفٌ على ترتيبها، وأمرٌ ضيقٌ عليهم في تأليفها، إلا على حسب ما حدّه ورسمه لهم، بل إنّما كان منهم تأليف سور المصحف على وجه الاجتهاد والاحتياط، وضمّ السور إلى مثلها وما يقاربه.

والذي نختاره ما قدّمناه، وفيه سقوط ما ظنّوا القدح به في ظهور نقل القرآن واستفاضته...

إلى أن يقول:

والذي يدلّ على ذلك أنّه لو كان من النبي ﷺ نص وتوقيف ظاهر على وجوب ترتيب تأليف السور في الكتابة والرسم لوجب ظهور ذلك وانتشاره وعلم الأمة به، ويدلّ على ذلك قول عثمان - في حديثٍ طويل - (وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، فكانت

وعلم - لآته دونه في شأن نزول الآيات طبقاً لحوادث التاريخ - وليس كتاب تلاوة وذكر.

شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، وقبض ﷺ ولم يتبين أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينها). فهذا تصريح من عثمان بأنه لم يكن من الرسول نص على وجوب تأليف الأنفال إلى براءة، وأنهم إنّما عملوا ذلك بالرأي والاجتهاد.

واستدلّ أيضاً قوم على سقوط ترتيب تأليف السور بأنه قد علم أنه ليس في الدنيا مترسل أديب ولا شاعر مُفلق ولا خطيب مصقع يأخذ الناس بترتيب قصائده وخطبه ورسائله، وإنما يريد أن يحفظوا قصيدة منها على ترتيب نظمها وتأليف أبياتها وسياق بيانها، ثم لا يبالي أيها كتب في ديوانه أولاً وآخرًا ووسطاً، كذلك المترسل والخطيب، قالوا: فكذلك رسول الله إنّما أراد من الأمة حفظ السور وتلاوتها على نظامها وترتيب آياتها فقط، ولم يُرد منهم تأليف كلّ سورة منها قبل صاحبتها...

فأما من زعم أنّ الرسول قد نصّ على تأليف سور القرآن ورسمها في المصاحف على ما هي عليه في الإمام فقد استدلّ على ذلك بأمر لا حجة في شيء منها،



علم أنه لا أدب ولا عقاب على من قرأ البقرة وثنى بالحج.

واستدلوا أيضاً على وجوب ترتيب سور القرآن على ما في الإمام بما رواه أبو قلابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: من شهد خاتمة القرآن كان كمن شهد فتحاً في سبيل الله. وأن المسلمين أجمعوا على أن للقرآن فاتحة وخاتمة.

وهذا أيضاً لا حجة فيه، لأن قوله:

«من حضر خاتمة القرآن» إنما يريد آخر ما يُقرأ منه، الذي يكون قارئه مع قراءة ما قبله خاتماً لكتاب الله، ولم ينص على خاتمته، فلا حجة لهم في ظاهر الخبر، ولكننا لا ننكر مع ذلك أن تكون (الحمد) قد جعلت فاتحة ما يُكتب ويُتلى، و(الناس) خاتمة لذلك، وإن لم يوجب ترتيب ما بينهما من السور. فلذلك اتفق أصحاب المصاحف على الافتتاح بالحمد في القراءة والختم بسورة الناس، وإن لم يرتبوا ما بينهما، وإنه يمكن أن تكون الفاتحة والخاتمة قد جعلتا فاتحةً وخاتمةً في التلاوة دون الرسم والكتابة، فلا حجة في

فمن ذلك أن قالوا: قد اشتهر عن بعض السلف - هو عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر - أنهما كرها أن يُقرأ القرآن منكوساً، فروي أن عبد الله بن مسعود سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً، فقال: ذلك منكوس القلب. وإن عبد الله بن عمر ذكر له أن رجلاً يقرأ القرآن منكوساً، فقال: لو رآه السلطان لأدبه أو عاقبه. وكلامٌ هذا نحوه.

قالوا: يدل ذلك على وجوب ترتيب السور وتأليفها في القراءة والرسم، وهذا لا حجة فيه، لأنها عنيا بذلك من يقرأ السور منكوسة ويبتدئ من آخرها إلى أولها، لأن ذلك حرامٌ محظور...

وليس يريد بذلك من قرأ القرآن من أسفل إلى فوق، ومن بدأ بآل عمران وثنى بالبقرة، وكيف يريدون ذلك وهم قد علموا اختلاف تأليف المصاحف.

وقول ابن مسعود: (ذلك رجل منكوس القلب) إنما خرج على وجه الدم، فلا ذم على من قرأ النحل ثم ثنى بالبقرة، ويدل على ذلك قول ابن عمر: (لو رآه السلطان لأدبه أو عاقبه)، وقد



التعليق بهذا، ونرى أنّ هذا الخبر لم يسمعه أصحاب المصاحف المختلفة الترتيب (٢٦).

وقد صرح ابن كثير بأن عثمان هو الذي رتب السور في المصحف فقال في (فضائل القرآن): وكان عثمان رضي الله عنه - والله أعلم - رتب السور في المصحف وقدم السبع الطوال وثني بالمئين (٢٧).

وبهذا فقد يكون معنى قولهم (إن عثمان جمع القرآن وأنه غير ترتيب السور) هو الترتيب فقط لا جمعه وكتابه من المصحف، لأن من معاني الجمع هو الترتيب أيضاً.

وقد يكون في كلام ابن حجر الآتي إشارة إلى عدم توقيفية الآيات أيضاً، وأن ترتيب الآيات والسور معاً من اجتهادات الصحابة، إذ قال:

وإن قول عمر: (لو كانت ثلاث آيات)، فظاهره أنهم كانوا يؤلفون آيات

(٢٦) أنظر: الانتصار للباقلاني ١: ٢٧٩ - ٢٨٧ باب القول في ترتيب السور.

(٢٧) نصوص في علوم القرآن ٣: ٢٦٢ عن فضائل القرآن.

السور باجتهادهم، وسائر الأخبار تدلّ على أنّهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلا بتوقيف. نعم، ترتيب السور بعض أثر بعض كان يقع بعضه منهم بالاجتهاد (٢٨).

وقال الزرقاني - في جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد رسول الله ﷺ:

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام، فقد ورد أنّ جبريل عليه السلام كان يقول: ضعوا كذا موضع كذا. ولا ريب أنّ جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عزّ وجل.

أمّا الصحابة فقد كان منهم من يكتبون القرآن، ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتف أو عظم أو نحو ذلك، بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ﷺ، ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها، وذلك لأنّ أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها، ثم خرج في سرية مثلاً فنزلت

(٢٨) فتح الباري ٩: ١٥ باب جمع القرآن، وانظر ٣٩: ٩ باب تأليف القرآن.



حملكم على ذلك؟

فقال عثمان: كان رسول الله ممّا يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنّها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنّها منها، فمن أجل ذلك قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فوضعتها في السبع الطوال (٣١).

وهذه الرواية هي التي استدلل بها

في وقت غيابه سورة، فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابتها، ثمّ يستدرك ما كان قد فاته في غيابه، فيجمعه ويتبّعه على حسب ما يسهل له، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك. وقد كان الصحابة من يعتمد على حفظه، فلا يكتب جرياً على عادة العرب في حفظ أنسابها واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة (٢٩). وعليه، فالذي يذهب إلى توقيفية ترتيب السور والآيات معاً (٣٠)، استدلل بأمثال الرواية الآتية:

روي عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتُم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ووضعتموها في السبع الطوال، ما

(٣١) سنن الترمذي ٥: ٢٧٢ / ح ٣٠٨٦

قال الترمذي: حديث حسن صحيح، مسند أحمد ١: ٥٧ / ح ٣٩٩، كنز العمال ٢: ٢٤٥ / ح ٤٧٧٠، وقال الحاكم في مستدرکه ٢: ٣٦٠ / ح ٣٢٧٢: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢٩) مناهل العرفان ١: ١٧٢ و ١٧٣.

(٣٠) قال ابن حجر في فتح الباري ٩: ٤٢ بعد أن جاء بالخبر الآتي: فهذا يدل على أنّ ترتيب الآيات في كلّ سورة كان توقيفاً، ولما لم يفصح النبيّ بأمر براءة أضافها عثمان إلى الأنفال اجتهاداً منه.



السيوطي في (الإتقان) على توقيفية السور والآيات، في حين أنه قد ترشدنا جملة ابن عباس: «ما حملكم... ففرتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)»، وجملة عثمان: «وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أمرها»، إلى عدم توقيفيتها^(٣٢)، لأن ابن عباس سأل عثمان عن سبب قران الأنفال ببراءة دون فصلها بيسم الله الرحمن الرحيم، وذلك إشارة منه إلى عدم صحّة عمله، وأن ما علّله ليس هو السبب الحقيقي في ذلك، بل هناك سببٌ آخر، إشارة منه إلى وجود رواياتٍ أخرى جاءت عن الامام عليّ عليه السلام في ذلك.

(٣٢) ذهب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) في (الانتصار للقرآن) باب ترتيب الآيات والسور، إلى عدم توقيفية السور، واستدلّ بالخبر الآنف، فقال: «... وفي العلم بعدم ذلك دليل على أنه لم يكن منه توقيف، ويدلّ على ذلك قول عثمان: «وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصّتها تشبه قصّتها فظنتها منها»، وهذا تصريحٌ منه بعدم التوقيف، وقد تضمّن ذلك أنّها سورتان، لأنّه سمّى كلّ واحدةٍ باسمها. أنظر: الانتصار ١: ٢٨١ و٢٨٢.

مع التأكيد بأنّ عثمان وإن كان قد اجتهد في عدم الفصل بالبسملة بين الأنفال وبراءة ظناً منه أنّها سورة واحدة، إلاّ أنّه قد ثبت في خبرٍ آخر عن الإمام عليّ عليه السلام وغيره بأنّ البسملة أمان ورحمة وأنّ سورة براءة نزلت بالسيف.

قال الآلوسي في (روح المعاني):

والحقّ أنّها سورتان، إلاّ أنّهم لم يكتبوا البسملة بينهما لما رواه أبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عباس، عن عليّ، من أنّ البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف. ومثله عن محمد بن الحنفية وسفيان بن عيينة، ومرجع ذلك إلى أنّها لم تنزل في هذه السورة كأخواتها لما ذكر^(٣٣).

وقال القشيري: والصحيح أنّ

التسمية لم تكتب؛ لأنّ جبريل ما نزل بها في هذه السورة^(٣٤).

وعليه، فلا يصحّ ظنّ عثمان بأنّها من الأنفال لتشابه قصّتيهما، وقوله:

(٣٣) روح المعاني ١٠: ٤١.

(٣٤) تفسير القرطبي ٨: ٦٣، البرهان في علوم القرآن ١: ٢٦٣ النوع الرابع عشر (معرفة تقسيمه وترتيب السور والآيات وعددها).



التحقيق، ولكن لما رفعت الأقسام، وجفت الصحف، واجتمعت الكلمة في أيامه، واقتدت المسلمون في سائر الآفاق بامامته، نسب ذلك إليه، وقصر من دونهم عليه والسؤال منه... (٣٦).

أترك التعليق على هذا النص والخص ما مر في نقاط:

١. أتينا بروايات كثيرة دالة على إشراف رسول الله على مكان الآيات في السور وهو يثبت توقيفية الآيات دون السور. أما توقيفية ترتيب السور فهو مختلف فيه وقد اشتهر بأن ترتيب السور كما هو الآن من عمل عثمان بن عفان.

٢. يستفاد من كلام ابن حجر وغيره عدم توقيفية الآيات أيضاً، وقد يكون في كلام عائشة ما يؤيد ذلك.

٣. أكدنا وجود ترتيبين للمصحف أحدهما للتلاوة وهو ما أراده الله في كتابه والآخر قد رتب طبقاً لنزول الحوادث والوقائع وهو كتاب علم لا تلاوة وذكر.

(٣٦) روح المعاني ١: ٣٧.

«فمن أجل ذلك قرنتُ بينها ولم أكتب بينها سطر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)» (٣٥)، لأنَّ الأمر لا يعود إليه، بل يعود إلى ربِّ العزّة والجلالة وإلى رسوله الأمين، اللذَّين لم يأتيا به، وإلى عدم قراءة المسلمين بالبسملة في سورة براءة خاصّة وفق ما علّمهم رسول الله ﷺ عن الله في القراءة.

ولا يخفى عليك بأنَّ الألويسي كان قد علّق على ما رواه ابن عباس في الخبر الأنف بالقول:

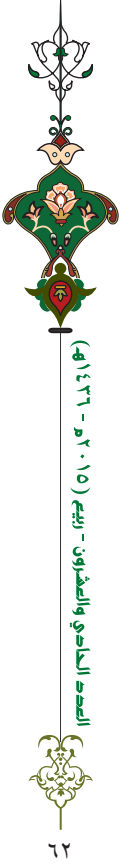
وعثمان رضي الله عنه وإن لم يقف على ما يفيد القطع في براءة والأنفال وفعل ما فعل بناءً على ظنه إلا أنّ غيره وقف وقبل ما فعله ولم يتوقف.

وكم لعمر رضي الله عنه موافقات لربه أدّى إليها ظنّه، فليكن لعثمان هذا الموافقة التي ظفر غيره بتحقيقها من النصوص أو الرموز فسكت، على أن ذلك كان قبل ما فعل عثمان عند

(٣٥) سنن الترمذي ٥: ٢٧٢ / ٣٠٨٦ باب

ومن سورة التوبة، الأحاديث المختارة ١:

٤٩٤ / ٣٦٥.



٤. بينا سر تكرر العرضات بين جبرئيل الأمين والصادق الأمين في كل عام.
٥. استغلال بعض المستشرقين لما قيل من ثبوت القرآن بنسخ آحاد كما في خبر أبي خزيمة وإمكان تأليف الصحابي سوراً من ثلاث آيات!
٦. أشرنا إلى لفظة القرآن وأنها قد تكون مأخوذة من القراءة.
٧. الخلفاء الثلاثة لا يعتمدون كبار الصحابة في جمع القرآن، كما وضعنا أيضاً بأن للصحابة مصاحف ناقصة وهو يؤكد اهتمام رسول الله بأمر التأليف والتدوين.
- وأخيراً انتقل إلى موضوع آخر وهو أساسي أيضاً ألا وهو:

دور رسول الله وجبرئيل

في ترتيب الآيات

وإليك الآن بعض الروايات الدالة على دور رسول الله ﷺ وجبرئيل عليه السلام في ترتيب الآيات، ويمكن من خلالها الاستفادة توفيقيتها:

ففي (فضائل القرآن) لأبي عبيد وغيره، عن ابن عباس، عن عثمان بن

عقّان، قال: كان رسول الله إذا نزلت عليه سورة دعا بعض مَنْ يكتب، فقال: ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يُذكر فيه كذا وكذا (٣٧).

كما ورد عن جبرئيل عليه السلام أنه كان يقول: ضعوا كذا في موضع كذا (٣٨).

وعن عثمان بن أبي العاص، قال: كنتُ عند رسول الله ﷺ جالساً، إذ شَخَّصَ ببصره ثم صوّبه حتّى كاد أن يلزقه بالأرض، قال: ثمّ شَخَّصَ ببصره فقال: أتاني جبرئيل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٣٩)، فجعلت في سورة النحل بين آيات الاستشهاد وآيات العهد.

وروى القرطبي بسنده عن ابن عباس أنّه قال: آخر ما نزل من القرآن: ﴿وَأَتَقُوا﴾

- (٣٧) فضائل القرآن: ٢٨٠ باب تأليف القرآن وجمعه كذا هو النص لكن يحتمل أن تكون مكان (سورة) و(السورة) آية.
- (٣٨) مناهل العرفان ١: ١٧٢، الإتيقان ١: ١٦٩ / ٨٠١، وكذا في البرهان ١: ٢٥٦.
- (٣٩) مسند أحمد ٤: ٢١٨ / ح ١٧٩٤٧، الإتيقان ١: ١٦٨ / ح ٧٨٢.



قال: ما راجعتُ رسولَ الله في شيءٍ ما راجعتهُ في الكَلالة، وما أغلظَ لي في شيءٍ ما أغلظَ لي فيه، حتّى طعن بإصبعه في صدري، فقال: يا عمر، ألا تكفيك آيةُ الصيف (٤٣) التي في آخر سورة النساء؟! (٤٤).

وأخرج البخاري عن ابن الزبير، قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [سورة البقرة: ٢٣٤ و ٢٤٠]؟ قال: قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا بن أخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه (٤٥).

وهذه الروايات كلّها جاءت في سياق إثبات توقيفية بعض الآيات في سور بعينها لا توقيفية الآيات في جميع

(٤٣) وقد سُمّيت بآية الصيف لنزولها في فصل الصيف، بخلاف الآية الأولى من سورة النساء والتي نزلت في فصل الشتاء والمسماة بآية الشتاء.

(٤٤) صحيح مسلم ١: ٣٩٦ / ح ٥٦٧، و٣: ١٢٣٦ / ح ١٦١٧.

(٤٥) صحيح البخاري ٤: ١٦٤٦ / ح ٤٢٥٦، و١٦٤٩ / ح ٤٢٦٢ في بعض النصوص: فلم تكتبها قالت: تدعها يابن أخي.

يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ [سورة البقرة: ٢٨١]، فقال جبريل للنبي ﷺ: يا محمد، ضَعُها في رأسِ ثمانين ومائتين من البقرة (٤٠).

هذا النص يدل على أن النبي كان يكتب ويقرأ ويعرف الأعداد وأوائل الآيات وأواخرها وليس كما يشيعه عنه أعداؤه!!.

وفي آخر: بين آيتي الرِّبَا والدِّين من البقرة (٤١).

وقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي، عن أبي مسعود البدري أنه قال: قال النبي: الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كَفَّتاه (٤٢).

وأخرج مسلم عن عمر بن الخطاب،

(٤٠) تفسير القرطبي ١: ٦١، وانظر: تفسير الكشاف ١: ٣٥٠.

(٤١) الإتيقان ١: ١٧١ / ٨١٠، أسرار التكرار في القرآن: ٢٣.

(٤٢) صحيح البخاري ٤: ١٩١٤ / ح ٤٧٢٢ باب فضل سورة البقرة، صحيح مسلم ١:

٥٥٤ / ح ٨٠٧، و٥٥٥ / ح ٨٠٨، وانظر:

سنن أبي داود ٢: ٥٦ / ح ١٣٩٧، سنن

الترمذي ٥: ١٥٩ / ح ٢٨٨١.



السور، وفي التأكيد على بيان دور رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام في ترتيب القرآن.

• كما أنّ هناك روايات أخرى استُدلّ بها على التوقيفية، لكن لا دلالة لها على ذلك أيضاً، فعن زيد بن ثابت، قال: كنت أكتب الوحي لرسول الله، وكان إذا نزل عليه أخذته بُرحاه^(٤٦) شديدة... فكنت أدخل عليه بقطعة القتب أو كسرة، فأكتب وهو يُملي عليّ.. فإذا فرغت قال: «إقرأه»، فأقرأه، فإن كان فيه سقط أقامه، ثم أخرج به إلى الناس..^(٤٧)

وليس في هذه الرواية دلالة على توقيفية السور أو الآيات، بل الذي فيها هو لزوم الضبط في الإقراء كي لا تسقط منها كلمة، أو فيها إشارة إلى محبوبية

(٤٦) البرحاء: الحمى الشديدة، والبرحاء: الشدة، والأمر العظيم، والمشقة. انظر: تاج العروس ٦: ٣٠٧ مادة برح.

(٤٧) المعجم الكبير ٥: ١٤٢ / ح ٤٨٨٩، المعجم الأوسط ٢: ٢٥٧ / ح ١٩١٣ وفيه: بقطعة الكتف، مجمع الزوائد ١: ١٥٢، و٨: ٢٥٧ عن الطبراني في الأوسط.

الكتابة عنده ﷺ، وأن زيد بن ثابت كان من كتّاب الوحي، وأنه كان يجيء باللوح والدواة ليكتب ما ينزل على رسول الله. عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي السَّوِيُّ الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِزُّ أُولِي الضَّرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: ٩٥]، قال النبي: «ادع لي زيدا، وليجئ باللوح والدواة والكتف - أو: الكتف والدواة -»، ثم قال: «أكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾»^(٤٨).

وهذه الرواية أيضاً ليس فيها أكثر من أمر النبي ﷺ زيدا بأن يأتيه باللوح والدواة وأن يكتب الآية، ومعناه: أنّ رسول الله ﷺ كان يهتم بما ينزل عليه من الوحي، وأنه كان لا يترك كلام ربّه من دون كتابة وتدوين.

وبالنتيجة، ترشدنا تلك النصوص إلى القول بأنّ وضع الآيات جميعها - أو قل بعضها - في السور كان أمراً توقيفياً وبأمر الله سبحانه وتعالى ورسوله؛

(٤٨) صحيح البخاري ٤: ١٩٠٩ / ح ٤٧٠٤، تفسير الطبري ٥: ٢٢٨، صحيح ابن حبان ١: ٢٢٨ / ح ٤٠.



اختلاف العلماء في مسالة ترتيب القرآن الكريم

المصباح

وذكر، بشرط أن تكون تلك القراءة هي بالقراءة المشهورة المتداولة عنه ﷺ لا الشاذة، لقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِئْ قُرْءَانَهُ﴾ [سورة القيامة: ١٨].

وقد نقل الزركشي عن أصحاب الشافعي قولهم: لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة، لأنها ليست قرآناً، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والقراءة الشاذة ليست متواترة، ومن قال غيره فغالط أو جاهل.

فلو خالفَ وقرأ بالشاذ أنكر عليه قراءتها في الصلاة وغيرها، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة من قرأ بالشواذ. ونقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشواذ، ولا يُصلى خلف من يقرأ بها (٤٩).

(وسوف نوضح في بحث لاحق - ان شاء الله تعالى -) وفي مبحث (توحيد المصاحف) على وجه الخصوص معنى الشاذ وأنه تارة يعني ما يخالف المتواتر، وأخرى ما يخالف القراءات السبع،

(٤٩) البرهان في علوم القرآن ١: ٣٣٣، وانظر: المجموع للنووي ٣: ٣٤٧.

لأن النبي ﷺ كان يعرف انتهاء السورة وابتداء السورة الأخرى بنزول ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. وذلك حينما كان هو وجبرئيل الأمين يجتمعان في رمضان في كل عام ليرجعا النازل نجوماً إلى النازل دفعة واحدة، فحينما كان ﷺ يسمع ببسم الله الرحمن الرحيم يعرف بأن السورة السابقة قد انتهت وبدأت السورة الجديدة في قرآن التلاوة.

لكن هذا الكلام لا يمنع من القول بوجود اختلاف بين ترتيب التنزيل وترتيب التلاوة، أي بين الترتيبين: الترتيب التدريجي التاريخي النازل في الوقائع والحوادث المختلفة، والترتيب الدفعي النازل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة مباركة - وهي ليلة القدر - مع التأكيد على أن قرآن التلاوة كان يعرف عن غيره بابتدائها بالبسملة، مع التأكيد على أن كليهما قرآن.

نعم إن أمر الصلاة يختلف عن غيره، فالذي يجب القراءة به في الصلاة هو المنزل على صدر النبي محمد ﷺ والمقر من قبل جبرئيل عن الله وأنه قرآن تلاوة



فالأول لا يؤخذ به، والثاني يؤخذ به إن كان له وجه من العربية كما يقولون. وابن أبي داوود عقد باباً في كتابه المصاحف سماه (باب اختلاف مصاحف الصحابة)^(٥٠)، ذكر فيه أسماءهم وما وقعوا فيه من الاختلاف، ووقع هذا الاختلاف بين الصحابة يفيد عدم توقيفية السور عندهم.

مصاحف الصحابة

اختلفت الصحابة في طريقة جمع القرآن، فمنهم من جمعه طبقاً لإنزاله وتنزيله^(٥١). والآخر اكتفى بجمع المنزل (٥٠) المصاحف ١: ٢٨٣.

(٥١) قال عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني في الترتيب الإداري ١: ٤٦: (إن الإمام علي بن أبي طالب جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي).

وباعتقادي: أن للإمام عليه السلام نسختين من المصحف، إحداهما توافق المصحف الرائج، والأخرى رُتبت تاريخياً وزمنياً طبق الحوادث النازلة على رسول الله، وقد كُتب في النسخة الثانية التفسير والتأويل وشأن نزول الآيات نجومياً، والنسختان تختلفان في الترتيب، فالأولى توافق النازل من اللوح المحفوظ، وثانيه فيها يوميات الدعوة الإسلامية، وهي كتاب علم لا كتاب ذكرٍ وتلاوة، وهذا ما نوضحه بعد قليل.

دون تفسيره، وثالث جعل تفسيره معه في بعض الأحيان.

ولهذا ترى أحياناً ترتيب السور في مصاحف بعض الصحابة يُخالف المصحف الرائج، أو أن المنقول عن مصحف هذا يختلف عن مصحف الآخر، إذ صرح ابن حجر في (فتح الباري) أن تأليف مصحف ابن مسعود على غير التأليف العثماني^(٥٢)، وفي (صحيح البخاري): تأليف ابن مسعود آخرهن الحواميم^(٥٣)، بل ذكر ابن النديم أنه رأى عدة مصاحف - ذكر نسخها - أنها مصحف ابن مسعود، ولم يرَ فيها مصحفين متفقين^(٥٤).

وقال الزركشي عن ترتيب السور وأنه: ليس هو أمرٌ أوجبه الله، بل أمرٌ راجع إلى اجتهادهم واختيارهم، ولهذا

(٥٢) أنظر: فتح الباري ٩: ٤٠، وفيه: فكان تأليف مصحفه [ابن مسعود] مغايراً لتأليف مصحف عثمان، ولا شك أن تأليف المصحف العثماني أكثر مناسبة من غيره.

(٥٣) صحيح البخاري ٤: ١٩١١ / ح ٤٧١٠ من باب تأليف القرآن.

(٥٤) الفهرست: ٣٩.



ما جمعه من المنزل وما معه من المفسر؟.

عائشة تجيز التقديم والتأخير

في السور وآيها

نعم، هناك من المُحدّثين من شكك في توقيفية الآيات في السور أيضاً، بدعوى: أن المقدّم من النصوص لا يصلح أن يكون دليلاً، وأقصى ما فيها دلالتها على توقيفيتها في تلك المواضع فقط، وقد مرّ عليك ما نقله الآلوسي عن البيهقي من أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والانفال، مستدلاً على عدم التوقيفية بما أخرجه البخاري:

حدّثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، أن ابن جريج أخبرهم، قال: وأخبرني يوسف بن ماهك، قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، إذ جاءها عراقيٌّ [فسألها عن مسائل، منها]: أنه طلب أن تريه مصحفها، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك؟. قالت: لم؟. قال: لعلّي أولف القرآن عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلّف.

قالت: وما يضرّك أيّة قرأت قبل؟!

إنما نزل أول ما نزل منه سورة من

كان لكلّ مصحف ترتيب [خاص به في السور]، ولكن ترتيب المصحف العثماني أكمل (٥٥).

منبهين على أن اختلاف ترتيب مصاحف الصحابة يؤكّد بأنّ ترتيب السور في مصحف عثمان ليس بتوقيفي من عند الله؛ لأنّها لو كانت توقيفية، لما وقع هذا الاختلاف بين مصاحف الصحابة، بل بماذا يعلّلون سبب اختلاف ترتيب مصحف عثمان مع مصاحف الآخرين؟!.

ألا تلزم التوقيفية أن تكون مصاحف الصحابة كلّها واحدة في ترتيبها؟. إذن فما يعني وجود هذا الاختلاف في ترتيب مصاحفهم؟!.

هل هؤلاء الصحابة -والعياذ بالله- قد خالفوا رسول الله ﷺ فيما رتبّه من نصّ عن رسول الله ﷺ في ترتيبه لسور مصحفه؟!.

بل هل يعقل أن يخالف الإمام عليّ عليه السلام رسول الله ﷺ في ترتيب مصحفه الموجود خلف فراشه عليه السلام، ولا يستشيرّه في ترتيب



المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل (لا تزنا) لقالوا: لا ندع الزنى أبداً، لقد نزل بمكة على محمد وإبي لجارية العُب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ [سورة القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده. قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السورة (٥٦).

فعاثشة - طبق هذا النص - تجيز تقديم السور إحداها على الأخرى وتقديم الآيات وتأخيرها في السورة الواحدة، لقولها: (وما يضرك أية قرأت قبل؟!؟)، ثم أملت عليه آي السور، لا

(٥٦) أنظر: صحيح البخاري ٤: ١٩١٠ / ح ٤٧٠٧ من باب تأليف القرآن، الجمع بين الصحيحين للحميدي ٤: ٢٠١ / ح ٣٣٦٢ باب أفراد البخاري، وفيه: أية قرأت قبل. وكذا في مصنف عبد الرزاق ٣: ٣٥٢ / ٢٩٤٣، وفي فضائل القرآن للنسائي: ٦٥ / ح ١٢ باب كيف نزل القرآن، وفيه: أئته قرأت. وانظر: إرشاد الساري ٧: ٤٥٣ وفيه شرح حول الخبر المذكور.

السور، سورة، سورة، سورة كاملة. قال ابن حجر في (فتح الباري) عند شرحه للخبر في قوله: (لعلي أولف عليه القرآن، فإنه يقرأ غير مؤلف):

... والذي يظهر لي أن هذا العراقي كان ممن يأخذ بقراءة ابن مسعود، وكان ابن مسعود لما حضر مصحف عثمان إلى الكوفة لم يوافق على الرجوع عن قراءته [والأخذ بقراءة مصحف عثمان] ولا [يوافق] على إعدام مصحفه، فكان تأليف مصحفه مغايراً لتأليف مصحف عثمان، ولا شك أن تأليف المصحف العثماني أكثر مناسبة من غيره، فلهذا أطلق العراقي أنه غير مؤلف.

وهذا كله على أن السؤال إنما وقع عن ترتيب السور، ويدل على ذلك قولها له: (وما يضرك أية قرأت قبل؟!؟)، ويحتمل أن يكون أراد تفصيل آيات كل سورة، لقوله في آخر الحديث: (فأملت عليه آي السور)، أي آيات كل سورة، كأن تقول له: سورة كذا مثلاً كذا كذا آية، الأولى كذا، الثانية... إلخ.

وهذا يرجع إلى اختلاف عدد



الآيات، وفيه اختلاف بين المدني والشامي والبصري، وقد اعتنى أئمة القراء بجمع ذلك وبيان الخلاف فيه، والأول أظهر. ويحتمل أن يكون السؤال وقع عن الأمرين، والله أعلم...

إلى أن يقول:

وقال القاضي عياض في شرح حديث حذيفة: إن النبي ﷺ قرأ في صلاته في الليل بسورة النساء قبل آل عمران، هو كذلك في مصحف أبي بن كعب، وفيه حجة لمن يقول: إن ترتيب السور اجتهاد وليس بتوقيف من النبي ﷺ، وهو قول جمهور العلماء.

واختاره القاضي الباقلاني، قال: وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة ولا في الصلاة ولا في الدرس ولا في التعليم، فلذلك اختلفت المصاحف، فلما كتب مصحف عثمان رتبوه على ما هو عليه الآن، فلذلك اختلف ترتيب مصاحف الصحابة. ثم ذكر نحو كلام ابن بطال، ثم قال: ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى، وعلى

ذلك نقلته الأمة عن نبيها (٥٧).

وهذا توجيه من قبل ابن حجر لكلام عائشة للعراقي لم يقبله دعاة عدم توقيفية الآيات في السور، وذلك لما عرفوا من وجود اختلاف بين مصاحف الصحابة في ترتيب السور، ولقول الراوي: (فأملت عليه آي السور)، وللتضاد الموجود بين نصوص الصحابة والتابعين في ترتيب الآيات والسور، فقد قال ابن عباس بأنه لم ينزل بعد آية الإكمال (٥٨) فريضة، وهو قريب لما قاله الإمامان الباقر والصادق عليه السلام والسدي، واختاره الجبائي والبلخي، بفارق أن بعضهم قال: «لم ينزل بعدها حلالاً ولا حراماً»، والآخر: «فريضة» (٥٩).

(٥٧) فتح الباري ٩: ٣٩ - ٤٠، وانظر: الانتصار للباقلاني ١: ٢٨٤ باب القول في ترتيب السور.

(٥٨) وهي: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ رِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: ٣].

(٥٩) أنظر: تفسير الطبري ٦: ٧٩، تفسير ابن كثير ٢: ١٣، تفسير القمي ١: ١٦٢، التبيان للطوسي ٣: ٤٣٥، الدرر المنثور ٣: ١٦، مجمع البيان للطبرسي ٣: ٢٧٣.



في حين أن آية الإكمال هي الآية رقم ٣ من سورة المائدة، وآيات الأحكام التي جاءت بعدها في تلك السورة كثيرة، كآية تحليل الطيبات والصيد برقم ٤، وآية طعام أهل الكتاب برقم ٥، وآية الوضوء برقم ٦، وآية السارق والسارقة برقم ٣٨، وآية الأيمان برقم ٨٩، وآية الخمر برقم ٩٠، وآية تحريم الصيد برقم ٩٥، وآية تحريم ما حلله المشركون برقم ١٠٣، وآية الإشهداد في الوصية برقم ١٠٧.

وقد تساءل من طرح هذا الكلام بالقول: فما هي المناسبة لإحكام آية الإكمال ضمن آيات تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير^(٦٠)؟

قالها كأنه يريد التشكيك بتوقيفية الآيات في السور وأن الحق مع ابن عباس في قوله: «لم ينزل بعد آية الإكمال آيات حلال وحرام».

هذا وإن دعاء عدم توقيفية الآيات

(٦٠) أنظر: التمهيد في علوم القرآن للشيخ محمد هادي معرفة ١: ٢١٦ باب تأليف الآيات.

في السور قد يستدلون بما اشتهر عن ترتيب الإمام علي عليه السلام للقرآن طبقاً للوقائع والحوادث، وأن المنسوخ عنده مكتوب قبل الناسخ، والمكي قبل المدني، لكن فاتهم أنه قد كتبت تلك الآيات طبق التنزيل نجومياً، أي أن الآيات المدونة عنده لم تكن للتلاوة، بل هي للعلم والتاريخ، وهي كانت يوميات الدعوة الإسلامية، وقد دونها طبق تاريخ وسني الحوادث والترتيب الزمني لها من أول البعثة الى آخرها.

فهذه النصوص وغيرها مما استدلوا به على عدم توقيفية الآيات في السور. قال القسطلاني في (لطائف الإشارات) - بعد أن أخرج عن ابن أبي داود حديثاً، قال:

أتى الحارث بن خزيمة^(٦١) بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة، فقال: أشهد أني سمعتهما من رسول الله ووعيتهما، فقال

(٦١) هو الحارث بن خزيمة بن عدي بن أبي غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري شهد بدمراً والمشاهد ومات بالمدينة سنة اربعين وهو ابن سبع وستين. الإصابة ١: ٥٧١ / ١٤٠١.



لسوره، حتى جمع عثمان مُصَحِّفه وحمل الناس عليه.

فلو كان ترتيب المصحف توقيفياً، لم يختلف ترتيب السور في مصاحف كبار الصحابة، كعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعائشة أم المؤمنين وزيد بن ثابت، فكل واحد من هؤلاء كتب مصحفه على عهد رسول الله ﷺ.

فمصحف علي كان أوله: (اقرأ)، ثم (المدثر)، ثم (ن)، وهكذا إلى آخر المكي والمدني، ومصحف ابن مسعود كان أوله: (البقرة)، ثم (النساء)، ثم (آل عمران) على اختلاف شديد.

وقد ذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) ترتيب سور مصاحف بعض الصحابة، كما ذكره أيضاً السيوطي في كتابه (الإتقان)، فراجعها إن شئت.

فلو كان هناك أمرٌ صريح أو إشارة خفية من النبي ﷺ في ترتيب سور المصحف، لما عذب ذلك على هؤلاء، وهم من أجلاء الصحابة وأكثرهم اتصلاً به

عمر: وأنا أشهد لقد سمعتها، ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها في آخرها. قال: فظاھرہ انھم كانوا يؤلفون آيات السور باجتھادھم (٦٢).

وقال الكردي في (تاريخ القرآن وغرائب رسمه):

ففي قول عائشة للعراقي: (وما يضرّك آية قرأت قبل؟!.)، دليل على أن ترتيب السور في التلاوة ليس بواجب (٦٣)، وهو كذلك في جميع المذاهب، فإنه يجوز ترك ترتيبها في الصلاة والتلاوة والدرس، لأن كل سورة مستقلة بذاتها مستوفية لآياتها، ويفهم من هذا الحديث أن الناس كانوا يقرؤون القرآن ويكتبونه من غير ترتيب

(٦٢) لطائف الإشارات: ٥٩ - ٦٠.

(٦٣) قد يقال بأن ترتيب الآيات في السورة الواحدة غير واجب أيضاً، لقول عائشة أنف الذكر ولقول الراوي: (ثم أملت عليه أي السور)، وذلك لإمكان قراءة الإنسان من وسط السورة في التلاوة والدرس، لكن الشيعة الإمامية لا تجيز هذا الأمر في الصلاة الواجبة، بل ترى لزوم قراءة سورة كاملة مع فاتحة الكتاب.



(عليه الصلاة والسلام)... (٦٤).

وقد نقل القرطبي - بعد ذكره ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته - كلام ابن بطال:

... ومَنْ قال بهذا القول [أي بتوقيفية السور] لا يقول: إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقّف عليه في المصحف، بل إنّها يجب تأليف سُورِهِ في الرسم والخطّ خاصّة، ولا يُعلم أنّ أحداً منهم قال: إنّ ترتيب ذلك واجبٌ في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنّه لا يجلّ لأحدٍ أن يتلقّن الكهف قبل البقرة ولا الحجّ قبل الكهف، ألا ترى قول عائشة للذي سألها: (لا يضرّك أيّه قرأت قبل)، وقد كان النبيّ ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثمّ يقرأ في ركعةٍ أخرى بغير السورة التي تليها (٦٥).

قال الشيخ محمد هادي معرفة بعد روايته خبراً عن الإمام الصادق عليه السلام وابن

(٦٤) تاريخ القرآن الكريم: ٧١-٧٢.

(٦٥) تفسير القرطبي ١: ٦١ باب ما جاء في ترتيب سور القرآن.

عبّاس، والذي فيه أنّ النبيّ ﷺ كان يعرف انقضاء السورة بنزول ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّعِينِ﴾، قال:

كان كتبة الوحي يعرفون بوجوب تسجيل الآيات ضمن السورة التي نزلت بسمَلتها، حسب ترتيب نزولها واحدةً تلو أخرى كما تنزل، من غير حاجةٍ إلى تصريحٍ خاصّ بشأن كلّ آيةٍ آيةً (٦٦).

هكذا ترتبت آيات السور وفق ترتيب نزولها على عهد الرسول الأعظم ﷺ، وهذا ما نسّميه (الترتيب الطبيعي)، وهو العامل الأوّل الأساسي للترتيب الموجود بين الآيات في الأكثرية الغالبة.

... وقد نجد تغييراً موضعياً في آيةٍ أو آيات على خلاف ترتيبها الطبيعي، في

(٦٦) هذا المطلب على إطلاقه غير ثابت، ذلك لأنّ القرآن الكريم إنّما كان ينزل على أساس الوقائع والحوادث الخاصّة كما تقتضيه الحكمة الإلهية، ولم يثبت أنّ أغلب السور نزلت مترتبة، فلربما نزلت جملة من آيات سورةٍ ثمّ تعقبتّها آيات من سورةٍ أخرى غير السورة الأولى، بل نفس آيات السورة الواحدة - خصوصاً إذا كانت من الطوال - لم يثبت أنها نزلت مرتبة، فما أفاده الشيخ معرفة عليه السلام لا يخلو من إشكال وإن كان صحيحاً في الجملة.



الهجرة، كانت قد أتت النبي ﷺ مسلمة مهاجرة تاركة زوجها الكافر، ف جاء في طلبها، فاستعصمت بالنبي ﷺ، وصادف مجيئه صلح الحديبية، إذ كان النبي ﷺ عاهد قريشاً أن يردّ عليهم كل من يأتيه من مكة، فأخذ الزوج في محاجة النبي ﷺ قائلاً: أردد عليّ امرأتي على ما شرطت لنا، وهذه طينة الكتاب لم تحفّ. فتخرج النبي ﷺ في أمرها، فنزلت الآيتان.

وبعد هاتين الآيتين آيات نزلت بشأن مبايعة النساء عام الفتح، وهي السنة التاسعة من الهجرة!.

وأما الآية الأخيرة من السورة، فإنّها ترتبط مع آيات الصدر تماماً، ومن ثمّ قالوا: إنّ دراسة هذه السورة تعطينا خروجاً على النظم الطبيعيّ للآيات، من غير ما سبب معروف.

ومن ذلك أيضاً ما نجده في سورة البقرة فيها يخصّ آيات الإمتاع والإعتداد، كان التشريع الأوّل في المرأة المتوفى عنها زوجها أن تعتدّ حولاً كاملاً ولا تخرج من بيت زوجها، وكان ميراثها هو الإنفاق عليها ذلك الحول فقط، والآية نزلت

حين عدم نصّ خاصّ بشأن هذا التغيير، وربّما كانت الآية نزلت فكتبها كاتب، ثمّ نزلت أخرى فكتبها كاتب آخر في غيبة الأوّل، فسجلها قبل الأوّل من غير أن يعلم بما سجّله ذلك، فعند الجمع الأخير في حياة الرسول ﷺ أو بعد وفاته حصل ذلك التغيير الموضوعي لعدّة قليلة من الآيات.

وهذا احتمال نحتمله بشأن هكذا آيات خرجت عن الترتيب الطبيعيّ، ولم نجد عليها نصّاً خاصّاً.

هذا الاحتمال بنفسه كافٍ في عدم إمكان الاستدلال -لفحوى آية- بسياقها الخاصّ، اللهمّ إلّا إذا كانت المناسبة واضحة أو علمنا بها من خارج.

من ذلك ما نجده في سورة الممتحنة؛ تبتدئ هذه السورة بآيات (١-٩) نزلت في العام الثامن بعد الهجرة بشأن حاطب بن أبي بلتعة، كان قد كاتب قريشاً يخبرهم بتأهب النبي ﷺ لغزو مكة، وكان النبي ﷺ يحاول الإخفاء.

وتتعبّ هذه الآيات آيتان نزلتا بشأن سبيعة الأسلمية العام السادس من



بهذا الشأن، هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ - الآية رقم ٢٤٠، ثم نُسخ هذا التشريع بآية الإعتداد بأربعة أشهر وعشراً برقم ٢٣٤ من نفس السورة، وبآية المواريث برقم ١٢ من سورة النساء. ... ويتبع من هذا البحث عدم إمكان الاستناد في تفسير آية أو فهم فتواها إلى موقعيتها الخاصة من آيات سابقة أو لاحقة، إلا بعد التأكد القطعي من أصالة الترتيب الموجود بينها وبين قريناتها في جملة من آيات نزلت دفعة واحدة^(٦٧).

هذا هو كلام الشيخ معرفة رحمته الله. وقال العلامة الطباطبائي في كتابه (القرآن في الإسلام):

والآيات والسور القرآنية لم تنزل قطعاً^(٦٨) على الترتيب الذي نقرؤه في

(٦٧) التمهيد في علوم القرآن ١: ٢١٢، ٢١٤، ٢١٧ من باب تأليف الآيات.

(٦٨) لأن القرآن نزل منجماً بعد نزوله الدفعي، والسور ألفت بعد انتهاء نزول آياتها في رمضان من كل عام - خلال ثلاث =

القرآن اليوم، بأن تكون أولاً سورة الفاتحة ثم سورة البقرة ثم سورة آل عمران ثم سورة النساء وهكذا.. لأنه بالإضافة إلى الشواهد التاريخية على ذلك، فإن مضامين الآيات نفسها تشهد عليه؛ لأنّ بعض السور والآيات لها مضامين تناسب أوائل زمن البعثة وهي واقعة في أواخر القرآن، كسورة العلق (ون)، وبعضها تناسب ما بعد الهجرة وأواخر عصر الرسول وهي واقعة في أوائل القرآن، كسورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة.

إنّ اختلاف مضامين السور والآيات وارتباطها الكامل بالأحداث والحوادث التي وقعت طيلة أيام الدعوة، يفرض علينا القول بأنّ القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة؛ عصر الدعوة النبوية.

= وعشرين سنة، فقد تكون سورتان أو عشرة سور أو أكثر من ذلك أو أقل انتهى نزولها في عام واحد، فكان يسمح بقراءتها في الصلاة وكتابتها في المصحف وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ لَهُ، وَتَرَاهُ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَرَأَهُ لِنَفْسِهِ لِيُنذِرَ لِنَاسٍ عَلَىٰ مَكْثٍ﴾، وبذلك يكون ترتيب النزول غير ترتيب التلاوة.



فمثلاً الآيات التي تدعو المشركين إلى الإسلام ونبد عبادة الأوثان تتناسب مع عصر قبل هجرة الرسول من مكة، حيث ابتلي الرسول بالوثنيين، وأما آيات القتال وآيات الأحكام فقد نزلت في المدينة المنورة، حيث أخذ الإسلام ينتشر، وأصبحت المدينة تشكل حكومة إسلامية كبرى (٦٩).

وقال في (الميزان) - معلقاً على خبر ابن عباس: قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني.. الخ.

أقول: السبع الطوال - على ما يظهر من هذه الرواية، وروي أيضاً عن ابن جبير - هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس، وقد كانت موضوعة في الجمع الأول [أي في عهد أبي بكر] على هذا الترتيب، ثم غير عثمان هذا الترتيب، فأخذ الأنفال وهي من المثاني وبراءة وهي من المثين قبل المثاني، فوضعها بين الأعراف ويونس مقدماً الأنفال

(٦٩) القرآن في الإسلام: ١١٩ - ١٢٠.

على براءة (٧٠).

والكلام عن هذا الموضوع طويل وشائك، قد نعود إليه لاحقاً (٧١).

نتائج البحث

يمكن أن نخلص الى نتائج أهمها: إن إنزال القرآن دفعةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا يؤكد علم الله بكلّ الوقائع والأحداث التي ستحدث لاحقاً للناس، لأنّه سبحانه العالم بما كان وما يكون وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة.

وقد يفهم من اعتراض الكفار على الرسول ﷺ في لزوم نزول القرآن جملةً واحدة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۗ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: ٣٢ - ٣٣]، بأنهم عرفوا نزول الكتب السماوية قبل النبي محمد ﷺ على الأنبياء جملةً واحدة،

(٧٠) الميزان ١٢: ١٤.

(٧١) وقد افردنا لذلك دراسة مستقلة سنوافي بها البحث العلمي ان شاء الله - تعالى.



فلماذا يرون نزول القرآن على محمد بن عبد الله ﷺ منجماً الآن؟.

قالوا بذلك لأنهم كانوا لا يعلمون بإنزاله دفعةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا قبل نزوله منجماً على رسوله، وإن الله سبحانه لم يكذبهم فيها ادّعوه عن الرسائل السابقة، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفزقاً وأنها لتثبيت الفؤاد ولكي يصون أتمته من التحريف وما شابه ذلك.

ولو كان نزول الكتب السماوية السابقة مفزقاً - كالقرآن - لردّ عليهم سبحانه بالتكذيب، ولقال لهم: إنها سنّة الله وسنّة المرسلين من قبله ﷺ، كما جاء في ردّه عليهم في قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [سورة الفرقان: ٢٠]، جواباً لطعنهم في الرسول وقولهم: ﴿ مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [سورة الفرقان: ٧].

وقد قال السيوطي في سر إنزاله جملة واحدة ومنجماً:

قيل: السرّ في إنزاله جملةً إلى السماء، تفخيماً أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكّان السماوات السبع أنّ هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أنّ الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفزقاً؛ تشرifaً للمنزّل عليه. ذكر ذلك أبو شامة في (المرشد الوجيز) (٧٢).

وقال الحكيم الترمذي: أنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا تسليماً منه للأمة ما كان أبرز لهم من الحظّ بمبعث محمد ﷺ، وذلك أنّ بعثته كانت رحمة، فلما خرجت الرحمة بفتح الباب جاءت بمحمد ﷺ وبالقرآن، فوضع القرآن بيت العزة في السماء الدنيا ليدخل في حدّ الدنيا، ووضعت النبوة في قلب محمد، وجاء جبرئيل بالرسالة ثم

(٧٢) أنظر: الإتيان ١: ١١٩ / ح ٥٠٨ - عن: المرشد الوجيز: ٤٢.



تثبيته في قلب النبي محمد ودقة الضبط والتثبت كما يقولون، أهمها تعيين أماكن الآيات من كل سورة في قرآن التلاوة؛ وبمعنى آخر: إرجاع القرآن المنجم إلى ترتيب النزول الدفعي الذي أراد الله التلاوة به في القرآن.

وإنّ في كلامه ﷺ: «ضعوا الآية الفلانية في المكان الفلاني من السورة الفلانية»، أو قوله ﷺ: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية... في سورة النحل»، أو ما جاء في قول جبريل ﷺ: «ضعوا كذا في موضع كذا»، أو: «يا محمد، ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة».. إشارة منه إلى هذا الأمر الخطير، وأنّ على الصادق الأمين وجبرئيل الأمين إرجاع النازل نجوماً إلى أماكنها في السور بأمر من الله سبحانه وتعالى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ لَهُ﴾

[سورة القيامة: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾ [سورة هود: ١].

=الأمين والصادق الأمين وفوائد العرضة الأخيرة، والآن نستنتج فوائد أخرى.

الوحي، كأنه أراد تعالى أن يُسلم هذه الرحمة التي كانت حظّ هذه الأمة من الله إلى الأمة (٧٣).

وقال السخاوي في (جمال القراء): في نزوله إلى السماء جملةً تكريمً بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن ترفها، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأنّ أمر جبرئيل ﷺ بإملائه على السّفرة الكرام البررة ﷺ وإنساخهم إياه وتلاوتهم له.

قال: وفيه أيضاً التسوية بين نبيّنا ﷺ وبين موسى ﷺ في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد في إنزاله عليه منجماً ليحفظه (٧٤).

وعليه، فإنّ مسألة عرض رسول الله ﷺ القرآن على جبرئيل ﷺ في كل عام كانت فيها فوائد عظيمة (٧٥)، مضافاً إلى

(٧٣) أنظر: الإتيان ١: ١١٩ / ح ٥٠٩.

(٧٤) جمال القراء: ١٥٣ - ١٥٤، وعنه في الإتيان ١٢٠: ١ / ح ٥١٠.

(٧٥) كنا قد أشرنا في أول هذا المبحث - الترتيب - إلى اللقاء الثنائي بين جبرئيل =



كما أنه يبيّن سرّ إشراف رسول الله ﷺ على ترتيب الكتاب العزيز^(٧٦)، وسبب عرض رسول الله القرآن على جبرئيل كلّ عام مع أنّ الله سبحانه صان رسوله من النسيان وقد أقرأه ﴿سُنُّرُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [سورة الأعلى: ٦]، إذن فما يعني سر هذا اللقاء الثنائي بينهما في كل عام، وما الفائدة منه، مع إقرارنا بأنّ محمّد بن عبد الله ﷺ هو رسول الله، والمبلّغ الصادق الأمين للوحي؟. إلّا أن نقول بأن الدقّة في الضبط والحفاظ على نصّه ولزوم قراءته وإقراءه طبقاً لما نزل من اللّوح المحفوظ إلى البيت المعمور أو إلى سماء الدنيا أو على صدر النبي محمّد ﷺ كانا مما شرعاً للوقوف أمام المدعيات الكاذبة للآخرين في جمع القرآن.

(٧٦) فما جاء عنه ﷺ في فضيلة بعض الآيات، أو في تحديد بعض الآيات لموضوع خاص، كقوله مثلاً: «إقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة»، أو: «الآيات الأخيرة من سورة الكهف»، أو: كذا وكذا، يؤكّد إشرافه ﷺ على ترتيب المصحف، لأنّ تأكّيده على قراءة الآيات العشر من آخر سورة كذا، فيها دلالة على قرآنتها عند البارئ جل وعلا.

وقد أقرّ نولدكه بوجود تطابق بين ترتيب الآيات المنزلة نجوماً مع النازلة دفعة واحدة حيث قال: إنّ الآيات المنفردة المختلفة التي يتألّف منها كتاب الإسلام المقدّس، تعود بناءً على إشاراتٍ كثيرة متضمّنة فيها، إلى كتاب محفوظ في السماء، وذلك في مطابقة دقيقة له، في حين أنّ كتب المسيحيين واليهود المقدّسة تنبثق من النموذج الأعلى ذاته، غير أنّها تعرّضت لتشويه كبير.

وبعد هذا يكون ترتيب المصحف اليوم هو ما وافق اللّوح المحفوظ؛ ولم يقع فيه التحريف حسب إقرار بعض المستشرقين أيضاً بعكس التوراة والإنجيل المحرفتين، لأنّ الله لم يجوز لرسوله أن يقرأ القرآن قبل أن يقضي به الوحي، فكيف يرضى ﷺ للمسلم أن يقرأ آيات القرآن في صلاته قبل إكمال نزولها وقضاء الوحي بتلاوتها؟.

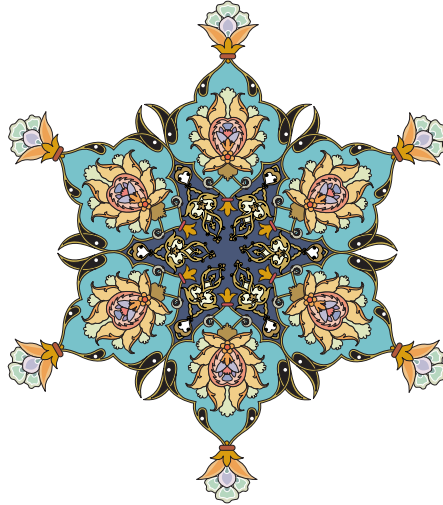
أو كيف يرضى سبحانه وتعالى أن يقرأ المسلم كتابه المقدّس بالترادف من الكلمات، أو بالمعنى؟!

فالله سبحانه كان لا يسمح للنبيّ



اختلاف العلماء في مسألة ترتيب القرآن الكريم..... **التصنيف**

أن يستعجل في إقرار الآيات والسور قبل إكمال نزولها منجماً، لقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴿١٧﴾ **فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبِعْ قُرْآنَهُ** ﴿١٨﴾ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴿ [سورة القيامة: ١٦ - ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴿ [سورة طه: ١١٤]، وأمثالها.. فكيف يرضى بما قالوه عن جمعه بشاهدين، وببغير المعصوم، وفي زمن الفتنة على وجه الخصوص؟! إن ما قالوه قبيح جداً.



أبحاث غير منشورة

للعلامة المحقق الشيخ محمد هادي معرفة

في علوم القرآن الكريم

(نحن نقص عليك احسن القصص بالوجهين اللذين هما هذا القرآن)

تم - محمد هادي موزة
٧٧٩/٧

(يوسف : ١٢ : ٣)

مفهوم القصة

قصة عليه الخبر قصصاً : حدث به . والقصة : تتبع الأثر . يقال : قصصت أثره أي تتبعته . قال تعالى : « فارتد على آثارها قصصاً » (الكهف : ٦٤) أي ربما يتفحص الأثر الذي جاء به . وقال علي بن أبي طالب : « وقالت لاخته قصصه » (القصص : ١١) أي يتبع أثره حتى ينظر من يأخذ من الماء . والقصص : الأخبار المتتبع . قال تعالى : « أت هذا لغير القصص الحق » (آل عمران : ٦٢) وقال : « لقد كانت قصصهم عبرة لأول الأديب » (يوسف : ١١٣ : ١١١) .
والقصة : الحديث . الخبر . الأمر الحادث . الأحدث . الشأن . المجال . مجملها : قصص وأقاصيص .

وقصص القرآن : أخباره عن أحوال الماضين من الأمم وانباء سابقين ، وعن حوادث وآثار في سالف الأيام . وقد استعمل القرآن بكثرة من كل ما صنفه وتاريخ الأمم وذكر البلاد والديار وتتبع آثارها ، لكي منهم صرة نالمة لما كانا عليه ..

أثر القصة

والقصة - إذا كانت ذات هدف - وقع أثرها في النفوس وقصاً مباشراً وفي أحسن وجه ، فان ذكر الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج ، ما يجعلها السبع ويصير لها التلب ، اذا تخلفتها مواطن العبارة في أخبار الماضين ، وكان حب الاستطلاع المرفق من أقرن السائل على رصوخ عبرة في النفس .

والمرغظة الخطابة تسرد سرداً لا يجمع العقل الا لافرا ، ولا يعي جميع ما يلحق فيها ، ولكنها حين تأخذ صوره من واقع الحياة في إجمالها ، تنفع اهلها في ريتاج المرسلات ويصفيها بشوق ولحفة ، ويتأثر بايديها من عبر وعظمت . وقد أصبح ادب القصة - قديماً وحديثاً - فناً خاصاً من فنون اللغة وآداب ولا سيما في مجال التربية والتعليم .
والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب القرآني الحكيم امرس تمثيل ، وتصوير في ابلغ صورته في البياض والدرشاد .

قال نظام الدين العمري النيشابوري : ونحن نرى ان الافات يذكر من فلا يلوح كما ينبغي ، فاننا ذكرنا المثال اتبع والكشف ، وذلك ان شطرنج الخيال حب الحكاية ، فاننا ذكرنا المعنى لوصف ادركه العقل ولكن من نازلة الخيال ، وانما ذكر التشبيه بعد ادركه العقل مع سادته الخيال . ولا شك ان الثاني يكون الكل . وانما كان العقل يفتد زيادة البياض والروض ، وجب ذكره في الكتاب الذي انزل تبياناً لكل شيء .. (١)

١- تفسير غرائب القرآن للشيخ النيشابوري - بلاش تفسير الطبري ج ١ ص ٣٩٩ - ٤٠٠

الْقَصَصُ الْقُرْآنِيُّ

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

سماحة العلامة

الشيخ محمد هادي معرفة رحمته الله

مفهوم القصة:

قَصَّ عَلَيْهِ الْخَبْرَ قَصَصًا: حدثه به.
وَالْقَصُّ وَالْقَصَصُ: تَتَّبِعُ الْاَثْرَ. يقال: قصصت اثره اي تتبعته. قال تعالى:
﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [سورة الكهف: ٦٤] اي رجعا يقصان الاثر الذي جاء به. وقال -على لسان ام موسى-: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه ﴾ [سورة القصص: ١١] اي تتبعي اثره حتى تنظري من يأخذه من الماء. والقصص: الاخبار المتتبعة، قال تعالى:
﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٢] وقال ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف: ١١١].
والقصة: الحديث. الخبر. الامر الحادث. الاحدوثة. الشأن. الحال. جمعها: قصص واقاصيص. وقصص القرآن: إخباره عن احوال الماضين من امم وانبياء سابقين، وعن حوادث واقعة في سوانف الايام. وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع ماضية وتاريخ الامم وذكر البلاد والديار وتتبع اثار اقوام، حكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه..

اثر القصة:

وللقصة -اذا كانت ذات هدف- فقد وقع اثرها في النفوس وقعا مباشرا وفي

حبّ المحاكاة، فاذا ذكر المعنى وحده ادركه العقل ولكن مع منازعة الخيال، واذا ذكر التشبيه معه ادركه العقل مع معاونة الخيال. ولاشك في ان الثاني يكون اكمل. واذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح، وجب ذكره في الكتاب الذي انزل تبياناً لكل شيء^(١)..

قال الرازي -بصدد بيان فائدة ذكر قصص الانبياء :-

اعلم انه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبيانات، وفي الجواب عن الشبه والسؤالات، شرع بعد ذلك في بيان قصص الانبياء ﷺ لوجوه:

احدها: ان الكلام اذا طال في تقرير نوع من انواع العلوم، فربما حصل نوع من انواع الملالة، فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر، انشرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلاً قوياً.

وثانيها: ليكون ﷺ ولاصحابه اسوة بمن سلف من الانبياء، فان الرسول اذا

احسن وجوه، فان ذكر الحادثة المرتبطة بالاسباب والنتائج، مما يهفو اليها السمع ويعيها القلب، اذا تخللتها مواطن العبرة في اخبار الماضين، وكان حب الاستطلاع لمعرفتها من اقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس.

والموعظة الخطابية تسرد سرداً لا يجمع العقل اطرافها، ولا يعي جميع ما يلقي فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها، تتضح اهدافها ويرتاح المرء لسماحها، ويصغي اليها بشوق وهلفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات. وقد اصبح أدب القصة - قديماً وحديثاً - فناً خاصاً من فنون اللغة وادابها ولا سيما في مجال التربية والتعليم.

والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الاسلوب القرآني الحكيم اقوى تمثيل، ويصوره في ابلغ صورة في البيان والارشاد.

قال نظام الدين القمي النيشابوري: ونحن نرى ان الانسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغي، فاذا ذكر المثال اتضح وانكشف. وذلك انّ من طبع الخيال

(١) تفسير غرائب القرآن للنيشابوري - بهامش تفسير الطبري ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠.



سمع ان معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل، ما كانت الا على هذا الوجه، خف ذلك على قلبه. كما يقال: المصيبة اذا عمت خفت.

وثالثها: ان الكفار اذا سمعوا هذه القصص، وعلموا ان الجهال وان بالغوا في ايداء الانبياء المتقدمين، الا ان الله تعالى اعانهم بالآخرة ونصرهم وايدهم وقهر اعداءهم، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سبباً لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل في صدورهم. وحينئذ يقللون من انواع الايداء والسفاهة.

ورابعها: ان محمداً ﷺ لما لم يتعلم علماً، ولم يطالع كتاباً، ثم ذكر هذه الاقاصيص من غير تفاوت، ومن غير زيادة ومن غير نقصان، دل ذلك على انه ﷺ انما عرفها بالوحي والتنزيل (٢).

قال الزمخشري - عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

(٢) التفسير الكبير ج ١٧ ص ١٣٥ عنه تفسير الاية ٧١ (ذكر نوح) من سورة يونس.

وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَنَعْلَانِ عَمَّا يُشْرِكُونَ [سورة الزمر: ٦٧] - والغرض من هذا الكلام، اذا اخذته كما هو بجملته ومجموعه، تصوير عظمته والتوفيق على كنهه جلالة لا غير، من غير ذهاب بالقبضة و لا باليمين الى جهة حقيقة او جهة مجاز. وكذلك حكم ما يروى ان حراً (٣) جاء الى رسول الله ﷺ فقال يا أبا القاسم، ان الله يمسك السماوات يوم القيامة على اصبع، والارضين والجبال على اصبع، والشجر على اصبع وسائر الخلق على اصبع، يهزهن فيقول انا الملك!. فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال...

قال: وانما ضحك افصح العرب وتعجب لانه ﷺ لم يفهم منه الا ما يفهمه علماء البيان، من غير تصور امسك ولا اصبع ولا هز ولا شئ من ذلك. ولكن فهمه وقع اول شئ واخره على الزبدة والخلاصة، التي هي الدلالة

(٣) في الكشاف: جبرائيل.. وهو تصحيف. والصحيح ما اثبتناه وفق ما في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث والتفسير. راجع: ابن كثير ج ٤ ص ٦٢.



ديبر (٤) ...

فالتمثيل من صنع الخيال، الامر الذي تجده في فصيح الكلام، واعلاه القرآن الكريم، فانه اعتمد على عنصر الخيال لانه اسلوب من اساليبه، وهو الاسلوب الذي دفع اليه حاجة العقل البشري الى هذا اللون من الكلام المتعارف..

وقال الشيخ محمد عبده: واما تفسير الايات على طريقة الخلف في التمثيل، فيقال: ان القرآن كثيراً ما يصور المعاني بالتعبير بصيغة السؤال والجواب، او بأسلوب الحكاية، لما في ذلك من البيان والتأثير، فهو يدعو بها الازدهان الى ما وراءها من المعاني، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣٠] فليس المراد ان الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه، وانما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا. ونحوه قوله تعالى - بعد ذكر الاستواء الى خلق السماء -: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]. والمعنى

(٤) الكشف ج ٤ ص ١٤٢-١٤٣.

على القدرة الباهرة، وان الافعال العظام التي تتحير فيها الافهام والاذهان ولا تكتننها الاوهام، هيئة عليه هواناً لا يوصل السامع الى الوقوف عليه، الا جراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخيل. ولا ترى باباً في علم البيان ادق ولا ارق ولا أَلْطَفَ من هذا الباب، و لا انفع ولا أَعْوَنَ على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الانبياء، فان اكثره وعليته تخييلات، قد زلت فيها الاقدام قديماً. وما اتى الزالون الا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب، حتى يعلموا ان في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره، لما خفى عليهم، ان العلوم كلها مفتقرة اليه وعيال عليه، اذ لا يحل عَقْدَهَا الموربة و لايفك قيودها المكربة الا هو..

قال: وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من احاديث الرسول، قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة، لان من تأوّل ليس من هذا العلم في غير ولا نفير، ولا يعرف قبلاً منه من



في التمثيل ظاهر.

وقال -بشأن قصة ادم وتعليمه الاسماء وسجود الملائكة له -: وتقرير التمثيل في القصة -على مذهب الخلف -: ان إخبار الله الملائكة بجعل الانسان خليفة في الارض، وهو عبارة عن تهيئة الارض وقوى هذا العالم وارواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات، يتعرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الارض. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الارض، لانه يعمل باختياره ويعطى استعداداً في العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما في استعداد الانسان لذلك، وتمهيد لبيان انه لا ينافي خلافته في الارض. وتعليم ادم الاسماء كلها، بيان لاستعداد الانسان لعلم كل شئ في هذه الارض وانتفاعه به في استعمالها. وعرض الاسماء على الملائكة وسؤالهم عنها و تنصلهم في الجواب، تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الارواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته. وسجود الملائكة لادم عبارة عن تسخير

هذه الارواح والقوى له، ينتفع في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك. وابعاء ابليس واستكباره عن السجود، تمثيل لعجز الانسان عن اخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطرالسوء التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي والافساد في الارض. ولولا ذلك لجاء على الانسان زمن يكون فيه افراده كالملائكة بل اعظم، او يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري^(٥) ..

وللشيخ عبد القاهر الجرجاني بيان تفصيلي لفوائد التمثيل في الكلام، عرضنا له في قسم البيان من اعجاز القرآن^(٦) وسنذكر ان التمثيل في القرآن نوع من القصص الحاكية عن حالة واقعية، تتجسد في قالب المثال وليس فرضياً بحثاً. ومن ثم فالتمثيل اخص من القصص حسبما جاء في القرآن الكريم.

القصة في القرآن:

القرآن يقص القصص لعلمهم

(٥) تفسير المنارج ١ ص ٢٨٠-٢٨٢.

(٦) راجع: التمهيد من هذ الكتاب ج ٥ ص ٣٤٨-٣٥٣. واسرار البلاغة ص ٩٢-٩٦.



عمل مستقل في موضوعه كاعمال فن وترسيم خيال، ولا من اجل التحدث عن اخبار الماضين وتسجيل حياتهم وسائر شؤونهم التي سلكها لتحقيق اهدافه والتثيت من اغراضه الدينية التربوية التي جاء الكتاب الكريم من اجله، وكان هدى للناس جميعاً.

مصادر القصة في القرآن:-

وقد شكك الكثيرون من اصحاب الاقلام الحاضرة، ممن ألفت المقادير بمقاليد الثقافة العربية في ايديهم فظنوا انهم شئ وما هم بشئ.. وكذا المستشرقون والمبشرون الاجانب، انهم شككوا في صحة ما جاء في القرآن من قصص، لانها تخالف التاريخ، ولو كان من عند الله لتنزه عن المخالفات. وهم- ولا سيما المستشرقون- يعللون ذلك بانها من عند محمد ﷺ انهم يقولون لاقوامهم: ان محمداً ﷺ كان يتعلم هذه الاخبار من العبيد والارقاء غير العرب، اولئك الاعاجم الذين كانوا يخدمون السادة من قريش، والذين اشار القرآن الى واحد منهم حين قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

يتفكرون، فهو يستعرض القصص لاهداف دينية سياسية وتربوية، او ان تأتي تحكيماً لأركان الشريعة وتثيت اسس النبوة، او ترويحاً لمكارم اخلاق انسانية اسلامية نبيلة.. وفي كلا المجالين كانت القصص القرآنية موفقة في اداء رسالتها وموفية في بلوغ اهدافها والحصول على اغراضها في نهاية المطاف.

فالقرآن يقص قصصه في اروع اشكالها وابدع صورها، وفي اصدق تعابيرها، مستلهمة من واقعات كانت البشرية قد لامستها في صميم حياتها التي عاشتها في القديم او في وقت قريب.

نعم قد يستعرض القرآن قصصاً هي بضرر الامثال اشبه، تقريباً لمقاصد تمس واقع الانسان، وتكشف عن حقيقة ذاته، إن اصيله او منحرفة.. غير ان الاهداف: تثيت معالم الشريعة وتركيز مكارم الاخلاق..

اذن يختلف القصص القرآني عن غيره من القصص في ناحية اساسية هي ناحية الهدف والغرض الذي جاء من اجله، اذ لا يعرض القرآن القصة لانها



يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِشَرِّ لِسَانِ الَّذِي
يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعَجِبْتُمْ وَهَذَا لِسَانٌ
عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿[سورة النحل: ١٦].

وهؤلاء ما كانوا يعرفون من التاريخ
الديني للرسول و الانبياء الا شائعات.
ذلك لانهم بحكم رقيهم وفقدهم ما
كانوا يستطيعون الحصول على نسخ من
الانجيل والتوراة وكتب الاخبار، ومن
ثم كانت معارفهم وفقاً على الشائعات،
وما كانت وسيلته المشافهة، يكون
دائماً عرضة للتحريف وعرضة للتغيير
والتبديل وللزيادة والنقصان. ومن ثم
كانت تلك المخالفات التاريخية التي
جاءت في قصص القرآن (٧)!!.

لكن مثل هذا التشكيك تعود
جذوره الى انكار الوحي وان ليس
القرآن سوى ذهنيات كانت تدور في
خلد محمد ﷺ فأبرزها بصورة وحي
سماوي نزل به الروح الامين، على ما
اسلفنا - عند الكلام عن الوحي لدى

(٧) راجع: الفن القصصي في القرآن الكريم

للدكتور محمد احمد خلف الله ص ٢٢٦-

.٢٢٧

علماء الغرب - حيث كانت تأويلاتهم
تعود الى انكار النبوات، وانها تخيلات
كانت تتجسد لمدعي النبوات (العياذ
بالله)..

غير ان العرض ان كان يصدق بشأن
الكتب المحرفة، فانه لا يصدق بشأن
القرآن الحكيم، الذي لا يأتيه الباطل من
بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد.

فاذا كان في الكتب السالفة بعض
اقاصيص الحق، ويوجد مثلها في القرآن
الكريم، فليس معنى ذلك ان القرآن
اخذاها من تلك الكتب، وانما هو بسبب ان
المصدر في كلا الكتابين السلف والخلف
واحد، وهو الله - تعالى - العزيز الحميد.

ومن ثم نرى ان القرآن قد راجع في
امثاله التوراة والانجيل، في مثل قوله
تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ

عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَفَازَرَهُ
فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ يَعْجِبُ الزُّرَّاعَ



المقال، فهو مجرد تشبيه لحقيقة حال
بفرض حال..

اذن فمورد القصة قد يتحد مع
مورد التمثيل، فيما اذا كان رسماً لحالة او
وضع اجتماعي خاص، ويفترق التمثيل
عن القصة في مورد الفرض والخيال.
كما تفرق القصة عن التمثيل في مورد
العينية الخارجية..

فما بين القصة والتمثيل من حيث
المورد، عموم من وجه، فهما يتحدان في
مورد، ويختلفان، كل في مورد غير مورد
الآخر.

فمن موارد الاجتماع ما ضربه تعالى
مثلاً لحالة المنافقين:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا
أُضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ
فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ
لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلْمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْ
أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ
كُلَّمَا أُضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ
إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [سورة الفتح: ٤٨].

والذي يجب التنبيه له: ان القصص
القرآني يختلف عن القصص في التوراة-
حسب الموجود - فان ما يقصه التوراة
جاء كسرد حوادث تاريخية بحتة ذوات
موضوعية في النقل والحكاية، على غرار
سائر كتب التاريخ..

اما القرآن فيأخذ من قصص الانبياء
مقتطفات ذوات اهداف خاصة، وليس
يسرد قصة كاملة بحذافيرها كما يفعله
القصاص

الفرق بين القصة والتمثيل:

القصة حكاية عن واقعة لها تحقّق
واقعي. غير ان الواقعية تختلف وتنوع الى
واقعية عينية وقعت في الخارج باشخاص
اعيانها.. والى واقعية هي حالة روحية
ونفسانية تحكيها القصة بصورة تجسيم
وتجسيد، فالاولى حكاية قول وهذه
حكاية حال...

اما التمثيل فهو تصوير ورسم لحالة
او وضع اجتماعي يتمثل في قالب المثال،
وليس لها تحقّق عيني خارجي.. وقد
يكون مفروضاً بحتاً ومجرد مثال لتقريب



شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [سورة البقرة: ١٧ - ٢٠].

فهذه حكاية حال واقع، وفي الوقت نفسه تمثيل في قالب تجسيد.

اما الحكاية البحتة فكقصة يوسف عليه السلام فيها اخبر الله تعالى في كتابه، اخباراً فيها من العبر والعظات الشيء الكثير.. وليس مجرد فرض او خيال، ولا حكاية صرف الحال..

واما التمثيل المحض -كالذي جاء في كتاب كليلة ودمنة - فلا اظن وجوده في القرآن، اذ كل تماثيل القرآن، انما تحكى عن حالات وصفات تعتور الانسان في حياته، وقد جسدها القرآن ورسمها احسن رسم. كما في قوله: ﴿ يَتَأَيَّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِبَتْنَةٍ مُبَتَّلَةٍ يُفْسِدُونَ أَمْوَالَهُمْ مُبْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَانَتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن

لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ [سورة بقره: ٢٦٤ - ٢٦٥].

وقوله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا ۖ اسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ [سورة ابراهيم: ١٤].

وقوله: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ ﴾ [سورة ال عمران: ١١٧].

وقوله: ﴿ لَهُ دَعْوَةٌ لِّخَلْقٍ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ۖ إِلَّا كَبْسُطٌ كَفَيْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغٍ ۖ وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴾ [سورة الرعد: ١٤].

وقوله: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّ بِكُمْ عَمَّىٰ فَهَمُّ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧١].

وقوله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ۖ أَخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَتَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤١].



تكن الانباء والقصص مكررة، لوقعت قصة موسى الى قوم وقصة عيسى الى قوم وقصة نوح الى قوم اخرين، فاراد الله بلطفه ورحمته ان يشهر هذه القصص في اطراف الارض، ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الافهام..

ثم اشار الى تكرار الكلام من جنس واحد وترداده في كلام واحد متصل، معادة مرات كما في سورة الرحمان والمرسلات، وانه على عادة العرب في تكرار جملة من الكلام تأكيداً في الامر^(٨).. هذا الذي ذكره الشيخ يُعدُّ فائدة مترتبة، وليس هو السبب، انما السبب هو: تعدد الاغراض والاهداف المترتبة على القصة الواحدة: تترتب على القصة في كل مرة اهداف يختلف بعضها عن بعض..

وتتلخص الاسباب التي تدعو الى تكرار القصة في وجوه:

الاول: تعدد الغرض الديني الذي يترتب على القصة الواحدة، فتتكرر حسب (٨) تفسير التبيان ج ١ ص ١٤.

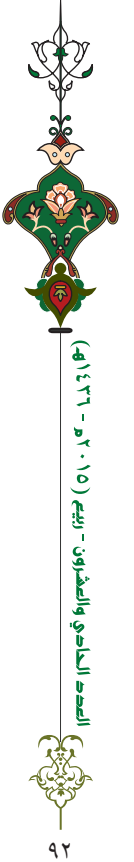
وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [سورة الحج: ٢٢].

... الى غيرها من امثلة جاءت في القرآن، وهي تمثيلات مجردة لا واقع لها عينياً خارجياً.. لكنها في واقعها حكاية حال واقع، جاءت مصورة بتلك الصورة الواضحة.

تكرار القصة:-

مما اثير حول القصة في القرآن، مسألة تكرارها في مواضع متعددة، فقد تتكرر قصة واحدة عدة مرات في مواضع مختلفة من القرآن. قالوا: ان هذا التكرار قد يشكل ضعفاً في القرآن، لان القصة بعد ان جاءت في القرآن مرة، نستنفذ اغراضها الدينية والتربوية والتاريخية، فما بالها تتكرر مرة اخرى او مرات، وما هي الفائدة المتوخاة من وراء هذا التكرار؟.

وقد اشار الشيخ ابو جعفر الطوسي الى هذا الجانب من القصص القرآني -في مقدمة تفسيره -وعالجه معالجة اقناعية، قال: ان رسول الله ﷺ كان يبعث الى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم



تعدد الاغراض..

الثاني: ان القرآن الكريم يتخذ من القصة اسلوباً لتأكيد بعض المفاهيم الدينية، وهذا الاسلوب يجب ان يتلاءم مع الجو الذي تعيشه الامة في فترة نزول القصة، وما اذا كانت في حالة ضعف وشدة ام في حالة قوة وصلابة وغير ذلك من حالات كانت تعيشها الامة طول فترة الرسالة... فاذا كانت القصة الواحدة ذات جوانب، فانها انما تذكر في كل حالة ما يتناسب وجانبها الخاص المتلائم مع الواقع الراهن..

مثلاً نجد اكثر قصص نبي الله موسى عليه السلام التي جاء ذكرها في سور مكية، تهدف الى العلاقة القائمة بين موسى من جانب، وقوم فرعون من جانب اخر، لان الاوضاع في مكة كانت وخيمة، طرف منها الاسلام، والطرف الاخر هم المشركون.. وانهم كانوا يشكلون محنة الاسلام حينذاك.. اما وبعد ان هاجر النبي صلى الله عليه وآله الى المدينة، كانت المحنة هي محنة بني اسرائيل ووسائلهم تجاه بث الدعوة، فأشبهت محنة موسى مع قومه

بني اسرائيل، ولذلك نجد قصصهم بالذات مفصلة ومسهبه في سور مدنية، على عكس ما كانت في سور مكية..

الثالث: ان الدعوة الاسلامية مرت بمراحل متعددة في سيرها الحثيث، وقد كان القران يواكب هذه المراحل ويهاشيه في بياناته وفي اساليبه في الدعوة الحكيمة، ومن ثم كانت القصة الواحدة تعرض على انحاء من قبض وبسط وتفصيل واختزال، وحسب تلك المراحل التي يمر بها الاسلام. ونظراً للظروف التي تمر بها الدعوة..

ومن ثم نجد قصص بني اسرائيل اكثر انتشاراً في القرآن الكريم، ولاسيما السور المدنية بعد الهجرة، لان بني اسرائيل كانوا يشكلون المحنة الكبرى حينذاك، وقبل ذلك لم يكونوا بتلك الالهية ولا كانوا خطراً على الامة..

وهذا هو اهم الاسباب التي دعت الى تكرار قصص بني اسرائيل في القرآن..

الرابع: انه من الناحية الادبية تعد فضيلة بلاغية او معجزة من معجزات القرآن الكريم. اذ بإمكانه سرد قصة



فيعرضها القرآن كشاهد ربما لاجل العظة والاعتبار.. والى حالة ثابتة في واقع الانسان، بحيث لو تجسدت لكانت على مثال ما ضربه القرآن مثالاً، فهو كعرض حال واقع البتة وليس مجرد فرض فرضه القرآن.. فهو على كلا التقديرين امر واقع يستدعيه كيان الانسان في واقعه الاصيل..

فهو عندما يقص قصص الانبياء، وامهم، فهو يحكي تصرفات سالفة وقعت - في الاغلب - وسجلتها صفحات تاريخ الحياة البشرية، إن فضيلةً او رذيلةً، ليتخذها ذوا الاعتبار عبراً في شؤون حياتهم الآنية.

ولكن هناك بعض التمثيل عن واقع الانسان، في فطرته وطبيعته وفي نشأته وتصرفاته في هذه الحياة..

ففي كلا المجالين جاءت القصة القرآنية، حكاية لامر واقع وثابت في حياة الانسان، اما خارجية عينية كانت محسوسة او حالة راسخة كادت تكون ملموسة في واقع الانسان.

ولنذكر شواهد لكلا الجانبين:

واحدة على اشكال وانحاء، كل مرة يأتي بالعجيب من الكلام بحيث لا يمل السامع من الاصغاء اليه، حتى ولو سمعها في عدة مواطن.. فانه لا يمجها بالسماع لمرة اخرى واخرى لما في كل مرة من الحصول على شئ جديد.. وفي كل جديد لذة..

وان اكثر الكاتين وغالية البلغاء اذا كتبوا او ذكروا قصة مرة، يمتنع عليهم ذكرها مرة ثانية حتى ولو غيروا الفاظها وبدلوا اسلوبها، فلا يمكنهم المحافظة على المتانة في الاسلوب والبلاغة في التعبير، كما امكنهم اول مرة.. وهذا على خلاف اسلوب القرآن المتين البديع في جميع تكراراته في القصص والتعابير..

فضلاً عن كونه - ايضاً - وجهاً من وجوه اعجازه البياني، واقعٌ لا خيال؟ - فالقصة في القرآن حكاية عن واقعية كائنة، وعرض حالة طارئة جاءت او كانت ثابتة، وليست مجرد فرض قوامها الوهم والخيال كما يفعلها الفنانون..

غير ان الواقعية تختلف - حسبها اشرنا - الى عينية خارجية وقعت بالفعل،



١. حوادث واقعة:-

اكثر قصص بني اسرائيل هي من الحوادث الواقعة التي سجلتها صفحات تاريخ البشرية، واكثرها عبرٌ وعظمتُ. وتبتدئ بقضايا يعقوب وابنائهِ، ويوسف ومصر، ثم خروج موسى واليه الى غيرها من حوادث كبرى مرت بحياة بني اسرائيل..

وهكذا اكثر القصص التي تقص حياة الانبياء العظام وتصرفات امهم تجاه الدعوة والشريعة.. كلها اوجّلها واقعة على صفحات التاريخ.

فالطوفان ونار نمرود وتدمير قوم لوط وسيل العرم و الاحقاف، امور واقعة، يقصها القرآن علينا لناخذ منها العظة والاعتبار.. وقد دلت الاثار الباقية على صحة ما يحكيه القرآن.

اذ يقول بشأن قوم لوط: ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكَ لَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْآيَاتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة

الصفات: ١٣٦-١٣٨].

٢. حالات كائنة:-

ان للانسان واقعيات تشكل كيانه في

عالم الوجود، وقد كانت من فطرته الاولى التي جبله الله عليها، فهو يعيش عليها ويحيا بها ما دامت البشرية في هذه الحياة.. وللقرآن عن هذه الحالات والواقعيات ترسيات دقيقة تقص واقع الانسان في الحياة. فهي حكاية وليست عن مقال.

- منها قصة عرض الامانة التي حملها الانسان ورفضها سائر المخلوقين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الاحزاب: ٣٣].

ماهذه الامانة، وكيف ذاك العرض، وكيف كان ذلك الالباء والاشفاق، وهذا الحمل؟.

والامانة، هي: العقل الرشيد المستتبع للتكليف، والمستدعي لكون حامله مستوجباً لخلافة الله في الارض واداء رسالته في العالمين.

والامانة -على ذلك- ضخمة هائلة وفي الوقت نفسه خطيرة، وان كانت تترتب عليها اثار اعظم خطراً وافخم جانباً، هو التكليف وحمل رسالة الله



الكبرى في الارض..

الاعلى..(٩).

والعرض كان على الاستعدادات والقابليات، وقد كانت السماوات والارض والجبال، على ضخامتهن، ضئيلات، يعوزها الاستعداد للتكليف وقابلية حمل الخلافة.. اما الانسان - على صغر حجمه - فكان جديراً بذلك وكان على جانب عظيم من القابلية والاستعداد.. سوى انه - بالتوجه الى جوانب حقيرة من شؤون حياته المادية - جهول بمقامه الشامخ الفخم، ومن ثم فهو ظالم بشأن نفسه وبمقام ربه الذي منحه هذا الشأن الخطير.. ((اتزعم انك جرم صغير - وفيك انطوى العالم الاكبر)).

قال المولى محسن الفيض: ((قيل: ان المراد بالامانة، التكليف. وبعرضها عليهن، النظر الى استعدادهن. وبابائهن، الالباء الطبيعي الذي هو اللياقة والاستعداد. وبحمل الانسان، قابليته واستعداده لها. وكونه ظلوماً جهولاً، لما غلب عليه من القوة والغضبية والشهوية.. وهو وصف للجنس باعتبار

وقال سيدنا الطباطبائي: ((.. فالمراد بالامانة، الولاية الالهية. وبعرضها على هذه الاشياء، اعتبارها معينة اليها. والمراد بحملها والاباء عنه، وجود استعدادها وصلاحية التلبس بها وعدمه.. وهذا المعنى هو القابل لان ينطبق على الاية. فالسماوات والارض والجبال على ما فيها من العظمة والشدة والقوة، فاقدة لاستعداد حصولها فيها، وهو المراد بابائهن عن حملها واشفاقهن منها..)).

ثم قال: ((والامانة المذكورة في الاية - وهي الولاية الالهية وكمال صفة العبودية - انما تتحصل بالعلم بالله والعمل الصالح الذي هو العدل. وانما يتصف بهذين الوصفين، اعني العلم والعدل، الموضوع القابل للجهل والظلم، فكون الانسان في حد نفسه وبحسب طبعه ظلوماً جهولاً، هو المصحح لحمل الامانة الالهية..

فالاية تناظر بوجه، معنى قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ

(٩) تفسير الصافي ج ٢ ص ٣٦٩.



رَدَدَتْهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ [سورة
التين: ٤ - ٦] (١٠) ..

قال المولى الفيض الكاشاني - في
اخر كلامه -: ((... ان المراد بالامانة،
التكليف بالعبودية لله على وجههاً
والتقرب بها الى الله سبحانه كما ينبغي
لكل عبد بحسب استعدادها لها، واعظمتها
الخلافة الالهية لاهلها، ثم تسليم من
لم يكن من اهلها لأهلها وعدم ادعاء
منزلتها لنفسه، ثم سائر التكاليف.
والمراد بعرضها على السماوات والارض
والجبال، النظر الى استعدادهن لذلك،
وبابائهن الاباء الطبيعي الذي هو عبارة
عن عدم اللياقة لها. وبحمل الانسان
اياها تحمله لها من غير استحقاق تكبراً
على اهلها او مع تقصيره بحسب وسعته
في ادائها (١١) ...

قال الزمخشري: ان ما كُلفه الانسان
بلغ من عظمة وثقل محمله، انه عُرِضَ
على اعظم ما خلق الله من الأجرام واقواه

(١٠) الميزان ج ١٦ ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(١١) الصافي ج ٢ ص ٣٧١.

واشده، ان يتحملة ويستقل به، فابى
حملة والاستقلال به واشفق منه، وحمله
الانسان على ضعفه ورخاوة قوته. انه
كان ظلوماً جهولاً، حيث حمل الامانة
ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه
فيها (١٢). ونحو ذلك.

قال: ونحو هذا من الكلام في
لسان العرب وما جاء القرآنِ اِلاَعَلَى
طرقهم واساليبهم، من ذلك قولهم: لو
قيل للشحم اين تذهب؟. لقال اسوي
العِوَج.

وكم وكم لهم من امثال على ألسنة
البهائم والجمادات.. وتصور مقالة
الشحم محال، ولكن الغرض ان السمن
في الحيوان مما يحسن قبحه، كما ان العجف
مما يقبح حسنه. فصور اثر السمن فيه
تصويراً هو واقع في نفس السامع، وهو
آئسُ به وله اقبل وعلى حقيقته اوقف..
وكذلك تصوير عظم الامانة وصعوبة
امرها وثقل محملها و الوفاء بها.

فان قلت: قد علم وجه التمثيل في
قوله - للذي لا يثبت على رأي واحد -:

(١٢) يقال: حاس العهد اذا نكث.



قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي
ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ
تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾
[سورة الاعراف: ٧].

هذه الاية حكاية عن امر واقع في
سابق الخليقة: متى، ومن اخذ هذا
العهد، وكيف كانت تلك الشهادة؟
انها ودائع الفطرة، قد جبل الانسان
عليها في واقع ذاته، وتلك شهادة الفطرة
ايضاً، لانها الحضور لدى ما نظر عليه
الانسان في ذات كيانه..

فقد جعل الله في فطرة كل انسان،
منذ تكوينه وحيث وجوده في ظهور
الاباء حسب الذراري المنتشرة على
صفحة الزمان.. كفاية عن ان كل
انسان-مهما كان نمطه وحيث كان
وجوده-فانه مفطور على ذلك من غير
استثناء..

وهذه الفطرة هي حاضرةً نفسه
وشهود ذاتيه، لاتغيب عنه، مهما تقلبت
اوضاعه واختلفت احواله، فان الذي
يوصل حضوره لديه في كل الاحوال

اراك تقدم رجلاً وتؤخر اخرى. لانه
مثلت حالة في تميله وترجحه بين الرأيين
وتركه المعنى على احدهما، بحال من
يتردد في ذهابه، فلا يجمع رجليه للمضى
في وجهه، وكل واحد من الممثل والممثل
به شيء مستقيم داخل تحت الصحة
والمعرفة. وليس كذلك ما في هذه الاية،
فان عرض الامانة على الجهاد وابعاء
واشفاقه محال في نفسه، غير مستقيم.
فكيف صح بناء التمثيل على المحال.
وما مثال هذا الا ان تشبه شيئاً بشيء،
والمشبه به غير معقول!

قلت: الممثل به في الاية وفي قولهم
((لو قيل للشحم اين تذهب)) وفي
نظائره، مفروض. والمفروضات تتخيل
في الذهن كما المحققات، مثلت حال
التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله
المفروضة لو عرضت على السموات
والارض والجبال، لَأَبَيْنَ ان يحملنها و
اشفقن منها(١٣).

- ومنها: قصة اخذ الميثاق من ذرية بني
ادم واشهادهم عليه في فطرتهم:-

(١٣) الكشاف للزخشي ج ٣ ص ٥٦٥.



والاوضاع، انما هو فطرته وذاتيته التي ترافقه على كل حال..

ولو لا ذلك لما كان لدعوات الرسل والانبيا تأثيرها في النفوس وقبولها لدى العقول..

قال الامام امير المؤمنين عليه السلام: ((فبعث فيهم رسله، وواتر اليهم انبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول...))^(١٤).

والى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ((**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ١٠) **وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** ١١)).

[سورة يس: ٦٠ - ٦١].

اشارة الى ذلك العهد والميثاق المودع في فطرة الانسان.

- ومنها: قصة بدء الخليقة وجعل الانسان خليفة الله في الارض، وسجود الملائكة له:

قال تعالى: **﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ ﴾**

(١٤) الخطبة الاولى من نهج البلاغة.

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ
قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**
٣١ **﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾** ٣٢ **قَالَ يَتْلُوا فِي الْآيَاتِ الْأُولَى بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ٣٣ **﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾**
[سورة البقرة: ٣٠ - ٣٤].

ما هذه الخلافة التي منحها الله للانسان دون غيره من المخلوق؟.

وكيف علمت الملائكة ان الانسان سوف يفسد في الارض...؟.

وما هذه الاسماء التي علمها الله لادم دون الملائكة وغيرهم...؟.

وكيف كان ذلك التعليم الاختصاصي ذلك الحين...؟.

وكيف استسلمت الملائكة لفضل ادم عليهم في العلم...؟.



وكيف ولم سجدت الملائكة لادم، وكيف كان ذلك السجود...؟.

اسئلة متسلسلة في هذا المقطع من ايات ترتبط ببدء الخليقة..

وهل هناك كان المسرح حقيقياً ام مجرد تمثيل كانت الواقعية حليفته ذلك الحين، ولا يزال مستمراً عبر الحياة...؟.

هذا هو السؤال الاساسي في الموضوع!.

لاشك انها واقعية ملموسة في كيان الانسان منذ نشأته في هذه الحياة و لا تزال مستمرة معه مع الابدية..

وليست مجرد فرض او خيال وهم، كما زعمه البعض.. انها الكلام في ان المسرحية وقعت بالنص، او انها حكاية حال واقع في كيان الانسان وتصرفه في هذا الوجود؟.

قال الاستاذ احمد مصطفى المراغي- نقلاً وتلخيصاً لما ذكره الشيخ محمد عبده هنا - : هذه الاية - كالتي قبلها - تعداد للنعم الصارفة عن العصيان والكفر، الداعية الى الايمان والطاعة... وفيها وفيما بعدها قصص

لاخبار النشأة الانسانية، ابرز فيه حكماً واسراراً، جاءت في صورة مناظرة وحوار. وهو المشابه الذي لا يمكن حمله على المعنى الظاهر منه، لانه إما استشارة من الله لعباده، وذلك محال.

واما اخبار منه للملائكة فاعتراض منهم ومحاجة، وذلك لا يليق بالله ولا بملائكته، وبحسب ما جاء في وصفهم

في قوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم:

٦] ومن ثم كان للعلماء في هذا وامثاله رأيان: -

الاول: رأي المتقدمين منهم، وهو تفويض الامر لله في بيان المراد من كلامه تعالى، مع العلم بانه لا يجبرنا بشئ الا لنستفيد به في اخلاقنا واعمالنا..

فهذا الحوار المصور بصورة القول والمراجعة والسؤال والجواب، لا ندرك حقيقة المراد منه، وان كنا نجزم بان هناك مقاصد اريد افادتها بهذه العبارات، وان الله كان يعد لادم هذا الكون، وان لذلك المخلوق كرامة لديه بما اودعه فيه من فضائل ومزايا...



الثاني: رأي المتأخرين منهم، وهو تأويل ما اشتبه علينا من قواعد الدين، لانها انما وضعت على اساس العقل، فاذا ورد في النقل شئ يخالف حكم العقل، حمل النقل على غير الظاهر منه بتأويله حتى يتفق مع حكم العقل.

وعلى هذا، فالقصة وردت مورد التمثيل، ليقربها سبحانه من اذهان خلقه بفهامهم حال النشأة الادمية وما لها من ميزة خاصة، بان اخبر ملائكته بانه جاعل في الارض خليفة، فعجبوا وسألوه بلسان المقال ان كانوا ينطقون، او بلسان الحال بالتوجه اليه تعالى ان يفيض عليهم المعرفة، كيف تخلق هذا النوع ذا الارادة المطلقة والاختيار الذي لا حد له، وربما اتجه بارادته الى خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد. فالقى عليهم بطريق الالهام.

وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل شئ عليم. فما يضيق عنه علم احد، يتسع له علم من هو اعلم منه.

وهذا جواب ربما لا يذهب بالحيرة، ومن ثم تفضّل على الملائكة وابان لهم

الحكمة في خلق هذا النوع، فعلم ادم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة. فعلموا ان في فطرة هذا النوع استعداداً لعلم ما لم يعلموا، وانه اهل للخلافة في الارض، وان سفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته.

وخلاصة هذا، ان الملائكة تشوقوا لمعرفة الحكمة في استخلاف ذلك المخلوق الذي من شأنه ما قالوا، ومعرفة السر في تركهم وهو المجبولون على تسيحه وتقديسه، فاعلمهم انه اودع فيه من السر ما لم يودعه فيهم..

قال المراغي: هذا مجمل ما حلّى الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله البحث حين تفسيره للاية، ونقله عنه صاحب المنار في تفسيره^(١٥).

قلت: لاشك في ان القول منه تعالى يختلف عن كلامه مع خلقه.. اذ الكلام منه تعالى هو خلق الصوت في الهواء بحيث يصل الى مسامع المخاطبين، من غير فرق في كيفيته بين كلامه تعالى وكلام

(١٥) تفسير المراغي ج ١ ص ٧٨-٨٠. وراجع: تفسير المنار ج ١ ص ٢٥١ فما بعد..



غيره سوى في منشأ الصدور.

فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ﴾

﴿تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾

﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [سورة الاعراف: ١٤٣].

كان المراد بالكلام هنا، كسائر

الكلام: تموج في الهواء يقرع صماخ

السمع، سوى ان منشأه يختلف عن

منشأ سائر الكلام..

اما القول منه تعالى، ولا سيما

مع غير ذوي النطق من الانسان، من

سائر انواع المخلوق كالسما والارض

والملك والجن وغيرها -حسبها جاء في

القرآن- وحتى القول المنسوب الى الجماد

والحيوان في القرآن.. فكلها على تأويل

الوحي والالهام او مطلق ابداء ارادته

تعالى في خلقه واطهار ما في النفس من

المقاصد في مثل الحيوان... فهو تعبير

كفائي، كأن المراد: لازم معنى القول،

لا القول الكلامي بالذات...

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١].

وقال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ﴾

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الانبياء: ٦٩].

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَهُ﴾

﴿أَقْلَبِي﴾ [سورة هود: ٤٤].

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ،

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾

[سورة مريم: ٣٥].

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ

﴿مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣٠].

وقد جعل العلامة الطباطبائي،

القول مع الملائكة وابليس، قصة نشأة

الخليقة، من هذا القبيل، اي كناية عن

ابداء مراده تعالى، وليس لفظاً بالكلام

المتعارف..

قال: واما لفظ القول في كلامه تعالى

فقد عم الانسان وغيره: حين قال في

مورد الانسان: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ

﴿لَكَ وَلِرَوْحِكَ﴾ [سورة طه: ١١٧].

وفي مورد الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ

﴿رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

﴿خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

وفي مورد ابليس: ﴿قَالَ يَا بَلِيسَ مَا



مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴿ [سورة ص: ٧٥].

وفي مورد غير اولى العقل: ﴿ قُلْنَا يَنْتَازِكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [سورة الانبياء: ٦٩].

قال: ويكشف المراد من القول في جميع هذه الموارد على انواعها وتشتتها، قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس: ٨٢].

فالقول منه تعالى كناية عن ابداء ارادته بشأن الخلق والايجاد.. قال: والذي يعطيه التدبر في الموارد المذكورة، ان القول منه تعالى عبارة من ايجاد امر يدل على المعنى المقصود..

فاما في التكوينية، بالشيء نفسه الذي اوجده، هو بعينه قول له تعالى، لدلالته بالوجود على خصوص ارادته. ولا واسطة بينه وبين ارادته تعالى، فهو بعينه قوله (كن) الكاشفة عن ارادته للوجود، والايجاد والوجود شيء واحد.. واما في غير التكوينية، كما في مورد الانسان - مثلاً - فبايجاده تعالى

امراً يوجب علماً باطناً في الانسان، سواء أكان بقرع السمع او بالنكت في القلب، او بغير ذلك فما عبر عنه في القرآن بالقول...

قال: وكذلك القول في مورد المَلَكِ والجن (ابليس) ليس سوى ايجاد علم باطني فيهم باي سبب كان. سوى ان المَلَكِ والجن ليس وجودهما من سنخ وجودنا، فليس نوع التفاهم فيما بينهم كالتفاهم فيما بيننا باعتبار الذهن واللفظ والوضع اللغوي ونحو ذلك.. نعم حقيقة القول حاصلة فيهم، علماً واثراً...

وهكذا القول في مورد الحيوان، في قوله تعالى -حكاية عن النمل-: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُم ﴾ [سورة النمل: ١٨] وحكاية عن الهدد: ﴿ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ وَحِجَّتْكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي بَقِيْنِ ﴾ [سورة النمل: ٢٢]..

والقول -في ذلك- نظير الوحي والالهام، المستعمل في امثال المورد: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا



وَقَوْلَهَا ﴿[سورة الشمس: ٧-٨].

والقول -في جميع ذلك -عبارة او كفاية عن معنى حقيقي كان يترتب عليه القول الكلامي او غيره مما يعرب عن تلك الحقيقة.. نعم يختص بعض الموارد ببعض التعبيرات كالكلام او النبأ او الخبر او الوحي او الالهام.. لعناية خاصة تستدعي ذلك.. والا فالجميع تعبير عن تلك الحقيقة الواحدة^(١٦)...

والخلافة -هنا -هي الخلافة الالهية الكبرى، التي منحها الله هذا الانسان، بفضل ما اودعه فيه من صفات وسمات، هي تشكل حقيقته الانسانية، بما يفضله على غيره و يفصله عن سائر المخلوق.. وتتخلص في المعرفة الذاتية والقدرة على الابداع...

فالانسان خلق لتعمر به الارض وتزدهر به الحياة، ولتصرف في عالم الوجود كيف يشاء، وفق حكمته تعالى ومصلحته في هذه النشأة.. فقد اصبح الانسان خليقته تعالى في الخلق والابداع...

(١٦) راجع: الميزان ج ٢ ص ٣٣٣-٣٣٥.

قال تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ

وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: ٦١].

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية: ١٣].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً

وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان: ٢٠].

فجميع قوى الارض و السماء جعلت في قبضة الانسان، يتصرف فيها كيف يشاء، حسب ارادته و قدرته الخارقة، وما هي الا نعمة من الله وفضل منه عميم. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [سورة الزخرف: ١٣].

ومن ذلك الاختيار التام والارادة المطلقة في الانسان، علمت الملائكة ان سوف يبغي الفساد في الارض، حيث مزدحمة المصالح ومتشابكة النزعات والتناحر في البقاء...

والاسماء، هي سمات الاشياء وذاتيات الحقائق الراهنة في الوجود، كان بإمكان الانسان القدرة على معرفتها



واستحصال ما فيها من آثار ونتائج يستفيد منها في الحياة، وبذلك تزدهر معالم العلم والفنون والاداب..

فمعرفة الانسان بالاسماء، هي معرفة باثار الحقائق الموجودة في العالم الفسيح، يكشف عنها بفضل علمه ونبوغه على مدى الايام.. ولا يزال.. فهذه القدرة الخارقة على كشف الحقائق ولمس اثار الوجود، هي التي فضلت الانسان على سائر الخلق.. وجعلته في مكانة سامية، مكانة الخلافة الالهية الكبرى..

والتعليم، انما كان بالايديع في الذات، فقد خلق الانسان كذلك، والذاتي لا يعلل.. فالانسان اذا خلق خلق كذلك، والمَلَك اذا خلق خلق على صفات المَلَكِيَّة، وكذا الجن والحيوان و سائر المخلوقات، كل خلق على شاكلته وعلى سماته وصفاته التي اودعها الله فيه حسب اقتضاء طبعه وسجيته..

يعني: ان الماهيات، وكلا على حسب ذاتياتها متميزة بعضها عن بعض، والله تعالى انما يفيض عليها بالوجود، كل

على حسب شاكلته.. وهكذا الانسان خلق انساناً متميزاً في ذاتياته عن سائر الخلائق، فلو خلق المَلَك على ذاتيات الانسان لكان انساناً ولم يكن ملكاً.. وهكذا غيره.. فلو اودع في التفاحة سمات الرمانة لكانت رمانة ولم تكن تفاحة او كذا العكس.. وهكذا..

الامر الذي عرفته الملائكة فاذعنت لحكمته تعالى واعترفت بان لا علم لها سوى ما علمه تعالى اياهم وانهم عن الغيب غافلون..

والسجود: خضوع تام.. امرت الملائكة، وهي تمثل قوى الطبيعة، ان تكون خاضعة للانسان وفق مصالحه في هذه الحياة..

نعم ربما كان هناك بعض انحاء الخضوع، رمزاً لهذا الخضوع المستمر في حياة الانسان.. فالملائكة وهي تمثل قوى الطبيعة في انحاء الوجود، خاضعة لارادة الانسان، وجاهدة في تأمين مصالحه في الحياة وفق ارادته..

والسجود - هنا - كالسجود في قوله

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ



طَوْعًا وَكَرْهًا ﴿ [سورة الرعد: ١٥].

فكل قوى الطبيعة الشاعرة وغير الشاعرة خاضعة لارادته تعالى، كل يعمل على شاكلته التي خلفه الله عليها في نظام الوجود.

نعم لم تخضع قوى الشر - ويمثلها ابليس - لمصالح الانسان، بل في معاكستها لغرض الافساد عليه في الحياة..

قال الاستاذ محمد عبده: فاذا جرينا على هذا التفسير، فليس ببعيد ان تكون في الاية اشارة الى ان الله لما خلق الارض

ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من المخلوقات

لا يتعداه، خلق الانسان واعطاه قوة بها يتصرف في جميع القوى ويسخرها في عمارة الارض. وهذا التسخير هو المعبر

عنه بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع. وبهذه القوة التي لا حد لها جعله الله خليفة في ارضه، لانه اكمل الموجودات.

واستثنى من هذه القوى قوة واحدة تميل بالكامل الى النقص، وتصده عن عمل الخير، وتنازع الانسان في صرف

قواه الى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته، تلك القوة التي ضللت اثارها قوماً فزعموا ان في العالم الهاً يسمى اله الشر، وما هي باله، ولكنها محنة اله لا يعلم اسرار حكمته الا هو. تلك القوة هي المعبر عنها بابليس..

قال: ولو ان نفساً مالت الى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك. و العمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ما ابصرت من الحق.. (١٧).

قصة صالح و ثمود:-

تكرر ذكر صالح وقومه ثمود، عشر مرات في القرآن: في سورة الاعراف: ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧. وفي سورة هود: ٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٩. وفي سورة الشعراء: ١٤٢. وفي سورة النمل: ٤٥.

وقوم صالح هم ثمود: القبيلة التي منها صالح، سميت باسم جدها ثمود بن عامر. كانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء المهملة - موقعها بين الحجاز

(١٧) المراغي ج ١ ص ٨٧. وراجع تفسير المنار ج ١ ص ٢٦٩.



والشام الى وادي القرى. ومدائن صالح ظاهرة الى اليوم. قال النجار: وقد زار بعض اصحابي ودخل بيت الملك، وهو بيت ذو حجرات به ردهة كبيرة وهو منقور في الصخر. والمكان الذي فيه ديارهم يعرف الى اليوم بـ(فج الناقة)^(١٨).

قال المسعودي: ورممهم باقية واثارهم بادية في طريق مَنْ وَرَدَ من الشام. حجر ثمود في الجنوب الشرقي من ارض مَدَّين، وهي مصابقة^(١٩) لخليج العقبة. وقد كان يقال لعاد: عاد ارم، الى ان هلكوا، فقالوا: ثمود ارم..

قال بعض المؤرخين: ثمود بقية من عاد. ويدعي اهل حضر موت ان ديار ثمود كانت من مستعمرات عاد.. ويؤيده قول صالح لقومه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَنجِحُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا﴾ [سورة

(١٨) قصص الانبياء ص ٥٨ للدكتور عبد الوهاب النجار.

(١٩) اي مقارنة.

[الاعراف: ٧٤].

واثارهم في نحت الجبال والصخور باقية وقد جاء وصفهم بذلك في القرآن: ﴿وَنَجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٤٩]. ﴿وَكَانُوا يَنْجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٨٢].

قال جرجي زيدان: ذكرت ثمود في القرآن مع عاد، لان المراد بهما واحد من حيث العبرة والموعظة. فبعد ان ذكر خبر عاد عطف على ثمود فقال:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفًا مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَنجِحُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ لِمَنْ ءَامَنَ



(Badomata).

واما الثابت من قراءة الاثار ان مدائن صالح (الحجر) دخلت قبيل تاريخ الميلاد في حوزة النبطيين، بدليل ما على اطلال تلك المدائن من الكتابة النبطية. والاطلال المشار اليها زارها غير واحد من المستشرقين، ودرسوا بقاياها وهي منقوشة في الصخر، اهمها انقاض تعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج. وقرأوا ما عليها من النقوش النبطية، فاذا اكثرها او كلها تبركات منقوشة على القبور^(٢٠)..

اما الاية في الناقة -حسبما جاء في القرآن- فهي قسمة الماء بينها وبين القوم، فلها شرب ولهم شرب يوم معلوم. ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَبَهُمْ وَأَصْطَبِرُ﴾ (٢٧) ﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ﴾ [سورة القمر ٢٧-٢٨].

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٥) ﴿وَلَا تَسْوَاهَا بِنُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

(٢٠) العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ص ٧٧-٧٨.

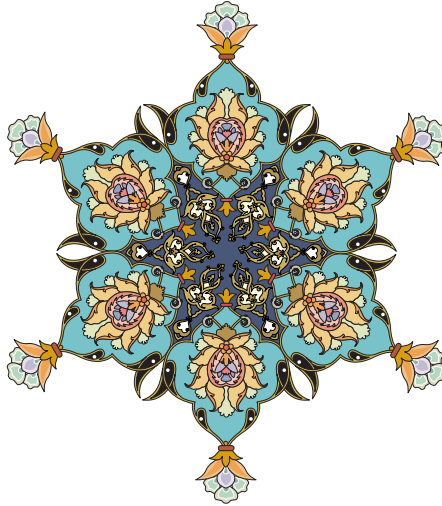
﴿مِنْهُمْ أَنْعَلَمُونَ أَنْ صَلِيحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) ﴿قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَكَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ أَخْبِنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ [سورة الاعراف: ٧٣-٧٩].

قال: هذا خبر ثمود، ولم يزد المؤرخون عن ان توسعوا فيه وشوهوه بمبالغات لا فائدة من ذكرها. والمشهور من كتب العرب ان ثموداً كان مقامها في الحجر المعروفة بمدائن صالح، في وادي القرى بطريق الحاج الشامي الى مكة. وقد وصلت السكة الحديدية الحجازية الى الحجر سنة ١٩٠٧... وجاء ذكرها في كتب اليونان نحو تاريخ الميلاد وبعده، وعينوا مكانها في الحجر، وهم يسمونها ((ثموديني)). وبيجواره مكان يسميه العرب (فج الناقة) وقد سماه بطليموس



واخذتهم الصاعقة، بحيث رجفت
بهم الارض، فدمدم عليهم العذاب
فكانوا كهشيم المحتظر.
هذا كل ما يعطيه القرآن بشأن قوم
صالح، وليس فيه شئ غريب يخالف
العقل او العلم.

فقد جاءهم صالح بناقة يجلب
لبنها، وشرط عليهم ان يتركوا الماء لها
يوماً، ويكون لهم يوماً اخر.. فكانت
الناقة تشرب الماء كله ذلك اليوم وتدر
لهم حليباً كثيراً..
لكنهم صعب عليهم الصبر على
الماء يوماً كاملاً.. فعقروها.. وجاءهم
العذاب..





سُتْرَاتِيْجِيَّاتُ

اِحْتِوَاءِ النِّفَاقِ فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ

أ.م.د. محمد ميرزائي

مشهد - جمهورية ايران الاسلامية

فحوى البحث

يدور البحث حول ظاهرة انبثقت منذ انبثاق الاسلام وهي ظاهرة النفاق والمنافقين. وقد تعامل النبي ﷺ معهما تعاملًا حكيمًا موحىً من عند الله وذلك باحتوائه وعدم مجابته وبطريقة مؤثرة وفاعلة. وقد استعرض الباحث بعض هذه الاستراتيجيات ملقياً الأضواء عليها مستنداً الى الرؤية القرآنية والتفسير والمصادر التاريخية واداء المحللين من أهل الرأي وأثبت الباحث ان القرآن الكريم حدد خطط الاحتواء ضمن صنفين: استراتيجيات ثقافية-اجتماعية واخرى سياسية، يقع بعضها في عرض الآخر أو في طوله فهي استراتيجيات متلازمة الحلقات جاءت تطبيقاتها في أحداث كشفها القرآن الكريم.

ملخص البحث:

إن من أخطر التحديات المحدقة بالمجتمع الإسلامي، وجود ظاهرة معادية للإنسان تُدعى «النفاق»، وتواجَد شرذمة كذّابة، طمّاعة، انتهازية، خؤونة تُسمّى «المنافقين»، وَسَمَّتْهُمُ البارزة هي ازدواجية ألسنتهم وضمايرهم وثنائيتها. نظراً إلى التأثيرات الفردية والاجتماعية الهدّامة لهذه الظاهرة في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية، يبدو ان وجود خطط أو استراتيجيات احتواء مؤثّرة وفاعلة و رادعة، ضرورةً قصوى لا بدّ منها. والقرآن الكريم انطلاقاً من رسالته، وتحقيقاً لمجتمع آمن، نبّه في آيات عدّة إلى خطر النفاق، راسماً بذلك خططاً متنوعة لاحتواء النفاق وأهله على اختلاف درجاتهم.

استعرضت هذه الدراسة القرآنية، بعض هذه الاستراتيجيات، ملقبة بالأضواء عليها، معتمدة مصادر التاريخ والتفسير والحديث. حدّد القرآن خطط الاحتواء أو استراتيجياته ضمن صنفين: استراتيجيات ثقافية -اجتماعية، وأخرى

سياسية يقع بعضها في عرض البعض أو في طولها. يُعدّ من خطط الاحتواء الثقافية -الاجتماعية كلٌّ من: المداراة الرامية إلى الهداية، وإعداد علماء دين متضلعين دعاة رادعين، والتعريف الصحيح بالرؤية الكونية التوحيدية، والحؤول دون تسلل المنافقين إلى مؤسسات الحكومة الثقافية والاجتماعية البناءة للإنسان المسلم، وفرض أنواع الحرمان من ممارسة الأنشطة الاجتماعية. أما خطط الاحتواء السياسية فتتمثّل في التزام القياديين وأصحاب القرار بالتقوى، والاحتراز من اعتماد نُظُم الكفار والمنافقين وانتهاجها، ورصد علاقات المنافقين مع الكفار، و رفع الكفاءات الإدارية للبلاد وضبط الموقف السياسي والتحكّم فيه، وكشف النقاب عن الوجوه المنافقة عبر تنوير الرأي العام، والتفويض الموجه للمهام إلى أهلها، وتصريف التيار المنافق و تحويله إلى فرصة مواتية، وأخيراً التعامل القهري الصارم.

المفردات الأساسية: القرآن، النفاق،



ستراتيجية، الاحتواء.

مقدمة البحث:

إنّ النفاق يعني سلوكاً مغايراً مناقضاً للقول يتفشى من خلال شريحة أو طيف طمّاع انتهازي سياسي خدّاع مفوّه وضارّ في الوقت نفسه. في الرؤية القرآنية هذه الازدواجية بين اللسان والضمير، تُدعى «النفاق» كما يدعى المصاب بها «المنافق». يتزامن ظهورها مع ظهور الإنسان أما بداياتها وإرهاصاتها الأولى في الإسلام فتعود إلى السنوات الأولى لدعوة الرسول الأعظم ﷺ، حيث دبت هذه الظاهرة خفية في أوصال المجتمع الإسلامي كافة خطرة^(١). تزامناً مع قيام الدولة النبوية في المدينة المنورة وتنامي الاقتدار النبوي فيها، تحوّلت هذه الظاهرة إلى تيار متنامٍ وأبدت ردود فعل مختلفة. على مرّ الزمن، والتقدم العلمي و التطور الصناعي ما تلتته من طفرة في

الأجهزة والإمكانات، لم ينحسر مدّ هذه الظاهرة فحسب، بل ازداد تعقّداً بتقدّم العلم وإمكاناته (مطهري؛ ١٣٦٨ش: ١ و٢ / ١٤٩ - ١٥٠). ونظراً لوجود هذه الظاهرة في المجتمع الديني، وإمكانية نفوذها في مؤسساته، وجّه القرآن رسائل إنذار، واعتبر المنافقين كفّاراً بمعنى الكلمة ووعدهم مثوى أسوأ من جحيم الكفار. ولا شكّ في أنّ أيّ مجتمع بشريّ لا يتجاهل آفاته الاجتماعية والسياسية إذا أراد البقاء والاستمرار، حيث يتمتع بخطط مواجهة واحتواء، بغضّ النظر عن سلبياتها وإيجابياتها، تقوم على مبادئه الفكرية. وفي ضوء الآيات الكثيرة التي نزلت بشأن النفاق، يطرح السؤال التالي نفسه على بساط البحث: ما هي الاستراتيجية القرآنية الرئيسة لاحتواء هذه الظاهرة الهدّامة وأهلها، أو مواجهتها؟.

تختلف مواجهة القرآن لها باختلاف درجاتها ومراتبها. لذلك يأخذ القرآن بنظر الاعتبار ظروف المجتمع الإسلامي ومتطلباته؛ الأمر الذي يجدو بنا إلى القول

(١) ر. ك: "بيدایش پدیده نفاق از منظر قرآن" (نشوء ظاهرة النفاق من منظور القرآن)، ميرزائي، محمد مجله تخصصي دانشگاه علوم إسلامي رضوي، ١٣٨٣، العدد ١٤. ص ١٣٧ - ١٢١.



اختلاف أطواره ومستوياته؛ تتناغم هذه الاستراتيجية والرؤية القرآنية عن الإنسان والمجتمع البشري. وتمثل هذه الدراسة محاولة لاستجلاء جوانب من الاستراتيجية القرآنية المتألفة من المداراة والتهديد والجهاد؛ مما يمكن تصنيفه إلى استراتيجيات ثقافية -اجتماعية، وأخرى سياسية؛ ولكل صنف في احتواء النفاق على درجاته، وظائف ثنائية أو مكّملة للصنف الآخر.

١. استراتيجيات ثقافية -اجتماعية لاحتواء النفاق.

١. ١ / المداراة واللين الهادفان إلى الهداية: لا يتبنّى الإسلام التعامل القهري العنيف كخطوة أولية بناءً على مراتب النفاق المتعددة^(٢)، ومتطلبات المجتمع الإسلامي وظروف المنافقين من جهة، ومن جهة أخرى بناء على الرؤية الإسلامية الهادية؛ بل إنّ الإسلام وفي ضوء واجبه المتمثل في هداية الناس

(٢) ر. ك: ميرزائي، محمد، «مفهوم شناسی نفاق، انواع و مراتب آن از منظر قرآن»، آموزه های قرآنی، ١٣٩٠، الرقم ١٤، ص ١٥١-١٣١.

بأنّ للقرآن استراتيجية مبدئية تجاه النفاق وأهله.

إن نظرة القرآن إلى الإنسان القائمة على الهداية، ونظرته العادلة إلى الجريمة من جهة، وضرورة تكوين مجتمع نزيه آمن من الآفات والسلبيات الخلقية والاجتماعية والسياسية من جهة أخرى، كلّ ذلك يبيّن ضرورة التعرّف على الاستراتيجية القرآنية الرشيدة لمواجهة هذه الظاهرة الهدّامة وأهلها، أو احتوائها. وفي التفاسير وكتب الأخلاق إشارات متفرقة عديدة إلى علامات النفاق وصفات المنافقين. إلا أنّ الحلول القرآنية لاحتواء ظاهرة النفاق وأهله على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، لم تحظ بدراسة جادة تُذكر، بينما نرى غالبية الآيات القرآنية المتعلقة بالنفاق تدور في فلك هذا الموضوع.

لقد توصل الباحث في هذه الدراسة القرآنية، معتمداً مصادر الحديث والتاريخ، إلى أنّ الذكر الحكيم بفضل وعيه التام لمستويات النفاق، يتمتع بـاستراتيجية ملائمة للنفاق على



وترقيتهم وكمالهم، يقدم الوعظ والنصح البليغين كستراتيجية متكاملة ويفرضها على الحكّام و ولاية الأمر.

تعدّ المداراة أكثر عوامل الإصلاح والتأهيل الاجتماعي فاعليةً، وتعدّ عاملاً في استمرار العلاقات الاجتماعية السليمة القويمة، كما أنها إحدى المبادئ والمنطلقات الثابتة التي اتخذها الأنبياء ﷺ سلاحاً ماضياً، وفي ذلك يقول خاتم الأنبياء ﷺ: «إننا معاشر الأنبياء أمرنا بمداراة الناس، كما أمرنا بأداء الفرائض» (الطوسي: ٢ / ١٥٣) والله سبحانه يعزو نجاح الرسول الأكرم ﷺ إلى تعامله اللين الملائم للجماهير قائلاً: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ لَافْتَاؤًا مِنْ حَوْلِكُمْ فَاعْبُدُوهُمْ وَأِسْتَعِينُوا بِهِمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]

كانت سيرته ﷺ الأخلاقية مبنية على الرفق بأُمَّته ومداراتهم إلى حدّ كبير، الأمر الذي أثار سخط المنافقين فسمّوه أذناً!، ذلك أنّه ﷺ كان ينظر إلى الناس نظرة تكريم واحترام، ويصغي إليهم ويحمل كلامهم محمل الصدق، حتى أنّ المنافقين كانوا يفتخرونه بالكلام دون حاجز يُذكر؛ وإن لم يكن استماعه ﷺ لهم يعني تصديق مسموعاته. لكنّ مجرد استماعه للجميع، دفع المنافقين إلى ذمّه واعتباره أذناً صاغية للقائل وكلمته أياً كان، وبالطبع لم يكن هذا التعامل ملائماً في رأي المنافقين: ﴿وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلْ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٦١].

النفاق ظاهرة نفسية اجتماعية:

ما لم يكن النفاق يتحوّل إلى تيار ذي طابع سياسي كان الرسول الأعظم ﷺ ينظر إليه كمرض نفسي سببه الابتلاء بالردائل الخلقية ويتطلب علاجه دواءً

كما أن الرسول الأعظم ﷺ - بصفته هادياً للمجتمع، ومديراً على الصعيد العالمي - لم يهمل توظيف عنصر المداراة، حيث قال: «رأس السياسة الرفق» (الأمدي؛ ١٤٠٧هـ: ١ / ٢٣٧) فقد

خاصاً. والنبى الذي كان طبيباً حاذقاً
دوّاراً بطّبه (السيد الرضى؛ الخطبة
رقم: ١٠٨) يبحث عن مرضى حيارى
صُمُّ بكم عُمي، فكان طبيب الأرواح
والنفوس؛ إذ بيده البلسم والمشرط،
فعلى أساس الرفق والمداراة يسرع إلى
علاج المصاب بالنفاق فور ابتلائه. كان
يسعى ﷺ دوماً لهداية الناس قلقاً من
إصابتهم بالأمراض النفسية وخروجهم
من سواء السبيل، و وقوعهم في شرك
النفاق الذي يحرق إنسانية الإنسان،
لذلك يقول القرآن مستمياً الرسول
الأعظم ﷺ: **لحزنه على ابتلاء البعض
بالنفاق: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ
الَّذِينَ يُسَكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ
الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن
قُلُوبُهُمْ..﴾ [سورة المائدة: ٤١].** «أي

وفي تفسير له بين الفخر الرازي
بجلاء المراحل الثلاث لعلاج ظاهرة
النفاق الذميمة على مستواها الفردي،
والذي يرى الرسول ﷺ علاجه واجباً
عليه: «اعلم أنه تعالى أمر رسوله ﷺ
أن يعاملهم بثلاثة أشياء: الأول: قوله:
فَأَعْرَضْ عَنْهُمْ وهذا يفيد أمرين أحدهما:
أن لا يقبل منهم ذلك العذر و لا يغتر
به، فإن من لا يقبل عذر غيره و يستمر
على سخطه قد يوصف بأنه معرض عنه
غير ملتفت إليه. و الثاني: أن هذا يجري
مجري أن يقول له: اكتف بالإعراض
عنهم و لا تهتك سترهم، و لا تظهر لهم
أنك عالم بكنه ما في بواطنهم، فإن من

تجاهل أمرهم، فلا تقبل منهم عذرا،
لأنهم يستغلون قبلك هذا في أغراضهم،
و لا تعاقبهم، لأنهم اعتذروا و لو
ظاهرا» (مغنية؛ ١٩٩٠م: ٢ / ٣٦٦)
«ولا تعاقبهم لمصلحة في استبقائهم، و
لا تزد على كفهم بالموعظة و النصيحة



هتك ستر عدوه و أظهر له كونه عالماً بما في قلبه فربما يجرّوه ذلك على أن لا يبالي بإظهار العداوة فيزداد الشر، و لكن إذا تركه على حاله بقي في خوف و وجل فيقل الشر. النوع الثاني: قوله تعالى: وَ عِظُهُمْ وَ الْمَرَادُ أَنَّهُ يَزْجُرُهُمْ عَنِ النِّفَاقِ وَ الْمَكْرِ وَ الْكَيْدِ وَ الْحَسَدِ وَ الْكُذْبِ وَ يَخُوفُهُمْ بِعِقَابِ الْآخِرَةِ، كما قال تعالى: ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]. النوع الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (الفخر الرازي؛ ١٩٩٠م: ١٠ / ١٢٤).

١. /٢ التبيين الصحيح للرؤية الكونية التوحيدية:

تعدّ قضية الموت و موقف الأفراد و التيارات السياسية منها، أحدى المعايير القرآنية لتقييم صحة الأداء أو سقمه [سورة البقرة: ٩٤ و سورة الجمعة: ٦] و ما عدا العملاء المرتزقة، فإنّ أهل الطاغوت من كفار و منافقين، يهربون من الموت و من كل ما يرجح كفة احتمال الموت كال حرب و الجهاد، مذعورين

قلقين. كما أثار مخاوفهم و هو اجسهم في صدر الإسلام، نزول سورة قرآنية تكتب عليهم القتال: ﴿ ... وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْتَفَىٰ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَنِيلاً ﴾ [سورة النساء: ٧٧]. و القرآن الكريم الذي يشكّل الإنسان موضوعه الرئيس، و تشكّل الهداية قطب رحاه، يأمر في مثل هذه المواقف، الرسول الأعظم ﷺ بتقويم فكرة المنافقين الخاطئة عن الحياة و الموت عبر تسليط الأضواء على الرؤية الكونية الإسلامية القويمة: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَىٰ صَوْتِ بِنَا إِلَّا آلًا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٥٢].

حصيلة مثل هذا الأداء تشكّل تهديداً للمنافقين فضلاً عن التوعية و التوجيه، ليعرفوا أنّ خداعهم للمؤمنين لن يجدي نفعا فحسب؛ بل يعود عليهم بإحدى الحسنين: «فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين؟»



حيث يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب:

١٧] «كانت الآية السابقة تنبيهها لهم على أن حياة الإنسان قضاء مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف و في هذه الآية تنبيه -على أن الشر والخير تابعان لإرادة الله محضا لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب و لا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالى و القرار على أمره بالتوكل عليه.

(الطباطبائي؛ ١٤١٧هـ: ١٦ / ٢٨٧) «إذن يستدعي الحذر وتقتضي الحيلة أن يتوكل الإنسان على الله مفوضاً إليه الأمور. فالآيات المذكورة أعلاها التي تخاطب المنافقين تأمر الرسول ﷺ من جانب الله تعالى ب: ﴿ قُلْ ﴾ أي بين الحقائق إزاء خوف المنافقين وهروبهم من الموت اللذين يشكّان عاملاً للنفاق، ووضح لهم الرؤية الصحيحة عن الموت والدور الإلهي في بداية الأمور وخاتمها، لينهجوا محجة الهداية،

إنها الحسنى على كل حال. والنصر الذي تعلق به كلمة الله، فهو جزاؤهم في هذه الأرض، أو الشهادة في سبيل الحق وعليها الدرجات عند الله. و ماذا يترصد المؤمنون بالمنافقين؟. إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين أو يبطش المؤمنون بهم كما وقع من قبل للمشركين» (سيد قطب؛ ١٩٦٧م: ٣ / ١٦٦٥).

كما فسّر الطبرسي: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ معناه هل تنتظرون لنا إلا إحدى الخصلتين الحميدتين و النعمتين العظيمتين إما الغلبة والغنيمة في العاجل و إما الشهادة مع الثواب الدائم في الآجل». (١٩٨٦م، ٥ / ٥٨).

إن سورة الأحزاب التي تسرد علينا أحد أحسم المواقف و أخطر الظروف المصيرية في حياة الرسول ﷺ، تكشف عن الحيرة والهلع الشديدين في معسكر النفاق، وتبين لنا كيف سلق المنافقون المسلمين بألسنة حداد ولاموهم لإنقاذ أنفسهم من غارة واسعة شنها الكفار،



وينجوا من السقوط في جحيم النفاق. ولا ريب في أن التوصيات القرآنية المتكررة الفاضية يتبين الرؤية الكونية التوحيدية، والقدرة الإلهية العظمى في تدبير الأمور، وتقديم تعريف صحيح للموت والحياة إلى المنافقين، لا شك أن ذلك كله يصب في اتجاه التعامل الاستراتيجي الإسلامي الهادي البناء للإنسان مع النفاق وأهله، ويشمل جميع مراتب النفاق والمنافقين الذين لم يرتكبوا جريمة خاصة.

١. ٣ / صيانة المؤسسات الثقافية والاجتماعية والإنسانية في النظام الإسلامي:

يشكل التوغل في مراكز القرار التربوية والثقافية والاجتماعية والهيمنة عليها إحدى أهم الآليات التي يتبناها النفاق الداخلي والدولي. ويمثل مسجد الضرار حقيقة تاريخية تفك شفرات النوايا الخبيثة لأعداء الإسلام. إن المسجد يُعدُّ معهداً لتعليم العقائد الدينية، ومدرسةً لإعداد الإنسان و تثقيفه في أجواء توحيدية، كما أنه

يُعتبر مصفاة للروح، ومركزاً لاتخاذ القرارات الاجتماعية والسياسية في المجتمع الإسلامي. ولم تغب وظيفة المسجد الكبرى هذه عن بال الأعداء. لذا فإن نزول آية صريحة تحدد أهداف المنافقين والتعامل النبوي الصارم والرشيد مع التيار الموازي والمنحرف المتمثل بمسجد الضرار، يشكل تحذيراً صارخاً موجهاً إلى مسلمي العالم ليعتبروا بالتاريخ عبر إنعام النظر، فيمنعوا من حدوث تجارب مماثلة، ولئلا تعود المساجد - بدلاً من سيرها إلى الله - مأمناً لحكومة المستكبرين، ومدرسة للكفر والضلالة وبث التفرقة، وفسحة عمل للمنافقين المتناسكين. وربما يمكن القول بأن المسجد في الآية هذه، يرمز لدور العبادة وإسداء الخدمات، والإعلام، والتعليم والتعلم... واليوم لا بد من توظيف المساجد بأمثل شكل والتحلّي بالحیطة والحذر التامین في صيانة المساجد وحفظها ورعايتها، نظراً إلى توزع مهامها على مختلف المراكز والمؤسسات. كما أنه لا يجوز إغفال



وَأَرْكَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَنْظُرُوا لِلَّهِ يُمِيتُ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ [سورة التوبة: ١٠٧ - ١٠٨] بُنِيَ هذا المسجد بجوار أول المباني والمساجد الإسلامية أي مسجد قبا على أيدي أعداء الدين الألداء وبقيادة رؤوس منافقي المدينة المتواجدين في خارجها، وتمّ ذلك حينما وجد المنافقون خططهم للإطاحة بالدولة النبوية الفتية، قد ذهبت أدرج الرياح، فراحوا يفكّرون في خطة جديدة، وكان ذلك الطريق الوحيد الذي يمكنهم من طعن الإسلام. «و التعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى، و يراد به ما أريد بمسجد الضرار و تكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة و تُطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم، مهما لبس أصحابه

جميع المؤسسات والمنظمات الوطنية والدولية كالجامعات، و الحوزات العلمية، و مؤسسات الإعلام، و الإذاعة والتلفزيون، و الصحافة و السينما، ومؤسسات حقوق الإنسان، و وكالات الأنباء، و الصناديق الدولية للنقد والتعاون، والمنظمات الثقافية و الصحية، و جمعية الهلال (الصليب) الأحمر الدولي، وما إلى ذلك من مؤسسات تخدم الناس بشكل أو بآخر؛ إذ لا يُستبعد أن ينخرط النفاق وأهله في كل واحدة من هذه المؤسسات والمنظمات بفضل شعاراتهم البراقة ومشاريعهم الخدّاعة، ليتحينوا الفرصة السانحة لتوجيه الضربة القاضية إلى جسد الأمة الإسلامية.

إنّ الله تعالى الذي أتمّ عنايته بالمسلمين، كشف النقاب عن النفاق وأهله ونواياهم الفاسدة وزيف ادّعاءاتهم، عبر تبين هذه الآلية الخطيرة، وتقديم مصداق بارز له في عهد الرسول ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ



مسوح المصلحين... الذين بنوا هذه البنية ليكيدوا بها هذا الدين!. إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة المثيرة ترسمه و تحركه بضع كلمات!.. ذلك ليطمئن دعاة الحق على مصير دعوتهم، في مواجهة دعوات الكيد و الكفر و النفاق!. و ليطمئن البناة على أساس من التقوى كلما واجهوا البناة على الكيد و الضرار!. و مشهد آخر يرسمه التعبير القرآني الفريد لآثار مسجد الضرار في نفوس بناته الأشرار و بناة كل مساجد الضرار» (سيد قطب؛ ١٩٦٧م، ج ٣، ص ١٧١١) وهذا المسجد الذي ساءه الله تعالى بحق ضراراً، كان تحت إشراف أبي عامر الراهب الذي ترأس منافقي المدينة وكان يثير الرومان ضدّ النظام الإسلامي و هو الذي لم يعد يطبق تواجد الرسول ﷺ في المدينة، وفرّ هارباً إلى مكة وبعد إقامة قصيرة في الطائف، زاول تحركاته ضدّ المسلمين. (الواحدي؛ ١٤١١ ق، ص ٢٦٤-٢٦٥).

إن الغفلة عن خطط الأعداء، والانشداد بأقوالهم البراقة، وادّعاءاتهم

الزائفة، لا ينبغي أن تحجبنا عن معرفة نواياهم. فالآيات القرآنية تكشف بوضوح عن مدى نوايا المنافقين الخبيثة على المستويين الداخلي والدولي، بحيث إذا تحققت لهم السيادة والهيمنة لا يرتضون بأقلّ من تدمير المنشآت الإنتاجية، سواء في ذلك الموارد البشرية أو الاقتصادية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۗ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۗ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْإِمْهَادُ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦] الآيات المذكورة آنفاً تمثل تحذيراً وإنذاراً شديدين وتجسّد ستراتيجية لاحتواء النفاق، عبر ضرورة صيانة المراكز الحساسة للموارد البشرية، والإنتاج الفكري والحضاري بصفتها مراكز ستراتيجية للمجتمع، وكذلك عبر إقصاء أيدي المنافقين (الداخليين والدوليين) عنها، حيث يتواجدون عادة في الأوساط



القرآن الكريم: ﴿ وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ
لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ
مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾
[سورة التوبة: ١٢٢].

إنَّ إلقاء نظرة خاطفة على التاريخ البشري بما فيه تاريخ الإسلام، يزودنا بنماذج من مزورين غشاشين استعانوا بأقدس الشخصيات والشعائر لنيل دنياهم، ولم يألوا جهداً في ممارسة الظلم بشتى ألوانه بعدما تربّعوا على العرش واستتب لهم الأمور. كما أنَّ امتلاك معرفة دينية صحيحة عميقة وتبليغها للناس يؤدّيان إلى ازدهار المجتمع وتطوّره، كذلك يقيان الناس السقوط في آفة النفاق الهدامة، والانخداع بشعارات المنافقين الخداعة. إنَّ نزول سورة التوبة ولا سيما الآية أنفة الذكر، فيما كان المنافقون يصلولون ويجولون في العهد النبوي، يفيد تحذيراً إلى المسلمين يقضي بأنَّ مجرد التواجد العسكري في المعارك لن يفني بالعرض الرامي إلى تحقيق أجواء آمنة تضمن السموّ

بغية أهداف خيرية إنسانية تحت أغطية ومسميات متلوّنة.

١. /٤ إعداد علماء دين متضلعين دعاة رادعين:

إن سرّ بقاء المجتمع واستمراره يكمن في التمتع بوعي صحيح عميق عن أصول الدين وفروعه (الطبائبي؛ ١٤١٧هـ: ٩ / ٤٠٤) وإعداد علماء دين متميزين لتحصين المجتمع وتطعيمه ضد الآفات الفكرية والعلمية. ولا ريب في أن المنافقين بوصفهم مدّعين للتدين عن كذب، وواقفين على نقاط ضعف المسلمين، لا يهملون حرف الدين عن مساره، وشقّ صفوف المسلمين المتلاحمة المتراسة كغطاء لنيل مآربهم؛ خاصة إذا كانت هذه المؤامرة تجمعهم والكفار. إذن أفضل الطرق للحؤول دون نشوء النفاق، ونفوذته وتنامي مدّه على مختلف الأصعدة، يتمثل في تكوين مراكز منظّمة، وإعداد خبراء دين مفكرين من مختلف القوميات يقومون بالتوعية الدينية في صفوف الجماهير، ويحذرون من معبّة الرذائل الخلقية كالنفاق؛ يقول



والرقي، بل إثمها يتحققان في ظلّ المعرفة، والمعرفة محتاجة إلى التفقه في الدين. فكما أننا بحاجة إلى مجاهدين في ساحة القتال، فكذلك يعوزنا على الصعيد الديني طائفة مجاهدة للتوصّل إلى فهم وتفهم دينيين صحيحين لئلا يقع الناس في حبال المنافقين. إضافة إلى ذلك كله، فإنّ إبراز عواقب النفاق السيئة عبر توعية الجماهير يسلب المنافقين فسحة التحرك، ويمنعهم من الإيضاع خلال صفوف الحقّ، ويشكّل في حدّ ذاته استراتيجية ثقافية لاحتواء النفاق والمنافقين. وسيد قطب نراه يستنكر الفقهاء والعلماء الذين يعتزلون زاوية متفوقين بين أوراق الكتب بعيدين عن سوح الجهاد، ويرى أنّ النشاط والحيوية في مضمار الدين، والفهم والتفقه الصحيح تعود للمجاهدين في ميادين القتال، ويجدّون في سبيل التغلب على الجُلّ ومحوه في صفوف الجماهير. «والتجارب تجزم بأنّ الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه مهما تفرغوا لدراسته

في الكتب-دراسة باردة!. -و أنّ اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنّما تتجلى للمتحرّكين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس و لا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق! إنّ فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة. و لا يؤخذ عن فقيهه قاعد حيث تجب الحركة. و الذين يعكفون على الكتب و الأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية «يجدّدون» بها الفقه الإسلامي أو «يطورونه» -كما يقول المستشرقون من الصليبيين!. -و هم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده، بتحكيم شريعة الله وحدها و طرد شرائع الطواغيت... من أجل ذلك كان الفقهاء متفهمين في الدين، يجيء فقههم للدين من تحركهم به، و من تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حي، يعيش بهذا الدين، و يجاهد في سبيله، و يتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة» (سيد



قطب؛ ١٩٦٧م، ٣ / ١٧٣٥).

١. ٥ / فرض أنواع الحرمان الاجتماعي، والتحقير بغية إبطال مفعول الأنشطة:

إن فرض أنواع الحرمان الاجتماعي

من الاستراتيجيات القرآنية لاحتواء

النفاق. ومن البدهي أنّ أفراداً بتلك

السمات لا يمكن الوثوق بهم؛ لأنّ

مجالسة المنافقين، بغضّ النظر عن

وقوفهم على أسرار المسلمين، تؤدّي

إلى تأثير سلبي في نفوس المسلمين،

وتلكؤهم عن إبداء ردود فعل

ملائمة تجاههم. لذا نجد القرآن يأمر

المسلمين مراراً وتكراراً بالابتعاد عن

مجالسة الكفار والمنافقين ومقاطعتهم

كستراتيجية أساسية في مواجهة

أعداء الإسلام، وتترتب عليها فوائد

سياسية - اجتماعية جمّة. ومعسكر

الكفر والنفاق جدّ خاسر قلق على هذه

المقاطعة، لا سيّما عندما يمكنه اللعب

وإدارة الموقف؛ إذ إنّ ربحه رهين

بالتواصل مع المجتمع الإسلامي. إن

أنظمة الكفر والنفاق الدولية تدرك

خطورة هذه العلاقة، وتسعى بشتى

الحيل والذرائع إلى إقامة هذه العلاقة

لتحقيق أهدافها، وبالطبع حالفها

النجاح في هذا المسار. ومن المؤسف

أن المسلمين كلما ابتعدوا عن هذه

الاستراتيجية تكبدوا خسائر أفدح. ولا

شكّ في أنّ الواجب يختلف تجاه النفاق؛

فبطبيعة الحال إذا سمحت ظروف

المجتمع الديني، وطاقاته الفكرية

والثقافية بتوجيه مجتمع الكفر والنفاق

وضبطه، ورجحت كفة المجتمع الديني

في الإعلام والتأثير، فحينئذ يختلف

الواجب والمهمّة؛ إذ إن الواجب يقع

على عاتق طائفة بعينها؛ يقول الله تعالى:

﴿... فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [سورة النساء: ٨٩].

إن إهمال المنافقين في الأوساط

الاجتماعية وإقصاءهم عن مراكز القرار

(الطوسي؛ لا تا، ٣ / ٢٨٤) فضلا عن

كونها عاملي ردع للمنافقين يعتبران

من خطط العقاب القرآنية لاحتواء

النفاق. لا ريب أنّ المجتمع الذي يحظى

بمقومات معرفيّة وتشجيعية ولا يقام

فيه وزنٌ للمنافقين، رداً على تصرفاتهم



المنافقة، تسلب فيه إمكانية نمو الرذائل الخلقية كالنفاق. ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا أُولَئِكَ بِهِمْ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ٩٥].

نقل بعض المفسرين أو ذكروا أنواع هذا الحرمان في ذيل آية سورة التوبة كالتالي:

أي لتصفحوا عن لومهم. و - قال ابن عباس: أي لا تكلموهم. وفي الخبر أنه قال عليه السلام لما قدم من تبوك: (و - لا تجالسوهم و - لا تكلموهم). (القرطبي؛ ١٩٦٧م، ٨ / ٢٣١، والسيوطي؛ ٣ / ٢٦٨). «أي لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب و التقرير و ما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقا لهم فيما يملفون له من الأعذار بل لأنهم رجس ينبغي أن لا يقترب منهم و مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون».

(الطباطبائي؛ ١٤١٧هـ، ٩ / ٣٦٣). ولا يعني إهمال المنافقين والإعراض عنهم، الضعف أو المداراة دوماً.

فلاسياسة القرآنية كما تصور اقتدار المجتمع النبوي، كذلك تقدم إلينا صورة رائعة للإعراض عن المنافقين ليست ناجمة عن الرفق والمداراة؛ بل تهدف إلى عقوبة التيار المنافق وتحقيره (ابن كثير؛ ١٤١٩هـ: ٤ / ١٧٦) وتستعرض نظرة المسلمين الساخطة (مكارم الشيرازي، ١٤٢١ق، ٨ / ٩٠) واستحقار تحركات المنافقين.

هذه الخطة القرآنية على أساس الظروف المكتنفة لنزول سورة التوبة، تثبت أن احتواء النفاق قد يكمن في احتقارهم من جهة، وزيادة الطاقات الفكرية في المجتمع الإسلامي من جهة أخرى. وانحسار المنافقين في مثل هذه الظروف الذي يصحبه دوماً الاعتذار إلى المسلمين والتوجس من ردود فعلهم القهريّة، من أهداف القرآن العِقَابِيَّة والتربوية والستراتيجية؛ لأنه على حسب شواهد تاريخية طالب صحابة الرسول صلى الله عليه وآله بمعاقة المنافقين وقتلهم، لكن رؤيته الاستراتيجية الرشيدة الهادية منعتهم عن النزول عند مطالب الصحابة.



(٣٣٥) لا يؤدي إلى غاية بل إنها السير على خطة العدو؛ لأنهم لا يرضون بأدنى من كفر المسلمين، أو القضاء عليهم [سورة النساء: ٨٩] لذا فإن الله تعالى كتب الواجب على الجميع عبر خطابه المباشر إلى الرسول ﷺ بوصفه رأس المجتمع الإسلامي، محذراً من إبداء أية مرونة في انتهاج خطط العدو والوثوق به [سورة هود: ١١٣] أينما وحيثما كان (الموسوي السيزواري؛ ١٤٠٩هـ، ٦/ ٢٧٧) واعتبر امتثال الأمر الإلهي كافياً للحركة: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِغِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ١-٣] ويقول تعالى في موطن آخر: ﴿وَلَا تُطِغِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَدْنَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٨] كتب بعض المفسرين ما يلي: «أي و أعرض عن أذاهم فإني سأكفيك أمرهم إذا توكلت

٢. الاستراتيجيات السياسية لاحتواء النفاق.

٢. ١/ التزام القياديين وأصحاب القرار بالتقوى، واجتناب الرضوخ لإملاءات الكفار والمنافقين:

على القياديين وأصحاب القرار- بصفتهم حملة النبراس وأدلاء المجتمع- ألا يعدلوا عن الجادة بمختلف الأعذار، أو يكفؤا عن مواصلة سيرهم الدؤوب بفعل التحديات الطارئة، أو يتأثروا بها. إن ذوي التأثير في المجتمع أو النخبة حسب التعبير المعاصر، فضلاً عن تمسكهم بتقوى الله الذي هو الأساس في إدارة الحياة الاجتماعية، و إلى جانب اجتنابهم مختلف المعاصي، عليهم ألا ينخدعوا بزخارف قول الأعداء، أو يأخذهم الرعب للهيبة الظاهرية للكفار والمنافقين، وإمكاناتهم المادية الهائلة (سيد قطب؛ ١٩٧٦م: ٥/ ٢٨٢٢) بل عليهم أن يتوكلوا على النصر الإلهي. فإن الاستعانة بالعدو، واستشارة الكفار والمنافقين وطلب العلاج منهم (ابن كثير؛ ١٤١٩هـ: ٦/



علي و عملت بطاعتي فإن جميعهم في سلطاني بمنزلة ما هو في قبضة عبي» (الفخر الرازي؛ ١٩٩٩ م، ٩ / ١٧٤، والطبرسي؛ ١٩٨٦ م: ٨ / ٥٦٩) «أي اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به و الدليل على هذا المعنى قوله: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أي لا تستقل بنفسك في دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلا في ذلك و كفى بالله وكيلاً». (الطباطبائي؛ ١٤٠٩هـ، ١٦ / ٣٣٠).
لم تتمكن ضغوط المنافقين على الحكومة النبوية قط من أن تشغله عن مهامه، ولم ترغمه على فتح جبهة أخرى جديدة في الداخل؛ بل كان الرسول ﷺ إلى جانب إلحاحه على مواقفه، يواصل تدابيره الرشيدة للحفاظ على الحكم الإسلامي، وتنحية المعارضة و تهميشها. ولم يكن الرسول ﷺ يغفل عن واجبه المتمثل في تبليغ الآيات الإلهية، وهداية الناس نحو مجتمع عامر حرّ موحد.

في الحقيقة يمثل هذا التعامل في تلك الحقبة الزمنية لحكومته ﷺ خير أسلوب في التعامل مع الفتن والاضطرابات

الداخلية، و يجسد نموذجاً جديراً بالاحتذاء لحكام المجتمع الإسلامي لثلاث يتجاهلوا السيرة النبوية في التعامل مع المنافقين في ظروف مماثلة.

٢.٢ / رصد العلاقات السريّة والعلنيّة بين المنافقين والكفار:

أبناً القرآن الكريم في مواقف متعددة يتواجد المنافقين في محافل الكفار تواجداً سريعاً، وتولّاهم حتى تحقيق نواياهم [سورة المائدة: ٤١] كما حدّثنا عن علاقاتهم الوطيدة مع الكفار، والتعاون الوثيق بينهم [سورة الحشر: ١١] والتجسس لهم [سورة التوبة: ٤٧]. هذا الاهتمام الجاد يُعدُّ تحذيراً للمجتمع الإسلامي ومسؤولي النظام الإسلامي ليحصنوا ويصونوا المجتمع أمام الآفات الكبيرة الناجمة عن تعاون الكفار والمنافقين، عبر الإشراف على مسار علاقات المنافقين بالكفار وضبط تحركاتهم المشبوهة: ﴿ **يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْرَمُكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُونَ**

﴿ **يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْرَمُكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُونَ**



توجيه ضربة تُذكر إلى المجتمع الإسلامي، في ظل سيطرة الحكام على الموقف السياسي: ﴿...يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ...﴾ [سورة المنافقون: ٤] لذا تُعدّ الهيمنة على الموقف السياسي إحدى استراتيجيات احتواء النفاق. والتيار المنافق يوقف تحركاته أو يقلصها حال وقوفه على الكفاءة الإدارية في مسؤولي المجتمع الإسلامي، مخافة الوقوع في قبضة التيار المؤمن. فمن البدهي أنّ استمرار الحياة السياسية المستقلة ينتفي في العالم المعاصر من دون الإشراف على أوضاعه السياسية ورفع الكفاءات الإدارية والمعلوماتية، في ظلّ اتّساع رقعة الاتّصالات، وتعقّد الأوضاع السياسية. كلما كانت الهيمنة أكثر، كانت إمكانية احتواء النفاق أقوى؛ لأنّ النسبة بين قدرة تيارَي النفاق والكفر على التحرك، نسبة مباشرة دوماً.

٢. ٤ / توجيه التيار المنافق، وتحويله إلى فرصة:

لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِمُحَرَّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُوْتُوهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[سورة المائدة: ٤١].

٢. ٣ / رفع الكفاءات الإدارية والتحكم في أوضاع المجتمع السياسية:

إن أبرز سمات المنافقين في المنظور القرآني هو خوفهم من الحرب وبالتالي الموت. كذلك انكشاف نواياهم وأهدافهم عبر الوحي، إذ يعدّ من هواجسهم المهمة. لذا كانت تحركات المسلمين وقراراتهم الجديدة على اختلاف أشكالها في العهد النبوي، ترعبهم وتذهب بهم الظنون إلى أنّ أسرارهم قد انكشفت وستصدر أحكام بحقهم: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الحشر: ١٣] لا شك في أنّ مثل هذا التيار لا يستطيع



مع أننا لا نستطيع الاطلاع المباشر على تحركات المنافقين لفقد النبي ﷺ وانقطاع الوحي عنّا، لكنّ القرآن في ضوء المعلومات الدقيقة التي تناوّلها في تحليلاته النفسية العميقة عن المنافقين، لم يوفر لنا إمكانية رصد تحركاتهم، ولم يعرفنا على مواصفاتهم الظاهرية والباطنية فحسب؛ بل مهّد لاحتواء النفاق وتوظيفه في مواجهة الكفار، لاتصاف المنافقين بصفات كانعدام التماسك التامّ، وجبنهم، وطمعهم، والأهمّ من ذلك كلّ، عدم اتحادهم الحقيقي مع الكفار لخصائصهم الذاتية والوجودية. ونصّ في مواطن عديدة على أنهم ليسوا معكم، ولا مع الكفار، وإنّ جمعتهم والكفار الأهداف وعذاب الآخرة: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوْلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المجادلة: ١٤] وفي قوله تعالى: ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٤٣].

إن توجيه النفاق بمستوياته الثلاثة الخطر، وقليل الخطر، والتصرفات المشبوهة بالنفاق، يتطلب اتخاذ تدابير خاصة. كما تعتبر توعية الجماهير عن طريق تنمية فكرها الديني، ومواصلتها حتى توصل الجماهير إلى اختيار الحياة الأخلاقية الكريمة المثلى، هدفاً لبعثة الأنبياء ﷺ، كذلك تعتبر استراتيجية مبدئية في الإسلام. في الخطوة التالية إذا انضمت طائفة من المنافقين إلى الكفار وواكبهم، بتخطي المحظورات، فحينئذ يمكن أيضاً توجيهها وتحويلها إلى فرصة لمواجهة الكفار، استناداً إلى الآيات المذكورة أعلاها، وصفات المنافقين المذكورة في القرآن؛ لأنّ هذه الصفات من الفرص التي توفر لنا إمكانية استغلالهم لصالح المجتمع الإسلامي في حال اتخاذ التدابير اللازمة. من هذه الصفات حبّ السلامة، والخوف من الموت والمواجهة العسكرية، والطمع الشديد، والتواجد بين ظهرائي الكفار ومجالستهم، والأبرز من كل ذلك نكثهم للعهود، والكذب



يكشف هذا التفويض عن نواياهم. و ربّما يمكننا استنباط ذلك من ثنايا الآية التالية: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ [سورة محمد: ٣٠ - ٣١].

٢.٦ / التعامل القهري القاصم:
لقد اتفق الباحثون القرآنيون على ضرورة مجاهدة المنافقين بناءً على نص الآية التالية: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ [سورة التحريم: ٩] إلا أنهم اختلفوا على كيفية المجاهدة. فقد قال بعضهم بعدم كفاح المنافقين كفاحاً مسلحاً بحجة أن الرسول ﷺ لم ينتهجه طوال عمره الشريف، ولم يقتل أحداً من المنافقين. (الطبرسي؛ ١٩٨٦م: ١٠ / ٤٧٨، و٥ / ٧٧، والطباطبائي: ٩ / ٣٣٩، وسيد قطب: ٤ / ٢٥٥) لقد كان الرسول ﷺ يحكم عليهم بحسب الظاهر، وربما يبدي تجاههم مرونة

حتى في التعامل مع الكفار. ٢.٥ / كشف النقاب عن وجوه النفاق عبر توعية الرأي العام أو التفويض المدروس لبعض المهام:

إن المنافق حية لئِن مَسَّهَا، قاتل سَمَّهَا، والغفلة عنه لا تحمد عقباها لقدرته الفائقة على التكيف والتأقلم مع البيئة وموافقة السلوكيات المختلفة. كلامه العذب المعسول يعجب الإنسان [سورة البقرة: ٢٠٤] من هنا ونظراً إلى ميزاتهم المذكورة في القرآن، يجب أحياناً كشف النقاب عن وجوههم لتبيين نواياهم الخبيثة لدى الرأي العام. لكن المنافقين لقدرتهم الفائقة على المغالطة، لا يتأتى الكشف عن وجوههم على وجهه الصحيح إلا إذا جعلهم في بوتقة الاختبار، بفضل تفويض مدروس للأمور والمناصب إليهم. ومن شأن التفويض المدروس المنظم أن يسفر عن استقطاب المنافقين إلى المجتمع الإسلامي وانصهارهم فيه، وتوفير إمكانية استغلال طاقاتهم لصالح النظام الإسلامي. ومن جهة ثانية يمكن أن



وليناً، وعلى هذا لا يجوز قتالهم (الفخر الرازي؛ ١٩٩٩م: ٦ / ١٠٣، و ١٠ / ٥٧٣). وإن المراد بمجاهدتهم في الآية يتلخص في إرغامهم على الإنذار وإتيان الفرائض. ومن المفسرين من يذهب إلى أنّ لفظة الجهاد عامّة، تشمل الكفاح بكافة أنواعه بما فيها المسلح، لكنّ القرآن لم يحدّد الأخير؛ بل إن له مراتب ومستويات يحددها الرسول ﷺ على ما أوتي من صلاحيات وسلطات، وعلى حسب تشخيص الزمان والمكان (محمد حسين فضل الله؛ ١٩٩٦م: ١١ / ١٦٦، وحسن حنبكه الميداني: ٢ / ١٣٠) والمستفاد من الأدلة الحاصلة أن مجاهدة الكفار تتمّ بالسيف، ومجاهدة المنافقين تمرّ بمرحلتين: إقامة الحجج والبراهين، ومن ثمّ اللجوء إلى القوة (الفخر الرازي؛ ١٩٩٩م، ٦ / ١٠٣، و ١٠ / ٥٧٣).

تفيد دراسة المصادر اللغوية التفسيرية أن كلمة الجهاد ومادة الجهد لم تكن تستخدم قبل الإسلام في القتال، وكانت ألفاظ نحو: القتال، والحرب،

تستخدم عادةً للكفاح المسلح. لكن استخدامها في القرآن يفيد القتال والكفاح المسلح في سبيل الله (ظاهرة النفاق: ٢ / ١٢٦، والطباطبائي؛ ١٤١٧هـ: ٩ / ٣٣٩، والمصطفوي: ٢ / ١٢٨).

هذا ويستفاد من أقوال البعض الآخر أنّ جهاد الكفار لا يختلف عن جهاد المنافقين، والجهاد كلّه يعني المواجهة والقتال. ومنهم الطبري حيث يروي الرواية التالية -بوصفها رأيه المختار - عن أبي جعفر، عن ابن مسعود: «و أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب ما قال ابن مسعود، من أن الله أمر نبيه ﷺ من الجهاد جهاد المنافقين، بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين». (الطبري، ١٤١٢ق، ج ١٠، ص ١٢٧) وسيد قطب هو الآخر ينسب في أحد أقواله، قولاً إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إن المراد بمجاهدة المنافقين هو الجهاد بالسيف (سيد قطب، ١٤١٢ق، ج ٦، ص ٣٦٢١).



الوقت المناسب، وكذلك كان يستفيد منهم لتطوير المجتمع الإسلامي. وإذا عدلوا عن هذا النهج، وخاضوا في محاولات معادية للإسلام، فقد كان الرسول ﷺ ينظر في جرائمهم على أساس الأحكام الإسلامية، ويعاملهم معاملته لغيرهم من المجرمين. وإذا تمخضت محاولاتهم الهدامة عن ظهور تيار يصطف أمام الإسلام، ويضع بينه وبين المسلمين حدوداً فاصلة، فحينئذ يجد الجهاد مصداقيته الكاملة دون أدنى شك، وتشملهم الآية؛ لكونها صريحة في مجاهدتهم والغلظة عليهم. ونجد النموذج العملي لمثل هذا التعامل بشأن منافقين كانوا يدعمون الكفار في خارج الحدود الإسلامية. وعندما اقتربوا من المدينة المنورة اختلف المسلمون على كيفية مواجهتهم (ابن هشام؛ لا تا، ٤/ ٢٥٣) الأمر الذي تبعه الانتقاد الإلهي حيث حذّره الله تعالى من التفرق والاختلاف على قتال المنافقين: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ

يبدو أن الدليل الرئيس للمفسرين في عدم التصريح بكيفية جهاد المنافقين، هو فقدان المواجهة العسكرية في سيرة الرسول الأكرم ﷺ؛ لذا يجمعون على الكفاح المسلح في تفسير آية الجهاد ضد الكفار، لكنهم يلجأون إلى التأويل والتبرير بالرغم من تصريح القرآن بجهاد المنافقين في موطنين اثنين، ويحجمون عن التصريح عليه.

لا شك في أنّ جهاد الكفار بمعنى الكفاح المسلح، يجد مصداقيته حيث يتمردون عتاةً على الإسلام والمجتمع الإسلامي، أو يعرقلون تطبيق الأحكام الإسلامية، أو يتخطون طورهم ويتعدون حدّهم مبتغين ما وراءه. ففي مثل هذه الظروف لا فرق بين الكفار والمنافقين ويجمع جهاد كلا الفريقين معنى واحداً. والمنافقون كالمسلمين في التمتع بالخيرات المادية والمعنوية للمجتمع الإسلامي، ماداموا يعيشون بين المسلمين، ويظهرون الإسلام. كان الرسول ﷺ يرصد تحركاتهم، وينصحهم ويعظهم، وينذرهم في



وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾
 وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً
 فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
 وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا
 نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ [سورة النساء: ٨٨ - ٨٩].

تاريخياً نشاهد مواجهة الرسول ﷺ الصارمة للمتآمريين على النظام الإسلامي، حيث استنفر الرسول ﷺ المسلمين، وطلب من طائفة منهم التوجه نحو تبوك، حينئذ أرادت شزيمة منافقة صدهم عن شهود ذلك الجهاد المقدس، فلما عرف الرسول ﷺ أخبار هذه العصابة التجسسية، كلّف طلحة بن عبيد الله مع عدد من المقاتلين الأشاوس بإحراق المكان الذي احتشدوا فيه، ليكون عبرة لهم وللمتآمريين في المستقبل. فباغتهم طلحة ورجاله لدى عقدهم اجتماعاً، فأحرقوا الدار، فلاذ المنافقون بالفرار، وألسنة النيران متصاعدة، وانكسرت رجل أحدهم أثناء الفرار. (السبحاني؛ ١٣٦٠ ش: ٢ / ٣٨٨).
 وبناء على المقولة المشهورة: "آخر

الدواء الكي" إذا بادر التيار المنافق إلى اقرار جريمة في المجتمع الإسلامي، بعدما لم تُجدِ الوصفات الإنسانية الهادية العادلة نفعاً في علاج النفاق وتقويم أوده، فلا يبقى شك في ضرورة تطبيق الأحكام الإسلامية بحقه دونها مهادنة أو رفق، وذلك لاحتوائه، والحد من إلحاقه الأضرار والخسائر بالمجتمع، وتهديده الأمن الاجتماعي والسياسي. ولا يجوز الإهمال والمداراة على أساس نص الآية فحسب؛ بل إنّ مواجهته بالقوة والعنف، فرض من القرآن عند انفصاله عن النظام الإسلامي، وتكوينه لمعسكر ضد المسلمين. والواقع أنّ الاحتواء الشامل في مثل هذا الموقف يتمثل في ممارسة العنف الشامل ضد المنافقين.

نتائج البحث:

أسفرت الدراسة الدقيقة في أي الذكر الحكيم المتعلقة بظاهرة النفاق والمنافقين عن وجود استراتيجية قرآنية جادة لمعالجة النفاق وأهله. والقرآن إلى جانب نظرتة الهادية، إلى هذا

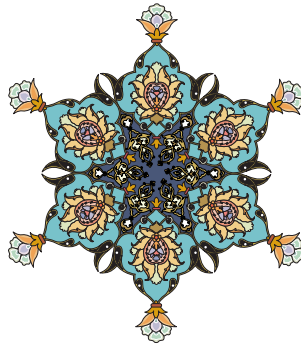
- المرض الروحي وآفاته الاجتماعية والسياسية، يتمتع بـستراتيجية أو خطة رشيدة حكيمة لجميع مراتب النفاق المختلفة، لكونه مدمراً في المستويين الفردي والاجتماعي. هذه الاستراتيجيات التي تقع في طول بعضها أو عرضها، تندرج في الإطارين الثقافي والسياسي، وتنطلق من المداراة الرامية إلى الإرشاد والإصلاح، وتمرّ باتخاذ التدابير الاجتماعية والعقدية، وممارسة بعض أنواع الحرمان لتنتهي إلى التعامل القهري الصارم على أساس متطلبات الظروف، حال انفصال المنافقين عن المجتمع الإسلامي.
- فهرست المصادر**
- القرآن الكريم.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠ م، تفسير التحرير و التنوير، الطبعة الاولى، بيروت، مؤسسة التاريخ.
 - ابن هشام، بي تا، السيرة النبويّة، تحقيق ابراهيم الابياري، بيروت دار احياء التراث العربي.
 - الأمدي، ١٤٠٧ هـ، غررالحكم و درر الكلم، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت.
 - البلاغي، محمد جواد، ١٤٢٠ هـ، آلاء الرحمن، الطبعة الاولى، قم، مؤسسة البعثة.
 - الزخشي، محمود بن عمر، بي تا، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الاقاويل في وجوه التأويل، مصحح مصطفى حسين احمد، منشورات البلاغه.
 - سبحاني، جعفر، ١٣٧٤، فروغ ابدیت، چاپ دهم، ج ١ و ٢، قم، دفتر تبليغات اسلامي حوزة علميه قم مركز انتشارات.
 - سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م، الطبعة الخامسة، بيروت، دار احياء التراث العربي.
 - السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، بي تا، تفسير الدر المثور، بيروت، دار الفكر.
 - الطباطبائي، سيد محمد حسين،



- النفاق وذم النافقين، تحقيق: عبد الرقيب بن علي، الطبعة الاولى بيروت، دار ابن زيدون.
١٦. القرطبي، محمد، ١٩٦٧م، الجامع لاحكام القرآن، الطبعة الثالثة، بيروت، دار احياء التراث.
١٧. الطوسي، محمد بن الحسن، ١٤١٤، الامالي، دار الثقافة، قم، التحقيق: قسم الدراسات الاسلامية.
١٨. فضل الله، محمد حسين، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م، تفسير من وحي القرآن، الطبعة الثانية، بيروت، دارالملاك.
١٩. المحمدي الري شهري، محمد، ١٣٦٢ ش، ميزان الحكمة، الطبعة الاولى، قم، مكتب الاعلام الاسلامي.
٢٠. المدرسي، محمد تقى، ١٣٧٧ ش، تفسير هدايت، ترجمه احمد آرام، چاپ اول، مشهد بنياد و پژوهشهاي اسلامي آستان قدس رضوي.
٢١. المطهري، مرتضى، ١٣٦٨ ش، آشنائي با قرآن، ج ١ و ٢، چاپ چهارم، تهران، صدرا.
- ١٤١٧ هـ، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الاولى، بيروت، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.
١٠. الطبرسي، الفضل بن الحسن، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الاولى، بيروت، دار المعرفه.
١١. الطبري، محمد بن جرير، ١٤٢٠هـ، جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتب العلميه.
١٢. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، بيروت، دار احياء التراث العربي.
١٣. العروس الحوزي، علي بن جمعه، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، تفسير نور الثقلين، تحقيق: السيد علي عاشور، الطبعة الاولى، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي
١٤. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، الطبعة الثالثة، بيروت، دار احياء التراث العربي.
١٥. الفريابي، محمد، ١٤١٠ ق، صفة



٢٢. مغنية، محمد جواد، ١٩٩٠م،
التفسير الكاشف، الطبعة الرابعة،
بيروت، دارالعلم للملادين.
٢٣. مكارم شيرازي، ناصر، ١٣٧٤
ش، تفسير نمونه، چاپ نوزدهم،
طهران، دار الكتب الاسلامية.
٢٤. مكارم شيرازي، ناصر، ١٤١٣،
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل،
الطبعة الاولى، بيروت، مؤسسة
البعثة.
٢٥. الميداني، عبد الرحمن حسن حنك،
١٤١٤هـ، ظاهرة النفاق وخبائث
المنافقين في التاريخ، الطبعة الاولى،
بيروت، دار القلم.
٢٦. ميرزائي، محمد، پيدايش پديده
نفاق از منظر قرآن" (نشوء ظاهرة
النفاق من منظور القرآن)، مجله
تخصصي دانشگاه علوم إسلامي
- رضوي، ١٣٨٣، العدد ١٤،
ص ١٣٧ - ١٢١.
٢٧. ميرزائي، محمد، "مفهوم شناسی
نفاق، انواع و مراتب آن از منظر
قرآن"، آموزه های قرآنی، ١٣٩٠،
الرقم ١٤، ص ١٥١ - ١٣١.
٢٨. النراقي، احمد بن محمد مهدي،
١٣٧٨ ش. معراج السعاده، چاپ
ششم، قم، هجرت.
٢٩. نهج البلاغة فيض الاسلام،
١٣٦٨ ش، مترجم: سيد جعفر
شهيدي، چاپ اول، تهران، سازمان
انتشارات و آموزش انقلاب
اسلامي.
٣٠. الواحدي، علي بن احمد، بي تا،
اسباب نزول القرآن، بيروت، دار
الكتب العلمية.



شُرُوطُ الْمُتَحَدِّي

مِنْ مَنْظُورِ نَظَرِيَّةِ الْإِعْجَازِ الْمَقَامِيِّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

د. تومان غازي الخفاجي

الكلية الإسلامية الجامعة - النجف الأشرف

فحوى البحث

شغلت مسألة الإعجاز القرآني أبحاث العلماء منذ أن بدأوا يدرسون هذا الكتاب العزيز المنزل من عند الله العزيز وقد انقسم العلماء على ثلاثة اتجاهات:

الأول: أصروا على نظرية الإعجاز البلاغي (الداخلي).

الثاني: قالوا بالإعجاز (الخارجي) أو ما اصطلح عليه بـ(الصِّرفَة).

الثالث: من قال بالجمع بين الاتجاهين وهنالك وجوه إعجازية

أخرى ظهرت في الزمن التالي لزمن استقرار هذه الاتجاهات ومنها وأخرها ما جاء هذا البحث بصدد الحديث عنه وهي نظرية (الإعجاز المقامي) وهو الأمر المضمّر في الألفاظ التي تعبر عن موقع التكلم وحضور موقع المخاطب. وقد جاء البحث بمبحثين وخاتمة.

المقدمة:

يعارضوا هذا السطر بمثله؟!!

ذهب بعض البلاغيين إلى القول بأن الإعجاز ((عجيب يُدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن: تردك ولا يمكن وصفها...))^(٢)، وذهب فريق منهم إلى البحث في لغة النص بحثا عن أسرار الصنعة بالتحليل والموازنة، وقد وصلت جهودهم إلى طريق مسدود، فأقروا -علنا أو ضمنا- بوجود الإعجاز في غير القرآن بالمقدار الذي اشترطه المتحدّي سبحانه وتعالى نفسه، فتجاهل بعضهم هذا الشرط، مصرّا على فكرة الإعجاز البلاغي، التي هجرها آخرون فقالوا بنظرية الصّرفة^(٣)، لحلّ التناقض الحاصل عند البلاغيين بين فرضيتهم والنتائج المخالفة لها، لكن الصّرفة تحمل تناقضا أيضا؛ لأنها تنفي الإعجاز الذاتي في النص وهو ما رفضه البلاغيون وبرهنوا على فساده.

(٢) مفتاح العلوم، السكاكي: ٥٢٦.

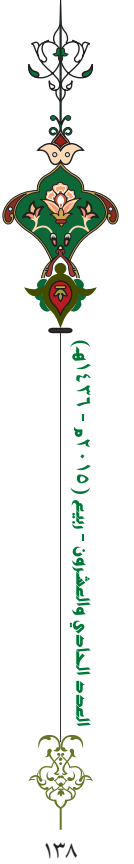
(٣) تقول نظرية الصرفة من منظور النظام: إنّ العرب قادرون على معارضة القرآن بالبلاغة، ولكن الله صرفهم عنها، بسلبهم العلوم التي تمكنهم من ذلك، أو منعهم عن المعارضة على جهة الجبر والقسر. ظ: الطراز، العلوي: ٣/٣٩٣.

الحمد لله الذي نزل الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله مصايح الهدى، وعلى صحبه المنتجبين وبعد:

فإنّ البحث في نظرية الإعجاز يعدّ من المباحث الفكرية الدقيقة التي حارت في كنهها العقول؛ لأنها لا تتصل بالقرآن وحده، بل بمبدعه الذي أحكم آياته بكتاب جعله دليلا على صدق خاتم أنبيائه ﷺ، مخالفا سنن المعجزات الحسية السابقة؛ لأن^(١) ((هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيمة، خُصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر))، الذين آمنوا وأنكرها المرتابون فتحدّاهم الله أن يأتوا بسورة مثله في آخر تحدّ بصيغة النكرة دلالة على التحدي بأي سورة طويلة أم قصيرة، كالكوثر التي لا يتجاوز طولها السطر الواحد.

والسؤال لماذا عجز البلغاء في عصر ازدهار البلاغة -وهو مقتضى الإعجاز أن يكون من جنس ما اشتهر به القوم- أن

(١) الإتقان، السيوطي: ٤٨٢ - ٤٨٣.



لذلك انقسم العلماء على ثلاثة اتجاهات:

الأول: أصروا على نظرية الإعجاز البلاغي (الداخلي) مع وجود التناقض في فكرته.

الثاني: قالوا بالإعجاز الخارجي (الصرفة) وإن رفضت الصرفة الإعجاز الذاتي.

الثالث: قالوا بالجمع بين الإعجاز الخارجي (الصرفة)، والداخلي (البلاغي).

ومع كثرة حيثيات النظر الذاتية للظاهرة الاعجازية ظهرت وجوه اعجازية كثيرة وما زالت تتزايد جزئياتها باطراد، وهذا إن دلّ على خصب الظاهرة ونشاط الباحثين فيها، فإنه يدل أيضا على ضعف نظرية الإعجاز غير مبرهنة عليها، فضلا عن عدم استنادها إلى مبدأ عقلي عام يسلم به ويسند ظواهرها الجزئية المتكثرة، مما يجعل الظاهرة الاعجازية معرضة لسهام النقد لمن يريد البحث عن الحقيقة البرهانية الثابتة المنسجمة التي يسلم بها العقل، التي تنظم هذه الجزئيات المتناثرة بسلك

يسندها إلى مبدأ أولي مدعوم بشواهد تطبيقية لغوية مشهودة.

وإلا كيف يتصدى الله تعالى لتحديّ البلغاء بسطر خارق للعادة يكون دليلا على صدق نبوة نبيّه، فيحجم أرباب البلاغة في عصور ازدهارها عن معارضة هذا السطر، مفضلين الصراع الجسدي الذي بذلوا فيه الأنفس والأموال، على المناظرة القولية التي توهم العلماء أنها تكون في السطح اللغوي البليغ!

انتصر الرسول ﷺ عسكريا، ولكن المعركة الاعجازية بقيت قائمة لم تحسم بعد؛ لأن السؤال مازال قائما، وأن التناقض الذي أشرت إليه أنفا أصبح مثيرا للشبهات التي توجه سهامها لكتابتنا العزيز ولبلغته الرسول الأعظم ﷺ، وهما عماد الشريعة الإسلامية بوصفها صالحة لكل زمان ومكان.

إنها مشكلة حقا تمس عقيدتنا وإحساسنا الجمالي وحضارتنا في الصميم، فكّرت فيها مليّا حتى هداني الله لفكرة (الإعجاز المقامي) الذي لم أخرج فيه عن دائرة الأنموذج الألسني، وهو ما



لفظ السياق، لذلك أبدى الدكتور تمام حسان تحفظه في استعمال المصطلحين، ويرى أنّ الفيصل في إدراك الاختلاف بين المفهومين هو معرفة ما تنطوي عليه الثقافة، ذلك أن مصطلح المقام يرتبط كثيرا بمواقف الاستعمال اللغوي، مما يجعله خاضعا للمعيارية التي تلتصق بتعريفات البلاغيين للمقام^(٤)، أو لمقتضى الحال، الذي فهم فهم كونا نمطيا مجردا ثم قالوا: «لكل مقام مقال»، فهذه المقامات نماذج مبعثرة وأطر عامة وأحوال ساكنة، وبهذا يصبح المقام عند البلاغيين سكونيا static فالذي يقصد بالمقام ليس إطارا ولا قالبا، وإنما هو الفعالية الاجتماعية المتحركة، التي يُعدّ المتكلم والسامع والكلام نفسه وكل ما له صلة بحدث التكلّم speech event وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف أنموذجي مجرد، بل إنه يشمل كلّ عملية الاتصال.

وهذا يكون الإعجاز المقامي

(٤) ظ: اللغة العربية مبناها ومعناها، د. تمام

يوافق النص، ولا يخرجنا إلى متاهات الميتافيزيقا. وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم على مقدمة ومبحثين تليها خاتمة ذكرت فيها أهم النتائج تليها قائمة بأسماء مصادر البحث ومراجعته، وأما المبحثان فقد تناولت في المبحث الأول: تعريف الإعجاز المقامي وتبيان أنموذجه التطبيقي، وتناولت في المبحث الثاني: شروط المتحدي من منظور نظرية الإعجاز المقامي.

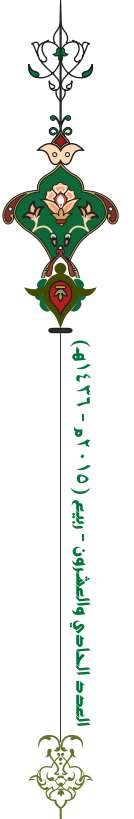
أمل أن أكون موفقا في للإجابة عن الأسئلة الملحة، عسى أن أكون وفيًا بالقليل القليل لكتابتنا العزيز الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله به، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول:

تعريف الإعجاز المقامي وبيان

أنموذجه التطبيقي:

يلتبس مصطلح السياق بمصطلح المقام، إذ شاع لفظ المقام قديما عند العرب وارتبطت بالبلاغة العربية القديمة، أما المحدثون فقد استعملوا



للكلام أمراً متضمناً أو مضمراً في الألفاظ التي تعبر عن موقع المتكلم، ويقضي الإعجاز حضور موقع المتكلم أولاً، وحضور موقع المخاطب ثانياً؛ لأن الإعجاز مصدر من الرباعي (أعجز)، يقال: ((أعجزت فلانا إذا ألفتته عاجزاً))^(٥)، يقال: ((أعجزني فلان: إذا عجزت عن طلبه وإدراكه))^(٦)، وبين المعجز والمعجز يتوسط النص المعجز ثالثاً.

وهذه العناصر الثلاثة تفعل عناصر الاتصال الأساسية في الأنموذج التواصلي: (المرسل، والرسالة، والمرسل إليه)، الذي يمكن أن نجري عليه تعديلاً بسيطاً بتغيير مصطلحات هذا الأنموذج لجعله موافقاً لشروط الإعجاز، وأهمها التحدي، الذي يتطلب متحدياً ومتحدىً ونصاً متحدىً به، لتكوين أنموذج يجسد الواقع الموضوعي لعلم الإعجاز بشكل أدق وأعمق واشمل، ويظهر ذلك في الأنموذج الآتي:



(٥) لسان العرب، ابن منظور: ٥٨/٩، (عجز).

(٦) م. ن: ٥٨/٩، (عجز).

الحَكْمُ عنصرا مهما لحسم النزاع، وعليه يجب أن يدخل في الأنموذج؛ لأنه ينشئ علاقة بين طرفي النزاع برضاهما، فضلا عن علاقته بالنص، إذ يعتمد الحكم على النص في استخراج الأدلة المعجزة بالتحليل الموضوعي الذي ينهض برهانا ملحوظا غير قابل للدحض أو النقص بحجج أقوى من حجته، وهو ما نجده في حجة أم جندب التي نقبلها اليوم، إذ قال علقمة في نعت فرسه:

"فأدر كهن ثانيا من عنانه" ... البيت

وقال امرؤ القيس:

"فللزجر أهوبٌ وللساق درّة" ... البيت
فقلت لامرئ القيس: هو أشعر منك، رأيتك ضربت فرسك بسوطك، وحركته بساقك، وزجرته بصوتك، ورأيتك أدرك الصيد ثانيا من عنانه يمر كمرّ الرياح المتحلّب))^(٨).

وعلى هذا الأساس يشمل أنموذج الإعجاز المقامي الكلامي، الفنون القولية جميعا ومنها القرآن الكريم، لوجود الإعجاز الكلامي في غير القرآن.

وهذا الأنموذج متضمن في تعريف المعجزة، فخرق العادة تتضمن النص المعجز، والاقتران بالتحدي يتضمن المتحدي، والسلامة من المعارضة تتضمن المتحدي، بفارق هو أن علماء الإعجاز فصلوا بين هذه العناصر، وهنا نربطها بعلاقات.

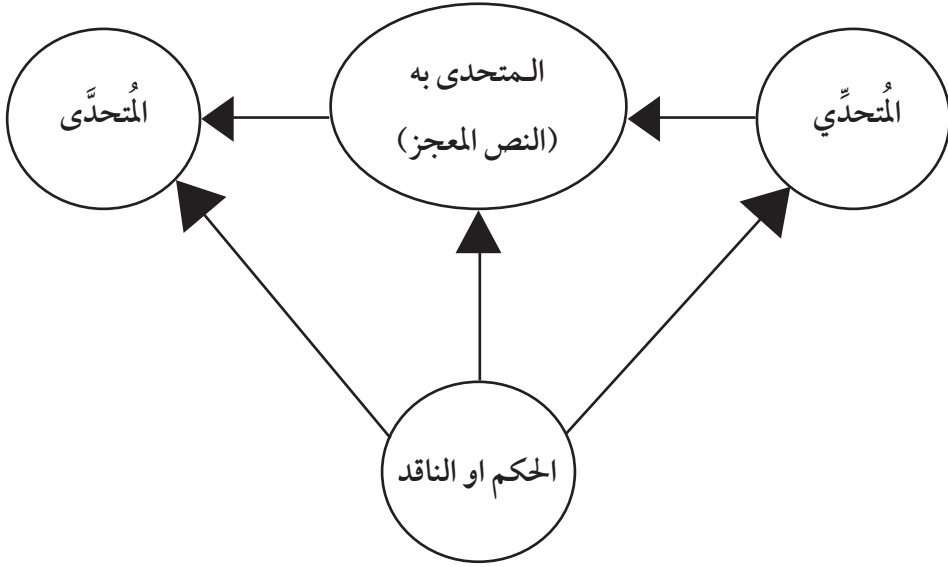
لكن هذا الأنموذج يحتاج إلى إضافة أحد أهم عناصر التحدي وهو عنصر الحَكْم، إذ لا يجوز أن يكون المتحدّي هو الحَكْم نفسه، فيتجمع الخصم والحكم في شخص واحد، لذا سيكون الحَكْم هو الناقد الذي يجب أن يدخل حدّا من حدود التعريف الجديد، على وفق ما تذكره قصة تنافس امرئ القيس وعلقمة^(٧) على كرسي فحولة الشعر، فرضيا بأم جندب زوج امرئ القيس حَكَمًا، فقضت لعلقمة اعتمادا على معيار الصورة الشعرية.

ولما كانت المنافسة على كرسي الشعرية موجودة قبل الإسلام وبعده؛ لذا يكون

(٧) القصة كاملة مذكورة في: الموشح، المرزباني:



وهذا الأنموذج المبيّن في الرسم الآتي لا نخشى الخلط بين إعجاز القرآن وإعجاز غيره:



وهنا يمكن التركيز في أحد عناصر الإعجاز وعلاقته بالعناصر الأخرى من دون الوقوع في أخطاء منهجية تهمل العلاقة بين العناصر الأربعة المتكاملة في بنية موحدة، تمنعنا أن نركّز في عنصر واحد ونغيّب ما سواها من عناصر مهمة تفيد في معرفة معنى هذا العنصر ووظيفته في الأنموذج الإعجازي.

والآن علينا فهم معنى الإعجاز المقامي للكلام، الذي هو أساس الإعجاز؛ لأن كل العناصر الثلاثة الأخرى قد استدعاه هذا العنصر، ومعناه مضمّر يفهم من مقام الكلام في أنموذج التواصل وهو: أن الله تعالى يتواصل معنا ليهدينا، ومن أنكر هذا التواصل يتحداه بمقامه العزيز. وبهذا الموقع يمتلئ ظاهر الكلام بالمعنى الاجتماعي والتاريخي والأخلاقي، ذلك أنّ الكلام يتألف ظاهراً من ألفاظ لها معانٍ مستمدة من

الاختلاف من خلال علاقة تفاعل المتن اللغوي مع المقام الذي يضع النص في حقل مرجعي جديد متكوّن من تلاقي المادة المفووظة بما تحمله من معانٍ لغوية مجردة من المعاني المقامية من جهة، وعلم النفس التحليلي من جهة أخرى، مما يؤدي إلى ولادة نص نوعي جديد متعدد الوجوه مثقل بما لم يتواضع عليه المجتمع اللغوي من قبل؛ لأنه لا يخضع لعملية البناء اللغوي الخارجية الخالية مما يدور في النفس، ولا يخضع للتحليل النفسي الداخلية الغامضة على الرغم من أن النص خارج من النفس، وإنما يخضع لعلاقة التقاء الخارجي (المتن اللغوي) داخلاً في النفس، بالداخلي (اللاوعي) خارجاً من النفس^(١٠).

ولهذا يكون نظام النص النوعي مختلفاً عن البناء اللغوي؛ لأنه ليس بناءً وإنما هو فعل بناء، إنه قول يعبر عن فعل، أو فعل مُعبر عنه بقول، إنه كلام ثقيل بصدق متكلمه الذي يستهدف من ورائه

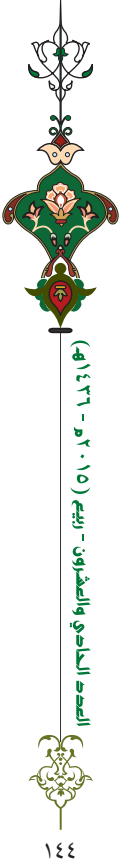
(١٠) ظ: معجم مصطلحات نقد الرواية، د. لطيف زيتوني: ١٦٧-١٦٨.

أربعة مستويات: (المستوى الصوتي، و الصرفي، و النحوي، و المعجمي)، لكن محصلة تلك المعاني تبقى فارغة ما لم تملأ بالمعنى الاجتماعي والتاريخي والأخلاقي، الذي يتجه مقام المتكلم المُحسّن، عندما يستعمل اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية شديدة الارتباط بثقافة المجتمع الذي يتكلم بها.

وإنّ هذه الثقافة في جملتها يمكن تحصيلها بوساطة حصر أنواع المواقف المختلفة التي يسمي كلا منها (مقاماً)، فمقام الفخر غير مقام المدح وكلاهما يختلف عن مقام الدعاء أو الاستعطاف أو التمني أو الهجاء إلى غير ذلك^(٩)، ومقام الله مختلف عن مقام البشر مما يظهر في الأساليب البلاغية التي تتجاوز الجزئيات حتى تصبح نصاً مستقل بنظامه عن نظام اللغة وإن تجاوزا وتشابها.

وبهذا يجعلنا النظر إلى الكلام المعجز من منظور مقامي ننظر إليه نظرة مختلفة، تنفي التشابه والتجاوز السطحي، ويظهر

(٩) ظ: اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان: ٣٧.



أثرا يصدقه المتلقي، وهو ما عبّر عنه
حسان بن ثابت بقوله:

وإنَّ أشعرَ بيِّتٍ أنتَ قائلُهُ

بيتٌ يُقالُ إذا أنشدتهُ: صدَقاً^(١١)

وكلمة (أشعر) بصيغتها التفضيلية
المطلقة توحى بالتحدي الاعجازي
المقامي، الذي هو مبدأ يعبر عن
الإحسان بإنتاج قيم اجتماعية وثقافية
وجمالية سامية جديدة ومؤثرة تعلق
ولا يُعلَى عليها، وهو ما تتضمنه
كلمة (صدقا) باعتراف المتلقي. وهذا
التحديد يجعل للبشر مقامات إعجازية
جزئية لا تجاري المقام الإعجازي الإلهي
الكلي الكمال والجمال، الذي يأتي دائما
متضمنا الإحسان ولا يتضمن الإساءة
أو اللغو أبدا، لذلك فصل حسان بن
ثابت بين نوعين من الإعجاز المقامي في
بيته السابق له:

وإنما الشعرُ لبُّ المرءِ يعرضُهُ

على المجالسِ إن كَيْساً وإنْ حُمُقا

فقوله: إن كيسا، من ((الكيس في

الإنسان: خلاف الخُزق؛ لأنه مجتمع
الرأي والعقل. يقال رجل كَيْسٌ ورجال
أكياس...))^(١٢). والحمق الجهل، بمعنى
أنّ هناك إنتاجين للقول: الإنتاج الكيس،
وهو الإنتاج العقلي الهادف، والإنتاج
السيئ هو القائم على الأهواء.

وقد أكد هذا المعنى الجاحظ بقوله:
((ومن صنع شعرا أو وضع كتابا، فقد
استُهدِف، فإن أحسنَ فقد استُعْطِف، وإن
أساء فقد استُذِف))^(١٣).

ولكي لا نخرج من حيز الجمال
البلاغي، الذي سحر البلاغيين بأثره،
وندخل في حيز الهدف الاجتماعي أو
الأخلاقي المفيد، علينا أن نقف في نقطة
التقاء الأثر بالجمال الاجتماعي، حذر
الوقوع في خطأ المصادرة التي جعلت
الإعجاز في بلاغة النص، من حيث
هندسة النص ومعانيه وأثره في النفس،
وحذر الوقوع بخطأ مصادرة الصّرفة
بمفهوم (النظام) التي تسلب الإعجاز
من شكل النص المتحقق، وتجعل مصدره

(١٢) مقييس اللغة، ابن فارس: ١٤٩/٥ (كيس).

(١٣) العمدة، ابن رشيق القيرواني: ١/ ١١٤.

(١١) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري،

عبد الرحمن البرقوقي: ٣٤٨.



الأسئلة مرورا بالإجراءات وصولا إلى النتائج الملموسة من النص، ذلك العمل الذي يجري في إطار الطبيعة المحسوسة للغة، تميزا للعمل العقلي الذي يدرس موضوعا ما وراء الطبيعة، بأسئلة عامة مجردة مطلقة، يمكنها أن تدخل في حيز الأمور الخارقة التي يصعب إثباتها وإقناع الآخرين بها.

ومن دون تحقق هذين الشرطين ندخل في مباحث غير مثمرة النتائج من ذلك القول بأن الإعجاز وقع ((بالتحدي بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وإنّ العرب كلّفت في ذلك ما لا يطاق، وبه وقع عجزها))^(١٧).

ولو أنّ الكلام القديم يمكن إثباته منطقيا لسلمت العرب بصدور الإعجاز من الله تعالى، وانتهت مشكلة إنكارهم وتحدي الله تعالى إياهم من زمن بعيد، لكن يصعب إثبات ذلك حتى أنّ علماء الإعجاز أنفسهم ردّوا هذه الحجة؛ لأنّ الإعجاز بالكلام القديم لا يمكن الوقوف عليه، و((ما لا يمكن الوقوف

(١٧) الإلتقان، السيوطي: ٤٨٤.

خارجيا، بمعنى أن القرآن ((كان مقدورا لهم، لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات))^(١٤) الحسية التي تدخلت بها إرادة الله تعالى مباشرة، لذلك فالإعجاز زائل بزوال زمن التحدي، بمعنى أن شكل النص يخلو من الإعجاز بما يخرق إجماع الأمة بأن معجزة الرسول ﷺ العظمى باقية، ولا معجزة باقية سوى القرآن^(١٥).

والإجماع وإن كان يعبر عن الدليل العقلي الاستقرائي للإعجاز، إلا أنه يبقى فرضية نظرية بها حاجة إلى شرطين حتى تصبح مؤكدة لصحة الإعجاز بالدليل الملموس، والشرطان هما^(١٦): المنهجية التي تعني أن الجهد العلمي لا يجري مصادفة، وإنما هو تطبيق لتفكير من نوع معين يتحقق في سلسلة خطوات منها: الملاحظة والاختبار والمراجعة، التي يوفرها النص موضوعا، أما الشرط الثاني فهو العمل العقلي الذي يبدأ من

(١٤) الإلتقان، السيوطي: ٤٨٤.

(١٥) ظ: م. ن: ٤٨٥.

(١٦) ظ: مناهج التفكير وقواعد البحث، د.

محمد شيا: ٢٦.



عليه لا يُتصوّر التحدي به، والصواب ما قاله الجمهور: إنه وقع بالدالّ على القديم، وهو الألفاظ))^(١٨)، التي أتقنت استعمالها العرب استعمالاً بلاغياً ليكون الإعجاز ممكناً وحجة على من يعجز عن الإتيان بمثله.

وهنا نلاحظ القفز من مقام الذات، إلى لفظها باللغة الاجتماعية من دون ربط المقام الإعجازي باللفظ المعجز بعلاقة، وهذا الفصل يجعل الألفاظ مجرد نشاط اجتماعي خلاق في استعمال اللغة، يمكن أن يتشابه مع النشاط الاجتماعي الإلهي من هذه الحيشية.

وهذا الفصل هو الذي أوقع القدماء بخطأ البحث المستقل في بلاغة النص وحدها تارة عند علماء البلاغة، والبحث المستقل عن مقام الذات الإلهية المتكلمة وحدها تارة أخرى، عند علماء الكلام.

ولذلك غمض لديهم كثير من وجوه الإعجاز التي يمكن فهمها من خلال أنموذج الإعجاز المقامي، قال السيوطي نقلاً عن بعض العلماء: ((ولا سبيل إلى

معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التي أودعوها في الشعر؛ لأنه ليس مما يخرق العادة، بل يمكن استدراكه بالعلم والتدريب والتصنّع به كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة، وله طريق تُسلك، فأما شأو القرآن فليس له مثال يُحتذى، ولا إمام يُقتدى به، ولا يصحّ وقوع مثله اتفاقاً... ونحن نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعضه أدق وأغمض))^(١٩).

وقد وقعت مصادرة الإعجاز البلاغي في تناقض ولاسيما عند التحدي بسورة قصيرة واحدة، فوجد علماء البلاغة وجود مثل هذا المقدار المعجز، مما دفع ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) إلى أن ينقض تلك المصادرة بجرّة قلم، والقول بإعجاز الصرفة، بقوله: ((وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرّف العرب عن معارضته، وإن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم



ذلك.. ومتى رجع الإنسان إلى نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهاه القرآن في تأليفه)) (٢٠).

ولتجنب هذا الخطأ المنهجي الفادح علينا صياغة منهج التفكير بالإعجاز بكلمة جامعة تصف الإعجاز المقامي للقرآن بأنه (تجليّ الجليل في كلامه الجميل). ولفظة (في) هي الرابطة بين الجليل والجميل، أي بين مقام المنشئ ونصه؛ لأن (في) ظرفية.

فتجليّ الجليل في الكلام يمكن أن يظهر بكلام غير جميل، نحو تجليه سبحانه وتعالى في التوراة والإنجيل الذي ((وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب، وإنما لم يكن معجزا [جماليا]؛ لأنّ الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأنّنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه، كما وقع في القرآن، ولأنّ ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع فيه التفاضل الذي ينتهي إلى حدّ

الإعجاز)) (٢١). وعلى هذا الأساس يجب أن نجمع (٢٢) بين الأحكام الجمالية التي هي أحكام قيمة ايجابية في جوهرها، بمعنى أنها تضم إدراك ما هو خير، مع أحكام القيمة الخلقية في جانبها الواعي للفائدة التي تترتب على التجربة. لتصبح مقاربة تعريف الإعجاز المقامي الكلامي الإلهي كالآتي (٢٣): النص القرآني بوصه معجزا هو النص الذي يتضمن مبدأ الإعجاز المقامي الذي يتجلى فيه الجليل في كلامه الجميل. ولا يتضمن النص هذا الضرب من الإعجاز ما لم يكن نصا أعاد إنتاج نصوص سابقة، فأنج نصا نوعيا تتطلب قراءته استعادة مراحل تكوينه لغةً ودلالةً وصولاً إلى كشف موقف منتج سبحانه وتعالى، الذي تظهر آثاره في النص ويكتشفها الناقد من إجراء الموازنة والتحليل الذي يراعى السياق

(٢١) م.ن: ٤٩٣.

(٢٢) ظ: فلسفة جورج سانتيانا، د. إبراهيم

مصطفى إبراهيم: ٥٠.

(٢٣) ظ: معجم مصطلحات نقد الرواية، د.

لطيف زيتوني: ١٦٨.

(٢٠) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي: ٨٩.



اللغوي والسياق المقامي والأثر الذي أحدثه في متلقيه في وقت واحد. ويمكن أن نميز في هذا التعريف ثلاثة عناصر رئيسة هي:

١. أصل الإعجاز، وهو بصمة منسئ النص المعجز.

٢. مجال الإعجاز، وتشمل كافة الإعجازات النابعة من أصل الإعجاز، ومنها: الإعجاز البلاغي، والتشريعي، والغبيي، والعددي، والعلمي بأنواعه: الفلكي والطبي والجيني وغيرها من اعجازات.

٣. أثر الإعجاز، ويظهر في الإيحاء بمعجزة المتحدي، أو الرفض التعسفي لها، ما لم يُؤتى بمثل القرآن الكريم.

وهنا يصبح الإعجاز غير مقصور على سطح النص أو المتن اللغوي وبلاغته التي لم تربط مقام المتكلم الإبداعي فضلا عن المتلقي المبدع بعلاقة، فالمتلقي المتأثر قد يأخذ دور الحَكَم الذي يوازن بين نصين متلمسا مقام قائلها الفكري والفني وغايات

كل منهما، وذلك في حال ظهور المتحدي، الذي يكوّن معه الحكم علاقة أيضا. ومن تلك العلاقات يمكن تمييز الفوارق النوعية بين النصوص المعجزة بالموازنة بين نصين أو أكثر يدور حولها خلاف في التفوق.

والإعجاز المقامي يظهر كالبصمة الذاتية للمنشئ التي أشار إليها بوفون G. Buffoon بقوله الشهير: ((الأسلوب هو الشخص نفسه))^(٢٤)، فضلا عن أثر هذه البصمة في الآخرين بحيث يعجزون عن مجاراتها.

ولا يخفى على أحد بأنّ البصمة الفنية الذاتية الراقية تشير إلى عبقرية صاحبها ومواهبه، ولكن كلّ البصمات البشرية مختلفة نوعيا عن بصمة الله تعالى؛ لأنه تعالى هو واهب العبقرية والمواهب لمخلوقاته العاقلة، فهو الذي يهب لهم ما يشاء من أحوال ومقامات، وخيال خلاق ومواهب أخرى تمكّنهم من التأليف الأدبي المتميز، ولكنه تعالى

(٢٤) نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي سانديرس: ٢٩.



المتبوعين فلا يمكن أن توصف بالثقل من حيث علاقتهم بالملوك والقادة، حتى وإن ثقلت أجسامهم؛ لأن أقوالهم إنما تعبر عن أحلام يمكن أن توصف بالخفة.

ومثال ثقل الكلام الذي يُظهر مقام الله في أقصر السور، هو ما ورد في سورة الكوثر: ﴿ **إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكُوثَرَ** ① **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ** ② **إِنَّكَ شَانِئُكَ** **هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ [سورة الكوثر: ١ - ٣].

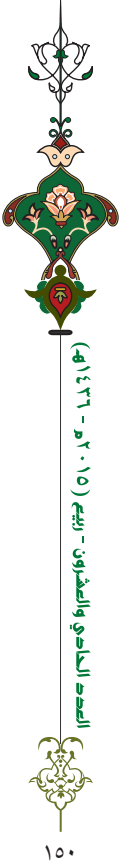
نلاحظ أنّ إحدى آيات السورة الكريمة تمثل مقام الله تعالى وهي الآية الأولى، ويظهر ثقل المقام في إعطاء الخير الكثير المفرط بالكثرة الذي يتسع إلى خير الدنيا والآخرة، ومن مصاديقها النبوة ونهر في الجنة^(٢٥)، ولو قال هذا الكلام بشر لسخر منه الحكم؛ لأنّ كلامه لا يطابق مقامه، فيُحكّم على نضه بأنه غير مُعجز للقرآن. وربما يكون صاحب المقام الضعيف سخرية إذا تحدّى أحداً أعلى منه مقاما.

وصوت الله تعالى ظاهر في السور
(٢٥) ظ: الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٨١١-٨١٢.

لا يمكن أن يهب للعبد موهبة تأليف كتاب يباريه به، أو ينقض فيه إعجازه المتحدي به، الذي جعله دليل صدق على رسالة رسوله ﷺ، فيتغلب هذا الموهوب في تحدي الله أو نبيه ﷺ فيصبح النبي ﷺ كاذبا في دعواه.

وبهذا نحصل على مسوِّغ عقلي قوي يفضّل النص القرآني نوعياً ويجعله في أعلى طبقات البلاغة، بالقياس إلى النصوص البشرية شريطة أن نبحث عن إعجاز الكتاب في النص لنقدمه دليلاً ملموساً غير قابل للدحض، ذلك أنّ النص وإن كان معجزة عقلية فإنه يتضمن جانبا ملموساً يظهر في الألفاظ التي تدل على المعاني. ومن هنا نعرف لماذا لم يتحدّ الله تعالى الكافرين بأقل من سورة؟. الجواب هو أن السورة نص مكتمل يظهر فيه صوت الله تعالى الذي يمثل مقامه وثقل كلامه: ﴿ **إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلاً** ﴾ [سورة المزمل:

٥]، إذ لا يمكن تفسير ثقل الكلام إلا بثقل مقام صاحبه، كذلك تكون أقوال قادة الجيوش والملوك ثقيلة، أما كلمات



كلها القصار والطوال، حتى في القصص والسير الذاتية ومنها قصة إبراهيم وقصة موسى وقصة يوسف وغيرها، التي من المفروض من حيث طبيعة الجنس الأدبي أن تكون من صنف الأدب الموضوعي الذي يتوارى مؤلفه وراء النص، لكن الله تعالى حرص على أن يظهر صوته بنسب كبيرة في كلمات النصوص القصصية، ولاسيما مقام الراوي الذي يظهر في لفظه: (قال) (٢٦).

أما قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [سورة الطور: ٣٤] فلا يخالف هذا؛ لأنَّ ((الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة)) (٢٧).

أما الرأي القائل بأن بعض الآيات أو أبعاضها نزلت على لسان بعض الصحابة، نحو ما نقله السيوطي من أن (مصعب بن عمير) حمل اللواء يوم أحد، فقطعت يده اليمنى، فاخذ

(٢٦) ظ: سيميائية إيقاع القرآن الكريم وفواصله، د. تومان غازي حسين الخفاجي: ٣٣-٣٤.

(٢٧) البرهان، الزركشي: ٦٦/٢.

اللواء بيده اليسرى ولما قطعت ضم اللواء الى صدره وهو يقول (وما محمد الا رسول أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم) يومئذ، حتى نزلت بعد ذلك (٢٨). فنحن لانطمئن الى صحته وتحفظ على تصديقه. ومثل ذلك ما روي عن أمية ابن ابي الصلت من أشعار تتضمن معاني بعض آي القرآن الكريم.

المبحث الثاني:

شروط المتحدي من منظور نظرية

الإعجاز المقامي.

اتضح سابقا أن نموذج الإعجاز المقامي يتألف من أربعة عناصر هي:

١. المتحدي، وهو منشئ النص الذي قد ينوب عنه نبيه ﷺ.

٢. المتحدى به، (النص القرآني).

٣. المتحدى، وهم البشر المنكرون لنسبة القرآن لله تعالى، وعدم الاعتراف بنبوة النبي ﷺ.

٤. الحكم (الناقد المحايد).

هذه العناصر متفاعلة جميعا ومتصلة

(٢٨) الإتيان، السيوطي: ٥٧.



• شروط المتحدي من منظور نظرية الإعجاز المقامي للقرآن..... التَّحَدِّي

درس كثير في مباحث الإعجاز والتفسير، لكن الدارسين لم يصلوا إلى نتائج حاسمة؛ لأنهم لم يركزوا في مبدأ الإعجاز المقامي الذي يعدّ أصلاً للإعجاز، بل قفزوا على هذا المبدأ متجاوزينه ليسلموا بمصادرة الإعجاز البلاغي. لكن بعضهم ترك لنا إشارات مهمة توحى بأهمية الربط بين مقام المنشئ وبلاغة نصه المعجز، وهو ما نقله لنا عدد من علماء الإعجاز بأنّ هناك من يرجع الإعجاز إلى وجهين، أحدهما: يتعلق بالقرآن نفسه، وهو الإعجاز الداخلي البلاغي، والآخر: هو الإعجاز المتصل بمقام المنشئ، وسموه الإعجاز بالصرفة التي صرفت المعارضين عن نقض القرآن، وقد فسّر هؤلاء الصرفة تفسيراً مخالفاً لمفهوم (النظام) (٢٩)،

(٢٩) زعم أبو إسحاق إبراهيم النظام أن إعجاز القرآن حصل بالصرفة ويعني بها أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم، وكان مقدوراً لهم، لكن عاقبهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات. وقد ردّ كثير من علماء الإعجاز هذا المعنى واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ

بعلاقات متينة متشابكة، لذا لا يمكن دراستها جميعاً؛ إلا أن نجزئها لأغراض بحثية إجرائية، نظراً لتشابك العلاقات بين هذه العناصر الأربعة التي كانت تدرس منفصلة، مما أدّى إلى الوصول إلى نتائج فقيرة لا تخلو من بعض التناقضات.

وفي هذا المبحث سندرس أحد أهم عناصر الإعجاز المقامي وهو عنصر المتحدي في علاقته بنصه المتحدى به، مراعيًا مقام المتحدى، فأما علاقة المتحدي بنصه فتظهر في حقه بوضع شروط للإعجاز من حيث زمان حدوث المعجزة ومكانها ونوعها إلى غير ذلك من شروط تعدّد جزءا من مقامه، أو مقام من ينوب عنه؛ لأنّه هو المبادر بالتحدي على وفق هذه الشروط التي لا تبدو للخصم أنها مستحيلة أو غير ممكنة من خلال خبرته بقوانين الفن الذي يتقنه المجتمع، لذلك تحصل الاستجابة، أو الانسحاب من المباراة إذا حصل التسليم بعجز الخصم.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع، فقد



ولكن تفسيرهم بقي غامضاً، ذلك أنهم استشفوها من ميل الناس إلى الصناعات المحمودة أو المذمومة التي تؤدي إلى إيثار المرء ((حرفة من الحرف، فيشرح صدره بملاستها، وتطيعه قواه في مباشرتها، فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل وادٍ من المعاني بسلاطة لسانهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، ولم يتصدروا المعارضته، لم يخفَ على أولي الألباب أن صارفا إلهيا صرفهم عن ذلك)) (٣٠).

وهذا الصرف الخفي هو ما أطلقت عليه اسم (الإعجاز المقامي)، الذي

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [سورة الإسراء: ٨٨]، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبقَ فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة الإعجاز؟! بل المعجز هو الله تعالى، حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله. ظ: دلائل الإعجاز، الجرجاني: ٣٩٠، البرهان، الزركشي: ٥٧/٢، الإتيان، السيوطي: ٤٨٥. (٣٠) الإتيان، السيوطي: ٤٨٧.

فسره النظام تفسيراً ميثافيزيقياً، وفسره آخرون تفسيراً نفسياً غامضاً، ولكن بعد أن كشفنا عنه النقاب في المبحث السابق وتبين لنا كنهه، نحاول في هذا المبحث تبيان أماراته التي نتلمسها من تحليل آيات التحدي، التي كان يمرّ عليها المفسرون مرور الكرام، ولم يركزوا في مقابلة التشابهات والاختلافات اللفظية وموازنتها لمعرفة ما فيها من إشارات تكشف عن أهمية مبدأ الإعجاز المقامي في تفسير كثير من القضايا التي كانت مجهولة أو غامضة في الظاهرة الاعجازية التي تثير أسئلة ملحة لمعرفة مقاصد المتحدي بكلمات متكررة مهمة نحو: (مثله، بمثله، من مثله)، وتكرار كلمة: (قل: كذا) في ثلاث آيات ليكون خطاب المتحدي غير مباشر، واختفاء هذه الجملة في آية واحدة ليصبح الخطاب مباشراً.

هذه الملاحظ الدقيقة هي التي تثير أسئلة علمية نحو: ما الفرق بين (الباء) و (من)، قبل كلمة (مثله) التي جاءت مرتين مجردة منها؟. فضلا عن السؤال عن عودة الضمير (هاء) في كلمة (مثله)



جديد ليصبح ذا عمق تاريخي.
وهنا لابد من ترتيب آيات التحدي بحسب زمان نزولها، ذلك أن ترتيب النزول الزمني يكون أبين في فهم علاقة المتحدي بنصه، وعلاقته بالمتحدي، فضلا عن أن التحدي المرتب زمنيا يعرض التحدي بين أيدينا على خشبة مسرح ذهني تتحرك عليه شخوص متصارعة تشعر بتكافؤ القوى بدءا، ثم تتطور الأحداث فتقلب أحوال الشخصيات فتنتصر إحداها مباركة، وتنهزم الأخرى مذمومة في نظر المشاهد، الذي يكشف عن مقام المتحدي الذي يعد أصلا للإعجاز. ويظهر هذا الترتيب الزمني في الآتي (٣١):

١. قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

(٣١) وردت هذه الآيات الكريهات في سورة الإسراء، ثم في يونس، ثم في هود، بحسب قدم زمن نزولها هذه السور المكية، وكان آخر نص صريح للتحدي هو ما نزل في سورة البقرة وهي سورة مدنية. ظ: البرهان، الزركشي: ١/١٣٨، الإتيان، السيوطي: ٤٤.

أيعود على القرآن أم على النبي ﷺ، أم على كليهما؟
وفي سياق مجازة الخصم ليعثر في التحدي الذي قَبِلَ به الله تعالى تحت شرط الافتراء المزعوم من الخصوم، يمكن أن نسأل لماذا لم يصف الله تعالى في آية سورة يونس: ٣٨، السورة الواحدة المتحدي بها بصفة الافتراء، في حين وصف التحدي بعشر سور بهذه الصفة؟ وذلك في آية سورة هود: ١٣، ثم لماذا أّخر الصفة (مفتريات) في آية سورة هود على صفة (مثله)، فقال: (بعشر سور مفتريات)، ولم يقل: (بعشر سور مفتريات مثله)؟.

كلّ هذه الأسئلة تحدد بدقة علاقة المتحدي بنصه المعروف للمناقضة، بعضها ورد بإشارات سريعة متفرقة عند المفسرين وعلماء الإعجاز على النحو الاحتمالي غير المرجح، وبعضها لم يتطرق إليه أحد. فكان للإشارات الجديدة فضل واحد هو فضل الجدة، وللإشارات القديمة السديدة فضلان هما فضل سبق وفضل تعزيز ما توصلتُ إليه من



ظهيراً ﴿﴾، [سورة الإسراء: ٨٨].
 ٢. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَنَاهُ قُلْ فَآتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، [سورة يونس: ٣٨].

٣. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَنَاهُ قُلْ فَآتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، [سورة هود: ١٣].

٤. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، [سورة البقرة: ٢٣].

إنّ نظرة سريعة إلى كمّ التحدي تكشف لنا عن وجود اضطراب، لا يليق بمقام الله تعالى، إذ لا يمكن أن يتحدى الله تعالى بالقرآن كله ثم يتحدى لاحقاً بسورة واحدة بصيغة النكرة، ثم يتراجع - وكأنه أحس بالغبلة - فيتراجع ليتحدى بعشر سوراً!

هذا الاضطراب الذي يبدو من النظر السريع ممكن أن يُجَلَّ بتصنيف الآيات الكريبات بحسب مقام المتحدى،

إذ نلاحظ حصول الاضطراب في منطقة (الافتراء)، الذي له خصوصية، تختلف عن مقام الريب، وكلاهما يقابل مقام قطع الريب والافتراء كليهما، في الآيتين الأولى والأخيرة اللتين تجعلان المخاطب بمنزلة المسلم بالعجز. ففي ميدان شرط الافتراء، ينوب مقام النبي ﷺ عن مقام الله تعالى، ومقام النبي ﷺ يجب أن تصعب فيه الشروط، لذلك فالسورة الواحدة المتحدى بها في آية سورة يونس، وعشر السورة في آية سورة هود، معرفات جميعاً، غير منكرات، ولا عبرة في صيغها اللغوية المجردة، وهذه فرضية سنثبتها لاحقاً بالأدلة الملموسة. لذلك ستكون دراستنا مقسمة بحسب تغيير الخطاب لتغيّر مقام المخاطبين بالتقسيم الآتي:

١. مقام المخاطب المسلم بالعجز (جميع الإنس والجن): وخطابه ورد في آية التحدي الأولى [سورة الإسراء: ٨٨]، وقد ظهر فيه مقام المتحدى حازماً جازماً، أقسم على عجز المخاطبين بالشروط التي وضعها

(ت ١٨٠هـ) بحرف إضافة، ويوضح هذا الاصطلاح بفاعلية هذا الحرف التي تربط المجرور بالحدث الذي قبله، ويظهر ذلك في قوله: ((فإذا قلت: "مررتُ بزيد" فإنها أضفت المرور إلى زيد بالباء)) (٣٣).

وهذا تكون كلمة: (أن يأتوا بمثل هذا القرآن)، تعني اشتراط إتيان المتحدين بكلام ملتصق بجنس القرآن، وهو يشبه معنى كلامنا المعاصر: (آتني بنسخة من هذا الكتاب طبق الأصل)، وذلك عن طريق الاستنساخ الذي يأتينا بنسخة ليست هي الأصل، ولكنها مطابقة للأصل، فهي بحاجة إلى تدقيق وتصديق، وهذا العمل هو الذي يقوم به الحكام بما يسمى الآن بصحة الصدور، أي أن القرآن المؤتى به لمعارضة القرآن الأصلي يجب أن يكون لصيقا بجنس القرآن المشار إليه بكلمة (هذا)،

التي تظهر معطياتها في أنموذج التحدي في كلمات النص الآتية:
أ. جنس المتحدى به ويظهر بكلمة (بمثله)، وقد كرر للتأكيد بكلمة: (لا يأتون بمثله).

ب. كمّ المتحدى به (هذا القرآن)، أي القرآن كله.

ج. نيابة الراوي النبي ﷺ عن المنشيء في تحديه بدلالة كلمة: (قل يا محمد: لئن...).

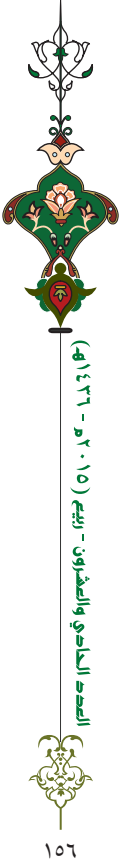
د. خطاب المتحدى خطاب غيبية، بما يدل على أن الله خاطب نبيه ﷺ بأن يصرح أن هذه المخلوقات (الإنس والجن) لا وزن لهم مجتمعين في معارضة القرآن.

وهنا يتحدد عود الضمير في كلمة (بمثله) على القرآن، لكن هذه الكلمة مسبوقه بحرف الجر (الباء) ومعناه للإلصاق^(٣٢)، وقد سماه سيبويه

(٣٢) ورد في لسان العرب أن ((لصق به يلصق لصوقا: وهي لغة تميم، وقيس، تقول لسق بالسين، وربيعة تقول لزق، وهي أقيحها)).
لسان العرب، ابن منظور: ٢٧٨/١٢، (الباء)، قال سيبويه: ((باء الجزاء إنما هي لالزاق والاختلاط، وذلك قولك: =

= (خرجت بزيد)، و(دخلت به)، و(ضربته بالسوط): ألزقت ضربك إياه بالسوط، فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله)).
الكتاب، سيبويه: ٤/٣٣٩.

(٣٣) المصدر نفسه: ١/٤٨٧.



والإلصاق بكلام الله تعالى والإشارة إليه بلفظة (هذا) يتضمنان التركيز في صحة صدورهم من مقام الله تعالى، وتظهر فيه بصمته الذاتية ورؤيته للكون وللإنسان ولنفسه، والغاية من التواصل مع بني البشر إلى غير ذلك مما يحاكي الجليل في كلامه الجميل، محاكاة تضاهي الأصل.

وهذه الشروط الموضوعية لهذا التحدي تشبه تحدي الشعراء بأن يأتوا بمثل ديوان المتنبي هذا كاملاً ببنيته المتشابكة العلاقات التي تعطينا صورة أكبر من عدد أجزائها، وهذه الزيادة هي الشفرة الذاتية التي لا يمكن تقليدها ومنها: أنه أحيتة أبيات، وقتلته أبيات، ووسمته أبيات باسم (المتنبي) إلى غير ذلك مما يظهر الإعجاز المقامي للمتنبى في مضمار النص الشعري.

وهو ما يشعرون بأنّ هناك مقاما للمتنبى، وهناك مقام لله تعالى في كتابه العزيز، يظهر مثلاً في إجابته عن الأسئلة التي تؤلف حدود الإنسان الروحية وأهمها: بدء خلق الإنسان، ومآله بعد الموت اللذان يشفيان غليل الإنسان

ماداماً نابعين من مقام إله قادر حكيم، ولا يشفيان غليله إذا صدرا من مقام بشري. ولهذا وصف تعالى كتابه بقوله:

﴿ وَإِنَّهُ لَكُنْزٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت: ٤١ - ٤٢].

هذه الشروط التي حددها مبدأ الإعجاز المقامي للقرآن الكريم، تجعل للتحدي وظائف مختلفة عن وظائف تحدي البشر للبشر بالإبداع الأدبي شعراً ونثراً، سنبحثها في مبحث مستقل، ولا بأس من الإشارة إليها هنا.

فغاية تحدي البشر للبشر هي الفخر بالحيازة على الفحولة وإخراص الخصم، أما التحدي الإلهي للبشر فغايته هداية البشر، أو يتكلفون معارضة مقام الله تعالى بتهديده ووعيده، وهو تحدٍ ليس سهلاً، لذلك جاءت آية التحدي الأولى بأسلوب تقريرية جازم يبيّن منزلة القرآن انطلاقاً من منزلة منشئته. وهذا يمتاز جنس القرآن الأدبي من جنس الشعر والنثر الفني على الرغم من اشتراكهما في خاصة الاستعمال الخاص للغة،



• شروط المتحدي من منظور نظرية الإعجاز المقامي للقرآن..... التَّصْنِيعُ

(ت ٤٠٣هـ) ((كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه حدث عنه التعمّل له وأمكنه نظمه، والوجوه التي تقول إنّ إعجاز القرآن الكريم، يمكن أن يُعَلِّمَ منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال)) (٣٥)، فلم يبقَ إذن إلا وجه الإعجاز المقامي الذي لا يمكن أن يُعَلِّمَ أو لا يُوهب للإنسان من الله تعالى، والذي يعدّ أصلاً للإعجاز القرآني. فكلمة (مثل) كلمة تسوية، يقال هذا مثله ومثله كما يقال شَبَّهُهُ وشَبَّهُهُ بمعنى. قال ابن بري: ((الفرق بين المماثلة والمساواة، أنّ المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين؛ لأنّ التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص. وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين، تقول: نحوه كنحوه، وفقهه كفقهه، ولونه كلونه، وطعمه كطعمه، فإذا قيل: هو مثله على الإطلاق فمعناه أنه يسدّ مسدّه)) (٣٦).

(٣٥) إعجاز القرآن، الباقلائي: ١٦١ - ١٦٢،

ظ: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الرازي: ٢٧ وما بعدها.

(٣٦) لسان العرب، ابن منظور: ٢٠/١٠ -

٢١، (مثل).

إلا أنّ أسلوب البشر لا يماثل أسلوب القرآن (٣٤) لاختلاف دوافع كلّ منهما، واختلاف الغايات وطرائق الوصول إلى الخير والجمال والحق بما ينبثق عن أصل الإعجاز وهو الإعجاز المقامي للمتكلم في تواصله مع المؤمنين والمعاندين.

لذلك فكلمة (مثل) المشار بها إلى النص المفترض أن يعارض القرآن تعني النظير والشبيه لا من حيث التشابه في الشكل البلاغي والمعاني اللغوية، التي يمكن أن تكتسب بالخبرة والمران بمساعدة المواهب، بل من حيث المضاهاة والمساواة بالمعاني المقامية للمنشئين.

فالتشابه بالأشكال بين القرآن الكريم والأدب العربي الرفيع موجود، وقد اشار إلى وجوده علماء الإعجاز كما ونوعا شاءوا أم أبوا، لاسيما في حدود التحدي المفتوح بأقل قدر منه وهو سورة واحدة غير محددة، بسبب محدودية أبنية اللغة،

التي يمكن أن يتوصّل إليها الإنسان بالتدريب والتعوّد والتصنع، ما لم يُنظر إلى المعاني المقامية، فهي برأي الباقلائي

(٣٤) ظ: معترك الأقران، السيوطي: ٨/١.



بمعنى لو استطاعت الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن لتخلى الله تعالى عن إنزال القرآن؛ لأن هذا المثل يكفي لهدايتهم، ولكنهم لم يستطيعوا الإتيان بمثله من جميع حيثياته، ولاسيما الحيثية التي تعد أصلاً، وهي صدوره من مقام إله، بدليل تكرير استحالة النقص والمضاهاة إذا انتزع أو استثنى هذا الأساس الملازم للإعجاز الذي يحول النص إلى نص نوعي في كل مستويات التحدي الكمية، وهذا يظهر في الجدول الآتي:

نلاحظ تكرار كلمة (من دون الله) ثلاث مرات، وهي كلمة تؤكد أصل الإعجاز، وحذفت من الآية الأولى؛ لأنها مفهومة من مقابلة اجتماع الكائنات العاقلة المرئية وغير المرئية كلها على الإتيان بمثل ما جاء به الواحد، الذي وهبها الملكات الأدبية حتى بلغت الذروة في الفصاحة والبيان، ولكن الواحد الجليل يأبى أن يهب مقامه لخصمه لينتصر به عليه. وقد ظهرت العبارة المحذوفة (من

ت	الآية	استحالة النقص	الدليل على الاستحالة
١	[سورة الإسراء: ٨٨]	استحالة الإتيان بمثل القرآن كله	تعاون كل الإنس والجن فيما بينهم من دون الاستعانة بمقام الله
٢	[سورة يونس: ٣٨]	استحالة افتراء سورة مثله	﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
٣	[سورة هود: ١٣]	استحالة افتراء عشر سور	﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
٤	[سورة البقرة: ٢٣]	استحالة الإتيان بسورة واحدة	﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

• شروط المتحدي من منظور نظرية الاعجاز المقامي للقرآن..... التَّبَيُّنُ

الذي تنبأ في بني أسد، والأسود العنسي الذي تنبأ في اليمن، وسجاح التي ظهرت في بني تغلب.

ولا سبيل إلى الجزم بأن الكلام الذي جاء به هؤلاء منسوب إليهم حقيقة، بل المرجح أنه من تخيل القصاص المتأخرين، ومن ذلك الكلام المتهافت الذي نسب إلى مسيلمة أنه كان يقول: ((يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين)) (٣٨).

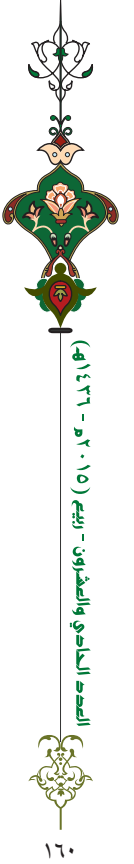
والواضح أن هذا الهراء ليس من لغة الجاهليين في شيء، وليس بينه وبين البلاغة العربية صلة تذكر، تلك البلاغة الآسرة التي علقت بها النفوس وحفظتها الصدور سنين طويلة حتى عصر التدوين، لجهاها وعمق مضامينها، ولاسيما أن المتنبئين يعلمون شروط المناقضات الأدبية، وأولها تماثل الجنس ثم وحدة الموضوع، فلا يجوز معارضة سورة الفيل القرآنية البليغة مثلا، بسورة الضفدع الهوائية، إلا إذا أردنا إنشاء (٣٨) تاريخ الأمم والملوك، الطبري: ٢/ ٢٧٥.

دون الله) في مكان آخر في السياق نفسه في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [سورة يونس: ٣٧].

ومن هنا يتبين شرط المتحدي الأساس، وهو معارضة القرآن بنص يسمى قرآنا مقسما على طوائف تسمى سوراء، أقلها ثلاث آيات، يظهر فيها مقام الله واضحا من حيث حدود شكل النص المكتمل المستقل بذاته، ومن حيث المعنى الذي يوحي به معنى لفظة (سورة) وهو المرتبة الرفيعة (٣٧)، التي تعبر عن رفعة منشئها، فلا يحق للمعارض إذن أن يعارض القرآن إلا بتوحي مقام الله تعالى كأن يدعي أنه إله نحو ادعاء فرعون الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾

[سورة النازعات: ٢٤]، أو يدعي أنه نبي يوحى إليه من إله، نحو المحاولات التي حاولت مضاهاة القرآن في حياة النبي ﷺ التي أداها مسيلمة الكذاب، الذي ظهر باليهامة في بني حنيفة، وطليحة بن خويلد

(٣٧) ظ: الإتقان، السيوطي: ٨٢، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش: ١/ ٦٦.



كوميديا تصوّر المفارقة بين النصين.
فلا ينبغي إذن للمعارض أن يعارض القرآن إلا بتوخي شكل القرآن ومضمونه والغاية التي يرمي إليها بعرض الموضوعات التي تهم الإنسان وتقلقه. وأساس هذا كله توخي مقام المنشئ، ولذلك فهِمَ مدّعو النبوة هذه الشروط فادعوا أنهم أنبياء أشركوا مع محمد ﷺ بالوحي، وهذا الادعاء لا يقوم على فراغ فكري وفني، لذلك جاءوا من أماكن حضرية مختلفة في الجزيرة العربية، فلبّوا الشرط الأساس للتحدي وهو الإتيان بنصّ موحى من الله تعالى، ولكنّ نصوصهم طمست حذرَ الفتنة، على الرغم من عدم مضاهاتها للقرآن.

٢. مقام المخاطب المنكر لنسبة القرآن إلى الله تعالى: وهؤلاء هم الذين اتهموا النبي ﷺ بأنه افترى القرآن، ومادام الله تعالى قد قرر أن القرآن لا يمكن أن يفترى من دونه، فلماذا لم يأمر نبيه ﷺ بقبول شرط المتحدى للإيقاع بالخصم، بإيهامه أنه إذا لم

يكن قادرا على مباراة مقام الله فإنه قادر على مباراة مقام النبي ﷺ؛ لأنه بشر مثلهم على الرغم من أن المتحدى لا يحقّ له أن يضع شروطا. ويظهر هذا المقام في الآيتين الآتيتين:
٢. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، [سورة يونس: ٣٨].

٣. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، [سورة هود: ١٣].

أنتج خطاب المنكرين لنسبة القرآن إلى الله تعالى، موقفاً جديداً للمتحدى ظهر في كلامه في كلمات مهمة هي:

- بسور مثله.

- بعشر سور مثله مفتريات.

يحدد مبدأ الإعجاز المقامي معنى جديداً للافتراء - سيتضح لاحقاً - غير معنى الكذب الذي يستدل على معناه المفسرون إما من المعاجم، أو من مقابلته مع الصدق الوارد في السياق اللغوي



• شروط المتحدي من منظور نظرية الإعجاز المقامي للقرآن..... التَّوَكُّلُ

ويعزز ترجيح عودة الضمير في كلمة (مثله) على القرآن قراءة ((«بسورة مثله» على الإضافة، أي: بسورة كتاب مثله))^(٤٠)، أو ((كلام مثله، أي مثل القرآن))^(٤١)، و(ادعوا) من دون الله (من استطعتم) من خلقه للاستعانة به على الإتيان بسورة مثله: يعني أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بسورة مثله، ولا يقدر على ذلك أحد غيره، فلا تستعينوه وحده، ثم استعينوا بكل من دونه، فلن تستطيعوا الإتيان بالمطلوب.

وبهذا تصبح المعارضة مشروطة بالإتيان بنسخة طبق الأصل من سورة يونس؛ لأنَّ شبهة الافتراء التي أطلقها الكفار على النبي ﷺ لم يقرَّ بها الله تعالى صفة لكلامه الذي نزل على النبي ﷺ في هذه السورة الكريمة. وهو ما اكده الكرمانى (ت ٥٠٥هـ) من خلال ملاحظتين ذكيتين، أولاهما: مقابلة

(٤٠) الكشاف، الزمخشري: ٣٣١/٢، ظ: البحر

المحيط، ابن حيان الأندلسي: ٢٠٦/٥،

روح المعاني، الألوسي: ١٥٨/١١.

(٤١) البحر المحيط، ابن حيان الأندلسي:

٢٠٦/٥.

للآيات التي تخاطب مقام المفترين^(٣٩)، ذلك أن هذا المقام لا يحمل الله تعالى على أن ينزل عن أساس الإعجاز، وهو المشروط في عبارة (سورة مثله)، و(عشر سورة مثله مفتريات) بدليل التذييل الظاهر في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. هذا التحديد يجعلنا نرجح عودة الضمير في كلمة (مثله) على القرآن أيضا في كلتا الآيتين، أو عودته على النبي ﷺ بما له علاقة بالقرآن، مع ملاحظة أن الآية الأولى لم تذكر صفة الافتراء، إذ لم يقل تعالى: (بسورة مثله مفتراة)، كما قال (بعشر سورة مثله مفتريات).

يتضح لنا في آية سورة يونس أن الافتراء صفة موجهة من الكفار للنبي ﷺ لم يقرَّ بها الله تعالى صفة تمس نصه الكريم أبدا فنفاها بالحذف في آية سورة يونس، بدليل ظهورها في آية سورة هود.

(٣٩) ظ: الكشاف، الزمخشري: ٣٣٠/٢-

٣٣١، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين

الدرويش: ٣٣٧/١١.



حذف صفة (الافتراء) في آية سورة يونس، وظهورها في آية سورة هود، وثانيهما: قراءة الإضافة (سورة مثله)، وهذا التوجيه يفسر تكثير عدد السورة المتحدى بها من سورة واحدة أصلية في آية سورة يونس إلى عشر سور مثله مفتريات في آية سورة هود، ذلك أنّ الله تعالى حين قَبَلَ بالنزول عن مقامه لنبيه ﷺ بهدف الإيقاع بالخصم أمر نبيه ﷺ أن يُكثِر من عدد السور المتحدى بها التي قَبَلَ أن يكون ظاهرها مفترى، ولكن باطنها نابع من الاستعانة بالله وحده. وهذا التوجيه ينزّه مقام الله تعالى، الذي يأبى أن يكون كمقامنا كأن يتحدى أحدنا نظيره فيقول له: أتحداك أن تكتب صفحة بدقيقة واحدة، وحين نرى خصمنا قد شمّر عن ذراعه وبانت قدرته على تحقيق هذا الشرط، نتراجع ونقول: أتحداك بكتابة عشر صفحات بالدقيقة الواحدة.

فالتراخي في عدم رفض الافتراء عن النبي ﷺ بشدة وتسهيل التحدي بسورة واحدة، وإن كانت معلومة، وإن كان ذلك يبدو تسهيفا للإيقاع بالخصم،

إلا أنه لا ينبغي أن يعطي حجة قوية للخصم بأن المتحدى شعر بالهزيمة بنص واحد، فزاد في عدد النصوص إلى عشرة، فهذه الظروف تقتضي التحدي بالسورة التي ورد فيها الافتراء أول مرة، وقد نفى النص هذا الافتراء لفظا، وعرض التحدي ميدانيا بسورة يونس غير المفتراة في نظر الله تعالى، والمفتراة في نظر الخصم، وهذا الرأي هو الذي ذهب إليه الكرمانى بقوله: ((لأن ما في هذه السورة، تقديره: بسورة مثل سورة يونس، فالمضاف محذوف...))^(٤٢)، بما يجعل لفظ (سورة) هنا معرفة عُرفت من السياق المقامي للتحدي بمعارضة هذا النص الذي وجهت إليه صفة الافتراء المرفوضة من المتحدى الله تعالى ونائبه النبي محمد ﷺ.

ويمكن تعزيز تسويغ تقدير الكرمانى لهذا المحذوف من مقابلة أسلوب هذه الآية الكريمة الذي يعبر عن مقام النبي ﷺ: (قل: فليأتوا بسورة مثله)،

(٤٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرمانى: ٩٣.



• شروط المتحدي من منظور نظرية الإعجاز المقامي للقرآن..... **التصنيف**

وأسلوب التحدي الأخير الذي يعبر عن مقام الله تعالى: ﴿ **فَأَتُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ** ﴾، والسر يكمن في لفظة (من) التي أفاد منها الكرمانى بقوله: ((حسن دخول (من) فيها [البقرة] ليعلم أن التحدي واقع على جميع سور القرآن من أوله إلى آخره)) (٤٣)، ولهذا فكلمة (سورة) في التحدي الأخير جاء بلفظ منكر عام، وهو ما يناسب مقام الله تعالى في تسهيل التحدي.

يزكي هذا التوجيه كل سور القرآن السابقة بها فيها سورة هود من شبهة الافتراء ويزكي النبي ﷺ أيضا من تلك الشبهة، ويحصر المباراة بعشر سور سيأتي بها النبي ﷺ مما نزل بعد سورة هود وهنّ -بحسب ترتيب النزول (٤٤): سورة يوسف، والحجر، والأنعام، والصفات، ولقمان، وسبأ، والزمر، وحم المؤمن (غافر)، وحم السجدة (فصلت)، وحم عسق (الشورى). وتسلسلهنّ في المصحف هو: ١٢، ١٥، ٦، ٣٧، ٣٢، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢.

ولو أخذنا دور الحكم (الناقد) ودرسنا افتتاحيات هذه السور العشر وبعض ما يليها من كلام، لوجدنا أنّ ستا منهن خصصن بافتتاحيات تعدّ من أخصّ خصوصيات القرآن الكريم الأسلوبية، وهي الأحرف المقطعة التي تردفها كلمات تمجد الكتاب وتعظمه وتؤكد نسبة النصّ إلى الله تعالى. بحسب ما يتضح في الجدول الآتي:

ت	سورة معارضة الافتراء	الإعجاز المقامي في بداياتها
١	سورة يوسف	تعالى: ﴿ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١ ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ .
٢	سورة الحجر	﴿ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾

(٤٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرمانى: ٢٥.

(٤٤) ظ: البرهان، الزركشي: ١٤ / ١٣٨، الإلتقان، السيوطي: ٤٤.



﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ .. ﴾	سورة الأنعام	٣
﴿ وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴿١﴾ فَالزَّجَرِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّيْلِ تَيْلًا ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾	سورة الصافات	٤
﴿ الرَّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾	سورة لقمان	٥
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾	سورة سبأ	٦
﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾	سورة الزمر	٧
﴿ حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾	سورة غافر	٨
﴿ حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَذَّبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾	سورة فصلت	٩
﴿ حَمَّ ﴿١﴾ عَسَقَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	سورة الشورى	١٠



أما صوت الوسيط بينهما فيظهر في سورة واحدة هي الصفات التي تُظهر آيتها الثالثة وظيفه الملائكة في قوله تعالى: ﴿ فَالْتَلَيْتَ ذِكْرًا ﴾ التي فُسر فيها الذكر بـ ((كتاب الله عز وجل... [و] هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله عز وجل إلى الناس، فالمراد بتلاوته تلاوته على الغير، وفُسر بعضهم بالآيات والمعارف الإلهية والملائكة يتلوها على الأنبياء والأولياء...)) (٤٥).

مقابل هذه الشبكة المتناسكة التي يظهرها الإعجاز المقامي بجلاء في العشر السور التي جاء بها النبي محمد ﷺ تحت شرط الافتراء، ممثلا دور النبي الذي ظهر لنا بأنه أروع وأدق تمثيل نصا ونشاطا، لم نجد أحدا من الأنبياء المزيفين قد أدى دوره وأجاد تمثيل دور النبي حركة ونشاطا بعشر يضاھين ما جاء به الممثل الأصيل ﷺ .

وقد فُسرت العشر السور تفسيراً درامياً اعتماداً على تاريخ نزول السور اللاحقة للسورة التي ظهر فيها التحدي

وإذا تتبعنا شبكة العلاقات بين الله تعالى ونبيه ﷺ نصل إلى نتيجة إعجازية مهمة يظهر فيها الإعجاز المقامي في حركة الاتصال بين الله سبحانه ونبيه ﷺ والوسطاء بينهما من الملائكة، بما لا يمكن مضاهاتها بأية معارضة بشرية أخرى غير التي أداها النبي محمد ﷺ، إذ يظهر صوت الله جلياً في ست آيات بأنه هو المبادر بالاتصال، في حين يظهر صوت النبي ﷺ في افتتاح سورتين بأنه هو المبادر بالاتصال وذلك في بداية سورة الأنعام وسورة سبأ، اللتين تبدأن بـ (الحمد لله الذي...)، أي أن نسبه اتصال الله تعالى بنبيه ﷺ أكثر بثلاثة أضعاف اتصال النبي ﷺ بربه، بما يعزز تراتب المقامات بدقة ويحافظ على ظهور القدرة الإلهية الرافدة لسفيرها ﷺ التي يحتاج إليها في هذا الموقف، أي موقف الافتراء الذي أُمرَ بقبوله بأن ينوب عنه كي لا يمس مقامه تعالى أو يمس نصه بهذه الصفة لا من قريب ولا من بعيد، ولهذا ضاعف تواصله لنبيه ﷺ في المباراة التي تصدى لها الصادق الأمين مقابل الأنبياء الكذابين.



تحت شرط الافتراء، بمعنى مسرحة حركة التحدي تاريخياً في ساحة مكة؛ لأنَّ السور السابقة كلّها مكية، تمثل عشرة مشاهد مكية درامية تخضع النص القرآني المؤتى به للشرط الأساس الذي يحافظ على مقام الله في السور التي تضاهي السور المنفي عنها صفة الافتراء المزعومة بنص القرآن، أي غير الخاضعة لمحاكاة دور النبي الذي يتلقى الوحي من مقام إلهي.

وهنا تتضح وجهة هذا الترتيب الذي لا يقلّ وجهة عن الذي اقترحه الكرمانى في اعتماده ترتيب السور العشر المتحدى بهن بحسب ما استقر عليه جمع القرآن الكريم، بعد اكتمال نزوله المنجم، وقد نسب هذا الرأي إلى جماعة من المفسرين، وذلك في قوله - تعالى- في (هود): ((**بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ**))، معناه: مثل البقرة إلى هود، وهي العاشرة، ومعلوم أن سورة هود مكية، وأن البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة مدنيات نزلن بعدها)) (٤٦).

وهذا الرأي يمدّ مسرح التحدي خارج مكة مكاناً، في زمن النبي محمد ﷺ وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلى يوم القيامة زماناً، لذلك اعتمد الترتيب المكاني الموجود في المصحف الذي استقر عليه جمع القرآن الذي يتفق فيه الرقم (١٠) رقماً لسورة هود بعد حذف رقم سورة الفاتحة، كالاتي:

السورة	ت
الأعراف (مكية)	٦
الأنفال (مدنية)	٧
التوبة (مدنية)	٨
يونس (مكية)	٩
هود (مكية)	١٠

السورة	ت
البقرة (مدنية)	١
آل عمران (مدنية)	٢
النساء (مدنية)	٣
المائدة (مدنية)	٤
الأنعام (مكية)	٥



**مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ**

صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾، [سورة البقرة: ٢٣].

وتظهر في هذا المقام إشارات مهمة

هي:

أ. مقام الله تعالى هو المهيمن بصوته

المباشر: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ**

مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ .. ﴾،

بمعنى أن الله تعالى لم يخول نبيه ﷺ

بالنباة عنه بالتحدي، إذ لم نجد

كلمة: (قل: فأتوا ب...). ويعزز

تحدي الله تعالى بمقامه المباشر من

دون مقام نبيه ﷺ، خطاب النبي ﷺ

بصيغة الغيبة: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي**

رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾.

ب. المتحدى به فيه صفتان؛ أولاهما:

صفة كميّة: سورة واحدة غير محددة،

وثانيهما: صفة نوعية (من مثله).

ج. خطاب المعاندين جاء مباشرا بمقام

الله تعالى لقوله: ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن**

مِثْلِهِ وَاَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ... ﴾، ولم

يقل: (قل: فأتوا بسورة).

وهنا نذكر بعود الضمير في

ويبدو أنّ هناك ثغرات في هذا

الأنموذج الذي اعتمد هذا الترتيب

لتناوبه بين المكّي والمدني، وأنّ هنا

فربكة في اختيار الرقم (١٠) لسورة

هود بعد حذف رقم سورة الفاتحة،

ولكن هذا الأنموذج يتفق مع مشروع

التحدي الأخير بـ(سورة واحدة) غير

محددة بما يسهّل التحدي إلى أقصى حدّ،

وهو الوارد في [آية سورة البقرة: ٢٣]،

ولكن بأسلوب (من مثله)، بزيادة (من)

التي توحى ببدء التحدي من سورة

البقرة، وسوف نفصل القول في وظيفة

هذا الحرف في الفقرة الآتية، الذي

يفسر اختلاف ترقيم السور القرآنية في

المصحف عن ترقيم مشروع التحدي

بالسور العشر في أنموذج الكرمانى الذي

يستثنى رقم سورة الفاتحة.

٣. مقام المخاطب المرتاب: وهم

المعاندون الذين خاطبهم الله تعالى

بأسلوب مختلف عن أسلوب

المنكرين الذين وجهوا للنبي ﷺ

شبهة الافتراء. ويظهر مقام المرتابين

في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ**



كلمة (مثله) أنه يعود على القرآن، أي: من مثل الذي نزلنا على عبدنا ويظهر فيه مقام عظمتنا، ولكنكم مرتابون منه بأنه ليس من عندنا، لذلك فإني أتحداكم بنفسي من دون نيابة نبيي ﷺ عني. ويظهر ذلك في اختلاف أسلوب آية التحدي الأخيرة بظهور مقام الله تعالى مباشرة، موازنة مع مقام نيابة النبي ﷺ في آيات التحدي الأخرى في الجدول الآتي:

ت	الآية	التحدي بالنيابة	التحدي المباشر
١	[سورة الإسراء: ٨٨]	قُلْ: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ	—
٢	[سورة يونس: ٣٨]	قُلْ: فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ	—
٣	[سورة هود: ١٣]	قُلْ: فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ	—
٤	[سورة البقرة: ٢٣]	—	فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ

ويعزز هذا المعنى زيادة (من) قبل صفة (مثله) التي تعني ابتداء الغاية، فضلا عن معنى الجنس^(٤٧)، وعلامتها في تحديد الجنس أن يحسن جعل (الذي / التي) مكانها، فيكون التقدير: فأتوا بسورة مثل التي لا ريب في إنزالها من عندنا على عبدنا، أي من جنس المنزل من الله على عبده ﷺ. فلفظة (من) تحدد جنس السورة المتحدى بها بأنها قرآن صادر من مقام الله تعالى.

وقد أفاد الكرمانى من معنى (من) إلى أقصى حد، وهي تؤكد الإعجاز المقامي من دون أن يصرح بهذا المفهوم المهم، فأشار إلى أن مقام النبي ﷺ يتطلب التحدي بسورة

(٤٧) ظ: الجنى الداني، المرادي: ٣٠٩-٣١٠.



(الرسول))^(٤٨)، أي: ((من أمي لا يحسن الكتاب ولم يدارس العلماء، ولم يجالس الحكماء، ولم يتعاط أخبار الأولين، أو من كل رجل كما تحسبونه بزعمكم شاعرا أو مجنونا))^(٤٩).

وهذا التوجيه يتضمن نزول الله تعالى في تحديه عن مقامه الإعجازي، ولاسيما في التحدي الأخير، فالسورة المطلوب إتيانها من مثل النبي الأمي لا تتضمن شرط وجود مقام الله فيها، إلا بتقدير محذوف ليصبح تقدير الكلام: (من مثل الذي جاء به النبي الأمي ﷺ)، هو القرآن الكريم. وهنا رجعنا إلى أساس الإعجاز بعد اللف والدوران.

ولم يعلل الكرمانى رأيه بعلة مقبولة لغياب مبدأ الإعجاز المقامي عن ذهنه، الذي يفسر لنا هذا الاستثناء تفسيرا مقبولا، ذلك أن سورة الفاتحة على جلالة قدرها صيغت بأسلوب توخى فيه الله

(٤٨) البحر المحيط، ابن حيان الأندلسي: ١٥٢/١.

(٤٩) البحر المحيط، ابن حيان الأندلسي: ١٥٠/١ - ١٥١، ظ: إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش: ٦٧/١ - ٦٨.

معينة تضييقا على المتحدى بقبول صفة الافتراء، وهي سورة يونس التي تحافظ على مقام الله تعالى ولكن النبي ﷺ يتحدى بها وليس الله، كما يتحدى شاعرٌ شاعرا آخر بقصيدة واحدة، وبعشر سور في حال قبول محاكاة نص آخر عند قبول شرط الافتراء. أما في آخر تحدّ الذي ورد في سورة البقرة فقد نُحِيَ مقام النبي ﷺ جانبا وتحدى الله المرّتين بنفسه عزّ وجلّ لذلك سهّل على المتحدى بما ينساب مقامه تعالى نافيا الريب عن مقام نبيه ﷺ ومقامه الموجود في كلّ سور الكتاب، ابتداء من سورة البقرة إلى آخر سورة في المصحف.

وهنا يحصل التناسق الفكري في أنموذج الكرمانى، الذي افدنا منه كثيرا؛ إذ ركز في إحالة الضمير في كلمة (مثله) بالعودة على القرآن وليس على النبي ﷺ، إذ ترجح هذه الإحالة بدلائل عديدة مرّت سابقا، فضلا عن أن عودة الضمير على النبي ﷺ يظهر فيه تكلف التأويل، نحو ما نجده عند بعضهم بالتقدير الآتي: ((اتنوا بسورة كائنة من رجل مثل



تعالى تمثيل مقامنا، ليعلمنا كيف نقف بين يديه حين نريد التواصل معه في الصلاة: نفتتح كلامنا بالبسملة ثم نثني عليه بما هو أهله، ونمجده وتعبّده بالأوامر والنواهي، ولذلك سميت الفاتحة بالحمد وبالمثاني؛ لأنها تثنى في الصلاة حتى خصّت باسم ((سورة الصلاة؛ لأنها تكون فاضلة أو مجزئة بقراءتها فيها...)) (٥٠).

ويعزز هذا الرأي ما نلاحظه من الالتفات بعد الحمد الذي عدلت فيه السورة من خطاب الغيبة إلى الخطاب المباشر بقولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في الآية الخامسة، بعد قولنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في الآية الثانية، وهذا ينبئ عن أن المتكلم ليس هو الله تعالى، وإنما هو نحن، ثم تنتهي السورة بالدعاء الذي تتحول فيه صيغ الأمر إلى أسلوب دعاء عندما يتوجّه الكلام من مقام أدنى إلى مقام أعلى في قولنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ...﴾.

فالسورة إذن - وإن كانت بمعانيها

العميقة (أمّا) للقرآن - إلا أنّ الله تعالى صاغها بلفظه الشريف على ما يلائم مقامنا الذي يريده ملائمتنا لموقف التعبد حين تنطق العباد بالشفرات الإلهية ليكونوا متأدبين بأدبه سبحانه، كما يلقن السيد عبده أساليب اللياقة التي يخاطبها بها ذلك العبد، فسورة الفاتحة إذن قرآن مصوغ بمقام العبد، لذلك استثنيت من التحدي؛ لأنّ الله تعالى أفرغها من مقامه وأهداها بلطفه لمقامنا.

وسبق أن ذكر الباقلائي أن ما يمكن أن يُعلّم أو يوهب لا يكون موضوعاً للتحدي، لذلك لم يتحدّد أحد من الشعراء شاعراً آخر بأن ينظم قصيدة كان قد علّمها الأول للثاني على بحر معين، أو قافية معينة؛ لأن هذه التقنيات يمكن أن يتعلّمها المتحدي ويأتي بمثلها أو بأحسن منها، كأن يركّب بين بحرَيْن ويُلَوّن في القوافي كما حدث في الموشحات، التي لم تعد معجزة حتى لمبتكرها؛ لأنها أصبحت ملكاً مشاعاً بعد أن تعلّمها الشعراء.

وهكذا سوغنا استثناء سورة الفاتحة



القيمة الجمالية للسجع بقوله: ((ومن الناس من جعل الإعجاز في أن أسلوب القرآن مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل، ولاسيما في مقاطع الآيات، مثل: يعلمون، ويؤمنون، وهو أيضاً باطل من خمسة وجوه...))^(٥٣).

وتستند هذه الوجوه الخمسة إلى فرضية خاطئة هي: إن الإعجاز يقتصر على الجناس مفصلاً - وهو من أحد مستويات اللغة - عن المستويات الأخرى، فضلاً عن المعاني المقامية، لذلك فنّدها بموازنة الجناسات القرآنية بمثيلاتها في الشعر، والنثر الذي اختار منه حماقات مسيلمة الكذاب^(٥٤).

أما السور الكاملة فهي نصوص لها سلطة دينية يتجلّى فيها مقام الله تتبع تقنيات واسعة تتوخى بناء عوالم جديدة تشكل بوساطة الاستعمال الخاص للغة، ومثال ذلك سورة الكوثر التي تبين رؤية الله تعالى إلى النسل المخالفة لرؤية الجاهليين التي تعتقد أن ديمومة ذكر

(٥٣) نهاية الإيجاز، الرازي: ٢٧.

(٥٤) م. ن: ٢٧-٢٨.

من التحدي، وكذلك تستثنى كل الجزئيات البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية والمجازات الأخرى وصور البديع مجانسات وطباقات وغيرها؛ لأنها تضيق عن أن تجلّي الإعجاز المقامي، لذلك تناقضت آراء علماء الإعجاز فيها فقد عظم الرماني (ت ٣٨٤هـ) الفواصل وجعلها مصطلحاً خاصاً بالقرآن مقابل السجع الذي عابه بقوله: ((الفواصل بلاغة والأسجاع عيب))^(٥١)، فعاب عليه ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) هذه المقولة، بقوله: ((وأما قول الرماني: إن السجع عيب والفواصل، بلاغة فغلط، فإنه إن أراد بالسجع ما يتبع المعنى، وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة، والفواصل مثله، وإن أراد به ما تقع المعاني تابعة له، وهو مقصود متكلف، فذلك عيب، والفواصل مثله))^(٥٢).

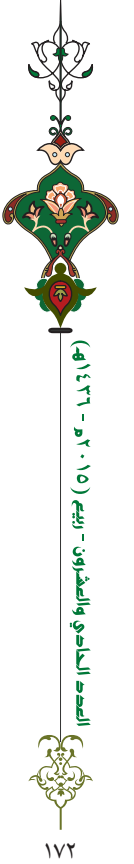
وقل الرازي (ت ٦٠٦هـ) من شأن

(٥١) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٧٥.

(٥٢) سر الفصاحة، الخفاجي: ١٦٦، ظ:

النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ضمن

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٩٧.



الإنسان تتحقق بكثرة النسل، فلما توفي ابن النبي ﷺ قالوا: بُر محمد ﷺ، فرد عليهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ والكوثر: الخير الكثير المطلق، ومن مصاديقه النبوة وكثر الأتباع من الصحابة والأشياء والعلماء الذين ملأوا المعمورة إلى يوم القيامة وغيرها، ثم يفرض معنى الكوثر إلى حدود الآخرة: نهر في الجنة.

هذه الأعطيات وغيرها تُصنّف في ضمن معاني الكوثر الذي يمكن أن يُعطى ويتقبله (الحكم) استنادا إلى المقام الإلهي، ولكن إذا قالها بشر فإننا سنرفضها رفضا قاطعا، وربما نتهمه بالجنون أو السفه. وهناك حكاية ظريفة تسخر من مجنون ادعى أنه إله ويرسل رسلا، إذ قيل له: إنّ فلانا ادعى النبوة في بني فلان، فقال: ما اسمه؟. فعرفوه باسمه، فقال: لم أبعث هكذا نبي في بني فلان.

وأخيرا أود أن أقول إن أنموذج التحدي بعشر السور الذي قدمه الباحث لا يتعارض مع أنموذج الكرمانى، بل يتكامل معه ذلك أن أول

الأنموذجين يمسرح أحداث التحدي في مكة ويحصر مشاهد التمثيل في نصوص مرتبة زمانيا، ويحكم بفشل المتحدى لعدم نهوضه بعشر سور مثله مفتريات في مكة، أما أنموذج الكرمانى فإنه يمدّ التحدي اعتمادا على ترتيب السور بعد كمال جمعها في القرآن المطابق للوح المحفوظ مكانيا إلى المدينة وغيرها من أنحاء المعمورة بسبب مدّ زمان التحدي إلى يوم القيامة، بوجود النبي محمد ﷺ بعد اكتمال نزول القرآن وبغيابه. وقد رسخ هذا الأنموذج على نسق فكري منظم بعدما كان قلعا نوعا ما لعدم إسناده بتعليقات تجعله متماسكا منطقيًا، فتكامل الأنموذجان بما يدل على خصب المعاني المستنبطة من هذا الكتاب العزيز.

الخاتمة:

توصل البحث إلى جملة من النتائج لعل أهمها ما يأتي:

- الإعجاز المقامي مبدأ عقلي أولي بسيط وعام تتقبله عقول العلماء تتجلى فاعليته عن طريق تمييز ما يأتي:
- أصل الإعجاز في النصوص



المصادر القديمة السابقة التي ولدت جدلاً أدى إلى ظهور نتائج نراها متناقضة وغير مقبولة الآن أصبحت مصدراً للشبهات.

٣. كشف مبدأ الإعجاز المقامي عن شروط التحدي بدقة متناهية، وذلك عن طريق تنشيط الكفاية التأويلية لدى الناقد وحوّله إلى فعال يسهم في تشييد المعنى بفكّ تشفيره المقامي والدلالي والجمالي سيميائياً، وهو ما يشعرنا بلذة اكتشاف فخامة النظم القرآني التي تربطه بشبكة تشفير معقدة يتطلبها التأويل، بوضع نصوص التحدي بين نصوص أخرى فعلية أو محتملة يمكن ربطه بها، وعن طريق التفاعل الخصب بين القارئ النوعي الذي أخذ دور الحكم في أنموذج الإعجاز المقامي، من جهة، والنص النوعي الذي ينفي التشابه والتجاور السطحي بين النص القرآني والنصوص البشرية البليغة الأخرى من جهة أخرى، بما يرجع النص القرآني إلى حقل مرجعي جديد

الإبداعية المتفردة من مجال الإعجاز، ويظهر في المعاني المقامية.
ب. مجال الإعجاز ويظهر في أنواع الإعجازات المختلفة الكثيرة نحو: الإعجاز البلاغي والإعجاز الغيبي، والإعجاز العلمي إلى غير ذلك.
ج. أثر الإعجاز الذي يجمع بين التقاء الجليل بالجميل.
٢. نظراً لتمتع هذا المبدأ بخصائص النظام الاستدلالي، استطاع أن يحدد كل التصورات والقضايا الأخرى في نظرية الإعجاز والبرهنة عليها، وقد ساعدنا في بناء أنموذج سهل التطبيق يبيّن العلاقات بين عناصر التحدي بالإعجاز وهي: المتحدى والمتحدى به والمتحدى والحكم، التي كانت تدرس منفردة، فأنتجت نتائج فقيرة أو متناقضة، في حين استطاع أنموذج الإعجاز المقامي دراسة النص القرآني بمنهج مثمر سهل التطبيق جم الفوائد، لتبيانه المعايير المنهجية الممهدة للتطبيق بدقة. وما يؤكد كفاية هذا المبدأ أننا استطعنا أن نقدر

متكوّن من تلاقي الجميل بالجليل، مما جعل هذا الأنموذج الاعجازي الجديد يرفض المصادرات السابقة وأهمها: القول بالإعجاز البلاغي الذي أوقع القائلين به بالتناقض، بسبب إهماله الإعجاز المقامي، ويرفض القول بالإعجاز بالصرفة، الذي إهماله الإعجاز البلاغي، فضلا عن نقله البحث الإعجازي من ميدان اللغة المحسوسة إلى ميدان ميتافيزيقي يصعب إثباته، ومن هنا تأتي ثمرة البحث من منظور الإعجاز المقامي التي تحدد شروط التحدي بقول جامع يجمع الشروط اللازمة لمن يرفض نسبة القرآن إلى الله تعالى، ويرفض الإيمان بنبوة محمد ﷺ عليه أن يأتي بنص: (يُجِليّ الجليل في كلامه الجميل) مثل القرآن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

١) ط (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م).

٢. إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، سوريا، ط١، (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

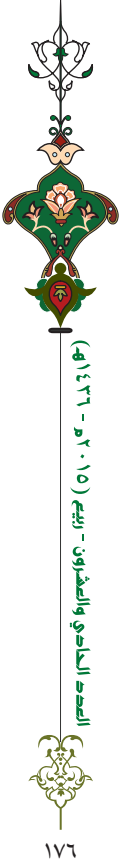
٣. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهرير بابن حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢ (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م).

٤. البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق ودراسة وتعليق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١ (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).

٥. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين أبو عبد الله محمد الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،



٦. لبنان، (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م).
٦. تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٩م.
٧. الجنى الداني في حروف المعاني، صنعة الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق فخر الدين قباوة، الأستاذ محمد نديم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١ (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م).
٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل محمد الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق محمد أحمد أمين، وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١ (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
٩. سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م).
١٠. سيميائية إيقاع القرآن الكريم وفواصله، رسالة في إعجاز المستوى الصوتي، د. تومان غازي حسين، مطبعة شركة المارد، النجف الأشرف، العراق، ط ١ (١٤٣٢هـ / ٢٠١١م).
١١. شرح ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، ١٩٨٠م.
١٢. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت ٧٤٥هـ)، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م).
١٣. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ)، حقه وفصله وعلق على حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ط ٤ (١٩٧٢م).
١٤. فلسفة جورج سانتيانا في الوجود

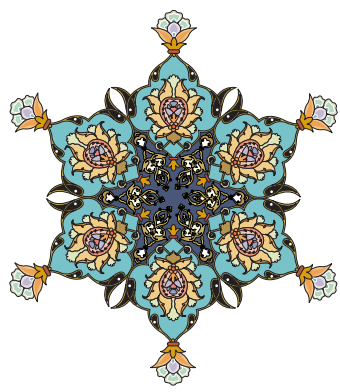


18. اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.
19. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1 (1408هـ/ 1988م).
20. معجم مصطلحات نقد الرواية، د. لطيف زيتوني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 2002م.
21. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، الدار الإسلامية، لبنان، (1410هـ/ 1990م).
22. مناهج التفكير وقواعد البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، د. محمد شيبا، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،
- والمعرفة، د. إبراهيم مصطفى إبراهيم، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، 1994م.
15. الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بـ«سيويه» (ت 180هـ)، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، (1420هـ/ 1999م).
16. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت 538هـ)، حققها على نسخة خطية: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، (1421هـ/ 2001م).
17. لسان العرب، ابن منظور (ت 711هـ)، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط 3، (د. ت.).



شروط المتحدي من منظور نظرية الاعجاز المقامي للقرآن..... **التصنيف** •

- بيروت، لبنان، ط (٢٠١٤هـ/ ٢٠١٤م) / جمعة، المطبعة العلمية، دمشق،
٢٠٠٨م). ط (٢٠١٤هـ/ ٢٠٠٣م).
٢٣. منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك بن محمد بن
ميمون، تحقيق وشرح د. محمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، ط ١،
١٩٩٩م.
٢٤. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبو عبد الله محمد
بن عمران بن موسى المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق وتقديم محمد
حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١،
(١٤١٥هـ / ١٩٩٥م).
٢٥. نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي سانديرس، ترجمة: د. خالد محمد
٢٦. النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني
(ت ٣٨٤هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني
وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام،
دار المعارف، القاهرة، (د. ت).
٢٧. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين محمد بن عمر بن
الحسين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، عارضه بأصوله وحققه وعلق عليه
د. نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت، ط ١ (١٤٢٤هـ/
٢٠٠٤م).



التعقيبُ المصدري في القرآن الكريم

(الجزء الثاني)

د. وائل عبد الامير خليل الحربي

كلية الاداب - جامعة بابل

أن النحاة يلمسون في المصدر المنصوب دلالة الأمر قال سيويه عن قول العرب: صبر جميل: ((والنصبُ أكثر وأجود؛ لأنه يأمره. ومثّل الرفع ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ [سورة يوسف: ١٨]، كأنه يقول: الأمرُ صبرٌ جميلٌ. والذي يُرْفَعُ عليه حَنَانٌ وصَبْرٌ وما أشبه ذلك لا يُستعمل إظهاره، وترك إظهاره كترك إظهار ما يُنصَبُ فيه))^(٢). وقال ابن الأثير عن قوله تعالى: ((وَمِنْ حَذْفِ الفعل باب يسمى «باب إقامة المصدر مقام الفعل». وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد، كقوله تعالى:

دلالة التعقيب المصدري بين النصب والرفع في ضوء القراءات القرآنية: تَذَكَّرُ كتب القراءات القرآنية والتفسير أن بعض المصادر -موضوع البحث -قرئت بالرفع، ولعل من أقدم الإشارات إلى ذلك ما ورد عند سيويه، قال: ((وقد يجوز الرفع فيما ذكرنا أجمع على أن يَصَوِّرَ شيئاً هو المظهرُ، كأنك قلت: ذاك وعدُّ الله، وصبغةُ الله، أو هو دَعْوَةُ الحَقِّ. على هذا ونحوه رفعه. ومن ذلك قوله جلَّ وعزَّ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ﴾ [سورة الاحقاف: ٣٥]، كأنه قال: ذاك بلاغٌ))^(١). ويبدو

(٢) الكتاب ١ / ٣٢١.

(١) الكتاب ١ / ٣٨٢.

حيان معلقا على هذه الفكرة في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُتَّكِرُونَ﴾ [سورة الذاريات ٢٥]: ((وَنَصَّبُ سَلَامًا يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ، وَرَفْعُ سَلَامٍ يَدُلُّ عَلَى الثَّبُوتِ وَالِاسْتِقْرَارِ))^(٥).

في حين قال في تفسير قوله تعالى ﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة البقرة: ١٧٨]: ((قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ بَعْدَ تَقْدِيرِهِ: فَالْحُكْمُ أَوْ الْوَأَجِبُ اتِّبَاعٌ، وَهَذَا سَبِيلُ الْوَأَجِبَاتِ، كَقَوْلِهِ فِيمَسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ وَأَمَّا الْمُنْدُوبُ إِلَيْهِ فَيَأْتِي مَنْصُوبًا كَقَوْلِهِ: فَضْرَبَ الرَّقَابِ انْتَهَى.

وَلَا أَذْرِي هَذِهِ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الْوَأَجِبِ وَالْمُنْدُوبِ إِلَّا مَا ذَكَرُوا مِنْ أَنَّ الْجُمْلَةَ الْإِبْتِدَائِيَّةَ أَثْبَتَ وَآكَدُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الَّذِي لِحِطَّةِ ابْنِ عَطِيَّةَ مِنْ هَذَا))^(٦). وقد نقل السيوطي

﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرَّقَابِ﴾، قوله: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابِ﴾، أصله: فاضربوا الرقاب ضربا، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وفي ذلك اختصار، مع إعطاء معنى التوكيد المصدري))^(٣).

ونريد هنا أن نقف على ما ذكره النحاة من دلالات نحوية في تعليل هذه القراءات، وهل اختلفت دلالتها عنها في حالة النصب. ولاشك في ان من أهم الإشارات التي تفسر الفرق في الدلالة بين الرفع والنصب ما ورد عند ابن عطية: ((وقوله تعالى: فَاتَّبَاعٌ رَفَعٌ عَلَى

خبر ابتداء مضمير تقديره فالواجب والحكم اتباع، وهذا سبيل الواجبات كقوله تعالى ﴿فَامْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩]، وأما المندوب إليه فيأتي منصوبا كقوله تعالى: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابِ﴾ [سورة محمد: ٤]، وهذه الآية حض من

الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب وحسن القضاء من المؤدي، وقرأ ابن أبي عجلة «فاتباعا» بالنصب))^(٤). وقال أبو

=المقتضب: ٤ / ١١، والدر المصون: ٢ /

٢٥٤، واللباب ٣ / ٢٢٥، والكليات:

١ / ١٠١٤.

(٥) البحر المحيط ٦ / ١٧٩ - ١٨٠، وينظر: الدر

المصون: ٢ / ٢٥٤، واللباب ٣ / ٢٢٥،

والتحريير والتنوير ٢٣ / ٤٤.

(٦) البحر المحيط ٢ / ١٥١. وينظر: الدر=

(٣) المثل السائر الحوفي ٢ / ٢٣٧.

(٤) المحرر الوجيز ١ / ٢٤٦، وينظر: =



كلام ابن عطية وجمع بين تعلقي أبي حيان في الموضعين؛ قال في القاعدة التي خصصها لدلالة المصدر: ((قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: سَبِيلُ الْوَاجِبَاتِ الْإِتْيَانُ بِالْمُصَدِّرِ مَرْفُوعًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنِ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩] ﴿فَأَبْنَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٨]، وَسَبِيلُ الْمُنْدُوبَاتِ الْإِتْيَانُ بِهِ مَنْصُوبًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابِ﴾ [سورة محمد: ٤] وَهَذَا اخْتَلَفُوا هَلْ كَانَتْ الْوَصِيَّةُ لِلزُّوجَاتِ وَاجِبَةً لِاخْتِلَافِ الْقِرَاءَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٠] بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ. قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَالْأَصْلُ فِي هَذِهِ التَّفْرِيقَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ﴾ [سورة الذاريات: ٢٥] فَإِنَّ الْأَوَّلَ مَنْدُوبٌ وَالثَّانِي وَاجِبٌ. وَالنُّكْتَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجُمْلَةَ الْإِسْمِيَّةَ أَثْبَتَتْ وَآكَدَتْ مِنَ الْفِعْلِيَّةِ)) (٧).

=المصون: ٢ / ٢٥٤، واللباب ٣ / ٢٢٥.

(٧) الإتيان في علوم القرآن ٢ / ٣٧٩. ووينظر:

معتك الإقران ٣ / ٤٩٧، الدر المصون:

٢ / ٢٥٤، واللباب ٣ / ٢٢٥، والكليات:

١٠١٤ / ١

وقال الكفوي عن دلالة الرفع والنصب في المصادر، قال: ((وَالرَّفْعُ فِي بَابِ الْمَصَادِرِ الَّتِي أَصْلُهَا النَّيَابَةُ عَنِ أَفْعَالِهَا يَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَالِاسْتِقْرَارِ بِخِلَافِ النَّصْبِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ عَامِلِهِ الَّذِي هُوَ الْفِعْلُ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ بِخِلَافِ الْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ فَإِنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مُجَرَّدِ الثُّبُوتِ مُجَرَّدًا عَنِ قَيْدِ التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ فَنَاسَبَ أَنْ يَقْصَدَ بِهَا الدَّوَامُ وَالثَّبَاتُ بِقَرِينَةِ الْمَقَامِ وَمَعُونَتِهِ)) (٨). كما أشار الطاهر بن عاشور إلى الفرق بين الرفع والنصب ودلالة كل منهما؛ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ﴾ ((وَرَفْعُ الْمُصَدِّرِ أَبْلَغُ مِنْ نَصْبِهِ، لِأَنَّ الرَّفْعَ فِيهِ تَنَاسِيٌّ مَعْنَى الْفِعْلِ فَهُوَ أَدْلُّ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ وَلِذَلِكَ خَالَفَ بَيْنَهُمَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعِبَارَةٍ أَحْسَنَ مِنْ عِبَارَةِ الرَّسُلِ زِيَادَةً فِي الْإِكْرَامِ)) (٩). وقال في تفسيره

(٨) الكليات: ٨١٤.

(٩) التحرير والتنوير ١٢ / ١١٦. وينظر فيه

أيضا: ١٢ / ٢٣٩.



((وَأَمَّا قِرَاءَةُ الرَّفْعِ فَتَحْتَمَلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَي: ذَلِكَ الْإِيْمَانُ صِبْغَةُ اللَّهِ. وَالثَّانِي: أَنْ تَكُونَ بَدَلًا مِنْ «مِلَّةٍ» لِأَنَّ مَنْ رَفَعَ «صِبْغَةَ» رَفَعَ «مِلَّةً» كَمَا تَقَدَّمَ فَتَكُونُ بَدَلًا مِنْهَا كَمَا قِيلَ بِذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ النَّصْبِ))^(١٠). وهذه المعاني المذكورة متقاربة ففي حال كانت خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: (هي) فان هذا الضمير سيعود إلى كلمة (ملة) وهو يؤدي إلى الوجه الثاني وهو انه بدل من ملة. غير ان القارئ يشعر بفرق بين دلالة النصب ودلالة الرفع؛ ففي الحالة يدل النصب على الحدوث فكأن فيها حثاً على الالتزام بصبغة الله، في حين يدل الرفع على الثبوت وكأنها تقرر حقيقة لا حاجة معها إلى تقدير فعل يدل على التجدد أو الفعل كالحث أو الإلزام المفهومة من دلالة النصب.

٢. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ

لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا

(١٢) الدر المصون: ١٤٣ - ١٤٤.

قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾: ((وَسَلَامٌ مَرْفُوعٌ فِي جَمِيعِ الْقِرَاءَاتِ الْمَشْهُورَةِ. وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَتَنْكِيرُهُ لِلتَّعْظِيمِ وَرَفْعُهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الدَّوَامِ وَالتَّحَقُّقِ، فَإِنَّ أَصْلَهُ النَّصْبُ عَلَى الْمُفْعُولِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ نِيَابَةً عَنِ الْفِعْلِ، ...، فَلَمَّا أُرِيدَتِ الدَّلَالَةُ عَلَى الدَّوَامِ جِيءَ بِهِ مَرْفُوعًا))^(١٠).

١. وأول هذه الآيات ما ورد في قوله

تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ

اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [سورة البقرة: ١٣٨]،

وقد وجه النحاة قراءة الرفع على أن صبغة خبر لمبتدأ تقديره: هي صبغة، قال الزجاج: ((يجوز أن ترفع الصبغة على إضمار هي، كأنهم قالوا: هي صبغة الله أي هي ملة إبراهيم صبغة الله))^(١١). وذكر السمين الحلبي وجهاً آخر لرفعها وهو البدلية، قال:

(١٠) التحرير والتنوير ٢٣ / ٤٤.

(١١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١ / ٢١٥.

وينظر: معاني القرآن للفراء ١ / ٨٣،

وجامع البيان ٣ / ١١٧. وينظر: المحرر

الوجيز: ١ / ٢١٦، والجامع لأحكام

القرآن: ٢ / ١٤٤، والدر المصون: ٢ /

١٤٢، وزاد المسير ١ / ١١٧، وينظر

البحر المحيط: ١ / ٦٥٦.



وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ فِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٣﴾

[سورة التوبة: ٦٠]، قال الزمخشري:

((فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ فِي مَعْنَى الْمَصْدَرِ الْمُؤَكَّدِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ مَعْنَاهُ فَرَضَ اللَّهُ الصَّدَقَاتَ لَهُمْ. وَقَرَأَ فَرِيضَةً بِالرَّفْعِ عَلَى: تِلْكَ فَرِيضَةٌ)) (١٣). قال القرطبي:

((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾

بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَصْدَرِ عِنْدَ سَبْيِهِ. أَيَّ فَرَضَ اللَّهُ الصَّدَقَاتِ فَرِيضَةً. وَيَجُوزُ الرَّفْعُ عَلَى الْقَطْعِ فِي قَوْلِ الْكَسَائِيِّ، أَيَّ هُنَّ فَرِيضَةٌ)) (١٤). ومعنى النصب أنها بمعنى الفعل فهي فرض وطلب وأمر موجه إلى المسلمين بأداء الفريضة، في حين ان الرفع يدل على ان ما سبق من فرائض وحدود هي فريضة من الله.

(١٣) الكشاف: ٢ / ٢٨٣. وينظر: معاني القرآن للفرأء: ١ / ٤٤٤، و معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢ / ٤٥٧. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨ / ١٩٢، أنوار التنزيل: ٣ / ٨٦، والدر المصون: ٦ / ٧٢.

(١٤) الجامع لأحكام القرآن: ٨ / ١٩٢.

٣. ومنه في قوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) إِلَيْهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ [سورة

يونس: ٣-٤]، قال الفرأء: ((ولو استؤنف (وعد الله حق) كَانَ صَوَابًا)) (١٥). وبين أبو حيان وجه قراءة الرفع، قال: ((وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبَّالَةَ: حَقٌّ بِالرَّفْعِ، فَهَذَا ابْتِدَاءٌ وَخَبْرُهُ أَنَّهُ انْتَهَى. وَكَوْنُ حَقِّ خَبْرٍ مَبْتَدَأً، وَأَنَّهُ هُوَ الْمَبْتَدَأُ هُوَ الْوَجْهُ فِي الْإِعْرَابِ كَمَا تَقُولُ: صَحِيحٌ أَنَّكَ تَخْرُجُ، لِأَنَّ اسْمَ أَنَّ مَعْرِفَةٌ، وَالَّذِي تَقَدَّمَهَا فِي نَحْوِ هَذَا الْمِثَالِ نَكْرَةٌ)) (١٦). فهي في قراءة النصب تدل على التوكيد لأنها مصدر مؤكد لغيره من معنى مفهوم

(١٥) معاني القرآن للفرأء: ١ / ٤٥٧. وينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢ / ١٤٠، وذكر مكِّي أنها لم يقرأ بها احد. مشكل إعراب القرآن: ١ / ٣٣٩، و الكشاف: ٢ / ٣٢٩، و الجامع لأحكام القرآن: ٨ / ٣٠٨.

(١٦) البحر المحيط: ٦ / ١٣. وينظر: الدر المصون: ٦ / ١٤٩.

الله وعدا، وقراءة الرفع على انه خبر
لمبتدأ تقديره: بعثهم وعد حق على
الله تعالى. وهاتان الداللتان تناسبان
معنى التوكيد وتقدير الفكرة.

٥. ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ

مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

[سورة مريم: ٣٤]، قال الطبري:

((وقد اختلفت القراء في قراءة ذلك،

فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق

(قَوْلُ الْحَقِّ) برفع القول،...

وجعلوه في إعرابه تابعاً لعيسى،

كالنعت له، وليس الأمر في إعرابه

عندي على ما قاله الذين زعموا أنه

رفع على النعت لعيسى،... وإلا

فرفعه عندي بمضمر، وهو هذا

قول الحق على الابتداء،... وقد

قرأ ذلك عاصم بن أبي النجود وعبد

الله بن عامر بالنصب، وكأنها أرادا

بذلك المصدر: ذلك عيسى ابن مريم

قولاً حقاً، ثم أدخلت فيه الألف

واللام)) (٢٠). وقال الزجاج في توجيه

القراءتين: ((بالرفع، ويجوز (قَوْلُ

(٢٠) جامع البيان ت شاكر ١٨ / ١٩٤.

من الكلام. أما قراءة الرفع فتدل
على تقرير الوعد المتضمن في الجملة
السابقة والتقدير: مرجعكم إلى الله
هو وعد حق من الله.

٤. ومثله (وعدا عليه حقاً) في قوله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا

يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة النحل: ٣٨]، إذ قال الفراء:

((ولو كان رفعا على قوله: بلى ذلك

وعداً عليه حقاً كان صواباً)) (١٧).

ووجهه النحاس قال: ((وعداً عليه

حقاً مصدر. قال الكسائي والفراء:

ولو قيل: وعد عليه حق لكان صواباً

أي ذلك وعد عليه حق)) (١٨). وقال

أبو حيان: ((وَقَرَأَ الصَّحَّاحُ: بَلَى وَعَدُّ

حَقًّا، وَالتَّقْدِيرُ: بَعَثَهُمْ وَعَدُّ عَلَيْهِ

حَقًّا، وَحَقُّ صِفَةٌ لِيُوعَدُوا)) (١٩). فقراءة

النصب على انه مصدر مؤكد لفعل

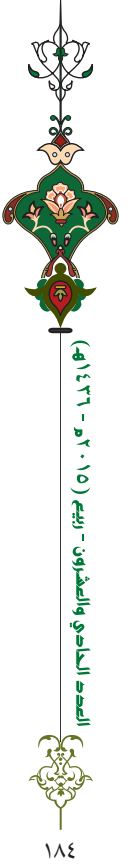
مقدر من معنى الجملة أي وعدهم

(١٧) معاني القرآن للفراء ٢ / ١٠٠.

(١٨) إعراب القرآن للنحاس ٢ / ٢٥٠.

(١٩) البحر المحيط ٦ / ٥٢٩. وينظر: الدر

المصون ٧ / ٢١٩.



الْحَقُّ) بالنصب، فمن رفع فالمعنى هو قول الحق ومن نصب فالمعنى أقول قول الحق الذي فيه يمترون أي (يشكون))^(٢١). وقد بين أبو حيان أن قراءة النصب وقراءة الرفع تتفقان في الدلالة، فالنصب يدل على ان قول مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي قبله التي تتضمن الإخبار بان عيسى ابن مريم ثابت النسب إليها وليس منسوبا لغيرها، وقد تفيد هذه القراءة المدح، والرفع يدل على أن نسبته إلى أمه فقط؛ ((فَتَتَّقُ) إِذْ ذَاكَ قِرَاءَةُ النَّصْبِ وَقِرَاءَةُ الرَّفْعِ فِي الْمَعْنَى))^(٢٢). وقال الطاهر بن عاشور ((وقول الحق قرأه الجمهور بالرفع، وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب بالنصب فأما الرفع فهو خبر ثانٍ عن اسم الإشارة أو وصفٌ

لِعِيسَى أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ، وَأَمَّا النَّصْبُ فَهُوَ حَالٌ مِنْ اسْمِ الْإِشَارَةِ أَوْ مِنْ عِيسَى. وَمَعْنَى قَوْلِ الْحَقِّ أَنَّ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي سَمِعْتُمْ هِيَ قَوْلُ الْحَقِّ، أَيْ مَقُولٌ هُوَ الْحَقُّ وَمَا خَالَفَهَا بَاطِلٌ، أَوْ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ، أَيْ مَقُولُ الْحَقِّ، أَيْ الْمَكُونُ مِنْ قَوْلِ (كُنْ)، فَيَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ كَاخْتَلَقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [سورة لقمان: ١١]]^(٢٣). فقراءة النصب فيها معنى المدح والتوكيد فبعد ان ذكر الله تعالى قصة ميلاد عيسى عليه السلام قال سبحانه ان المخبر والمتحدث عنه هو عيسى عليه السلام ثم مدحه أو وصف حاله بقوله: قول الحق، أي ان ذلك المتحدث عنه هو عيسى بن مريم الممدوح بكونه قول الحق الذي فيه يمترون. وفي قراءة الرفع يكون قول الحق خبرا ثانيا لاسم الإشارة فيكون المعنى ذلك المخبر عنه عيسى ابن

(٢١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢٩. وينظر: الكشاف: ٣/ ١٦، والمحزر الوجيز ٤/ ١٥، وأنوار التنزيل ٤/ ١٠، وينظر الدر المصون: ٧/ ٥٩٨، واللباب في علوم الكتاب ١٣/ ٦٢-٦٣.

(٢٢) البحر المحيط ٧/ ٢٦٠.

(٢٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٠٢.



دلالة الحدوث واضحة وهي تفيد التوكيد، والوصفية عن طريق الحال، في حين تفيد دلالة الرفع الثبوت من غير اقتران بفعل الاستنكاح المذكور على تقدير مبتدأ: وهي خالصة لك. ويمكن القول -بعد- ان الرفع في حقيقته عدول من النصب الذي يمثل الأمر والطلب إلى الرفع الذي يمثل الإخبار، وكان الطلب سورع في تنفيذه فصار في عداد الخبر، فالمصدر المرفوع، إذًا، أقوى في التأكيد من المصدر المنصوب؛ لأن المنصوب طلب سيتم تنفيذه، أما المرفوع فهو خبر عن طلب تم تنفيذه واخبر عن هذا التنفيذ فصار حقيقة مفروغا منها.

السياقات الدلالية للمصادر المعقَّب بها:

أ. التعقيب المصدري بين المدح والذم: وزع مجيء المصادر المعقَّب بها في سياقين غالبًا هما توكيد المدح، وقد كان ما جاء من تعقيب في هذا السياق أكثر

=الكتاب ١٥ / ٥٧٠، و إرشاد العقل
السليم ٧ / ١١٠.

مريم هو قول الحق^(٢٤). وهما قراءتان متآزرتان في تحقيق الفكرة التي يريد النص الإخبار عنها.

٦. ومنه (خالصة) في قوله تعالى:

﴿وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد قال

الفراء: ((ولو رفعت (خالصة) لك على الاستئناف كَانَ صوابًا كما قَالَ **﴿لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَّغٌ** أي:

هَذَا بَلَاغٌ))^(٢٥). وفرّق أبو حيان بين القراءتين: ((قراءة النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، ...: أَي أَحْلَلْنَاهَا خَالِصَةً لَكَ، وَالرَّفْعُ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ: أَي هِيَ خَالِصَةٌ لَكَ، أَي هِبَةُ النِّسَاءِ أَنْفُسَهُنَّ مُحْتَصِصٌ بِكَ، لَا يَجُوزُ أَنْ تَهَبَ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا لِغَيْرِكَ))^(٢٦). وقراءة النصب فيها

(٢٤) ينظر: الفروق الدلالية بين القراءات القرآنية العشر، رانية محفوظ الورفلي: ٤١٠.

(٢٥) معاني القرآن للفراء: ٢ / ٣٤٥ - ٣٤٦. وينظر: الكشف: ٣ / ٥٥١.

(٢٦) البحر المحيط: ٨ / ٤٩٣. وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤ / ٢٣٢، و الدر المصون: ٩ / ١٣، و اللباب في علوم =



شيوعا مما ورد في سياق الظم وكثيرا ما كان مضافا الى لفظ الجلالة الله تعالى او الى الحق او القوة، مثل إضافة مصدر صنع الى لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى: ﴿ وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النمل:

٨٨]، ولا شك في ان اختيار هذا المصدر جاء في غاية الفصاحة؛ ذلك ان السياق سياق مدح وتعظيم لله تعالى فناسبه استعمال هذه الكلمة، ولاسيما إذا علمنا ان الصُّنْعُ هو: إجادَةُ الفعل، وان كلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنْعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل (٢٧). وقد جاء

هذا الاستعمال في سياق تَمْجِيدِ النَّظَامِ الْعَجِيبِ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى إِذْ تَتَحَرَّكُ الْأَجْسَامُ الْعَظِيمَةُ مَسَافَاتٍ شَاسِعَةً وَالنَّاسُ يَحْسَبُونَهَا قَارَةً ثَابِتَةً وَهِيَ تَتَحَرَّكُ بِهِمْ وَلَا يَشْعُرُونَ. وَوَصَفُ اللهِ بِالَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ تَعْمِيمٌ يَرَادُ بِهِ التَّذْيِيلُ، أَيَّ مَا هَذَا الصُّنْعُ الْعَجِيبُ إِلَّا أَمْثَالًا لِأَمْثَالِهِ

(٢٧) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٤٩٣.

مِنَ الصَّنَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ الدَّقِيقَةِ الصُّنْعِ. وقد أكد هذا التعقيب وثبته بجملة إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ التي تؤلف تذييلا أو اعتراضا في آخر الكلام للتذكير والوعظ والتحذير، وإنما جاء بذلك عقب قوله الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّ إِتْقَانَ الصُّنْعِ أَثَرٌ مِنْ أثارِ سَعَةِ الْعِلْمِ فَالَّذِي بَعَلِمِهِ أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ هُوَ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُ الْخَلْقُ فجاء به تحذيرا عن مخالفة أمره (٢٨).

وقد أشار الزمخشري إلى انه تعالى وسم هذا المصدر هنا بسمه التعظيم بإضافته إليه (٢٩). ومثل ذلك نجده في قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ،
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة

الروم: ٤ - ٦]، فالآية الكريمة وعدُّ من الله سبحانه بالنصر ووعدُّ الله لا خُلْفَ فِيهِ (٣٠)، لامتناع الكذب عليه تعالى.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَعْدَهُ وَلَا

(٢٨) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠ / ٥١.

(٢٩) ينظر: الكشاف ٣ / ٣٨٨.

(٣٠) ينظر: مفاتيح الغيب ٢٥ / ٨١، وأنوار

التنزيل ٤ / ٢٠٢.



وَقَدْ وَعَدَهُمْ هَذَا الْجَزَاءَ عَلَى التَّقْوَى، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّ النَّعِيمَ الرُّوحَانِيَّ يَكُونُ بِمَحْضِ الْفَضْلِ، وَالْإِحْسَانِ لِلْأَبْرَارِ، فَقَالَ: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكِرَامَةِ الزَّائِدَةِ عَلَى هَذَا النُّزْلِ الَّذِي هُوَ بَعْضُ مَا عِنْدَهُ^(٣٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْخُلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾،^(٣٦) إضافة الثواب إلى الله تعالى للدلالة على انه ثواب خاص لان مصدره الله تعالى الذي يختص بقدرته وفضله^(٣٦)، قال ابن عادل: ((وقوله: ﴿مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ صفة له، وهذا يدل على كون ذلك الثواب في غاية الشرف))^(٣٧). وقد أضاف الثواب إليه تعالى ليدل على أنه عظيم، لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزئياً كثيراً^(٣٨). ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ

صحة وعده لجهلهم وعدم تفكرهم^(٣١). ((وإضافة الوعد إلى الله تلويح بأنه وعدٌ مُحَقَّقٌ الإيفاء لأنَّ وَعْدَ الصَّادِقِ الْقَادِرِ الْغَنِيِّ لَا مُوجِبَ لِإِخْلَافِهِ. وَجُمْلَةٌ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ بَيِّنٌ لِلْمَقْصُودِ مِنْ جُمْلَةٍ وَعَدَّ اللَّهُ فَإِنَّهَا دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ وَعْدٌ مُحَقَّقٌ بِطَرِيقِ التَّلْوِيحِ، فَبَيَّنَ ذَلِكَ بِالصَّرِيحِ بِجُمْلَةٍ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ))^(٣٢). وقد يأتي بعد المصدر المعقب به جار ومجرور متعلق به يخصصه ويحدد فضاءه فيدل على المدح مثل: (رب رحيم) أو (من عند الله) أو (فريضة من الله) أو (من لدنا)، كما في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٨]، والآية بيان عن أن ما عند الله لكثرتهم ودوامه خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله^(٣٣). وقد وصف هذا النزول بأنه من عند الله^(٣٤).

(٣١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٤ / ٢٠٢.
(٣٢) التحرير والتنوير ٢١ / ٤٨.
(٣٣) ينظر: أنوار التنزيل ٢ / ٥٦.
(٣٤) ينظر: مدارك التنزيل ١ / ٣٢٤.

(٣٥) ينظر: تفسير المنار ٤ / ٢٥٧.

(٣٦) ينظر: الكشاف ١ / ٤٥٧.

(٣٧) اللباب في علوم الكتاب ٦ / ١٢٩. وينظر:

إرشاد العقل السليم ٢ / ١٣٤.

(٣٨) ينظر: تفسير المنار ٤ / ٢٥٣.



كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَنَكُنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [سورة القصص: ٥٧]،

قال الطاهر بن عاشور: ((وَمَعْنَى مِنْ لَّدُنَّا مِنْ عِنْدِنَا، وَالْعِنْدِيَّةُ مَجَازٌ فِي التَّكْرِيمِ وَالْبَرَكَةِ، أَي رِزْقًا قَدَّرْنَاهُ لَهُمْ إِكْرَامًا فَكَانَتْ رِزْقٌ خَاصٌّ مِنْ مَكَانٍ شَدِيدِ الْإِخْتِصَاصِ بِاللَّهِ تَعَالَى)) (٣٩).

وقد يأتي المصدر المعقَّب به منوناً غير مضاف، غير أن المتلقي يشعر ان فيه رائحة الإضافة إليه سبحانه وتعالى، كما

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [سورة الاحقاف: ١٣ -

١٤]، فالجزء إنما يكون منه سبحانه. وقد وظَّف النص الكريم التنوين

للدلالة على التعظيم والتفخيم، كما في قوله تعالى: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي

بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مُضَكَرٍ وَصِيَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾، قال أبو السعود

عن تنوين كلمة وصية: ((وتنوينه للتفخيم ومن متعلقة بمضمر وقع صفة

(٣٩) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٤٩.

له مؤكدة لفخامته)) (٤٠). وهذا ينطبق

على تنوين (فريضة من الله) في قوله

تعالى: ﴿ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ

أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ

اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء:

١١] أيضاً؛ لان السياق واحد فيها وهو

التشريع ووضع الأحكام التي تنظم

حياة الأسرة (٤١). فاستعملها جاء مناسبا

لسياق التقرير ووجوب الطاعة الذي

يتطلبه النص الكريم (٤٢).

في حين أفاد بعضها الآخر دلالة

المبالغة في توكيد الذم وهو أقل من

النوع الأول ومنه قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ أَنَا

رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾

[سورة النازعات: ٢٤ - ٢٥]؛ وقد

ناسب استعمال المصدر هنا لتوكيد

دلالة التحقير الموجه إلى فرعون وإذلاله

وإهانته، لأن معنى أخذه الله نكَّلَ بِهِ نَكَالَ

الْآخِرَةِ وَالْأُولَى وذلك بان أغرقه في الدنيا

(٤٠) إرشاد العقل السليم ٢ / ١٥٣.

(٤١) ينظر: الكشاف ١ / ٤٨٦.

(٤٢) ينظر: الكشاف ١ / ٤٨٤، و مفاتيح

الغيب ٩ / ٥١٩.



هُوَ الَّذِي يَعْتَقِدُ فِي الشَّيْءِ أَنَّهُ مُطَابِقٌ
لِلْمَنْفَعَةِ وَالْمُصْلَحَةِ مَعَ أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ لَيْسَ
كَذَلِكَ، فَالْعُرُورُ هُوَ أَمَّا أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً
عَنِ الْجُهْلِ عَلَيْهِ أَوْ عَنْ حَالَةٍ مُتَوَلِّدَةٍ عَنْهُ،
وَمِنْ ثَمَّ يَظْهَرُ أَنَّ تَأْثِيرَ الْأَرْوَاحِ بَعْضُهَا
فِي بَعْضٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْبَرَ عَنْهُ بِعِبَارَةٍ
أَكْمَلُ وَلَا أَقْوَى دَلَالَةً عَلَى تَمَامِ الْمُقْصُودِ
مِنْ قَوْلِهِ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ
الْقَوْلِ غُرُورًا^(٤٦). كما ورد المصدر المعقب

به مستعملا في سياق تقرير فكرة من
غير الدخول في مجالي المدح أو الذم، كما
في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ
يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾،

فالسباق الذي ورد فيه المصدر لا يفيد
مدحا ولا ذما، وإنما هو سياق تقرير فكرة
مؤداها: ان كل نفس لا تموت إلا بإذن
الله تعالى، فجيء بالمصدر تعقيبا على هذه
الحقيقة ليؤكد لها ويثبت أن الموت كتاب
مؤجل، أي مؤقت له أجل معلوم لا يقدر

(٤٦) ينظر: مفاتيح الغيب ١٣ / ١٢١.

وسيعذبه في الآخرة^(٤٣). و(النكال) اسم
لمن جعل نكالا لغيره، وَهُوَ الَّذِي إِذَا رَأَاهُ أَوْ
بَلَغَهُ خَافَ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ
مِنَ الْإِمْتِنَاعِ، وَقِيلَ لِلْقَيْدِ نَكْلٌ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ،
وَالنَّكَالُ مِنَ الْعُقُوبَةِ هُوَ أَعْظَمُهَا حَتَّى
يَمْتَنِعَ مَنْ سَمِعَ بِهِ عَنِ ارْتِكَابِ مِثْلِ ذَلِكَ
الدَّنْبِ الَّذِي وَقَعَ التَّنْكِيلُ بِهِ^(٤٤). ومنه

قوله سبحانه: ﴿ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾، فقد جاء

التعقيب بالمصدر (غرورا) هنا مناسبا
غاية المناسبة لمعنى الذم الذي ترسمه
الآية الكريمة لفعل الجن؛ إذ يوحى
بعضهم إلى بعض الكذب من القول
غرورا، أي خداعا وأخذاً على غرّة، لأنهم
يغرون به المضللين ويوهمونهم أنهم على
شيء والأمر بخلاف ذلك^(٤٥). فالعُرُورَ

(٤٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/
٢٨٠. وينظر: المفردات في غريب القرآن:
٨٢٤.

(٤٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ٤٢ / ٣١، والجامع
لأحكام القرآن ١٩ / ٢٠٣. ويقابل بـ:
حاشية الشهاب: عناية القاضي ٨ / ٣١٥،
والتحريير والتنوير ٣٠ / ٨١.

(٤٥) ينظر: الكشف ٢ / ٥٩، و المحرر الوجيز

٢ / ٣٣٦.



أحد على تقديمه أو تأخيره^(٤٧).

ب. التعقيب المصدرى بين الوصف (القصص القرآني أو الحياة الدنيا أو الآخرة) والحكم الشرعي.

وتوزعت المصادر المعقَّب بها بين ما جاء في سياق الوصف، سواء أكان يدور في القصص القرآني أو وصف الحياة الدنيا أو الآخرة، وما ورد منه في سياق تأكيد التشريع الذي يتضمنه النص.

ومن النوع الأول (الوصف) ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، فسياق الآية الكريمة هو الوصف لا التشريع، وقد

اختلف المفسرون في شأن ما تصفه الآية الكريمة أهو دنيوي؛ إذ استشهد النص على الناس بما يغشى أبصارهم فيحسبون الجبال واقفة لا تتحرك ولكنه صنع الله الذي أنقن كل شيء وهي في الحقيقة تمر مرور السحاب مسرعة، أم أنه في سياق

(٤٧) ينظر: تفسير البغوي ١/ ٥١٨، والكشاف ١/ ٤٢٤، ومفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٩، والتحرير والتنوير ٤/ ١١٥.

الآخرة لوقوع الآية بين آيات الساعة التي تتكلم عن الآخرة^(٤٨). ومنه قوله

سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ

وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾^(٨٤)

فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّت

اللَّهُ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

الْكَافِرُونَ﴾ فالآية الكريمة تصوِّر لنا

أن سنة الله هي الغالبة؛ إذ ينتصر أنبياءه

على أعدائه وهي تتمثل في إرسال الرُّسُلِ

وَالْإِعْزَازِ بِهِمْ، وَتَعْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُمْ

وَاسْتِهْزَائِهِمْ وَاسْتِصْهَابِهِمْ بِالْهَلَاكِ، وَعَدَمِ

الْإِنْتِفَاعِ بِالْإِيْمَانِ حَالَةَ تَلْبَسِ الْعَذَابِ

بِهِمْ، وقيل إن سنته إشارة نصر المسلمين

في وقعة بدر^(٤٩).

ومن النوع الثاني الذي جاءت

المصادر لتؤكد التشريع الذي يتضمنه

النص الكريم، ما ورد في قوله سبحانه:

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ

لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

(٤٨) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٤٧.

(٤٩) ينظر: الكشاف ٤/ ٣٤١، والمحزر

الوجيز ٥/ ١٣٥، ومفاتيح الغيب ٢٨/

٨١، والجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٨٠،

والبحر المحيط ٩/ ٢٧٨.



المِقْدَارِ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَهَذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْمُقْصُودَ بِهَذِهِ الْآيَةِ تَشْرِيعَ الْمَوَارِيثِ^(٥٢). ومن هنا يكون مجيء المصدر نصيباً موظفاً ليؤكد ذلك ويقرره، قال الزجاج في معنى: (نصيباً مفروضاً) في الآية الكريمة: ((وهذا كلام مؤكِّد))^(٥٣). وفيه دليلٌ على أَنَّ الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقطُ حقُّه^(٥٤).

التعقيب بمصدرين في جملة واحدة:

وفي إطار البحث في أثر التعقيب المصدري في الدلالة، لابد من الوقوف، هنا، على المصدرين (وعد الله حقاً) و(وعداً عليه حقاً) اللذين تكررا في مواضع مختلفة، من اجل الكشف عن سبب استعمالهما معاً ودلالة هذا الاقتران؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٢٢] ويبدو من

عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فالآية الكريمة تشرع للناس ما يخص الموارث وتبين أنه العليم والحكيم بما هو أصح لهم. قال الفخر الرازي: ((فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِشَارَةٌ إِلَى وُجُوبِ الْإِنْفِيَادِ لَهُدِهِ الْقِسْمَةِ الَّتِي قَدَّرَهَا الشَّرْعُ وَقَضَى بِهَا))^(٥٥). ومنه قوله سبحانه: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾، فالآية تبين ضوابط توزيع الميراث، فللذكور من أولاد الرجل الميت حصة من ميراثه، وللإناث منهم حصة منه أيضاً، من قليل ما خلف بعده وكثيره، حصة مفروضة، واجبة معلومة مؤقتة^(٥٦).

فَمَعْنَى كَوْنِهِ مَفْرُوضًا أَنَّهُ نَصِيبٌ مُعَيَّنٌ

(٥٥) مفاتيح الغيب ٩/ ٥١٩، وينظر: الكشاف ١/ ٤٨٤، وزاد المسير ١/ ٣٧٩.

(٥٦) ينظر: جامع البيان ٧/ ٥٩٧ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ١٥، وتفسير البغوي ١/ ٥٧٢، والكشاف ١/ ٤٧٦، ومفاتيح الغيب ٥/ ٢٣١، وجامع الأحكام القرآن ٥/ ٤٧، وأنوار التنزيل ٢/ ٦١، ومدارك التنزيل ١/ ٣٣٣، والبحر المحيط ٣/ ٥٢٥، وروح المعاني ٢/ ٤٢١، وإرشاد العقل السليم ٢/ ١٤٧، والتحرير والتنوير ٤/ ٢٥٠.



الآية الكريمة أن ذلك يعود إلى أن هذين المصدرين يؤديان دلالتين متآزرتين ومتضافتين، فهما يؤكدان ان وعد الله بإدخال الصالحين الجنة حق، وهو ليس كوعد الشيطان، لذلك جاء بهما معا تثبيتا لهذه الفكرة والمبالغة في توكيدها ترغيباً للعباد في تحصيل الصالحات وترك السيئات؛ إذ إن احدهما يؤكد نفسه في حين أن الآخر يؤكد غيره؛ قال الزمخشري: ((وَعَدَ اللهُ حَقًّا مَصْدَرَانِ: الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً توكيد ثالث بليغ. فإن قلت: ما فائدة هذه التوكيدات؟. قلت: معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيباً للعباد في إثارة ما يستحقون به تنجز وعد الله، على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان)) (٥٥).

فاستعمال المصدر الأول لبيان ان وعده

تعالى لآزِمٌ لَا يَتَخَلَّفُ^(٥٦)، أما المصدر الثاني(حقاً)، فهو في الأصل مَصْدَرٌ، ولكنه اسْتُعْمِلَ هنا اسْتِعْمَالَ الْأَسْمَاءِ لِلشَّيْءِ الثَّابِتِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَيُطْلَقُ كَثِيرًا، عَلَى الْكَامِلِ فِي نَوْعِهِ^(٥٧). وقال أبو السعود موضحاً معنى التوكيد المستفاد من المصدر الذي يؤكد معنى الجملة السابقة، قال: ((وَعَدَ اللهُ حَقًّا مَصْدَرَانِ مُؤَكِّدَانِ الْأَوَّلُ لِنَفْسِهِ وَالثَّانِي لِغَيْرِهِ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ فِي مَعْنَى وَعَدَهُمُ اللهُ جَنَّاتِ النَّعِيمِ فَأَكَّدَ مَعْنَى الْوَعْدِ بِالْوَعْدِ وَأَمَّا حَقًّا فَدَالٌ عَلَى مَعْنَى الثَّبَاتِ أَكَّدَ بِهِ مَعْنَى الْوَعْدِ وَمُؤَكِّدُهُمَا جَمِيعًا لَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (وَهُوَ الْعَزِيزُ) الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ لِيَمْنَعَهُ مِنْ إِنْجَازِ وَعْدِهِ أَوْ تَحْقِيقِ وَعْدِهِ)) (٥٨).

ووضَّح الطاهر بن عاشور هذا الأمر، قال: ((وَأَنْتَصَبَ وَعَدَ اللهُ عَلَى الْمُفْعُولِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ تَوْكِيدًا لِمُضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْمُسَاوِيَةِ لَهُ، وَيُسَمَّى مُؤَكِّدًا لِنَفْسِهِ فِي اصْطِلَاحِ

(٥٦) ينظر: التحرير والتنوير ١٤ / ١٥٥.

(٥٧) ينظر: نفسه ٩ / ٢٦١.

(٥٨) إرشاد العقل السليم ٧ / ٧٠.

(٥٥) الكشف ١ / ٥٦٧، وينظر: مفاتيح الغيب

١١ / ٢٢٥، وأنوار التنزيل ٢ / ٩٩،

والتحرير والتنوير ٥ / ٢٠٧.



الغرض من توكيد الكلام من غير إعادته لفظياً، فالتعقيب المصدر هو المجيء بمصدر يردف معنى الجملة السابقة ويقويه أو يجمله؛ فلا يدخل الشك إلى ذهن المتلقي وإنما يُقْبَلُ على الكلام بالقبول والموافقة؛ فهو شاهد على صدق الكلام السابق، والتعقيب المصدر بالمعنى المذكور مصطلح قال به المفسرون ولم يقل به النحويون. وقد اتضح من البحث أن اعتماد النص الكريم المصدر طريقاً للتعقيب جاء بناء على ما يمتاز به المصدر من الصيغ الصرفية الأخرى، ومن ثم فقد أضفى استعمال المصدر مرونة تعبيرية على النص لأنه أدى إلى دلالات صرفية مختلفة اكتسبتها من خلال السياق، وهذا أسهم في خلق معان فنية وجمالية، انبثقت من خصائص الكلمة الصرفية للمصدر وعلاقتها بالكلمات الأخرى في الجملة. كما أن التعقيب بالمصدر أغنى النص الكريم بالدلالات النحوية فقد جاء عدد من هذه المصادر محتملاً لأوجه نحوية مختلفة تصب في إغناء

النحاة لِأَنَّ مَضْمُونَ إِلَيْهِ مَرَجِعُكُمْ الْوَعْدُ بِإِرْجَاعِهِمْ إِلَيْهِ وَهُوَ مُفَادٌ وَعَدَّ اللَّهُ، وَيُقَدَّرُ لَهُ عَامِلٌ مَحذُوفٌ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْمُؤَكَّدَةَ لَا تَصْلُحُ لِلْعَمَلِ فِيهِ. وَالتَّقْدِيرُ: وَعَدَّكُمْ اللَّهُ وَعَدًّا حَقًّا. وَانْتَصَبَ حَقًّا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ الْمُؤَكَّدَةِ لِمَضْمُونِ جُمْلَةٍ وَعَدَّ اللَّهُ بِإِعْتِبَارِ الْفِعْلِ الْمَحذُوفِ. وَيُسَمَّى فِي اصْطِلَاحِ النُّحَاةِ مُؤَكَّدًا لِعَيْرِهِ، أَيُّ مُؤَكَّدًا لِأَحَدِ مَعْنَيْنِ تَحْتِمِلُهَا الْجُمْلَةُ الْمُؤَكَّدَةُ)) (٥٩).

الخاتمة والنتائج:

وفي الخاتمة فقد كشف البحث عن مجموعة من النتائج؛ أهمها التعريف بظاهرة التعقيب المصدر أو التعقيب بالمصدر في القرآن الكريم، وهي ظاهرة لغوية أسلوبية امتاز بها النص القرآني الكريم لم يسبق للباحثين دراستها والكشف عن ملامحها، والتعقيب هو الإتيان بالمصدر بعد الكلام لغرض توكيده وتثبيته، وهذه الظاهرة تعتمد على المصدر المؤكد لمضمون الجملة السابقة؛ لأن هذا المصدر يناسب



اهم مصادر البحث ومراجعته

- النص بالدلالات والمعاني؛ مما يؤكد أنّ القرآن الكريم نص معجز بلغ الغاية في البلاغة. ولما كان بعض المصادر المعقب بها قد قرئ بالرفع كما قرئ بالنصب فقد كشف البحث عن القيمة الدلالية للحالة الإعرابية لتلك المصادر بين الرفع والنصب؛ في ضوء ما قدمه العلماء من دلالة الأول على الثبوت ودلالة الثاني على الحدوث والتجدد.
- وقد توزعت المصادر المعقب بها بين سياقات المدح تارة عن طريق الإضافة إلى لفظ الجلالة أو تعليقه به بحرف جر، مثل: (صنع الله) (قولا من رب رحيم) أو (ثوبا من عند الله) أو (فريضة من الله) أو (رزقا من لدنا)، والذم تارة أخرى، وهو أقل ورودا من سابقه مثل: (نكال الآخرة والأولى). وقد ورد التعقيب في بعض المواضع بمصدرين أحيانا، هما: (وعدا وحقا)، واستنتج البحث، من قراءة الآيات التي احتوت التعقيب بمصدرين، أن ذلك يعود إلى أن هذين المصدرين يؤديان دلالتين متآزرتين ومتضافتين في تلك النصوص الكريمة.
- اتساع الدلالة في الخطاب القرآني، د. محمد نور الدين المنجد، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة: ١٩٤٧ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ط، د.ت.
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: دراسة نظرية تطبيقية، د. عبد الحميد احمد هنداوي، عالم الكتب الحديث ودار جدارا - الأردن، ط١، ٢٠٠٨ م.
- إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس، عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ.



- إعراب القرآن المنسوب خطأ للزجاج، تح: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة ودار الكتب اللبنانية - بيروت، الطبعة الرابعة - ١٤٢٠ هـ.
- الإكسير في علم التفسير، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩ م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، أبو البركات، كمال الدين الأنباري، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٣ م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - تفسير البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.
- البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة ١٤٢٠ هـ.
- بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي - بيروت، د. ط، د. ت.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ -
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين المناوي القاهري، عالم الكتب، عبد الخالق ثروت - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة



- الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- جامع الدروس العربية، الشيخ: مصطفى المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الثامنة والعشرون، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.
- الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٤٨ - ١٩٦٤م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم - دمشق.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر، الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.
- روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء (ت ١١٢٧ هـ)، دار الفكر - بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الالوسي تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، بدر الدين محمد بن جمال الدين محمد بن مالك (ت ٦٨٦ هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، نور الدين الأشموني الشافعي دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.
- شرح كافية ابن الحاجب، رضي الدين الاستراباذي (ت ٦٨٦ هـ)، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٧.



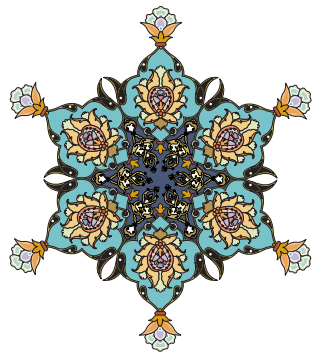
- شرح المفصل للزمخشري، بن يعيش الموصلي، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
- الصاحبى في فقه اللغة العربية، أحمد بن فارس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم محمود بن عمر، الزمخشري تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - لبنان، الطبعة الثانية، د.ت.
- الفروق الدلالية بين القراءات القرآنية العشر، رانية محفوظ الورفلي، منشورات جامعة قاريونس - ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م.
- فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي تح: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- الكتاب، سيبويه تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي-
- القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.
- اللباب في علوم الكتاب، سراج الدين الحنبلي الدمشقي النعماني، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي - القاهرة، طبعة سنة: ١٣١٨ هـ.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني، وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، طبعة ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢ هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة



- الأولى- ١٤٢٢ هـ.
- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- مختصر في قواعد التفسير، خالد بن عثمان السبت، دار ابن القيم - دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل - تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت ٧١٠ هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- مشكل إعراب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن - تفسير البغوي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- معاني الأبنية، د. فاضل السامرائي، بغداد، ط ١.
- معاني القرآن للأخفش، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي و محمد علي النجار و عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، الطبعة الأولى.
- معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- معاني النحو، د. فاضل السامرائي، مطبعة الجامعة، ط ١.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن



- فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر - دمشق، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، أبو عبد الله الرازي الملقب بفخر الدين الرازي دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ.
- الموجز في قواعد اللغة العربية، سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني دار الفكر - بيروت - لبنان، الطبعة: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- النكت في تفسير كتاب سيويه، يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم الشنتمري تحقيق: يحيى مراد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات ابن الأثير تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن السيوطي تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية - مصر.



الإنسجام الصوتي في سورة الزلزلة

حازم كريم عباس الكلابي
جامعة القادسية - العراق

فحوى البحث

كان السيد الباحث قد نشر في العدد الرابع عشر من المجلة بحثاً تعرض فيه لموضوعة (الانزياح الاستفهامي في سورة يوسف واثره في الابداع الفني في القرآن). وكمثل اخر لهذا الابداع الفني، عرض في بحثه الراهن صورة اخرى من صور الفن الايقاعي في القرآن، فاختار سورة (الزلزلة) المباركة والتي امتازت كلماتها ومقاطعها وفواصلها بنمط متميز في الانسجام الصوتي، ليثبت للبحث العلمي ما تفرّد به القرآن من اسلوب وايقاع لم يُعرف له مثيل في اساليب العرب.

المقدمة:

و الجمل في الدلالة على روعة الإبداع و جمال النظم والتأليف، و حلاوة الإيقاع، لترسم بذلك صورة تدل على المعنى و توحى به، و لتعلن بصدى ترجيعها الانسجام الموسيقي الذي يولد الانسجام النفسي عند المتلقي ويزيد من التأثير في أعماقه.

ومن الجدير بالاهتمام أن موسيقى الشعر في العصر الجاهلي لم تكن تكمن في أوزانه وجمال إيقاعه، بل في انتقاء الألفاظ الرشيقة التي تخدم المعنى، و بطاقتها الشعرية التي تؤلف مناخا موسيقيا، تهتز له القلوب و تصفو له الآذان، ومع ذلك فقد أفحم القرآن شعراء العرب و عجزوا عن أن يأتوا بمثله، ذلك أن موسيقية اللغة العربية بلغت ذروتها في التركيب القرآني البديع الذي تنسجم وتتناسق المعاني والافكار مع النغمات والجرس في أحسن تناسق واكمال انسجام.

تقديم:

الانسجام لغة:

سَجِمَ: سَجِمَتِ العَيْنُ الدَّمْعَ والسحابةُ الماءَ تَسْجِمُهُ وتَسْجُمُهُ سَجْمًا

لاشك في أن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة الفريدة التي لم يعرف لها مثل، وليس من سبيل الى انكارها، والتي مازال سلطانها قويا على النفوس، مقنعا للعقول، وممتعا للعواطف. ولا شك أيضا في أنه تَفَرَّدَ بأسلوب خاص، وبإيقاع لم يعرف له مثل، حتى بلغ أعمق مواطن التأثير في النفس البشرية، هذه النفس التي تؤثر فيها الصورة الموسقة أكثر مما تؤثر الكلمة العادية المجردة، وترتاح إلى الإيقاع وتأنس به وتنفعل، وتتناغم معه وتتجاوب. و يلاحظ في هذا الشأن أن الإيقاع القرآني لا يعني الجناس، و الفاصلة و التكرار و غيرها من مظاهر الانسجام الصوتي، بل يتعداها إلى الصيغ الصرفية و أوزان الكلمات أيضا، أي ما يدخل ضمن البنية الخارجية والداخلية. غير أن ما يهمننا في هذا البحث هو الانسجام الصوتي وما يحدثه من أثر واضح في جمالية النص الكريم؛ ولأجل ذلك جاءت الدراسة هنا لبيان تضافر الأصوات و الكلمات



وَسُجُومًا وَسَجْمَانًا: وهو قَطْران الدمع
وَسَيْلَانِه، قليلاً كان أم كثيراً، وكذلك
الساجِمُ من المطر، والعرب تقول دَمْعٌ
ساجِمٌ. ودمع مَسْجُومٌ: سَجَمْتَهُ العين
سَجْمًا، وقد أَسْجَمَهُ وَسَجَّمَهُ. والسَّجْمُ:
الدمع. وَأَعْيِنُ سُجُومٌ: سَوَاجِمٌ؛ قال
القطامي يصف الإبل بكثرة ألبانها:

ذَوَارِفُ عَيْنَيْهَا مِنَ الْحَفْلِ بِالضُّحَى
سُجُومٌ كَتَنْضَاحِ الشَّنَانِ الْمُشْرَبِ
وكذلك عين سَجُومٍ وسحاب
سَجُومٍ. وَأَنْسَجَمَ الماءُ والدمعُ، فهو
مُنْسَجِمٌ إِذَا أَنْسَجَمَ أَي انصب^(١).

اما في الاصطلاح فيراد عادة
بالانسجام (COHERENCE): ذلك
التماسك والاتساق الشديد بين الأجزاء
المشكّلة لنص ما، وهذا التماسك يتأتى
من خلال وسائل لغوية وصوتية تربط
بين العناصر المشكّلة للنص^(٢)، وهذه
الوسائل اللغوية تخلق النصيّة، بحيث

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور باب سجم.
(٢) ينظر: لسانيات النص، محمد خطابي، ط ١،
١٩٩١م، المركز الثقافي العربي، بيروت:
١٥.

تساهم في وحدة النص الشاملة^(٣)،
وتؤوله لكي يُعَدَّ نصاً، فإن انعدمت أو
ضعفت افتقر الملفوظ إلى النصيّة، أو
ضعفت نصيته، ومن ثم افتقر إلى الاتساق
والانسجام^(٤).

أولاً: الانسجام في التكرار:

يعدّ التكرار من الأساليب الفنية
في التعبير الأدبي، ومن أعمق ظواهر
الحياة^(٥)، وهو أسلوب تعبيرى قديم قدم
العربية، ولهذا كثر في أساليب العرب
قبل الإسلام، ومثّل أحد أساليب التعبير
القرآني، وقد تحدث البلاغيون، وكشفوا
عن أشكاله، واستنبطوا حدوده^(٦). وهو
في التعبير الأدبي يعني تناوب الألفاظ
وإعادتها في سياق التعبير، بحيث
تشكل نغماً موسيقياً، يتقصده الأديب

(٣) لسانيات النص: ١٣.

(٤) قصيدة الوقت لأدونيس (ثنائية الاتساق
والانسجام)، سامح رواشدة، مجلّة
دراسات الجامعة الأردنية، مج ٣، ع ٣،
٢٠٠٣، ص: ٥١٧.

(٥) ينظر: المرشد الى فهم أشعار العرب لعبد الله
الطيب: ٥٣ / ٢.

(٦) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية
وتطورها: ١ / ٢٣٦-٢٣٧.



الكلمة أو اللفظة أكثر من مرة في سياق واحد لنكتة إما للتوكيد أو لزيادة التنبيه أو التهويل أو للتعظيم أو للتلذذ بذكر المكرر^(١٠)، و((أكثر ما يقع في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل))^(١١) فيتحدد مفهوم التكرار في أبسط مستوى من مستوياته بأن ((يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء أكان اللفظ متفق المعنى أو مختلفاً، أو يأتي بمعنى ثم يعيده. وهذا من شرط اتفاق المعنى الأول والثاني، فإن كان متحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النفس وكذلك إذا كان المعنى متحداً وإن كان اللفظان متفقين والمعنى مختلفاً، فالفائدة في الإتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين))^(١٢).

ويعدّ التكرار وسيلة مهمة لفهم

(١٠) أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم، تحقيق شاعر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط ١، ١٩٦٩م: ٣٤ - ٣٥ / ٥

(١١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٢ / ٧٣

(١٢) معجم النقد العربي القديم: ١ / ٣٧٠.

في شعر أو نثر^(٧)، و يعتمدُ اليه لتقوية ناحية الإنشاء أي: ناحية العواطف، كالتعجب، والحنين، والاستغراب، وما إلى ذلك^(٨).

وقد درس البلاغيون العرب هذه الظاهرة وتنبهوا إليها عند دراستهم لكثير من الشواهد؛ شعرية كانت أو نثرية، وبيّنوا فوائدها ووظائفها^(٩)، فجاءت دراسة هذه الظاهرة محاولةً لكشف واستكناه هذه القوالب الفنية لبيان أبعادها ودلالاتها على اختلاف مواقعها سواء أكان في الصوت أو الكلمة أو الجملة.

والتكرار في الاصطلاح هو ((تكرار

(٧) ينظر: جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب للدكتور ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م: ٢٣٩.

(٨) ينظر: المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها: ٢ / ٤٥.

(٩) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيقي القيرواني (٤٥٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، ط ٥، ١٩٨١م: ٢ / ٧٣، الصناعتين لأبي هلال العسكري: ٢١٢، المثل السائر لابن الأثير: ٢ / ٣٤٥.



النص الأدبي، وله معان تفيض عن التقرير وتقوية جوانب الخطاب في العمل الأدبي، ويتضمن إمكانات تعبيرية لا يتضمنها أسلوب آخر، اذ يغني المعنى ويرفعه الى مرتبة الأصالة^(١٣)، ويثري العاطفة ويرفع درجة تأثيرها، ويركز الإيقاع ويكتف حركة التردد الصوتي في النص^(١٤). ويمنح النص جمالا موسيقيا.

والتكرار في الخطاب الأدبي وحدة لغوية غير جامدة المعنى، اذ تكتسب هذه الوحدة اللغوية المكررة معنى مضافا إلى معناها الأول، يعينه السياق الذي ترد فيه، والكلمة وإن تكررت هي نفسها إلا أنها لا تحمل معناها الكلي في حالة التكرار؛ لأن الخطاب الأدبي لا يعرف التكرار الدلالي المطلق، والتكرار الكلي في نصّ فني مستحيل^(١٥)، لذلك نراه

(١٣) ينظر: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، ط٢- ١٩٨٣م: ٢٦٣.

(١٤) ينظر: البنية الإيقاعية في شعر عزّ الدين المناصرة، اعداد محمد بن أحمد وآخرون، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، ١٩٩٨م: ٨٣.

(١٥) تحليل الخطاب الشعري: (البنية=

يتجاوز الوظيفية التأكيدية الإفهامية ليصبح تقنيّةً جماليةً تختلف درجتها وطريقتها من نص لآخر، بل نجده يتلون ويتغير في النص نفسه، مرتديا في كل مرة مسوحا مختلفة حتى عند الأديب الواحد عينه، وهو ليس مجرد تقنية بسيطة ذات فائدة بلاغية أو لغوية محدودة، إنما هو ((تقنية معقدة تحتاج إلى تأمل طويل يضمن رصد حركيّتها وتحليلها))^(١٦)، لاسيما اذا استعملت لأغراض يتقصدها المتكلم للتأثير في المتلقي وجذب انتباهه والتأثير فيه.

وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية ((هو تقرير المكرر وتوكيده واطهار العناية به ليكون في السلوك أمثلا وللاعتقاد أبين))^(١٧)، لذلك هو

=الصوتية في الشعر، الكثافة، الفضاء، التفاعل)، محمد العمري، ط١، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء المغرب، ١٩٩٠م: ٩٠.

(١٦) الإيقاع في الشعر العربي الحديث في العراق، نائر عبد المجيد العذاري، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية، ١٩٨٩م: ٢١٨.

(١٧) خصائص التعبير القرآني وسماته=



أ. تكرار الصوت:

الأصوات اللغوية معقدة إلى أقصى حدّ، فهي ((ذات جوانب متعددة وخصائص متباينة))^(١٨)، ومن الصعب إخضاع تكرارها لقواعد نقدية ثابتة يمكن إعمامها على النص الأدبي، وإنما ((تبقى دراستها ذوقية لا تملك البرهنة لإثبات وجاهتها))^(١٩)، لاختلاف دلالة الحرف التي يحدثها ضمن السياق في النص الواحد.

وعلى الرغم من أنّ تكرار الصوت يحدث نغمة موسيقية لافتة للنظر، لكنّ وقعها في النفس لا يكون كوقع تكرار الكلمات^(٢٠)، ومع هذا فالصوت ذو الرنين غير المحدد ((يتحوّل الى كلام مفصّل محدد، مهمته أن يعبر عن تصورات وأفكار، ويكون علامة

لا يقوم فقط على مجرد التكرار وإنما ما يتركه من أثر انفعالي في نفس المتلقي، وبذلك فإنه يعكس جانباً من الموقف النفسي والانفعالي، ومثل هذا الجانب لا يمكن فهمه إلا من خلال دراسة التكرار داخل النص الذي ورد فيه، فكل تكرار يحمل في أثنائه دلالات نفسية وانفعالية مختلفة تفرضها طبيعة السياق الأدبي.

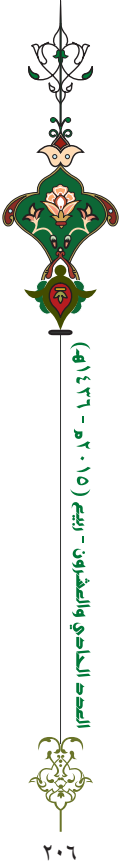
وبما أن الجمال يقوم على الانسجام، وان الانسجام كله مداره على التنوع والتكرار؛ لذا فإنّ التكرار يمثل إحدى الأدوات الجمالية التي تساعد الأديب على تكوين موقفه وتصويره، فتتشكل بأشكال مختلفة متنوعة، إذ تبدأ من الصوت وتمتد إلى الكلمة فالجملة، وكل شكل من هذه الأشكال يعمل على إبراز جانب تأثيري خاص للتكرار انطلاقاً من معطياتها ومستويات أدائها وتأثيرها، فضلاً عن أثرها الدلالي التقليدي الذي أطلق عليه تسمية التوكيد.

(١٨) علم اللغة العام (الاصوات)، للدكتور كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٧٠م: ٢١٦.

(١٩) تحليل الخطاب الشعري: ٣٦.

(٢٠) التكرار في الشعر الجاهلي دراسة اسلوية، د. موسى رابعة، مجلة مؤتته، ٥م، ع١، ١٩٩٠م: ١٦٧.

=البلاغية، د عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م: ١/ ٣٢٢.



على باطنٍ روعي^(٢١)، وتكرار هذا النوع والترديد الصوتي له تمنح الإيقاع الموسيقي سرعة، معبرةً عن دلالة الانفعال^(٢٢)، فيكسب النصّ تأثيراً كبيراً في المتلقي، ويسهم في تهيئته للدخول في أعماق الكلمة^(٢٣). ولا شكّ في ((ان) العنصر الذي يتردد أقوى من العنصر المفرد))^(٢٤) وبذلك يكسب حضوراً وتأثيراً في نفس المتلقي فيجعل من التكرار وظيفة جمالية ووسيلة إلى إثراء الموقف وشحن الشعور إلى حد الامتلاء^(٢٥).

ومن الاصوات التي كررت بشكل ملفت للنظر في سورة الزلزلة صوت الهمزة وصوت المد (الالف) والراء، اما الهمزة فهي صوت ((لا بالمهموس ولا

(٢١) فلسفة الجمال والفن عند هيجل: ٥٥.
(٢٢) ينظر: الزمن في شعر الرواد. رسالة ماجستير، سلام كاظم الأوسي، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، ١٩٩٠م: ٢٤٣-٢٤٤.

(٢٣) ينظر: التكرار في الشعر الجاهلي دراسة اسلوبية: ١٦٧.

(٢٤) التكرار في الشعر الجاهلي: ٢٢.

(٢٥) ينظر: التكرار في الشعر الجاهلي: ٣٢.

بالمجهور))^(٢٦)، أي صوت مائع ينتقل من حالة الجهر الى الهمس أو العكس تحت تأثير الأصوات المجاورة^(٢٧)، ف((الأوتار الصوتية عند نطقها تكون في وضع بين بين، أي بين الانزلاق والانفتاح))^(٢٨)، ويسمى انفجارياً لان في نطقه ((تسدّ الفتحة الموجودة بين الوترين الصوتيين حال النطق بهمزة القطع، وذلك بانطباق الوترين أدنى الحنجرة انطباقاً تاماً، فلا يسمح للهواء بالمرور من الحنجرة، ثم ينفرج الوتران فيخرج الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً شديداً))^(٢٩)، لذا يستعمله المتكلم للتعبير عن بعض الانفعالات

(٢٦) علم اللغة العام (القسم الثاني: الاصوات): ١٤٢.

(٢٧) ينظر دراسة الصوت اللغوي، للدكتور احمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٤، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م: ٣٢٤.

(٢٨) استخدامات الحروف العربية (معجمياً، صوتياً، صرفياً، نحويًا، كتابياً)، سليمان فياض، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٨م: ١٩.

(٢٩) استخدامات الحروف العربية (معجمياً، صوتياً، صرفياً، نحويًا، كتابياً): ١٩.



عشرة) مرّة، ليحققا معاً تناغماً موسيقياً قويا مع انسيابية فيها نوع من البطء، اذ تكمن ((فاعلية حروف المدّ واللين فيما تحدّثه من تنوع في الايقاع بين الارتفاع والانخفاض ينجم عن طولها المقطعي المناسب مع هواء الزفير، ما يبطلّ حركة الايقاع، ويهدّئ من توتره)) (٣١)، ونلاحظ أيضا تكرارا بيّناً وبنسب متقاربة لأصوات: النون والراء واللام، إذ تتميز النون بأنّها صوت مجهور ذلّقي بين الشدّة والرخاوة (٣٢)، ويتميز عن كل الأصوات بغنة جميلة تمنحه عذوبة في النطق و سحرا، وهو من بين أوضح الاصوات في السمع، وقد كرر (١٥) مرّة، أمّا صوت الراء فهو صوت لثويّ مجهور بين الرخاوة و الشدّة (٣٣)، ويحدّث هذا الصوت ((باندفاع الهواء حتى موضع طرف اللسان، فوق اللثة باتجاه الحنك المخطّط، وأغلب (٣١) الاسس الجمالية للايقاع البلاغي في العصر العباسي: ١٥٥.

(٣٢) ينظر: الأصوات اللغوية: ٦٣ - ٦٤.

(٣٣) ينظر: علم اللغة العام (الأصوات):

١١٠، ١١٥.

النفسية كالغضب والمفاجأة (٣٠)، فنراه مستعينا بانفجارية هذا الصوت عندما يتأوه كقوله (آه، أوآه، أخ)، او ينادي (أفلان، أيا)، أو يستفهم (أجاء زيد)، او للدلالة على الأمر (أكتب، أدرس، أفعّل).

وقد كرّر هذا الصوت في سورة الزلزلة (١٢) مرّة، أي بنسبة ٣٤٪ من مجموع كلماتها التي بلغت (٣٥) كلمة، فأكسب هذا الإيقاع الانفجاري الأداء نغماً حاداً وعالياً يكشف عن لون الانفعالات العالية التي تنسجم وموقف يوم القيامة، اليوم الذي فيه

**تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى
النَّاسَ سُكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** [سورة الحج:

٢]، فضلا عن صوت الألف - وهو من أصوات المدّ- الذي تتأثر بين كلمات السورة بالنسبة نفسها تقريبا (ثلاث

(٣٠) ينظر: في صوتيات العربية، د. محيي

الدين رمضان، مكتبة الرسالة الحديثة،

عمّان، من دون ط: ٨٣.



كتلته منخفض، والحنك اللين مرتفع، فيُرعد مرّات ويتذبذب الوتران الصوتيان ويسمع صوت الرءاء^(٣٤). والصفة المميزة للرءاء ((هي تكرّر طَرْق اللسان للحنك عند النطق بها))^(٣٥)، فالتقاء طرف اللسان بحافة الحنك ممّا يلي الثنايا العليا يتكرّر في النطق بها كأنّها يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرْقاً ليناً سيراً مرتين، أو ثلاثاً^(٣٦)، وصفة الجهر فيه تمنح اللفظة التي تحويه صخباً وقوّة، ولا عجب- والأمثال تضرب ولا يقاس عليها- أنّ الرعاة يستعملون قوّة هذا الصوت لمناداة أغنامهم وجذب انتباهها، والسيطرة عليها، أما اللام فهو صوت مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة^(٣٧)، وهذه الاصوات يشترك بعضها مع بعض في أنّها من أوضح الأصوات الساكنة، وأنّها ذلقية مجهورة، الى جانب اشتراكها في المخارج، فتتشكل بهذه التكرارات

نغمة صاحبة قوّة منسجمة؛ لأنّ زيادة الأصوات المجهورة في الكلام يضيفي على الصورة القوّة، ذلك أنّ الصوت المجهور يوحى بالحركة و الصخب، كذلك نلحظ في المجهور وضوح الصوت وقوّته؛ ليضيفي ذلك على النص صخباً مجلجلاً، ينسجم فيها الايقاع القويّ المتباطئ مع المعنى العام والموقف الذي يراد بيانه للسامع، ما أتاح للمتلقّي حرّيّة أكبر للتركيز على المعنى، فعملية تحويل العنصر الصوتي إلى دال مُدرّك عملية قصديّة سُحنت بالتوتر الذاتي بحسب مقتضى الحال، ولا شكّ في أنّ البليغ هو الذي يعمد الى هذا النوع من التكرار لتقوية معنى خاص له علاقة مباشرة بصوت الحرف المكرر^(٣٨).

ولا شكّ ايضاً أنّ الانسجام صوتيّاً يتجلّى فيما يحمله من معنى، حتى أنّ علماء العرب لم يعنوا من كل حرف أنّه

(٣٤) في صوتيات العربية: ١٢٩.

(٣٥) الاصوات اللغوية: ٦٦.

(٣٦) ينظر الاصوات اللغوية: ٦٦.

(٣٧) ينظر الاصوات اللغوية: ٦٣.

(٣٨) ينظر: دراسات في الادب العربي، د

شاكر هادي التميمي، ط٢، مطبعة

البرهان، بغداد، ٢٠٠٨م: ١١٢.

يهتز جميع الرأس وكأنه يتزلزل؛ لأنّ الهواء يندفع من الرئتين ماراً بالحنجرة، فيحرك الوترين الصوتيين، ثمّ يتخذ مجراه من الحلق والفم حتى يصل الى المخرج وهو التقاء أوّل اللسان بالثنايا العليا^(٤٢)، وبهذا ينسجم هذا الصوت والجو العام للآية الكريمة، والحركة فيها يوحي بها الإيقاع قبل أن يجليها المعنى، بحيث جعل من الصوت صدى للمعنى الذي عبّر به عن حالةٍ وجدانيةٍ تصيب المتلقي بالدهشة والتأثر، حتى يصبح أسيراً وجزءاً أساسياً من النصّ الكريم.

ب. تكرار الكلمة:

لا شكّ في أنّ لكلّ كلمةٍ وظيفتها ودلالاتها داخل النصّ الذي يحتويها، فاذا ما كررت لفتت اليها الانتباه وأكّدت ما جاءت من أجله أوّل مرّة، فضلا عن خلق تناغم موسيقيّ بين أجزاء النصّ، فيعمل هذا التناغم على التنسيق بين الألفاظ ومعانيها؛ لتحقيق الغاية التي يريد البليغ إيصالها إلى الآخرين.

(٤٢) ينظر الاصوات اللغوية: ٧٤ - ٧٥.

صوت، إنما عناهم من صوت الحرف انه معبّر عن غرض في سياق، وأنّ أصوات الكلمة العربية فيها تخصّص في إطار التركيب، فيستقلّ كلّ صوت من أصواتها ببيان معنى خاص مادام مستقلّ بإحداث صوت معيّن، فكلّ صوت له ظل وإشعاع^(٣٩)؛ لذلك نرى أن صوت الزاي تكرر في الآية الأولى أربع مرات، وكان من الممكن أن يقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ... ۝١﴾ وَأَخْرَجَتْ ... ۝٢،

فيؤدى المعنى نفسه دون الحاجة الى ذكر (زلزالها)، ولكنّ الموقف استوجب أن يأتي الكلام بهذا الصيغة وهذا التكرار، وبالأخصّ تكرار صوت الزاي المجهور، الذي يعد من أعلى الأصوات وضوحا وصفيرا^(٤٠)؛ لأنّ مجراه يضيق جدا عند مخرجه فيحدث عند النطق به صفيرا عاليا لا يشاركه في نسبة علو هذا الصفير غيره من الأصوات^(٤١)، فعند النطق به

(٣٩) ينظر: البنيات الاسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث لمصطفى السعدني، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٧م: ٥٢.

(٤٠) ينظر الاصوات اللغوية: ٦٣.

(٤١) ينظر: الاصوات اللغوية: ٧٣.



وقد ورد هذا النوع من التكرار في
السورة الكريمة مع قلته بشكل يسترعي
الانتباه، اذ كررت لفظة الأرض مرتين
في الآيتين الكريمتين: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ
الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ
أَنْفَالَهَا﴾ [سورة الزلزلة: ١ - ٢]،
وكان من الممكن ان يُستغنى عن اللفظة
الثانية ويؤدّي المعنى نفسه، فمعنى:
﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ
الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا﴾ هو نفسه اذا قيل:
(اذا زلزلت الارض زلزالها، وأخرجت
أثقالها)، ولكن تكرار هذه الكلمة
مرتين قد زاد من قوة المعنى وتأكيده من
جانب، وعمل على خلق موسيقى ذي
رنين إيقاعي مميز قوامه انتظام الأصوات
المفردة وتكرارها في السياق من جانب
آخر، فأضفى على سياق النص جمالية
موسيقية نتيجة أصوات الألفاظ المكررة
وتواليها على السمع، وذلك أدّى إلى
إحداث رنين موسيقي تدبّ فيه السلاسة
والجمال، ما منح النصّ موسيقى عذبة
مؤثرة في المتلقي تجذب الانتباه، وتصغي
إليها الأسماع، فضلا عن أدائه مدلولا

سياقيا وهو التوكيد، ولا شكّ هنا أنّ
وحدة الجرس والإيقاع المنسجم منحت
التعبير جمالا وتأثيرا أشد.
ج. تكرار الصيغة:

وهو تكرار الصيغ المتماثلة في مواضع
متعددة من العمل الأدبي، وكأنه يُخضع
القول لقوانين خفية يلتزم بها الأديب
بتكرار بعض عباراته أو أغلبها، فيتخذ
من تكرار هذه الصيغ وبعض المفردات
مرتكزا صوتياً يشعر الأذن بالانسجام
والتوافق والقبول، فيضفي على النصّ
إيقاعا متوازنا يزيد من التطريب
والتناغم الموسيقي، ما يجعله أكثر إمتاعا
وتأثيرا في المستمع.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة
الزلزلة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [سورة الزلزلة:
٧-٨]، اذ تكررت هنا الصيغة في الآيتين
الكريمتين وهي:

الفاء + مَنْ + الجملة الفعلية
(يعمل) + المضاف والمضاف اليه (مِثْقَالَ
ذرة) + أسم + الجملة الفعلية (يره)،



بأنه أفدرها على استعمال أدواته للتصوير والتنغيم معاً، والقرآن الكريم بوصفه معجزة التعبير الأدبي في اللغة العربية زيادة على أنه وحي وتنزيل يستعمل الكلمة في قدرتيها هاتين حتى يستنفدهما، ولا ضير عليه في ذلك ما دام يهدف إلى أن يبلغ أعمق مواطن التأثير في النفس البشرية، التي تؤثر فيها الصورة الموسيقة وتتناغم معه وتتجاوب، ودليلنا على ذلك أن العربي قد علقت بحافظته الكلمات الموسيقة (الشعرية) أكثر من علوق الكلمات الثرية بها.

إن تشابه نهايات الآيات أو الفواصل يحدث نوعاً من التوافق والانسجام الصوتي ((بتقسيم الحدث اللغوي إلى أزمنة منتظمة ذات علامات متكررة وذات وظيفة وملح جمالي)) (٤٣)، يتولد منه إيقاع يسهم في إضفاء خاصية التطريب التي تمنح النصّ جمالا وإيقاعاً، وحلاوة نغمية يقابلها المتلقي

فلا يتان متجاورتان، و متساويتان من حيث الكلمات، و منسجمتان من الناحية الصوتية، و الدلالية، بشكل متداخل و متكامل، لكنها يختلفان بكلمة واحدة فقط وهي الاسم، اذ جاء في الأولى: (خيرا)، وفي الثانية: (شرا)، ليحمل القول الكريم بهذا التكرار نغمة مترابطة لها وقع خاص على الأذن، ويكتسي القول بحلتين: حلّة موسيقية وهي الإيقاع المتناغم والمتراب بتكرار الصيغة هذا، وحلّة لفظية باجتماع المتضادات: (الخير، الشر)، ولا شك في أنّ الجمع بين الضدين في الأعم الأغلب يكسب الكلام حسناً وطرافه، ويكون أكثر تأثيراً في نفس المتلقي وأشد وقعاً، ما يسبغ على التعبير موسيقى متناغمة متوازنة تشدّ بترابيتها المستمع، وتأسره جمالية الصيغة المتكررة وتسترعي منه شديد الانتباه و يبلغ الانسجام بهتين الحلتين ذروته وكماله.

ثانياً: الانسجام الصوتي في النهايات

والفواصل:

ينماز الأدب عن غيره من الفنون

(٤٣) علم الأصوات، برتيل المبرج، تعريب

ودراسة الدكتور عبد الصبور شاهين،

مكتبة الشباب، مصر، ١٩٨٥م: ١٩٩.



بالقبول والارتياح، وإنَّ الوقوف على رؤوس الآيات - و لو تعلقت بما بعدها - يدلُّ على أن الآية وحدة ترتيبية تساهم في انسجام الخطاب القرآني و تلاحه مع بعضه البعض، سواء أكانت الفاصلة متشابهة، ام مختلفة.

ومن الفواصل المتشابهة في سورة الزلزلة قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ١]، ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٢]، ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٣]، ﴿ يَا نَبَّأَ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٥]، اذ اتفقت فيها الفقرات بشكل تقريبي في الوزن والنهايات (الفواصل)، فاكسب القول الكريم انسجاما موسيقيا يمنح النصّ متعة تنجذب نحوها النفوس؛ لأنَّ ((هذا الاستواء في أوزان الفواصل يجعل للكلام رونقا وطلاوة؛ لما في ذلك من الاعتدال المطلوب طبعا)) (٤٤).

إنَّ الانسجام في الحرف أو الوزن أو فيها معا، وبروز صوت بعينه في نهاية

(٤٤) فن الجناس: ١٢٧.

كل فاصلة، أو مقطع صوتي وتكراره في أكثر من موضع كما في: (زِلْزَالَهَا، أَثْقَالَهَا... نُنَّ مَا لَهَا، أَوْحَى لَهَا) يحدث إيقاعاً منسجماً متكرراً يتوقعه المتلقي، فينشئ نوعاً من التجاوب الصوتي بين النغمة المتوقعة والنغمة البارزة على سطح الصياغة، ما يولد شعوراً بالمتعة الإيقاعية، ومن ثم يتولد إيقاع يسهم في إضفاء خاصية التطريب التي تمنح النصّ جمالا وحلاوة نغمية يقابلها المتلقي بالقبول والارتياح.

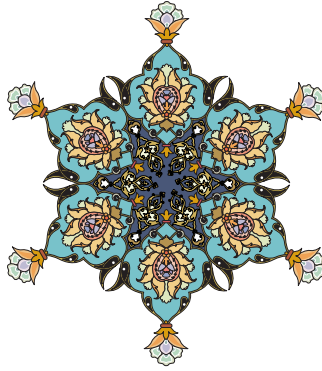
ان الانسجام في السورة الكريمة لايعني بقاءها على نهاية واحدة او حرف روي واحد، بل ان توحد الوزن واختلاف الفاصلة في بعضها هو غاية الانسجام والإتساق، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٤]، فالآية متساوية من حيث عدد الكلمات مع ما قبلها وبعدها، و منسجمة من الناحية الصوتية، و الدلالية، بشكل متداخل و متكامل، لكنها تفصل عنها من خلال الوقف، فهذا التوحد في الوزن على الرغم من



الاية الكريمة (تقارب صوتي اللام والراء في المخرج)، فكان للطَّرْق المتشابه على الأذن تأثير جيد تستسيغه الأسماع، ولا تنفر منه القلوب، حتى غطى بتوازنه على ذلك الاختلاف القفوي بين العبارتين، باعثا إيقاعا مؤثرا جاذبا المتلقي إليه، وبأنساقٍ صوتية تكثف الإيقاع داخل النص وتقويه.

فالوزن الواحد يكثف الإيقاع ويمنحه قوة ورنينا، و يحمل دلالة شعورية تترك لدى المتلقي إحساسا بالانسجام والوحدة بين العبارتين، ما عمل على حفظ الموسيقى ودفعها للتواصل السمعي بين المتكلم والمستمع.

التقفية المختلفة - ان جاز لنا التعبير - حقق توازنا بين الآيات الكرييات بتوفير الأبعاد الزمنية المتساوية التي يقوم عليها الإيقاع، ما أضفى موسيقى متناغمة متساوية، يستحليها المتلقي، وتطرب لها أذنه، ويديم بها تواصله مع النصِّ الكريم. فالتعادل او التوازن بين فقرات الكلام وجمله، وارتفاع درجة التماثل بين صيغ الجمل، قد يؤدي إلى تعويض بعض التفاوت الصوتي الذي يمكن أن يقع بينهما، بحيث لا يشعر المتلقي به ولا يكاد يتحسسه، وبخاصة إذا كان الصوتان يشتركان في كثير من الصفات الصوتية، أو يتفقان في المخرج، كما في



رؤية دلالية

في وجوب الوحدة الإسلامية في القرآن

رجاء محسن حمد

المديرية العامة للتربية - النجف الاشرف

فحوى البحث

يجري البحث في سياق عرض دعوة القرآن الكريم الى تحقيق الوحدة الاسلامية وتلاحم المجتمع تحت خيمة التوحد الفكري والاجتماعي من خلال آيات شريفة دعت الى ذلك من دون تصريح بمصطلح (الوحدة) بل من خلال النهي عن التفرق و الامر بالاعتصام بحبل الله المتين. وعلى هذا الاساس فقد وقف البحث عند بعض النصوص القرآنية التي توجب توحيد الكلمة ضمن ثلاثة مباحث هي:

- وجوب الوحدة من خلال الاوامر الصريحة.
- وجوب الوحدة من خلال الاوامر غير الصريحة.
- وجوب الوحدة من خلال الجملة اللزومية، اي النهي عن شيء بالامر بضده.

المقدمة

القرآن الكريم كتاب دعوة وتشريع إسلامي، فهو يحاجج ويرغب ويرهب ويدعو... من خلال وسائل لفظية متنوعة تدخل كلها في دائرة التعبير الفني الاخباري مؤلفة وحدة لغوية تسهم في إثراء المعنى، كما ويحمل في آياته المرتكزات والنصوص الاساسية الموجزة والمعجزة للتصور الإسلامي للحياة، والمشرعة للأحكام التي تسهم في بناء مجتمع سليم، ولاشك في أن الوحدة هي الاصل الاصيل الذي ينظم حياة المسلمين ويوجههم الوجهة الصالحة الحقيقية، والاسلام كما دعا الى كلمة التوحيد فإنه كذلك دعا الى توحيد الكلمة، فلولا وحدة الكلمة لكان الاسلام في بدء طلوعه فريسة لمطامع الظالمين، كما إن الخطوة الاساس في توحيد كلمة المسلمين أن يجعلوا التوحيد معيارا واضحا وصرحا في تحديد المسلم، فالامران متلازمان لا ينفكان بعضهما عن بعض وعلى الرغم من أن التعبير القرآني لم يورد نصا بصيغة الامر للفظ

(الوحدة) مثلا (وحدوا صفوفكم أو توحدوا) إلا أن هذا المعنى ورد بلفظ (اعتصموا بحبل الله)؛ لأن الوحدة التي تكون بمعزل عن الاعتصام بحبل الله لا معنى لها وهذا يعني أن مجرد الاجتماع حول محور مشترك فحسب ليس أكثر من إجتماع مؤقت وغير حقيقي، وكون الوحدة بها حاجة الى المحور والمبنى والاساس الواحد، لذا يمكن النظر الى (حبل الله) بمثابة محور اساسي للوحدة، وفي [سورة النساء: 1] يرسم النص القرآني منهجا قويا للمجتمع انطلاقا من الوحدة الانسانية (وحدة الاصل والرحم) ويقرنها بتقوى الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [سورة النساء: 1] فمن تقوى الله التمسك بالسبل المنجية من الفرقة والتشردم والافتتال. وبما أن التعبير القرآني يسعى الى ترسيخ الاسس والقواعد المعنوية وتثبيتها في النفس والدعوة الى العمل السوي الصالح من خلال تحقيق القناعة بالإبانة والتوضيح اولا ثم توجيه المعنى ثانيا عمدا الى عرض الحدث أكثر من مرة،



مراعي جوانبه كافة، وهو بهذا التعدد إنما يسعى لغاية واحدة تتمثل بتأكيد العبرة والعظة عن طريق اللجوء الى طرق وفنون القول المتنوعة ومنها الاستعاضة بالجملة الخبرية الاسمية للدلالة على وجوب الوحدة بوصفها وحدة تركيبية دالة على الدوام والثبوت، كما حقق دلالة الوجوب من خلال النهي عما أمر بضده أي النهي عن كل ما ينافي ويقابل الوحدة، وعلى أساس من هذا سيقف البحث عند بعض النصوص القرآنية التي توجب الوحدة الاسلامية.

المبحث الاول:

وجوب الوحدة من خلال الاوامر

الصريحة

إنّ الاصل في صيغة الامر أنّ تدل على وجوب الفعل، مالم تقم قرينة على خلاف ذلك، والقرآن الكريم بوصفه نصا خطابيا شموليا يمثل خطابا تشريعيا يضمن للبشرية بلوغ السعادة والامان، وإنّ من أعظم غاياته التشريعية إجتماع الكلمة ووحدة الصف، ويتمثل ذلك بالنصوص القرآنية الآتية:-

المطلب الاول:

دلالة الوجوب من خلال نصية

(الاعتصام بحبل الله)

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة ال عمران: ١٠٣].

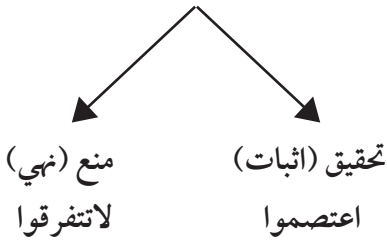
الآية تسير في مسارين: الاول، تشريعي، والثاني، بياني وكلاهما يجتمعان ليؤكدوا حقيقة ثابتة هي إقامة الحجّة والدليل والبرهان على وجوب الوحدة في المجتمع الاسلامي عن طريق تعاضد الخطاب المباشر والخطاب الفني ممثلا بالفن البياني المسمى (الاستعارة)، مضمون الآية لزوم الاعتصام بحبل الله، بصيغة فعل الامر الذي يوجب الالتزام والامثال والاعتصام ((افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة: الحمية والاعتصام الاحتماء،



وانطلقت منه المعاني الثواني، فإن لم يكن بيننا ما نعتمد به، فلا يمكن أن نتحد، أي تنتفي الوحدة بانتفاء الاسباب المؤدية اليها، وقوله (جميعا) لتأكيد العموم المستفاد من واو الجماعة، وقوله (ولا تفرقوا) فأن الشيء قد يؤكد بنفي ضده، فصدر الآية أمر بالوحدة، وهذا نهى عما يضادها وهو التفرقة فمن لم يتبع احدهما اتبع الآخر، ولهذا قال ﴿يَبَيِّنُ

اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

التزام الوحدة



ثم بدأ (جلَّ جلاله) بالتذكير بما اسبغه عليهم من فضل منبهاً إياهم بما يترتب عليهم من التزام الفعل المقدم طاعة له من باب رد العرفان والشكر والامتنان، والتذكير بالنعمة جاء على مراحل، وهذا التدرج لم يأتِ اعتبارياً إنما قصده السياق القرآني، حيث إن هذا الترتيب والتتابع يثير ذهن المتلقي فيدفعه

ومنه سميت القلاع: العواصم لمنعها وحمايتها^(١) وقد اختلف المفسرون في معنى (الحبل) فمنهم من قال: ((القرآن، الدين، العهد...))^(٢) وأياً كان الفهم فالكل يقود الى التوحيد دينياً وإجتماعياً، إذ لا تتحقق الوحدة، إلا على اساس هدف واحد، ومنهج واحد إلا أنّ قرينة السياق تثبت أنّ المراد بالحبل (الاسلام) فهو يمثل نعمته سبحانه التي كانت سبب نجاتهم من (العداوة، النار)، أنّ هذه الاستعارة ترسم صورة لهيئة إجتماعهم على دين الله كهيئة المتمسك بحبل أُلقي الى من كاد يهوي في حفرة من النار، فالمستعار له (الدين)، والمستعار منه (الحبل)، اما العلاقة الخفية الجامعة بينهما هي: (القوة، المتانة، النجاة، التواصل...) كلها معاني ثوانٍ أما المعنى الاول الحسي فهو (مجموعة الخيوط المتناسكة) الغائب لفظاً الحاضر في الذهن إذ يشكل الاساس الذي

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٦٠، ظ: الالوسي:

١٥٦ / ٣

(٢) البحر المحيط: ٣/ ٣٤٠، وظ: البحر المديد:

٣١٥ / ١



الى التساؤل عن ماهية الفرق بين النعمة الاولى والنعمة الثانية وسبب تقديم احدهما على الاخرى، فالنعمة الاولى: دنيوية فيها تذكير بحالهم التي كانوا عليها من البغضاء والعداوة والتقاتل، اما الثانية فانها مخصوصة بحدث أخروي متعلق بانقاذهم من السقوط في النار، وهم ليقينهم بدخول الكفرة النار، علموا انهم كانوا على شفاها، بما ان الاعتصام جميعا بجامعة الاسلام كان سبب النجاة في الدنيا والاخرة، وجب الحال هذا أن تكون الوحدة واجبة لتحقيق السعادة الانسانية الدنيوية والاخروية.

النعمة
← دنيوية (ألف بين قلوبكم)
← أخروية (انقذكم) من النار

المطلب الثاني:

دلالة الوجوب من خلال نصية

(إتقاء الارحام)

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْقُوا رَبِّكُمْ

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ

بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿﴾ [سورة النساء: ١].

إن الناظر الى صدر الآية يجد أنها تمثل دليلا على أن الآية فيها معنى الفرض والواجب لأنها بدأت بعبارة (يا ايها الناس) وهذا غالبا ما تبتدىء به الآيات التشريعية وهو أدق انواع الخطاب للتعريف بحقيقتهم الانسانية^(٣)، هذه السمة التي شرف الله بها بني آدم دون سواهم من خلقه وقد امتاز هذا الخطاب بتفاعله مع الذات، حيث يمس شغاف القلوب وتصل الى اغوار العقول، وتقف امام عتبة الفكر، ثم تلاها بصيغة الامر (اتقوا) فضلا عن تضمنها معنى التأكيد واسباب المبالغة منها ما في (يا) من التأكيد والتنبيه، وما في (ها) من التنبيه، وما في التدرج من الابهام في (أي) الى التوضيح، والخطاب موجه الى الناس ((يشمل جميع امة الدعوة الذين يسمعون القرآن يومئذ وفيما يأتي من الزمان))^(٤) يريد دعوتهم

(٣) ظ: نداء المخاطبين في القرآن اسراره وبلاغته:

التقويين، لأن تقوى الله بالتزام طاعته وإجتناّب معاصيه، واتقاء الارحام بأن توصل ولا تقطع^(٨) وفي هذا دلالة على عظم ذنب قطع الرحم، وفي قوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾^(٩) تعليل الامر بالتقوى في الوحدة الانسانية السارية بين افراد المجتمع وحفظ آثارها اللازمة لها هو وقاية لها من الفساد والسقوط^(٩)، وقد وظّف النص القرآني البناء (فعل) للمبالغة في الرقابة ليدل على حدة النظر الى أمر يريد تحقيقه ولا يراد بكان تقييد الفعل في الزمن الماضي بل المعنى الديمومة فسبحانه رقيب في كل وقت علينا، وهكذا قرر القرآن الكريم دستور الاسلام أن البشرية من أصل واحد تجمعهم اخوة الاصل الواحد وتوجب عليهم إتقاء حقوقها.

المبحث الثاني:

وجوب الوحدة من خلال الاوامر

غير الصريحة

إنّ التعبير القرآني، ولمقتضيات دلالية

الى تقوى ربهم في امر انفسهم، فضمير الخطاب في قوله (خلقكم) عائد على الناس المخاطبين وهم ناس متحدون في الحقيقة الانسانية من غير اختلاف، فقوله (من نفس) متعلق بـ (خلقكم)^(٥) وفي هذا تنبيه على ((إيجاد الاصل، وتفرع العالم الانساني منه ليحث على التوافق والتواد والتعاطف وعدم الاختلاف ولينبه بذلك على أنّ أصل الجنس الانساني واحد))^(٦) فبعضهم من بعض في أصل التوالد، وعطف قوله (وخلق منها زوجها) وقوله (وبث منها) على (من نفس واحدة) زيادة تحقيق في اتصال الناس بعضهم ببعض^(٧)، إذ الكل من اصل واحد، فالآية مؤصلة لحقيقة الوحدة الانسانية في اسمى معانيها.

وفي تكرار الامر بالتقوى زيادة فائدة وهي إفادة الاهتمام التام بأمر الارحام وقد استعير الرحم للقرابة والصلة لكونهم خارجين من رحم واحدة وقد قرنت بتقوى الله، ((وإن اختلف معنى

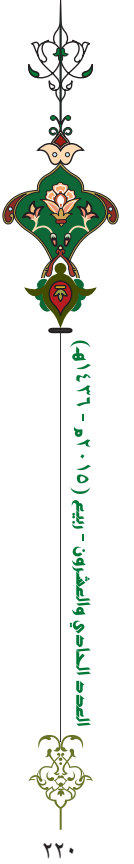
(٥) م. ن.

(٦) البحر المحيط: ٩ / ٤.

(٧) ظ: التحرير والتنوير: ٣ / ٣١٤.

(٨) البحر المحيط: ٤ / ١٣.

(٩) ظ: الميزان: ٤ / ٥.



مقصودة، استعاض بالجملة الخبرية الاسمية للدلالة على الامر في مواضع كثيرة بحسب ما يقتضيه المقام، وذلك بوصفها وحدة تركيبية دالة على الثبوت والدوام، ولعل ذلك يتضح من خلال الميدان التطبيقي، وعلى النحو الآتي:-

المطلب الاول:

دلالة الوجوب من خلال نصية

(المؤمنون اخوة)

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ١٠].

الآية الكريمة نص بوجوب الاخوة بين المؤمنين بالادلة اللغوية الآتية:-

اولا: صيغة القصر المفيدة لحصر حال المؤمنين في حال الاخوة، والمعنى ليس المؤمنون إلا اخوة أي: لا اعداء، فالاداة (إنما) (توحي بأن ترك التصريح بما يخالف ما اثبتته هو من الوضوح بمكانة، كما أن الاكتفاء بالمثبت يوحي بأنه لا يليق أن يوازن بين ما ثبت وما نفي) (١٠) فالآية

وإن كانت إخبارية المبنى لكنها تشريعية

(١٠) من بلاغة القرآن: ١٦٠.

أمره في حصر حال المؤمنين في حال الاخوة لأن شأن (إنما) ((إثبات لما يذكر بعدها ونفي لما سواه)) (١١) فضلا عن دلالتها على الخبر الذي ((لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته)) (١٢) دلالة قوية تقرر وجوب الاخوة بين المسلمين.

ثانيا: اختيار النص لفظ (اخوة) بدلا

من (اخوان) تصويرا لقوة العلاقة بين المؤمنين التي توجب التراحم والتواد، فعند استقراء الآيات القرآنية التي وردت فيها اللفظتان نجد بينهما فرقا وهو أن لفظ (الاخوان) يطلق على اخوة النسب في الولادة والدين ويطلق على اخوة الصداقة والوداد مثل لفظ (الاخ) سواء بسواء، واما لفظ (الاخوة) فلا يطلق إلا على اخوة النسب في الولادة والدين وبذلك يعلم أن اللفظتين يشتركان في إطلاق كل واحد منهما على اخوة النسب في الولادة والدين، ثم يفترقان، فينفرد الاول في إطلاقه على اخوة الصداقة والوداد، دون الثاني (١٣).

(١١) لسان العرب: أنن.

(١٢) التحرير والتنوير.

(١٣) ظ: اللباب في علوم القرآن: ١٤ / ٣١٥.

(الأخوة بين المؤمنين) والتفريع الجزئي (الاصلاح بينهم) للإيدان بأن الاخوة الدينية موجبة للاصلاح.

خامسا: ختمت الآية بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ﴾ تعبيراً عن الغاية من الامر بالتقوى التي من جملتها الاصلاح تحقيقا للوحدة، ولتدل على وجوب الوحدة بناء على الغاية منها، ذلك بأن دلالة (لعل) في الآية ليست للترجي على حد قول النحاة^(١٥) بل تدل على التعليل فهي بمعنى (كي)، فإذا كانت التقوى (التي تحملكم على التواصل والائتلاف) سبب نزول رحمة الله اليكم واشتمال رأفته عليكم فكان تحقيقها في غاية الاهمية يلزم وجوبها وبالتالي وجوب فروعها المنتمية اليها (الوحدة والائتلاف).

المطلب الثاني:

دلالة الوجوب من خلال نصية

(الامة واحدة)

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

(١٥) ظ: اللمع في العربية: ٤١، وشرح ابن

عقيل: ١ / ١١٣.

ثالثا: جاء التشبيه في الآية بليغا، بحذف الاداة ووجه الشبه، والتشبيه البليغ يقوم على تصور المشترك المخفي بين لفظ ولفظ.

والغرض منه التشديد والمبالغة في تقريب المشبه من المشبه به، لأن الاقتران بحرف التشبيه يشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الاخوة وفي حذفها يشعر بتساوي الطرفين، وعدم تفاضلها، وحذف وجه الشبه يوحي بتشابه العلاقة الجامعة بينهما، وفي هذا زيادة لتقرير معنى الاخوة بينهم من خلال ((انتسابهم الى اصل واحد هو الايمان الموجب للبقاء الابدي))^(١٤).

رابعا: ورود حرف المعنى (الفاء)

للتفريع من باب تفريع المعلول على علته الغائية على تحقيق كون المؤمنين اخوة، لأنه لا معنى لثبوت التفريع بين شيئين إلا كون احدهما علة تامة والآخر معلولا فوجوب الاصلاح مادام متفرعا على الاخوة بين المؤمنين يثبت أن الاخوة علة تامة لوجوب الاصلاح ونستدل بالتفريع على حالة الملازمة بين الحكم الكلي

(١٤) الميزان: ١٨ / ١٦٧.



قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٢].

من الدلالات اللغوية التي اسهمت في ترسيخ وجوب الوحدة الاسلامية بين المسلمين تصدر النص بـ (إنّ) التوكيدية التي تضيف الى دلالة الثبات والاطلاق الذي تفيد الجملة الاسمية دلالة الاقرار والتحقيق لاختصاصها بتوكيد معنى الجملة وتحققه^(١٦) فضلا عن نفي الشك أو حصول الانكار بها مع توكيد نسبتها^(١٧) وفي تمييز المسند اليه باسم الاشارة ليتقرر الحكم له ((لأنّ اسم الاشارة بطبيعة دلالاته يحدد المراد منه تحديدا ظاهرا ويميزه تميزا كاشفا وهذا التحديد قد يكون مقصدا مهما للمتكلم لأنه حين يكون معنياً بالحكم على المسند اليه بخبر ما، فإنّ تمييز المسند اليه تميزا واضحا يمنح الخبر مزيدا من القوة والتقرير))^(١٨) وقوله (امة واحدة)

حال موضحة وكاشفة لنهايتهم افادت التمييز والتشخيص لحال معشر البشر فالحال ((خبر في الحقيقة، من حيث إنك تثبت بها المعنى لذي الحال، كما تثبته بخبر المبتدأ للمبتدأ))^(١٩) والمعنى: إنّ النوع الانساني متوحد غير متفرق يجمعهم مقصد واحد وهو الاسلام كعقيدة ونظام حياة فالامة ((كل جماعة يجمعهم أمر ما، اما دين واحد، او زمان واحد، او مكان واحد))^(٢٠) فجاء التأكيد بذكر العدد في حالة الاثبات والتقرير للحكم ومعنى هذا الاخبار ان تلتزموا هذه الوحدة باسبابها المؤدية اليها ولا تنحرفوا عنها ولا تغيروا منها شيئا ((ولاجل هذا المراد جعل الخبر ما حقه أن يكون بيانا لاسم الاشارة لأنه لم يقصد به بيان اسم الاشارة بل قصد به الإخبار عن اسم الاشارة لإفادة الاتحاد بين مدلولي اسم الاشارة وخبره فيفيد انه هو هو لا يغير عن حاله))^(٢١).

(١٩) دلائل الاعجاز: ١٤١.

(٢٠) مجمع البحرين: ١ / ١٠٠.

(٢١) التحرير والتنوير: ٩ / ٣٧٣.

(١٦) ظ: المفصل في صنعة الاعراب: ٣٧٧.

(١٧) ظ: اوضح المسالك: ١ / ٢٣٧.

(١٨) خصائص التراكيب دراسة تحليلية: ٢٠٠.



واحدة، وليس على مفهوم الوحدة التي تضاف الى الامة وهذا يعني أن الامة هي الاصل، اما مسألة الامة ووحدتها فهي طارئة بعد ما حلّ بالامة ما حلّ بها^(٢٤).

المبحث الثالث:

وجوب الوحدة من خلال الجملة اللزومية

ويعبر عنها بالنهي عن شيء بالأمر بضده، والمعنى: اذا نُهي عن شيء، فاذا كان له ضد واحد فهو امر بذلك الضد، وإن كان له اضداد فهو امر بكل ضد من اضداده لاستحالة الجمع بين الضدين، فالنهي عن الفرقة هو امر بالوحدة، بيد أن الامر بالوحدة ليس هو عين النهي عن الفرقة ولكن يستلزمه، وسيقف البحث عند هذه الظاهرة الاسلوبية على النحو الآتي:-

المطلب الاول: دلالة الوجوب من خلال نصية (النهي عن الافتراق والاختلاف بصيغة التهديد والوعيد):

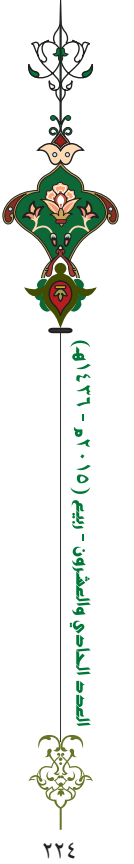
قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

(٢٤) ظ: هموم الامة الاسلامية: ٧١.

وعطف قوله (انا ربكم) على (امة واحدة) بمعنى انا ربكم ربا واحدا^(٢٢) فلحرف العطف دور وظيفي يكمن في تحقيق التواصل المعنوي عن طريق الربط الذي يمثل عملية ذهنية تتعلق بالتقارب المعنوي للمفردات التي تشترك في مضمون موحد داخل النص والرابط بين شهادة التوحيد والوحدة هو لما كانت الجماعة لا تتحقق إلا بالاجتماع على التوحيد الخالص لله تعالى، كان الامر بالعبادة والامر بالتقوى له سبحانه لان الإخلال بهذا التوحيد أو الاتيان بما يؤثر فيه أو ينقصه أو يذهب من شركات وبدع سيؤدي الى الفرقة المذمومة ((ويجوز أن يكون الامران وقعا في خطاب واحد، فاقتصر على بعضه في سورة الانبياء وذكر معظمه في (سورة المؤمنون) بحسب ما اقتضاه مقام الحكاية في كلتا السورتين))^(٢٣)، فالتركيز في القرآن قد جاء إذن على مفهوم الامة التي توصف بأنها امة

(٢٢) ظ: م. ن: ٩ / ٢٠٤.

(٢٣) م. ن: ٩ / ٣٧٢.



اريد بالذين تفرقوا واختلفوا، الذين
اختلفوا في اصول الدين من اليهود
والنصارى من بعد ما جاءهم من الدلائل
المانعة من الاختلاف والافتراق^(٢٥)،
ف(لا الناهية) فيها إلزام بطلب الكف عن
الفعل، وقد اختلف في المنع (التحريم،
الكراهية او التحقير، بيان العاقبة) وهذه
المعاني لا تتحدد إلا بوجود قرينة تدل
عليها وذيل الآية قرينة دالة على تحريم
التفرق بلحاظ آخرته وعقبه والمقام هنا
تشبيهي فيه استحضار لزمن مضى إلا
أن التشبيه ليس إجراء مقابلة بين شيئين
ومعرفة وجه الشبه بينهما انما يتعدى
هذه الوظيفة الى ما هو ابعد من بيان اثر
الافتراق في كلا الموقعين، وقد تعددت
صوره قولاً وفعلًا والمقام قد اقتضى
حضور هذا التلازم لئلا يفعل المؤمنون
ما فعله اليهود والنصارى، فالمقصد انما
هو تحقيق البعد النفسي وإقراره بتسوية
الحالة المشبهة ((فلم تلبث الامة بعد
رسول الله ﷺ دون أن تفرقوا شذر

مذر واختلفوا في مذاهب شتى بعضهم
يكفر بعضا من لدن عصر الصحابة الى
يومننا))^(٢٦).
وقدم الافتراق على الاختلاف
للايدان بأن الاختلاف علة التفرق وهذا
من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام
وذكر الاشياء مع مقارنتها وفيه إشارة
بأن الاختلاف المذموم هو الذي يؤدي
الى الافتراق ((وقد اكد القرآن الدعوة
الى الاتحاد وبالغ في النهي عن الاختلاف
وليس ذلك إلا لما كان يتفرس من امر هذه
الامة أنهم سيختلفون كالذين من قبلهم
بل يزيدون عليهم في ذلك))^(٢٧).

واشار النص الى المشبه به متجاهلا
اسمهم ووصفهم الى التأكيد في إبراز
فعلهم الذي زاد في تقيحه بأنه وقع بعد
الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة
لعدم الاختلاف مشيرا اليهم بقوله
(اولئك) إشارة الى مكانتهم البعيدة عن
الله تعالى واستبعادهم عن التدبر الذي
دعوا اليه وتفريطهم في تجنب اسباب

(٢٦) الميزان: ٣ / ٢٠٤.

(٢٧) م. ن.

(٢٥) ظ: الكشاف: ١ / ٣٠٩، تفسير ابي

السعود: ١ / ٤٣٢.



تشابهونهم فيه، وقد عرفهم النص القرآني بأخص صفاتهم ف (من) هنا للتبيين ((وهو تفرقهم في دينهم وكونهم شيعة شيعة وحزبا حزبا يفرح ويسر كل شيعة وحزب بما عندهم من الدين... فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الاهواء)) (٢٨)، ومن دأب القرآن أنه اذا بالغ في التحذير عن شيء والنهي عن اقترافه كان ذلك آية وقوعه وارتكابه (٢٩)، وقد صدق جريان الحوادث هذا فقد ابتليت الامة بالاختلاف والتفرق، وانحياز كثير من المسلمين الى شعب وفرق، فأصبح الولاء للفرقة والجماعة قبل أن يكون لله تعالى ورسوله، وبرغم التحذيرات الالهية وقعت الامة في مغبة ما حذروا منه لأنها بنت الدين على اساس الهوى الذي لا يثبت على حالة واحدة وتركت المحور الاساس الذي امروا بالتزامه إلا وهو (الاعتصام بحبل الله) فسلكوا سبيل المشركين في ذلك فكانوا منهم.

(٢٨) الميزان: ١٦ / ٩٥، وظ: ابن كثير: ٦ /

(٢٩) ظ: م. ن: ٣ / ٢٠٤.

الاختلاف والتفرق، وان سَوَّق الجملة مساق الإخبار مستعمل في التهديد بالهلاك وبأن مصيرهم قياسا على إهلاك الامم السابقة وفي هذا دلالة واضحة على أن النهي عن الافتراق دعوة إلزام لصدده (الوحدة).

المطلب الثاني: دلالة الوجوب من خلال نصية (التفرق دخول في دائرة الشرك):

قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٢].

لخطر الشرك، ورد التحذير منه في العديد من الآيات القرآنية، وقد تنوع الخطاب القرآني، في ذلك، بدءا من التحذير منه وبيان خطره، وانتهاء ببيان حكم الشرك وعاقبته في الآخرة، قال تعالى في بيان عظمة جريمة الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة

لقمان: ١٣]، والدخول في دائرة الشرك

قد يكون بموادية او معاشرية او عمل



ب- ان تفرق الكلمة في الدين (المحور الاساسي للوحدة) يعد شركا والشرك بالله من اكبر الكبائر الموبقة.

ج- التهديد والوعيد المساق ليرهب

المتلقي فينتهي الى هذا النوع من الفعل (التفرق) ممنوعة بعلة جزائها.

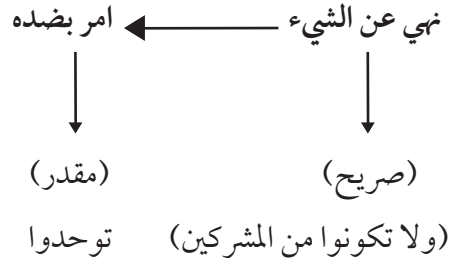
د- إقتران التقوى في الوحدة الانسانية بتقوى الله فمن تقوى الله التمسك بالسبل المنجية من الفرقة والتشردم والاقتيال.

٣. ان الصيغ التعبيرية لوجوب الوحدة

قد تنوعت في القرآن الكريم لتحقيق غايته في التاكيد والتفصيل وابرز الغرض الديني الذي يعمد الى الاعداد بالاسلوب عينه (الامر)،

ولكن بطريقة فنية تخرجه عن سياقه الاول الى سياق ثان قد يخاله في الحياة والجوهر، لكنه يتجسد على وفق رؤية

خاصة في التعبير عن فكرة جديدة لمناسبة جديدة بصيغة تبعده فيها عن الاسهاب والاطالة التي تؤدي الى خلق الملل والسأم الى اضاء تجدد



الخاتمة

وبعد وصولنا الى نهاية المطاف نوجز اهم نتائج البحث وهي:

١. ان التعبير القرآني لم يورد نصا على هيئة فعل الامر للفظ (الوحدة) مثلا (وحدوا صفوفكم، او توحيدوا) إلا ان هذا المعنى ورد بلفظ (اعتصموا) لأن الوحدة التي تكون بمعزل عن الاعتصام بحبل الله لا معنى لها وهذا يعني أنّ مجرد الاجتماع حول محور مشترك فحسب ليس اكثر من اجتماع مؤقت غير حقيقي.

٢. ان الوحدة الاسلامية فريضة واجبة من خلال النظر الى:-

أ- تكرار القرآن الامر بالوحدة، مستقصيا البنى التعبيرية المفضية اليه والمعبرة عنه دلالة على اهميته الكبرى ومكانته العظمى.

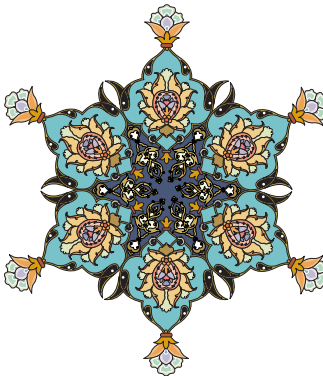


- المعنى وتواصله وزيادة الرغبة نحوه، وقد وردت بثلاثة انماط:
- ١. النمط الاول: الاوامر الصريحة: وقد وردت بصيغة فعل الامر (افعل) التي تدل على الوجوب الفعل.
- ٢. النمط الثاني: الاوامر غير الصريحة: تمثلت بالجملة الخبرية الاسمية لدلالاتها على تثبيت المعنى المقصود.
- ٣. النمط الثالث: الجملة اللزومية: ويعبر عنها بالنهي عن شيء امر بضده، أي النهي عن الفرقة والاختلاف يستلزم الامر بالوحدة.
- ٤. قرر القرآن الكريم دستور الاسلام أن البشرية من اصل واحد تجمعهم اخوة الاصل الواحد وتوجب عليهم إتقاء حقوقها.
- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود محمد بن محمد العمادي (٩٥١ هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت-لبنان، (د.ت).
- تفسير القرآن العظيم: أبو البقاء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤ هـ)، دار المعرفة، بيروت-لبنان، (١٩٩٢).
- البحر المحيط، ابن حيان الاندلسي (٧٤٥ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط: ٢ (١٩٩٠).
- دلائل الإعجاز: ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧١ هـ)، تح: د. محمد التنوحي، دار الكتاب العربي-بيروت، ط: ١ (١٩٩٥).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ابو الفضل شهاب الدين الالوسي (١٢٧٠ هـ)، دار احياء التراث العربي، (د.ت).
- شرح ابن عقيل، مطبعة أمير قم، النشر: انتشارت محمد وفاقي، ط: ١ وشركائه، ط: ١ (١٩٦٤).
- البحر المديد في تفسير القران المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢ (١٢٢٦هـ-٢٠٠٥م).
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، المطبعة: عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط: ١ (١٩٦٤).

أهم المصادر



- مجمع البحرين: للعلامة المحدث (١٣٧٤هـ).
- الكشف عن حقائق التنزيل الزمخشري الخوازمي (٥٣٨ هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط: (١٩٩٧).
- المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري (٥٣٨ هـ)، تح: د. علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط: (١٩٩٣).
- الميزان: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (١٤٠٢ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، (د.ت).
- نداء المخاطبين في القرآن اسراره وبلاغته: علي عبد الواحد وافي، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية، ع: ٨.
- الكشاف عن حقائق التنزيل الزمخشري الخوازمي (٥٣٨ هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط: (١٩٩٧).
- اللمع في العربية: ابو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ)، تح: فائز فارس، دار الكتب الثقافية - الكويت، (١٩٧٢).
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابو عبد الله محمد بن ابي بكر، دار الكتاب العربي، (١٩٩٦م).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ

وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ



الْقُرْآنُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

سعد شريف طاهر

المديرية العامة للتربية - كربلاء المقدسة

فحوى البحث

يعرض السيد الباحث في دلالات كلمة (قرية) وتصريفاتها (قرى - قرينكم - قريننا) التي وردت في القرآن الكريم، فيتبع معانيها في الآية الكريمة، معتمداً أربعة من التفاسير المشهورة وهي: الكشاف للزمخشري، ومجمع البيان للطبرسي وتفسير الجلالين وتفسير روح المعاني للشهاب الالوسي. يجري البحث في منهج استعراضي مباشر مستفيداً من موسوعة قرآنية صدرت حديثاً لتعيين مواقع القرى المذكورة في القرآن الكريم هي: اطلس القرآن الكريم التي وضعها د. شوقي ابو خليل.

المقدمة

المعطار في خبر الاقطار" وتوالت الكتب والدراسات التاريخية والجغرافية عبر قرون حتى ظهر في مطلع القرن الحادي والعشرين (وتحديدا سنة ٢٠٠٠ م) كتاب للدكتور شوقي ابو خليل (اطلس القرآن) حدد فيه المواقع الجغرافية مزودا بالخرائط لكل الاماكن والاقوام والاعلام الذين ذكروا في القرآن الكريم.

وحتى لا يكون البحث مستنسخا من كتاب معين فقد تم التركيز حصريا على مفردة القرية وللتعريف بمواقع القرى ليتسنى لقارئ القرآن تصورها على الارض وتحديد اماكنها في الوقت الحاضر قدر الامكان ولهذا تمت الاستعانة بنماذج من كتب التفسير مثل تفسير الجلالين والكشاف للزمخشري وروح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للالوسي ومجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي والروض المعطار واطلس القرآن.

يبدأ البحث بتعريف كلمة (قرية) لغويا واصطلاحيا ثم ينثال لتحديد القرى التي ذكرت (١٧ مرة) في القرآن وحددت اسمائها في كتب التفاسير وهي

جاء ذكر القرية في القرآن الكريم (٣٣ مرة) للاشارة الى قرى حدث لها شأن في التاريخ في العقوبة او للمثل في الخيرات والنعم. ولان القرآن الكريم ليس كتابا جغرافيا بحثنا فانه لم يحدد مواقع بعض القرى وانما اكتفى بالعبرة لما حصل لها ووعيدا لاهل مكة الذين رفضوا الاسلام منذ البدء فكانت العبرة والدرس اكثر من المسمى. وحيث ان كثيراً من الأعراب في عصر النبوة يجهل المواقع الجغرافية لضيق الثقافة انذاك كان يُمتنعهم ذكر القصص والحكايات عن امم اسلفت.

وبالرغم مما نقل عن الرسول ﷺ واهل البيت  والصحابة الكرام عن مواقع بعض القرى ونقله المفسرون لاحقا الا ان ذلك لم يسمن ولم يغن من جوع فكري فانبرى العلماء يطوفون في الاسفار في القرون الاولى الهجرية للكتابة عن البلدان كياقوت الحموي في معجم بلدانه وابن بطوطة في رحلاته والحميري الذي جمع التاريخ والجغرافية في كتابه "الروض



احصائية القرية في القرآن الكريم:

وردت كلمة (قرية) في القرآن الكريم (٣٣ مرة)^(١) و (قريتك) مرة واحدة^(٢) و (قريتكم) مرتين^(٣) و

بيت المقدس وايلة ومدين ونيوى ومكة والطائف وانطاكية وسدوم وعامورة بينما ذكرت قرى في مرات عديدة للتذكرة والوعيد دون تحديد هويتها.

القرية.. في المعاجم

جاء في مختار الصحاح في مادة (ق ر) القرى: القرا: الظهر والقرية معروفة والجمع القرى والقياس قراء كظبية وظباء والقرية بالكسر لغة يمانية ولعلها جمعت على ذلك كذروة وذراء و ك لحية و لحي والنسبة اليها قروي والقريتين في قوله تعالى ﴿ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ مكة والطائف.

وفي معجم نور الدين الوسيط ص ٩٢٤ في مادة (ق ري):

١. القرية جمع قرى: البلدة الريفية الصغيرة.
٢. قرية النمل: مأواها الذي تتخذه تحت الارض.
٣. قرية الانصار: يثرب أو المدينة المنورة.
٤. القريتان: مكة المشرفة المباركة والطائف.

- (١) مرتان في سورة البقرة آية ٥٨ و ٢٥٩. مرة واحدة في سورة النساء آية ٧٥. مرة واحدة في سورة الانعام آية ١٢٣. ٤مرات في سورة الاعراف آية ٤ و ٩٤ و ١٦١ و ١٦٣. مرة واحدة في سورة يونس آية ٩٨. مرة واحدة في سورة يوسف آية ٨٢. مرة واحدة في سورة الحجر آية ٤. مرة واحدة في سورة النحل آية ١١٢. مرتان في سورة الاسراء آية ١٦ و ٥٨. مرة واحدة في سورة الكهف آية ٧٧. ٤مرات في سورة الانبياء آية ٦ و ١١ و ٧٤ و ٩٥. مرتان في سورة الحج آية ٤٥ و ٤٨. مرتان في سورة الفرقان آية ٤٠ و ٥١. مرة واحدة في سورة الشعراء آية ٢٠٨. مرة واحدة في سورة النمل آية ٣٤. ٥٨. مرتان في سورة العنكبوت آية ٣١ و ٣٤. مرة واحدة في سورة سبأ آية ٣٤. مرة واحدة في سورة يس آية ١٣. مرة واحدة في سورة الزخرف آية ٢٣. مرة واحدة في سورة محمد آية ١٣. مرة واحدة في سورة الطلاق آية ٨.
- (٢) مرة واحدة في سورة محمد آية ١٣.
- (٣) مرة واحدة في سورة الاعراف آية ٨٢ ومرة واحدة في سورة النحل.



كثروا قيل لها مدينة والجمع القرى على غير قياس.

وعن القرية في الآية اعلاه يقول «ذهب الجمهور الى ان المقصودة هي بيت المقدس حيث ان اليهود لم يدخلوا القدس في حياة موسى عليه السلام. ويسترسل في شرح الدخول قائلاً «يرى البعض ان امر الدخول كان بعد التيه على لسان يوشع لا على لسان موسى عليه السلام لأنه واخاه هارون ماتا في التيه وفتح يوشع مع بني اسرائيل ارض الشام بعد موته بثلاثة اشهر. وقد روي ان موسى عليه السلام سار بعد الخروج من التيه بمن تبقى من بني اسرائيل الى اريحاء وهي بارض القدس وكان يوشع بن نون على مقدمتهم ففتحها واقام بها ما شاء الله تعالى ثم قبض.

في حين ذكرها الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨هـ في تفسير الكشاف ج ١ ص ١٤٥ على انها بيت المقدس ثم يستدرك «وقيل اريحاء من قرى الشام امرؤا بدخولها بعد التيه. وقيل هو باب القبة التي كانوا يصلون اليها ويعزز

قريتنا) مرة واحدة^(٤) و (القريتين) مرة واحدة^(٥) و (ام القرى) مرة واحدة^(٦).

القرية في التفسير:

١. وردت كلمة القرية في [سورة البقرة:

٥٨] ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾.

يختلف المفسرون القدماء والمحدثون في تناول مفردة القرية فمنهم من يسهب في شرحها لغويا واصطلاحيا وشرحا لقصتها بينما يتناولها البعض باختصار وربما لا يتوقف حتى عند اسمها او تحديد مكانها.

فتحدث الالوسي المتوفي سنة ١٢٧٠هـ في تفسير روح المعاني عن القرية لغة فقال في ج ١ ص ٢٦٤ القرية بفتح القاف (والكسر لغة اهل اليمن) المدينة من قريت، اذا جمعت سميت بذلك لأنها تجمع الناس على طريقة المساكنة وقيل ان قَلَّوا قيل لها قرية وان

(٤) مرة واحدة في سورة الاعراف آية ٨٨.

(٥) مرة واحدة في سورة الزخرف آية ٣١.

(٦) مرة واحدة في سورة الانعام آية ٩٢ وهي مكة.



الرأي بأن اليهود «لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى ﷺ».

اما الطبرسي المتوفي سنة ٥٤٨ هـ ذكر في تفسير مجمع البيان ج ١ ص ٢٢٩ على ان المفسرين اجمعوا بأن المراد بالقرية: بيت المقدس، ثم يعرج على قول ابن زيد بأنها اريحا قرية قرب بيت المقدس ويوضحها اكثر قائلاً وكان فيها بقايا من قوم عاد وهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق. وعندما نتوقف عند الجلالين جلال الدين محمد بن احمد المحلي المتوفي سنة ٨٦٤ هـ وجلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ نجد انهما لم يحددا القرية فقالا بيت المقدس او اريحا (تفسير الجلالين ص ٩).

ولم يذكرها محمد بن عبد المنعم الحميري المتوفي سنة ٩٠٠ هـ في كتابه (الروض المعطار في خبر الاقطار) وهو معجم جغرافي في حرف الهمزة ولم يتناول (بيت المقدس) في حرف الباء بل ذكرها (ايليا) ص ٨٩ ويقال ايليا بفتح الهمزة مدينة بالشام وهي بيت المقدس وهي مدينة قديمة جلييلة على

جبل يصعد اليها من كل جانب. وبيت المقدس بناه سليمان بن داود عليه السلام هو المسجد الاقصى في فلسطين.

٢. في [سورة البقرة: ٢٥٩] ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** ﴾.

يحدد الجلالان في تفسيرهما ص ٤٣ القرية بأنها بيت المقدس وان الذي مر راكباً حماره هو (العزير) ووجد سقوفها ساقطة بعد الخراب الذي فعله (بَخْتَنْصَر) فيها وسبي اهلها المعروف بالسبي البابلي. وعن (فأماته الله) جاء في روح المعاني ان الله ابقاه جاهلاً مائة عام اي مدة طويلة وقيل هي عبارة في الاصل من ثمانية اعوام او اربعة اشهر او خمسة وعشرين سنة ثم بعثه بالحياة الحقيقية وطلب منه الوقوف على مدة اللبث فما ظننها الا يوماً او بعض يوم.

ويطابق الزرخشري الراي بان القرية بيت المقدس في الكشف ص ٣٠٢ حين خربها بختنصر وقيل هي التي خرج منها الالوف (المقصود بالسبي البابلي). ولكنه يختلف في تحديد المار حيث يقول



ص ٥٢٤ قال احمد: وقفت على نكتة في هذه الآية حسنة وهي ان كل قرية ذكرت بالكتاب العزيز فالظلم ينسب اليها لطريق المجاز كقوله ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾ الى قوله ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ وقوله ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا ﴾. واما في هذه القرية في سورة النساء فينسب الظلم الى اهلها على الحقيقة لأن المراد بها مكة فوقرت عن نسب الظلم اليها تشريفا لها شرفها الله تعالى وبذلك ذكر الظالم موصوفا بدل الظالمة اهلها.

ويتطابق مع رأي الطوسي في مجمع البيان ج ٣ ص ١٣٢ بأن القرية مكة. ومكة غنية عن التعريف بالتاريخ والموقع والقداسة لوجود بيت الله فيها في الحجاز حيث يؤمها ملايين الحجيج سنويا الى ما شاء الله.

٤. في [سورة الأنعام: ١٢٣] ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾.

يتفق جميع المفسرين ان القرية هي مكة فيقول الجلالان في تفسيرهما

كان المارُّ كافرا بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ، ولكنه يشكل على المارقيل عزيز او الخضر اراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه ابراهيم عليه السلام.

ويماثل الطبرسي الرأي بأن القرية هي بيت المقدس في مجمع البيان جزء ٢ ص ١٧٤. وان المار هو عزيز مصر برواية قتادة وعكرمة والسدي، ولكنه يذكر عما روي عن وهب وابي جعفر بانه ارمياء، ويذكر عن ابن اسحاق بأنه الخضر.

٣. وفي [سورة النساء: ٧٥] ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾.

يورد الجلالان ان القرية: مكة حيث يذكر ان قول عبد الله بن عباس "كنت وأمي من المستضعفين ندعو يا ربنا اخرجنا من هذه القرية (مكة) لما عانينا من ظلم اهلها. ويؤكد الالوسي في روح المعاني ج ٢ ص ٨٠ ان المراد بالقرية هي مكة.

ويروي الزمخشري في الكشاف ج ١



ص ١٤٣ القرية مكة واهل مكة، ويقول الالوسي في روح المعاني ص ٢٦٣ «وكذلك قيل اي جعلنا في مكة اكابر مجرميها ليمكروا. ويدلي الزمخشري بدلوه في كشافه ج٢ ص ٥٩ في تفسير الآية يعني: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها. ويردف الطوسي في مجمع بيانه ج٤ ص ١٥٣: اي قيل الذي قصصنا عليك، زين للكافرين عملهم، ومثل ذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها لكنه لم يخصص اية قرية.

٥. في [سورة الاعراف: ٤]: ﴿وَكَمْ مِّنْ

قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ۖ

لم يأت ذكر لأسماء القرى التي اهلكت بل التأكيد على العقاب الذي يحل بأهلها. فلم يذكر الجلالان في تفسيرهما للآية ص ١٥١ اسم القرية بل ذكرت للتعميم. وكذلك في روح المعاني يهب الالوسي في الشرح في ج٢ ص ٣٢٠ قائلا «الشروع في التذكير والانذار ما نزل بمن قبلهم من العذاب بسبب الإعراض عن دين الله والإصرار على اباطيل اوليائهم. المعنى قرى كثيرة

اهلكتها والمراد بإهلاكها ارادة اهلاكها مجازا. ايضا لم يحدد أسماء القرى. وحتى الزمخشري في كشافه لم يذكر اسماء القرى التي اهلكتها بل التأكيد على العقاب الذي يأتي بياتا في الليل أو وهم قائلون اي في فترة القيلولة وهي نصف النهار (ج٢ ص ٨٨). وعندما يتعرض الطبرسي للآية في مجمع بيانه ج٤ ص ٢١٦ يتحدث عن القيلولة ووقتها قائلا: وقت القيلولة اصله الراحة ومنه الاقالة في البيع لأنه الإراحة منه بالإعفاء من عقده و الاخذ بالشدّة في وقت الراحة اعظم في العقوبة فلذلك خص الوقتين بالذكر. وعن (كم من قرية) اي من اهل قرية بحذف المضاف لدلالة الكلام عليه. ايضا لم يحدد اية قرية.

٦. في [سورة الاعراف: ٩٤]: ﴿وَمَا

أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا

بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۖ

لم يُذكر في تفسير الجلالين ص ١٦٢ اسم لقرية لكن هناك اشارة سبقت الى قوم شعيب حيث اخذتهم الرجفة



وسياتي تفصيل ذلك في ثنايا البحث.
 ٧. وفي [سورة الاعراف: ١٦١] **﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية﴾**
﴿وكلوا منها حيث شئتم﴾.

يحدد تفسير الجلالين ص ١٧١ القرية بأنها بيت المقدس. ويتفق معه الكشاف ج ٢ بأن القرية بيت المقدس ويضيف بعد رجوع اسرائيل الى المقدس بعد التيه في سيناء ووفاة موسى عليه السلام وكذلك يؤكد روح المعاني ج ٥ ص ٨٣ ان القرية هي بيت المقدس لكنه يضيف (او أريحاء).

٨. في [سورة الاعراف: ١٦٣]:
﴿وَسأَلَهُم عن الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾.

يتحدث تفسير الجلالين ص ١٧١ عن ان القرية مجاورة بحر القلزم (البحر الاحمر) وهي (أيلة) ربما ايلات الحالية على خليج العقبة جنوب الاردن وهذا ما يعززه روح المعاني ج ٥ ص ٨٤ حيث يقول: هي عند ابن عباس وابن جبير - أيلة - قرية بين مدين والطور، وحيث ان مدين تقع شرق خليج العقبة وان

فاصبحوا في ديارهم جاثمين. وكذلك في الكشاف ج ٢ ص ١٢٦ لم يأت ذكر لقرية معينة لأن الآيات التي سبقتها تحدثت عن شعيب وقومه. وتجدد الإشارة الى (قدين) وهي قبيلة منسوبة الى (قدين بن ابراهيم عليه السلام) قوم شعيب تسكن شمال الحجاز (على الجانب الشرقي لخليج العقبة الممتد من البحر الأحمر شمالاً). وفي روح المعاني ج ٥ ص ١٠ إشارة اجمالية الى بيان احوال سائر الأمم المذكورة تفضيلاً وفيه تحوير لقريش وتحذيرها دون التطرق لقرية معينة.

أما في مجمع البيان ج ٤ ص ٣١٠ أيضاً لم يحدد الطبرسي قرية معينة لكنه يضيف «ثم ذكر الله سبحانه بعدما اقتص من قصص الانبياء وتكذيب اممهم اياهم وما نزل بهم من العذاب سنة امثالهم، تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم فقال (وما ارسلناك في قرية) من القرى التي اهلكناها بالعذاب وقيل: في سائر القرى.

ويحدد محمد بن عبد المنعم الحميري في (الروض المعطار) مدين بأنها بالشام على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر).



جبل الطور في سيناء فيقينا ان المسافر من مدين الى الطور يمر بأيله (ايلات). الا انه يشير الى رواية ابن شهاب هي (طبرية) وقيل مدين وهي رواية عن الخبر ورواية عن ابن زيد انها (مقتا) بين مدين و عينونا قريبة من البحر مشرفة على شاطئه. و يؤكد الكشاف مجلد ٢ ص ١٦٤ ان القرية هي ايلة ويستدرك قائلا: وقيل مدين و قبل طبرية لكنه يسهب بنكته مردفاً: ان العرب تسمي المدينة قرية ويستشهد برواية ابن عمر وابن العلاء: ما رأيت قرويين افصح من الحسن والحجاج، يعني رجلين من اهل المدن.

وما دامت أيلة مدينة على البحر (ميناء) فمن الطبيعي ان يمتهن سكانها التجارة البحرية فتكون السفن في رواح ومجيء طوال السنة اضافة الى التجار القادمين من المدن القريبة فهي حتما مدينة كبيرة وليست قرية صغيرة. وبذلك يشير اليها الحميري في الروض المعطار "وهي مدينة جليلة القدر على ساحل بحر الملح بها يجتمع حاج مصر و المغرب

وبها التجارة الكثيرة واهلها من اخلاط الناس".

وفي سياق حديثه عن الآية المذكورة يقول الطبرسي في مجمع البيان ج٤ ص ٣٨٠ ابتداءً سبحانه بخبر اخر من اخبار بني اسرائيل فقال مخاطبا نبيه. و اسألهم: اي استخبرهم يا محمد وهو سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام عن القرية التي كانت حاضرة البحر مجاورة لبحر القلزم وهي ايلة وما وقع بأهلها اذ يعتدون في السبت بصيد السمك المأمورين بتركه فيه اذ تأتيهم ابتلاءً من الله ولما صادوا السمك افترقت القرية اثلاثاً: ثلث صادوا معهم وثلث نهوهم و ثلث امسكوا الصيد والنهي.

٩. في [سورة يونس: ٩٨] ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.

لم يشير تفسير الجلالين في ص ٢٢٠ الى تحديد القرية. الا ان الكشاف ج٢ ص ٣٥٨ يذكر ان يونس عليه السلام بُعث الى نينوى من أرض الموصل. فنينوى ليست



البيان ج ٥ ص ٢٢٩ ان قوم يونس كانوا
بنينوى من ارض الموصل وتذكر القصة
كما في باقي التفاسير.

اذن نينوى كورة من كور الموصل
كما يصفها الروض المعطار من عمل
الجزيرة. وحاليا بقاياها في شمال العراق
قرب الموصل تبعد عن بغداد العاصمة
بحوالي ٤٠٠ كم شمالاً.

١٠. في [سورة يوسف: ٨٢]: ﴿وَسَّكِلِ

الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا

فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٠﴾

يقول الجلالان في تفسيرهما ص ٢٤٥
ان القرية هي مصر!!! اي أرسل الى
اهلها فاسألهم (اي اصحاب العير التي
اقبلنا فيها) وهم قوم من كنعان. يرجى
الالتفات الى نكته، هل كانت مصر
الفرعونية في زمن النبي يوسف عليه
السلام قرية؟! ومن المعروف ان الحضارة
المصرية الفرعونية عريقة ويقال ان
فرعون مصر استخدم مائة الف شخص
لبناء الاهرامات فهل كانت مصر
قرية؟! الجواب: ان العرب كانت
تسمى الامصار والمدائن قرى، فمهما

بقرية حيث ان يونس عليه السلام بُعث الى مائة
الف او يزيدون. ويكمل الزمخشري:
فكذبوه (اي يونس) فهب عنهم مغاضبا
فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا
المسوح وعجوا (اي رفعوا اصواتهم)
اربعين ليلة.

وقيل قال لهم يونس ان اجلكم
اربعون ليلة، فقالوا ان رأينا اسباب
الهلاك آمنا بك. فلما مضت خمس
وثلاثون اغامت السماء غيما اسود
هائلا يدخن دخانا شديداً ثم يهبط
حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم
فلبسوا المسوح وبرزوا الى الصعيد
بأنفسهم ونسائهم واطفالهم وصبيانهم
و دوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان
وبين الدواب واولادها فحنى بعضها
على بعض وعلت الاصوات والعجيج
و اظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا
فرحمهم الله وكشف عنهم وكان ذلك
يوم عاشوراء يوم الجمعة. ويذكر روح
المعاني ج ٦ ص ١٨٠ نفس القصة قائلاً
«ان يونس عليه السلام بعث الى اهل نينوى
من ارض الموصل». وكذلك في مجمع



كبرت مصر فهي قرية في نظر العرب القدماء.

نعود الى القصة وكما هو واضح انها تتعلق بالنبي يوسف عليه السلام وحواره مع اخوته. ويقول الآلوسي في روح المعاني ج ٧ ص ٣٧ القرية كما روي عن ابن عباس وقتاده والحسن مصر وقيل قرية بقرها لحقهم المنادي بها. والاول (على ظاهر القول) بأن المفتش لهم يوسف عليه السلام والثاني (على ظاهر القول) هو المؤذن و سؤال القرية عبارة عن سؤال اهلها. ويؤكد الزمخشري في الكشاف ج ٢ ص ٤٧٦ بأن القرية هي مصر واصحاب العير كانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب. وقيل من اهل صنعاء.

ويماثل مجمع البيان بقية التفاسير ان القرية مصر (ج ٥ ص ٤٤٣) ومعناه سل ما شئت من اهل مصر عن هذا الامر فأن هذا الامر شائع بينهم يخبرك من سألته.

لو استقرأنا التاريخ والجغرافية في قصة يوسف عليه السلام فإنه أسقط في بئر بأرض بيت المقدس وبعد اخذه الى مصر

بيع في عاصمة الهيكسوس (افاريس، صان الحجر حاليا قرب بحيرة المنزلة) وبعد حياة حافلة بالمصاعب اكرمه الله بالحكم والاستقرار في مصر فأسكن اباه يعقوب وبنيه ارض جاسان او جاشان شمال بلبس (سقط الخنة حاليا) وبعد موت يوسف عليه السلام نُقل الى الخليل (صبرون) في فلسطين وفي مغارة المكفيل تابوت يوسف وله مقام بنابلس (شكيم) في فلسطين واخر قرب بلدة النبك في القلمون في سوريا (اطلس القرآن ص ٦٧).

وكانت مدن مصر القديمة مدناً كبيرة وليست قرى مثل تانيس و هيليو بوليس (القاهرة حاليا) والقلم (السويس) و ممفيس (منف) قرب بحيرة قارون في الفيوم حاليا وكذلك بوطو في دلتا نهر النيل و الفرما في منتصف الطريق في العريش في فلسطين.

١١. في [سورة الحجر: ٤] ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا

مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ .

لم يشر المفسرون الى اسم قرية معينة ولكنهم ركزوا على العذاب الذي حل



١٢. في [سورة النحل: ١١٢] ﴿ **وَضَرَبَ**
اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً
مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ فَكَفَرَتْ ﴾ .

اشار تفسير الجلالين ص ٢٨٠ ان القرية هي مكة والمراد اهلها كانت امنة من الغارات لا تهاج مطمئنة لا يُحتاج الى الانتقال عنها لضيّق او خوف، يأتيها رزقها واسعا من كل مكان (التجارة مع الشام واليمن) لكنهم كفروا بتكذيب النبي ﷺ فقحطوا سبع سنين.

وفي روح المعاني ج٧ ص ٤٧٦ إشارة لرواية بن جرير عن بن عباس ومجاهد انها مكة.

وهناك إشارة الى سليم بن عمر حين صحب السيدة حفصة احدى أزواج النبي ﷺ قال: صحبت حفصة زوج النبي ﷺ وهي خارجة من مكة الى المدينة فأخبرت ان عثمان قد قتل فقالت: ارجعوا بي فوالذي نفسي بيده انها القرية التي قال الله تعالى وتلت ما في الآية. والمعنى جعلها الله تعالى مثلا لأهل مكة او لكل قوم انعم الله

باهل القرى الماضية تذكرة لكفار قريش بما حل بالأمة السالفة. فلم يشر تفسير الجلالين في ص ٢٦٢ ام في روح المعاني ج٧ ص ٢٥٧ المقصود قرية من القرى بالخسف بها و بأهلها الكافرين كما فعل ببعضها او بإخلائها عن اهلها بعد اهلاكهم كما فعل بأخرين. ايضا لم تحدد القرى. اما في مجمع البيان ج٦ ص ١٠٢ في عرض معنى الآية: ولم نهلك اهل قرية في ما مضى على وجه العقوبة الأ وكان لهم اجل مكتوب لا بد انهم سيبلغونه. يريد فلا يغرن هؤلاء الكفار امهالي اياهم انما ينزل العذاب بهم في الوقت المكتوب المقدر لذلك، أيضا لم يذكر اسم القرية ولكنها تذكرة بما حل بالاقوام الماضية في الاحقاف وسدوم وغيرها ممن رفض اهلها الرسالات السماوية.

في حين لم يشر الكشاف في ج٢ ص ٥٤٩ الى قرية معينة واكتفى بشرح الجانب التحوي في الآية. وسنورد شرحا مفصلا عن الاحقاف وسدوم في ثنايا البحث.



عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فجزوا بما جزوا.

وفي الكشف ج ٢ ص ٦١٣ لم يذكر اسم لقرية لكن جاء في معرض تفسير الآية: أي جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته. فيجوز ان تراد قرية مقدره على هذه الصفة وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضرها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها.

اما في مجمع البيان ج ٦ ص ٢٠٦ قيل ان هذه القرية هي مكة، ويورد رواية عن بن عباس ومجاهد وقتادة ان الله عذبهم (اهل مكة) بالجوع سبع سنين حتى اكلوا القد والعلهز وهو الوبر يخلط بالدم والقراد ثم يؤكل وهم مع ذلك خائفون وجلون من النبي ﷺ واصحابه حين دعا النبي ﷺ فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعل عليهم سنين كسني يوسف. وحتى يروى عن قرية كانت قبل النبي ﷺ بعث الله اليهم نبياً فكفروا بذلك النبي وقتلوه فعذبهم الله

بعذاب الاستئصال أيضا لم يُحدد النبي او القرية حيث إن كثيراً من الانبياء عانوا من اقوامهم حتى الموت.

١٣. في [سورة الاسراء: ١٦] ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

لم يذكر في تفسير الجلالين ص ٢٨٣ شيئاً عن القرية سوى فسوق رؤسائها المنعمين و خروجهم عن امر الله فعذبوا وأهلكوا وخربت قريتهم.

وفي روح المعاني ج ٨ ص ٤١: في تفسير الآية بيان لكيفية وقوع العذاب بعد البعثة، وليس المراد بالإرادة الارادة الازلية المتعلقة بوقوع المراد في وقته المقدر له اصلاً إذ لا يقارنها الجزاء الآتي ولا تحققها بالفعل إذ لا يختلف عنه المراد بل دنو وقته. لم يذكر القرية بل تذكيراً لكفار قريش.

وكذلك في الكشف ج ٢ ص ٦٢٩ الحديث عن المعاصي واتباع الشهوات وحلول العذاب والعقاب من دون إشارة الى قرية معينة. وحتى في مجمع البيان ج ٦ ص ٢٣٥ لم تذكر القرية في شرح الآية.



خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكر بلداً بلداً وروي عن وهب بن منبه من اخبار لعلها من تنبؤات الكتب المقدسة القديمة انه قال الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب ارمينيا وارمينيا امنة حتى تخرب مصر ومصر امنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة واذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يد رجل من بني هاشم وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب افريقيا من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من عدو يحصرهم ويمنعهم الشرب من الفرات وخراب البصرة من قبل العراق وخراب الابلة من عدو يحصرهم براً وبحراً وخراب الري من الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من الجوع". وعن ابي هريرة ان الرسول ﷺ قال "آخر

تعريجاً على الآية التالية ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ أي منذ زمن نوح الى زمانك هذا (الخطاب للرسول ﷺ) للتعنوم).

١٤. في [سورة الاسراء: ٥٨] ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ أَوْ مَعَذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَتْ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ .

لم تذكر في تفسير الجلالين ص ٢٨٧ قرية معينة. وفي روح المعاني ج ٨ ص ٩٦ رواية عن مقاتل عما ذهب اليه الجبائي وجماعة في تفسير هذه الآية اخباراً عما سيحدث للمدن من ويلات ونهاية بالهلاك للمدن الصالحة والعذاب للمدن الطالحة بالنهاية المحتومة. فالقول تفسيراً: وما من قرية من القرى إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة بإماتة اهلها حتف انوفهم او معذبوها عذاباً شديداً بالقتل وانواع البلاء. وقال: وجدت في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: اما مكة فتحرقها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك و الجبال بالصواعق والرواجف، واما



قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة".
وبرأينا المتواضع نقول ان مثل هذه
التنبؤات، سواء ما حدث و ما سيحدث
الى يوم القيامة، يعوزها الدليل العلمي
والمنطقي ولعل بعضاً منها جاءت
نبؤات نوستر اداموس وغيره.

أما ما يتعلق برواية ابي هريرة فهو
عَوْد على بدء فأذا كانت المدينة اخر قرية
من قرى الاسلام خرابا فلا يمكن تصور
المدينة المنورة في اخر المطاف قرية وهي
ذات الملايين من السكان والعمارات
والطرق والجسور، فتكون كلمة قرية على
كل مدينة ومصر.

وفي البحور الزاخرة في علوم الاخرة
لمحمد بن احمد بن سالم بن سليمان
السفارييني "ان سبب خرابها (المدينة)
ان بعض اهلها يخرجون مع المهدي الى
الجهاد ثم ترجف بمنافقيها وترميهم
الى الدجال ويهاجر بعض المخلصين
الى بيت المقدس عند إمامهم ومن بقي
منهم تقبض الريح الطيبة روحه فتبقى
خاوية ويأبى كونها سبب خرابها الجوع
حسبها سمعت عن الضحاك وابن منه.

(وكلاهما ممن لا يُعتد بروايتها عند
المحققين لاشتهارهما باختلاق القصص
والأباطيل).

وفي الكشاف ج ٢ ص ٦٢٨ "واذا
اردنا" واذا دنا وقت إهلاك قوم ولم
يبق من زمان امهالهم إلا قليل امرناهم
ففسقوا اي امرناهم بالفسق ففعلوا أيضا
لم تحدد القرية بل الكلام بشكل عام.

وكذلك في مجمع البيان ج ٦
ص ٢٣٤ لم يحدد الطبرسي قرية بذاتها
وانما الحديث بشكل عام فيقول في
معرض شرح الآية: اذا اردنا ان نهلك
اهل قرية بعد قيام الحجة عليهم وارسال
الرسل اليهم امرنا مترفيها اي رؤساءها
وساداتها بالطاعة واتباع الرسل امرٌ بعد
أمر نكرره عليهم وبيّنة بعد بيّنة نأتيهم
بها إعداراً للعصاة وتوكيداً للحجة
ففسقوا فيها بالمعاصي و أبوا إلا تمادياً
في العصيان والكفران فوجب حين إذٍ
عليها الوعيد فاهلكنهاها اهلاكا.

١٥. في [سورة الكهف: ٧٧] ﴿فَانْطَلَقَا
حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَظْعَمَا
أَهْلَهَا﴾.



الله من السماء. أما الطبرسي فيأخذ برواية عن ابن عباس ان القرية هي انطاكية (مجمع البيان ج٦ ص ٣٧٤ ويورد رواية اخرى عن ابن سيرين ومحمد بن كعب انها أيلة، ويروي أيضا وقيل هي قرية على ساحل البحر يقال لها ناصرة وبها سمي النصارى نصارى وهو المروي عن ابي عبد الله عليه السلام .

يلاحظ تعدد الروايات ولكن المتفق عليه في الاغلب انها انطاكية في اقصى شمال شرق البحر المتوسط (الاسكندرونة حاليا بين سوريا وتركيا حاليا). ومن جانب اخر يتحدث د. شوقي ابو خليل في اطلس القرآن ص ٨٣ عن مجمع البحرين محددًا بحر الاردن (أيلة، العقبة) وبحر القلزم (الاحمر) او منطقة طنجة، بحر الزقاق (مضيق جبل طارق في المغرب).

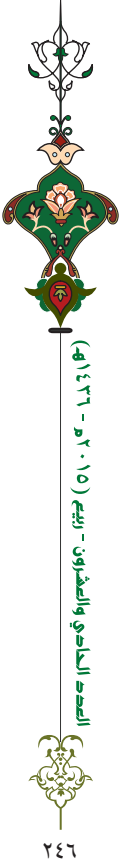
١٦. في [سورة الانبياء: ٦] ﴿ **مَاءَ أَمْنَتٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** ﴾ .

لم تُحدد القرية في تفسير الجلالين ص ٣٢٢. أما الالوسي فيسهب في

يحدد الجلالان في تفسيرهما ص ٣٠٢ ان القرية هي انطاكية والقصة قصة موسى عليه السلام والخضر.

ويؤكد الالوسي في روح المعاني ج ٨ ص ٣٢٦ انها انطاكية ويستطرد بما حكاه الثعلبي عن ابن عباس ويعرج عما جاء في القاموس انه اسم لموضع. وكما في المواهب انها قرية بارض الروم والله تعالى أعلم. ثم ينقل ما اخرجه بن مردويه عن السدي انها باجوران وهي ايضا اسم لمتعدد إلا انه ذكر بعضهم ان المراد بها قرية بنواحي ارمينيا. وينقل كذلك ما اخرجه بن ابي حاتم عن محمد بن سيرين انها الابلة بهمزة وباء موحدة ولام مشددة (البصرة في العراق حاليا). ثم ينقل: وقيل انها قرية على ساحل البحر يقال لها ناصرة واليها تنسب النصارى. ويروي: قيل انها قرية في الجزيرة الخضراء من ارض الاندلس.

ويقول الزمخشري في الكشاف ج ٢ ص ٧٠٨ ان القرية هي انطاكية لكنه يورد وقيل انها الابلة وهي ابعد ارض



روح المعاني ج ٩ ص ١٣ قائلاً: من قرية على حذف المضاف أي من اهل قرية و(من) مزيدة لتأكيد العموم وما بعد (ما) في محل الرفع على الفاعلية وقوله- سبحانه- ﴿أَهْلَكْنَهَا﴾ في محل جر او رفع صفة قرية والمراد اهلكتها بإهلاك اهلها لعدم ايمانهم بعد ما جاء ما اقترحوه من الايات، وقيل القرية مجاز عن اهلها فلا حاجة لتقدير المضاف. ايضا لم تحدد قرية معينة بل كان تحذيراً لقريش من عاقبة عصيانهم وعدم ايمانهم وبأن لهم مصيراً مثل ما حدث للامم السالفة بسبب كفرها. ولم تحدد القرية في تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٠١ لكنه وصف للعذاب فيقول الزمخشري: «انهم اعتمى من الذين اقترحوا على انبيائهم الايات وعاهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا او خالفوا فأهلكهم الله، فلو اعطيناهم ما يقترحون لكانوا انكث وانكث».

وحتى في مجمع البيان لم تحدد القرية في مجلد ٧ ص ٧٢ لكنه يشاطر الكشاف الرأي حين يقول: لما تقدمت الحكاية

عن الكفار بانهم اقترحوا الايات قال سبحانه مجيباً اياهم: ﴿مَاءَ أَمْنٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا﴾ أي لم يؤمن قبل هؤلاء الكفار من اهل القرية جاءتهم الايات التي طلبوها فاهلكتهم مُصْرِين على الكفر.

١٧. في [سورة الانبياء: ١١] ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

لم يحدد تفسير الجلالين القرية في ص ٣٢٣ لكن هناك إشارة الى «من قرية اي اهلها كانت ظالمة اي كافرة». لكن في روح المعاني مجلد ٩ ص ١٦ هناك شرح مفصل «قصمنا من قرية كناية عن قصم اهلها للزوم اهلاكها». ويشير الالوسي الى ان القرية هي (حضور) باليمن وهو ما اخرجه بن المنذر عن الكلبي. ويروي عما اخرجه ابن مردويه عن ابن عباس انه قال: بعث الله نبيا من حِمَيْرٍ يقال له شعيب فوثب اليه عبد فضربه بعضا فسار اليهم بختنصر فقتلهم فلم يبق منهم شيء، وانزل الله تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا...﴾. وفي البحر ان هؤلاء



السدي وقيل عذبنا، وعن الكلبي كانت ظالمة اي كافرة يعني اهلها، وانشأنا اي اوجدنا بعدها اي بعد اهلاك اهلها قوما اخرين.

١٨. في [سورة الانبياء: ٧٤] ﴿ **وَلُوطًا**
ءَاثِنْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَجْيَثَ ﴾ .

لم يذكر تفسير الجلالين اسم القرية في ص ٣٢٨ في معرض شرح الآية إلا انه يشير الى ان القرية اي اهلها كانوا يعملون الخبائث من اللواط والرمي بالبندق واللعب بالطيور وغير ذلك، ولكن من الواضح ان قصة لوط عليه السلام ترتبط بقريتي (سدوم) و (عامورة) قرب البحر الميت كما اكدها الالوسي في روح المعاني مجلد ٩ ص ٦٩. وعن الخبائث قال اي الاعمال الخبيثة مطلقا إلا ان اشنعها اللواط. ويورد ان ابن عساكر اخرج عنه الحسن قال : "قال رسول الله ﷺ عشر خصال عملتها قوم لوط بها اهلكوا، اتيان الرجال بعضهم بعضا و رميهم بالجلاشق والحذف ولعبهم بالحمام و ضرب الدفوف

كانوا بـ(حضور) وان الله تعالى بعث لهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على اهل بيت المقدس، بعث اليهم جيشا فهزموه ثم بعث اليهم اخر فهزموه فخرج اليهم بنفسه فهزمهم و قتلهم. وعن بعضهم انه كان اسم هذا النبي موسى بن ميشا.

وينقل الالوسي رواية وهب ان الآية في قريتين احدهما (حضور) و الأخرى (قلاية) بطر اهلها فاهلكهم الله على يد بختنصر.

وفي تفسير الكشاف مجلد ٣ ص ١٠٣ «وكم قصمنا من قرية» عن غضب شديد ومنادية على سحق عظيم لان القصم افطع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم واراد بالقرية اهلها ولذلك وصفها بالظلم. ويُنقل عنه رواية ابن عباس انها (حضور) ويضيف وهي و (سحول) قريتان باليمن.

ولم يُحدد مجمع البيان في مجلد ٧ ص ١٧٥ القرية لكنه يضيف وكم قصمنا اي اهلكنا منه قرية عن مجاهد



وشرب الخمر وقص اللحية و الصفر والتصفيق ولباس الحرير وتزيدها امتي بخلة اتيان النساء بعضهم بعضا".
ويضيف قيل: كانت قراهم سبعا فعبر عنها ببعضها لأنها اشهرها. وفي البحر انه عبر عنها بالواحدة لاتفاق اهلها على الفاحشة ويروى انها كلها قلبت الا (زغر) لأنها كانت محل من آمن بلوط عليه السلام والمشهور قلب الجميع.

وفي تفسير الكشاف مجلد ٣ ص ١٢٤ يذكر القرية بالذال (سدوم) والقصة لقوم لوط. اما الطبرسي فيذكر القرية سدوم لكنه يضيف على الخبائث التي كانوا يعملونها انهم كانوا يأتون الذكران في ادبارهم و يتضارطون في انديتهم، واراد بالقرية اهلها ثم ذمهم.

١٩. في [سورة الانبياء: ٩٥] ﴿ **عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ .

لم يذكر تفسير الجلالين اسم قرية ص ٣٣٠ بل ذكر أن القرية اريد بها اهلها. وكذلك لم يذكر اسم القرية في روح المعاني مجلد ٩ ص ٨٧ في شرح السورة. بل وحتى الكشاف مجلد ٣

ص ١٣٢ ايضا لم يذكر اسم القرية، وحتى مجمع البيان في مجلد ٧ ص ١١٠ لم يذكر اسم القرية الا انه يضيف "حرام على قرية اهلكتها بالاستئصال رجوعهم لأنهم لا يرجعون".

٢٠. في [سورة الحج: ٤٥] ﴿ **فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ** ﴾ .

لم يذكر تفسير الجلالين ص ٣٣٧ اسم القرية بل يقول قرية اهلكتها اي اهلها بكفرهم فهي ساقطة على سقوفها. ويروي الطبرسي في مجمع البيان مجلد ٧ ص ١٥٩ قول الضحاك: هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها (حاضور) نزل بها اربعة آلاف ممن آمن بصالح ومعهم صالح فلما حضروا مات صالح فسمي المكان (حضرموت)، ثم انهم كثروا فكفروا وعبدوا الاصنام فبعث الله اليهم نبياً يقال له حنظلة فقتلوه في السوق فأهلكهم الله فماتوا عن آخرهم وعطلت بئرهم و خرب قصر ملكهم. وفي الكشاف مجلد ٣ ص ١٥٨ يذكر قصة صالح عليه السلام ويكمل "ثمت بلدة عند البئر اسمها حاضوراء



ص ١٦٣ «كم من سكنة قرية» لم يذكر اسم القرية.

٢٢. في [سورة الفرقان: ٤٠] **الْقَرْيَةِ** **الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرًا سَوًّا** .

جاء في تفسير الجلالين ص ٣٦٣ المقصود قرى قوم لوط دون ان تذكر اسماء القرى، اما الطبرسي فيقول في مجمع البيان ج٧ ص ٢٩٧ انها قرية قوم لوط دون ذكر اسم القرية، في حين يتوسع الزمخشري في الكشاف المجلد ٣ ص ٢٧٣ «أن القرية (سدوم) من قرى قوم لوط وكانت خمسا». اهلك الله تعالى اربعا بأهلها وبقيت واحدة.

ويتوسع الالوسي في روح المعاني ج١٠ ص ٢٢ في ذكر القرية فيقول هي (سدوم) بالذال وهي اعظم قرى لوط سميت باسم قاضيتها سدوم بالذال المعجمة على ما صححه الازهري. وفي المثل (أَجَوْرٌ من سدوم) اهلكها الله تعالى بالحجارة وهو المراد بمطر السوء وكذلك اهلك سائر قراهم وكانت خمسا الا قرية واحدة هي (زغر) لم يهلكها لأن أهلها لم يعملوا الخبيث كما

بناها قوم صالح و امروا عليهم جلوس بن جلاس، واقاموا بها زمانا ثم كفروا و عبدوا صنما وارسل الله اليهم حنظلة بن صفوان نبيا فقتلوه فأهلكهم الله وعطل بئرهم و خرب قصورهم" وفي روح المعاني مجلد ٩ ص ١٥٩ ذُكِرَ حضرموت وحاضورا ومقتل حنظلة بن صفوان كما روي في الكشاف.

٢١. في [سورة الحج: ٤٨] **وَكَأَيِّن** **مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ** **ثُمَّ أَخَذْتُمَا وَإِلَى الْمَصِيرِ** .

لم يذكر اسم القرية في تفسير الجلالين ص ٣٣٨ بل المراد أهلها، وكذلك لم يذكر اسمها في مجمع البيان ج٧ ص ١٦١ سوى «ولكنها مستحقة لتعجيل العقاب». وايضا لم يُذكر لها اسم في الكشاف ج٣ ص ١٦٠ سوى «وكم من اهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد انظرتهم حيننا ثم اخذتهم بالعذاب والمرجع الي والى حكمي». ويبدو ان الخطاب لأهل مكة لكفرهم وكم سيقنص الله منهم كما اقتص من قرى سابقة. وحتى في روح المعاني ج٩



روى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وموقع سدوم حاليا في البحر الميت بين الاردن وفلسطين.

٢٣. في [سورة الفرقان: ٥١] ﴿وَلَوْ شِئْنَا

لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾.

الواضح من الآية ان الله تعالى لو شاء بعث في كل قرية او مدينة نبي او رسولا لينذرهم، فكلمة قرية هنا عامة وهي جنس السكن وعليه اتفاق كل التفاسير.

٢٤. في [سورة الشعراء: ٢٠٨] ﴿وَمَا

أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾.

يلاحظ هنا ان الآية للتعميم والتذكير دون تخصيص قرية او منذرين (انبياء) وهي كسابقتها عامة في كل قرية باجماع المفسرين.

٢٥. في [سورة النمل: ٣٤] ﴿قَالَتْ إِنَّ

أَمْلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

هنا ايضا للتذكير والتعميم والتقريب لما حل سابقا دون الدخول في التفاصيل. ففي تفسير الجلالين ص ٣٧٩ لم يرد ذكر قرية معينة.

٢٦. في [سورة القصص: ٥٨] ﴿وَكَمْ

أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ
مَعِيشَتَهَا﴾.

في تفسير الجلالين ص ٣٩٢ « اريد بالقرية اهلها «دون ذكر اسم قرية.

وفي مجمع البيان ج٧ ص ٤٤٩ « من اهل القرية» تلك اشارة الى ما يعرفونه هم من ديار عاد وثمود وقوم لوط اي صارت مساكنهم خاوية خالية من اهلها وهي قرية منكم فإن ديار عاد انما كانت بالأحقاف وهو موضع بين

اليمن والشام وديار ثمود بوادي القرى وديار لوط بسدوم وكانوا هم يمرون بهذه المواضع في تجاراتهم. وفي الكشف المجلد ٣ ص ٤٠٩ تكملة حيث يقول «هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من انعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش فغمطوا النعمة وقابلوها بالأسر

والبطر فدمرهم الله وخرّب ديارهم». ايضا لم يذكر اولئك القوم مكانهم وقريتهم. وفي روح المعاني ((وعيد لأهل مكة وتذكير بما حل بالأمم السابقة جراء بطرهم بنعمة الله)) ويضرب حجر ثمود



ج ١ ص ٣٥٩ اشارة واضحة "قرية سدوم وهي اكبر قرى قوم لوط وفيها نشأت الفاحشة اولا وخصت بالذكر لأنها قرية من قرية ابراهيم". وفي اطلس القرآن يذكر د. شوقي ابو خليل في ص ٤٣ سفر ابراهيم عليه السلام الى فلسطين مع ابن اخيه لوط عليه السلام مع زوجته بعد اخفاق حرقه في كوش او بابل او الوركاء وبسبب جذب الارض انتقل الى مصر في عهد الرعاة (الهكسوس) ثم عاد مع لوط الى جنوب فلسطين وافترقا لعلاقة المودة والرحم ليجد كل منهما كلاً وسقاية لماشيته. فسكن ابراهيم في بئر السبع (جنوب فلسطين حالياً) وسكن لوط جنوب البحر الميت والذي كان يعرف بـ (بحيرة لوط) (في سدوم كما جاء في اعلاه).

٢٨. في [سورة العنكبوت: ٣٤] ﴿إِنَّا مُنَزَّلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

رغم ان اشهر قرية استحققت عذاب الله تعالى لكثرة عمل الخبائث واشدها اتياناً للذكور بعضهم البعض هي

مثلا فيقول في ج ١٠ ص ٣٠٥. وكثيرا من اهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء من الامن وخفض العيش والدعة حتى بطروا واعتزوا ولم يقوموا بحق النعمة فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم. فتلك مساكنهم التي تمرون عليها في اسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا.

٢٧. في [سورة العنكبوت: ٣١] ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

طالما تعاملت الآية مع ابراهيم وهلاك القرية التي كان اهلها ظالمين ولمعاصرة النبي لوط عليه السلام لإبراهيم عليه السلام فيقينا ان القرية المشار اليها سدوم. وان لم يشر تفسير الجلالين في ص ٤٠٠ سوى ب قرية لوط وكذلك في مجمع ج ٨ ص ٢٣ اشارة الى قرية قوم لوط دون ذكر اسمها حيث يقول: ان الرسل كانوا يعنون قرية قوم لوط وانما قالوا هذا لان قريتهم كانت قريبة من قرية ابراهيم، الا ان روح المعاني يذكر القرية بالاسم (سدوم) فقد جاء في



سدوم لكن لم يشر لها الجلالان ص ٤٠٠
حصرا. اما في مجمع البيان ج ٨ ص ٢٤
تركنا تلك القرية (قرية لوط) عبره
واضحة. في حين يشير لها الزمخشري
في الكشاف المجلد ٣ ص ٤٣٩ بالاسم
(سدوم). ويسترسل الالوسي في روح
المعاني ج ١٠ ص ٣٦٠ رابطا الاحداث
فيها سبق بالاشارة الى سدوم بقوله
استئناف مسوق لبيان ما اشير اليه.

٢٩. في [سورة سبأ: ٣٤] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا
فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ . عامة في
كل القرى وفيها انذار لأهل مكة
اذا استمروا على تكذيبه، باجماع
المفسرين.

٣٠. في [سورة يس: ١٣] ﴿ وَأَضْرَبَ
لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا
الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

يحدد تفسير الجلالين القرية بأنها
انطاكية والمرسلون هم رسل عيسى
ويقف المفسرون جميعاً عليها فقد ذكرها
مجمع البيان ج ٨ ص ٢٦٣ واطاف
اسماء المرسلين شمعون ويوحنا وبولس،

ويؤكدها روح المعاني ج ١١ ص ٣٩٢
برواية عن ابي عباس وبريدة وعكرمة
انها انطاكية وكذلك يذكرها الزمخشري
في الكشاف المجلد ٤ ص ٨ بالاسم
انطاكية.

٣١. في [سورة الزخرف: ٢٣] ﴿ وَكَذَلِكَ

مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ .

الخطاب موجه للرسول ﷺ و
بصورة غير مباشرة الى اهل مكة.
ويكون التذكير بين فترة واخرى لطول
فترة التنزيل التي استمرت ٢٣ سنة فلم
تكن الغاية قرية محدودة.

٣٢. في [سورة محمد: ١٣] ﴿ وَكَانَ مِن

قَرْيَةٍ ﴾ .

لم يذكر تفسير الجلالين ص ٥٠٨
اسم القرية. وفي مجمع البيان ج ٩
ص ١٦٧ "كم من رجال هم اشد من
اهل مكة ولهذا قال (اهلكناهم) فكنى
عن الرجال، عن ابن عباس".

٣٣. في [سورة الطلاق: ٨] ﴿ وَكَانَ

مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ

فَحَاسَبْنَهَا ﴾ .

لم يأتِ تفسير الجلالين ص ٥٥٩



القرية.. في القرآن الكريم..... التفسير

وكذلك في روح المعاني ج ٤ ص ٤٠٨
قريتك اي بلدتكم التي اجعتم فيها
وسكنتم فيها. المقصودة (سدوم).

وايضا يشير الكشاف المجلد ٢
ص ١٢١ الى لوط واخراجه ومن معه
من المؤمنين من قريتهم ضجرا بهم
وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم
فالقريه اذن سدوم.

وفي [سورة النمل: ٥٦] ﴿أَخْرِجُوا آلَ
لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ﴾.
الواضح ان المراد بالقريه (سدوم)
مدينة لوط كما جاء ذكرها في جميع
التفاسير.

• جاء ذكر (قريتنا) مرة واحدة في
[سورة الاعراف: ٨٨] ﴿قَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ

يَنْشُعِبِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا﴾
فبالرغم من ان التفاسير لم تشر الى
ذكر اسم القرية مثل تفسير الجلالين
ص ١٦٢ في تفسير الآية، ومجمع البيان
ج ٤ ص ٣٠٥ وروح المعاني ج ٥ ص ٤
والكشاف المجلد ٢ ص ١٢٤ عندما
فسروا الآية الا انه من الواضح انها

بذكر لاسم قرية سوى شرح مختصر
بقوله «اي وكثير من القرى عصت
يعني اهلها». فهي عامة كسابقتها
وفيها انذار لأهل مكة.

• اما كلمة (قريتك) فقد ذكرت
مرة واحدة في [سورة محمد: ١٣]
﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن
قَرْيَتِكَ﴾. الخطاب للرسول ﷺ
وقريته اي مدينته مكة المكرمة حيث
ورد في مجمع البيان ج ٩ ص ١٦٦
قريتك يا محمد يعني مكة.

وفي الكشاف مجلد ٤ ص ٣١٢
قومك الذين اخرجوك اهلكناهم، المراد
هنا اهل مكة. وكذلك في روح المعاني
ج ١٣ ص ٢٠٢ اهل قريته ﷺ وهي مكة
المكرمة.

• وجاء ذكر (قريتك) مرتين في سورة
الاعراف والنمل. ففي [سورة
الاعراف: ٨٢] ﴿قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ
مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾. وهنا عودة الى
سدوم قرية لوط.

في تفسير الجلالين ص ١٦١ اي
لوط واتباعه. المقصود بقريتك سدوم.



(مدين) حيث جاء ذكر شعيب. ففي

[سورة الاعراف: ٨٥] ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ

أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ اي ان شعيباً عليه السلام بعث

الى قوم مدين بن ابراهيم عليه السلام الذين

سكنوا بلاد الحجاز مما يلي الشام.

ويجدها اطلس القرآن ص ٧١ شرق

خليج العقبة. وفي مجمع البيان في

شرح الآية فقط "نخرجك يا شعيب

واتباعك من المؤمنين من بلدتنا التي

هي وطنك و مستقرك". (لم يحدد اسم

قرية شعيب).

وعندما يأتي ذكر اصحاب الايكة

(غيضة تنبت ناعم الشجر) فأنها كانت

بقرب مدين، في بدايتها وفي قول هي

مدينة تبوك بين جبلي حسمى وشروى.

(اطلس القرآن ص ٧١) وفي الكشاف

المجلد ٢ ص ١٢٤ لم يذكر اسم قرية

شعيب رغم الشرح المسهب لما حدث

لشعيب.

• جاء ذكر القريتين مرة واحدة في

[سورة الزخرف: ٣١] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا

نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ

عَظِيمٍ﴾.

تتفق التفاسير على ان القريتين هما

مكة والطائف. ففي تفسير الجلالين

ص ٤٩١ "رجل من اهل القريتين من اي

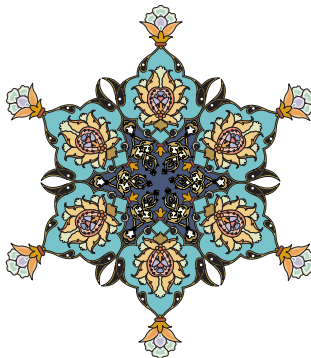
منهما عظيم اي الوليد بن المغيرة بمكة

أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف.

وفي مجمع البيان ج ٩ ص ٧٨ القريتان

مكة والطائف وفي الكشاف المجلد ٤

ص ٢٤١ القريتان مكة والطائف.



وَاللَّهُ
وَسَيُكَلِّمُ الَّذِينَ يُرِيدُ

وَاللَّهُ
يُكَلِّمُ الَّذِينَ يُرِيدُ

سُبْحَانَ اللَّهِ
عَبْدُ اللَّهِ
عَبْدُ اللَّهِ

سُبْحَانَ اللَّهِ
عَبْدُ اللَّهِ
عَبْدُ اللَّهِ

المَلَايْحُ المَعْتَبَرَةُ فِي قِصَّةِ ذِي القَرْنَيْنِ

كَمَا وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الكَهْفِ

أ.م.د. حسن كاظم أسد

كلية التربية - جامعة ميسان

فحوى البحث

(ذو القرنين) شخصية تمثل جانب الخير في من آتاهم الله - سبحانه - الملك والحكمة، وردت قصته في سورة الكهف المباركة كمثال أعلى لعبادة الله المتقين الشاكرين لنعمته. وقد تعرض البحث لقصته من خلال الأخبار والروايات المأثورة وما ذهب إليه المفسرون وخلص البحث الى أن القرآن الكريم أبقى هذه الشخصية ومكان وزمان ظهورهما والاماكن التي ملكها، لغزاً تاريخياً جعل المؤرخين والجغرافيين يدلي كل بدلوه في الأمر وقد عرض الباحث لتلك الآراء من دون أن يبدي رأيه في أي منها. وحتى الآراء والتحليلات التي أوردها. اعتمد فيها - جميعاً - المصادر التي تعرضت لذي القرنين. وقد جاء البحث في ثمانية مباحث وخاتمة.

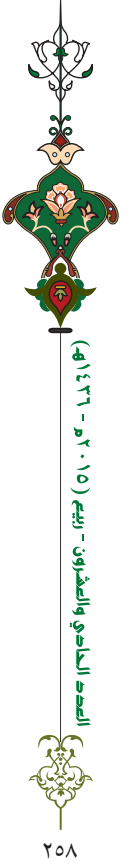
مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد...
القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى، والمنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ بوساطة الوحي، وهو معجزة نبينا، وهي المعجزة الخالدة، ولن تنتهي حتى قيام الساعة، فقد تكفل الله بحفظها من التحريف والتبديل أو العبث، فقد انتهت كل معجزات الأنبياء بانتهاء عصورهم، كما أن معجزة القرآن الكريم تختلف عن معجزات الأنبياء السابقين في كثير من زوايا الإعجاز، ففيه خصوصية أن العقل لا ينتبه إليه إلا بعد أن ينشط ويكشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره، فلذلك ما من جيل إلا ويكتشف سرّاً قد غاب عن الجيل الذي سبقه، حتى يكون حجة على الجيل المكتشف، فالمعرفة متدرجة بحسب النزول وبحسب الفهوم، وهي حكمة من الله سبحانه.

وتعددت أوجه الإعجاز فلم يقتصر على نمط واحد، بل إن للقرآن وجوهاً للإعجاز كثيرة فضلاً عن كونه معجزة امتدت لتشمل البشرية جمعاء وفي كل العصور، وكلما ظهرت وجوه للإعجاز في عصر ظهرت أخرى بمشيئة الله على أيدي العلماء، والذي يهمننا في هذا البحث هو في إعجاز القرآن القصصي الذي تمثل في أسلوبه التعبيري ومدخليته في فهم المراد مع النظر في روائع الصور الكامنة التي يستجد اكتشافها، فالحركة في النص واضحة جلية يرسمها الله تعالى فيمنحها الحياة والحركة المتجددة، ذلك أن أسلوب القصص القرآني ذو خصائص امتاز بها عن سائر الأساليب فله في المعنى واللفظ ألوان من التوجيه، وفنون من الإيحاء والتعليم، كما أنه له - كما للقرآن الكريم كله - من الجودة التي لا تبلى، وتلك الروعة التي لا تزول.

فقد قصص الله تعالى في القرآن الكريم قصصاً للأنبياء والمرسلين وما دار بينهم وبين أقوامهم، وما حدث من وقائع وأحداث في زمانهم، قصصاً علينا



بأساليب متنوعة يتحقق بها إعجاز القرآن الكريم، وإن التأمل والمتدبر في آيات القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى كرر ذكر كثير من الأنبياء في أكثر من سورة وأكثر من موضع، ومن بين تلك القصص التي يفاد منها العبر والموعظة هي قصة ذي القرنين، إلا أن سورة الكهف تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين) لم تكرر في أي موضع آخر من القرآن الكريم، حيث أن هذه القصص بخلاف أغلب القصص القرآنية لم تكرر في مكان آخر من القرآن إلا في الآية (٩٦) من سورة الأنبياء حيث أشارت إلى يأجوج ومأجوج من دون ذكر ذي القرنين. وهذه الإشارة تعدُّ واحدة من خصائص هذه السورة المباركة. فقد تناولت هذه القصة أخبار الماضين للتعاطف وأخذ الدروس والعبر، والملاحظ في السرد القصصي القرآني أنه حينما يسرد قصة ذي القرنين لم يتعرض إلى تفاصيل حياته بل اكتفى بذكر ثلاث رحلات منه، ولم يذكر أسماء الأماكن أو

تحديد الأزمنة التي دارت عليها وفيها أحداث القصة، كما انه لم يصرح باسمه الصريح، ففي عدم ذكر الاسم الصريح في القصة والاكتفاء باللقب دليل على المكانة المقبولة لذي القرنين، كما أن العبرة في هذه القصة تتحقق من دون الحاجة إلى تحديد الزمان والمكان.

لهذا أقدم هذا البحث لأبين حقيقة الاعتبار في القصص القرآني وأسراره وفوائده، وتأسيساً على ذلك قسمت البحث على مباحث وخاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول: القصة في القرآن

القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق -إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها^(١).

(١) ينظر: التصور الفني في القرآن، سيد قطب: ص ١٤٣، دار الشروق، بيروت.



ويتناول القصة من جميع أطرافها^(٤).
فالقصة القرآنية هي من قبيل الإخبار عن الأحداث التي يعد الزمن بها واندرت أو كادت أن تندثر فهي من أنباء الغيب وحين ننظر إلى القصص القرآني نجد أنه يجيء بهادته كلها من الماضي البعيد دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو من متوقعات المستقبل^(٥).
والقصة القرآنية تزيد المسلم بصراً بدينه وثباتاً على إيمانه والثقة بوعد الله تعالى ويقوم القرآن بشرح مصائر الكافرين وعاقبة المتقين كي ينشرح صدر المؤمن ويزداد إيماناً على إيمانه وليعلم أن الإنسان مهما عظم فهو عبد الله وأن قوة البشر جميعاً لا تعني شيئاً أمام القوة الإلهية المطلقة وأن ثقافات الدنيا بأكملها لا تغني عن دين الله^(٦).
والقصص القرآني لون من ألوان

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن، أحمد بدوي: ص ٢٧٧.

(٥) ينظر: الفن القصصي: محمد أحمد خلف الله، مكتبة النهضة: ص ٧٨.

(٦) ينظر: إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، حنفي محمد شرف: ص ٢٨٧.

وقد سمي القرآن الكريم الوقائع التي حدثت في الماضي قصصاً لأن القصة مشتقة من القص وهو تتبع الأثر^(٢).

قال تعالى ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه ﴾ [سورة القصص: ١١]، أي تتبعي آثاره على ما أنتهي إليه أمره ومن هذا قولهم قص الأثر أي نظر فيه واقتفى أثره واقتصصته وتقصصته وخرجت في أثر فلان قصصاً وجاء في القرآن ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلِيَّ إِثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [سورة الكهف: ٦٤]. وقص عليه الرؤيا والحديث قال تعالى ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ ﴾ [سورة يوسف: ٥].

فالقص للأثر مثل البصمات ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت وليمسك بما يقدر على إمساكها منها^(٣). ولم يكن القرآن كتاب قصص وإنما يذكر القصة بقدر ما تقدم من أغراض دينية فلا يصح حينئذ أن يؤخذ عليه أنه لا

(٢) ينظر: لسان العرب لأبن منظور، مادة قص.

(٣) ينظر: القصص القرآني، عبد الكريم خطيب: ص ٤٤.



الإعجاز القرآني والقصة القرآنية لم تكن سرداً لأحداث الماضي بل هي عبرة واعتبار وبيان حقائق الإسلام الأساسية فنجد أن القصة القرآنية بيان لعقيدة التوحيد والنبوات والمعاد والنظر في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام يثبت لنا أن القصة القرآنية هي قصة عقائدية ذات أهداف وأغراض دينية، والقصص القرآني كما قلنا سر من أسرار الإعجاز ومقصد من مقاصده الشريفة فقد أشتمل على فصول عدة من الأخلاق الفاضلة والمحاسن النبيلة فهو يهذب النفوس ويحمل الطباع وينشر الحكمة والآداب بين الناس أجمعين وأيضاً يشتمل على طرق شتى في التربية والتهذيب تساق مساق الحوار طوراً وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار وتارة مذهب التخويف والإنذار كل هذا قصه الله بأسلوب بين وقول حكيم وافتنان عجيب كما هي طريقة القرآن في كل سورة ليدل الناس على الخلق الفاضل والسلوك القويم ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح ويرشدهم إلى العلم النافع

بأحسن بيان وأقوم سبيل وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكونه من طرق التعليم ونبراسهم المضيء فيما يصطفون من وسائل للإرشاد (والقصص القرآني فن بالغ الروعة والإعجاز وجاء بأسلوب لم ولن يكون له مثيل وأسلوبها المعجز أسبغ عليها من روعة التشبيهات ما جعلها فريدة في نوعها)^(٧).

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وفي طريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات معينة منها التصوير الفني^(٨).

المبحث الثاني: منهج القصة القرآنية

القرآن الكريم كتاب فذ فريد في كل ما يتعلق به من أسلوبه وبلاغته إلى موضوعاته وتشريعاته. ومنهجه متميز في الأداء (فالمنهج القرآني في تناول القصة يختلف عن المناهج البشرية فهو منهج يقوم على الصدق التاريخي ومنهج

(٧) القرآن والقصة الحديثة، محمد كامل حسن:

ص ٨، دار البحوث العلمية - بيروت.

(٨) ينظر: التصور الفني في القرآن، ص ١٤٣.



القرآنية نستطيع أن نحيا مرة أخرى حياتنا الصحيحة بعزائم الإيمان وحقائق القرآن وثمرات العدل والعلم على هذه الأرض الخيرة نفسها لصحوها الدائم وواقعها المشمس ومداهما البعيد ورؤيتها الجليلة متطهرين من دسائس العدو ومن أساطير آلهته ومن كهانات فكره ومن ثمالات خمره^(٩٠).

ومن مميزات المنهج القرآني: هو عرض الأحداث التاريخية بلا تزوير أو زيف أي أن القرآن أكبر وثيقة تاريخية تشكل واقعية القصص القرآني التي جاءت من بطن الغيب ليحقق بها صدق الرواية وواقعيتها الحقه ويعارض بها روايات العبرانيين وأهل الكتب ويقص ما كان من أقوام مضت من مواقف إزاء الرسل والدعوة إلى الإيمان فبنيت بناءً محكماً من لبنات الحقيقة المطلقة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾^(٩١).

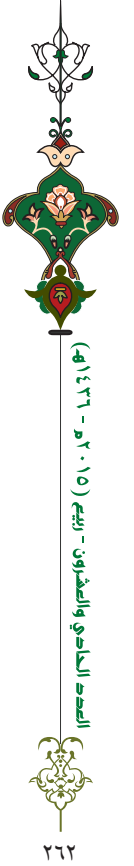
الحق المبين منهج حي متجدد في التعبير عن حركة الواقع ودلالاته في حياة الإنسان والمجتمع^(٩).

فقصص القرآن ذات منهج خاص وذات طابع فريد في العرض والبناء والصور البيانية والمستوى النغمي والدلالي والمضامين، فنرى تحذير الله تعالى المؤمنين من خطر انفصال بالتفكير الخيالي عن واقع هذا الانفصال الذي يغتربون به عن سنن الله ويقعون به في وهم القدرة على تغيير خلق الله أو التجني لهذا التغيير من داخل انشاقات أنفسهم وانشطار رؤيتهم وذلك حيث يقول القرآن الكريم على لسان الشيطان في عمله الذي ينفصل فيه فكر الإنسان المهزوم عن واقعه الجلي ﴿ وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مُنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْرِتْ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [سورة النساء: ١١٩].

(وبهذا المنهج المبين في القصة

(٩٠) قصص القرآن في مواجهة الرواية والمسرح، ص ٢١١.
(٩١) ينظر: من علوم القرآن، ص ٢٠١، والآية ٣ من سورة يوسف.

(٩) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم: ص ٢١١، دار الجليل - بيروت.



المبحث الثالث:

التناسق الفني في عرض قصة ذي القرنين

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في مقدمة كتابه (القصص القرآني) في منطوقه ومفهومه (فهو «الفصص القرآني» في موضوعه نسيج من الصدق الخالص وعصارة من الحقيقة المصفاة لا تشوبه شائبة من وهم أو خيال. إنه يبنى من لبنات الواقع بلا تزويق ولا تمويه وهذا الواقع لا يتغير وجهه حين يعرض هذا العرض المعجز من ذلك الأسلوب القرآني الرائع فالإعجاز والروعة إنما يتجليان في صدق الأداء وفي نقل الواقع وما يلبس به من سرائر النفوس وخلجات الصدور وأنه ليس النقل الفوتوغرافي الذي يقف عند السطح ولا يتجاوز شيئاً مما وراءه من أبعاد وأعماق بل هو نقل حي للأحداث حتى كأنها تتجدد في الزمان والمكان اللذين حملها فتظهر كأنها في ساعة ميلادها لا يختلف يومها عن أمسها ولا يفقد من يشهدها اليوم شيئاً مما شهده منها

ومن خصائص المنهج في القصص القرآني أنك ترى تديراً عجبياً معجزاً في توزيع المشاهد القصصية توزيعاً محكماً متوازناً بين الحدث والشخصية فلا تجد موقفاً تستأثر به الشخصية دون الحدث ولم يحدث العكس أيضاً فالأشخاص ليسوا مقصودين في القصة لذاتهم وإنما كنهاذج في مجال الصراع بين الخير والشر والحق والباطل والكفر والإيمان.

إن التفاعل جدلي بين الأحداث والشخصيات والحركة بينما هو عنصر من عناصر المنهج القرآني في القصة القرآنية. ومن مزايا المنهج القرآني في إيراد القصة إنه منهج واقعي صادق بعيد عن الزخرفة الكاذبة والتزويق اللفظي والقصص الخيالي الكاذب فالصدق التاريخي والصدق البياني هو منهج قصة القرآن الكريم وهدفها العبرة والعظة فالقصة القرآنية محكمة المنهج محكمة البناء محكمة المضمون رائعة الأهداف إنسانية الأغراض شريفة المقاصد^(١٢).

(١٢) ينظر: التعبير الفني في القرآن، بكري الشيخ أمين: ص ٢٣٢.



الشاهدون بالأمس) (١٣).

من نص الأستاذ الخطيب نفيد أن قصص القرآن حق لا يأتيه الباطل ولا تثار حوله الظنون حتى لو لم نعثر على ما يؤيده في سجلات التاريخ المكتوب فالبشرية لم يُحتفظ بكل سجلاتها كما هو معروف (فمثلاً لا تكاد تعثر في سجلات مصر القديمة على أية إشارة لقصة موسى والخروج ولكن ليس معنى ذلك إن القصة غير حقيقية وإنما معناه أن السجلات غير موجودة أو غير مكتوبة أصلاً) (١٤).

فنحن نجد الإعجاز القرآني التاريخي في قصة ذي القرنين، والتي سندرسها بالتفصيل لاحقاً. فالتناسق الفني والموضوعي واضح في هذه القصة العجيبة التي لم يعرفها رسول الله ﷺ وإنما هو سؤال وجه له من قبل أحبار اليهود وكبار مشركي العرب

(١٣) القصص القرآني في منظوقه ومفهومه عبد الكريم الخطيب: مقدمة الكتاب.

(١٤) دراسات إسلامية في التفسير والتاريخ، محمد العزب موسى: ص ٨، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.

ليخرجوه ولكن الله تعالى كان في عون نبيه الكريم وتكفل الله تعالى الإجابة عن سؤالهم فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَسْتَلُونَا عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا

عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي

الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعُ سَبَبًا

﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي

عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ

إِمَّا أَنْ تَغْدِبَ وَإِمَّا أَنْ نُلْحِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ،

فَيُعَذِّبُهُ، عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا

إِسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ

الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ

دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا

﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ

وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ

مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ

تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي

خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقَوْمٍ آجَعَل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾

ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ

قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ



عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ
وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ، نَقَبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ
رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا ﴿[سورة الكهف: ٨٣ - ٩٨].

هذه هي قصة ذي القرنين كما رسمتها الريشة المبدعة التي صاغت القصص القرآني فالقصة جاءت مشحونة بالأحداث المتحركة والشخصيات المؤمنة والمنحرفة والصراع بين الشر والخير والحق والباطل وانتصار الحق في نهاية المطاف الذي كان أمراً لا بد منه.

فقصة ذي القرنين في القرآن جاءت محكمة البناء وهي وصف لرحلات ثلاث إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الوسط قام بها رجل يسمى ذا القرنين. لكن الجو الغامض الذي أحيط بهذه الرحلات وتراءى غموضه كالمقصود في القرآن، يلوح بالمعاني الغيبية من وراء ستار، فقد بلغ ذو القرنين هذا مغرب الشمس في رحلته الأولى ومشرقها في رحلته الثانية والمنطقة المتوسطة وبين السدين في رحلته الثالثة^(١٥)، وفي

(١٥) ينظر: تفسير الميزان: ج ١٣، ص ٣٧٨.

رحلته الغربية وجد الشمس تغرب في عين حمئة كثيرة الطين اللزج في موضع تكثر فيه المياه والأعشاب وقد سكت القرآن عن تحديد تلك العين الحمئة فألقانا الغموض المقصود في تجهيل شديد وبما كان يفوق سرية الأمور المسماة بالغيبية^(١٦).

وفي رحلته الشرقية وجد الشمس تطلع على قوم لا ستر لهم دونها فربما أفاد هذا أن القوم كانوا عراة وربما أشار إلى أن أرضهم مكشوفة تطلع الشمس عليهم فيها بلا ساتر وليس في النص ما يقطع بأسماء القوم ولا باسم الأرض التي كانوا فيها ينزلون.

أما رحلته المتوسطة بين السدين فكل ما فيها يدعوا إلى الرهبة الشديدة التي يفوق الشعور بها أحياناً شعور التهييب لدى مواجهة الغيب وأسراره فالقرآن هنا يكرر موصوفاً بعينه يسميه بين السدين مثلما يذكر قوماً بأعيانهم يسميهم يأجوج ومأجوج ووصفهم

(١٦) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري: ج ١٦، ص ١٧.



حَقًّا ﴿ هذه قصة ذي القرنين العجيبة في كتاب الله. أما الحكمة الظاهرة في القصة فقد حوت المباني القليلة المعاني الكثيرة والصراع موفور بين ثنايا القصة بين الشر والخير والشخصيات والأحداث متوازنة ومتساوقة والحوار يلفت النظر حوار العبد مع أخيه (١٨).

المبحث الرابع: من هو ذو القرنين

في الآيات البيئات المذكورة آنفا يحدثنا القرآن الكريم عن ذي القرنين ويحكي وقائع محددة قام بها ويقصص عن أناس التقى بهم وأماكن ذهب إليها فمن هو ذو القرنين... أول ما يتبادر إلى الذهن هو تحديد معنى الاسم ماذا يعني ذو القرنين؟. أو صاحب القرنين؟.

إن لفظة قرن لها أكثر من معنى فهي تدل على:

١. القرن بمعناه الحرفي كالذي يحمل الكيش أو العجل.
٢. القرن بمعنى الطرف الذي يواجه طرفاً آخر كأن نقول قرنا الهلال أي

(١٨) ينظر: التصور الفني في القرآن، فصل القصة، أنظر التعبير الفني فصل الفقه.

بالإفساد في الأرض وما نظن هذه الألوان من الغموض إلا مقصودة في هذا السياق (١٧).

إن حديث القرآن عن ذي القرنين لا يشبه حديث كتاب في السيرة عن الفتوحات التي أتمها فاتح عظيم وإنما يرسم القرآن بتصوير فني فائق وبريشة مبدعة في غضون هذه الرحلات الثلاث ملامح إنسان شديد الصلة بالله لم يكن سلطانه بقوته الشخصية بل مكن الله له في الأرض وأتاه من كل شيء سبباً وهتف به أو ألهمه أو أوحى إليه كما يريد في الملمات ليوجه أفضل الوجوهات حتى قال له عند العين الملتئمة ﴿يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَامًا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَامًا أَنْ تَنْخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

وتبدو صلة ذي القرنين بالله تعالى في قوله للقوم عند بناء السد ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [سورة الكهف: ٩٦]، ثم قوله عند انتهائه من هذا البناء ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي

(١٧) ينظر: تفسير الميزان، الطباطبائي: ج ١٣، ص ٣٨٨.



طرفاه المديبان.

٣. الريشة الزخرفية التي يضعها الملوك

في تيجانهم.

٤. حقبة زمنية مدتها ١٠٠ سنة وقد

تعني كذلك العصر والجيل^(١٩).

وقد ذكر المفسرون وجوهاً في سبب

تسميته بذئ القرنين:

١. سمي بذئ القرنين لأنه ملك قرني

الأرض المشرق والمغرب.

٢. سمي بذئ القرنين لأنه أنقرض في

وقته قرنان من الناس.

٣. سمي بذئ القرنين كان على رأسه ما

يشبه القرنين.

٤. كان لتاجه قرنان.

٥. عن النبي ﷺ أنه سمي ذا القرنين

لأنه طاف قرني الدنيا شرقها

وغربها.

٦. سمي بذلك لأنه كان له

ضفيرتان^(٢٠).

٧. قيل أنه حكم قرنين من الزمان^(٢١).

وجاء في التسهيل لعلوم التنزيل

(السائلون اليهود أو قريش بإشارة

اليهود وذو القرنين هو الأسكندر

الملك وهو يوناني وقيل رومي وكان

رجلاً صالحاً وقيل كان نبياً وقيل كان

ملكاً (بفتح اللام) والصحيح أنه

ملك بكسر اللام وأختلف في تسمية

ذا القرنين فقيل كان له ضفירתان من

شعرها قرناه فسمي بذلك وقيل لأنه

بلغ المشرق والمغرب وكأنه حاز قرني

الدنيا^(٢٢)، وقد ذكر محمد ابن إسحاق

سبب نزول هذه السورة فقال حدثني

شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ

بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن

عباس قال: بعثت قريش النصر بن

الحارث وعقبة ابن أبي معيط إلى أحبار

(٢١) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ج٧،

ص٥٨٤.

(٢٢) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن

أحمد بن جزي الكلبي، الطبعة الرابعة،

سنة الطبع: ١٤٠٣ - ١٩٨٣م، المطبعة:

لبنان - دار الكتاب العربي، الناشر: دار

الكتاب العربي: ج٢، ص١٩٥.

(١٩) ينظر: دراسات إسلامية، محمد العزب

موسى: ص١٢.

(٢٠) ينظر: النور المبين في قصص الأنبياء

والمرسلين، نعمة الله الجزائري: ص١٧٩ -

١٨٠.



الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمرهم به فقال لهم رسول الله ﷺ أخبركم غداً عما سألتكم عنه ولم يستثن، أي: لم يقل إلا أن يشاء الله، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا نخبأ بشيء عما سألتنا عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبه إياه على حزنه عليهم وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح (٢٣).

والنص القرآني لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه وهذه هي السمة المطردة في

يهود المدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد ووصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالوا إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟. وسلوه عن الروح ما هو؟. فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل منقول فأصغوا في أمره ما بدا لكم فأقبل النصر وعقبة حتى قدما على قريش فقالوا يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاء رسول

(٢٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ج٣، ص٧٦، وينظر: في ظلال القرآن: ج١٦، ص٧-٨، وينظر: أسباب النزول، الواحدي ولباب النقول للسيوطي: ص١٤٣.



قصص القرآن فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان^(٢٤).

فالإسكندر الإغريقي ليس موحدًا، بل هو مشرك ووزيره أرسطاطاليس، أما ذو القرنين المذكور في القرآن فهو مؤمن بالله موحد معتقد بالبعث والآخرة، الذي ذكره الله في القرآن اسمه: عبد الله بن الضحاك بن معد، قاله ابن عباس، ونسب هذا القول أيضا إلى الإمام علي بن أبي طالب^(٢٥).

والواضح من قصة ذي القرنين في سورة الكهف أن ذا القرنين المذكور في القرآن، عاش قبل الإسكندر المقدوني بمئات من السنين فليس هو هو بل هو أحد الملوك الصالحين من التبابعة الأذواء من ملوك اليمن، وكان من

(٢٤) ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب ج١٦، ص٨.

(٢٥) ينظر: عمدة القاري، العيني: ج١٥، ص٢٢٣، وينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ج١٦، ص٨.

شيمة طائفة منهم التسمي بذي كذي همدان وذي غمدان وذي المنار وذي الأذعار وذي يزن وغيرهم. وكان مسلما موحدا وعادلا حسن السيرة وقويا ذا هيبة وشوكة، ولكن قوته وقدرته وحكمته كانت جميعاً هبة من الله الذي أرشده إلى فعل ما يفعل^(٢٦).

وأختلف العلماء في وظيفته هل عبد صالح وكفى أم نبي مرسل ومن قال بنبوته أحتج ببعض الأدلة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين والتمكين الكامل في الدين هو النبوة وقوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ وهذا يدل على أن الله تعالى آتاه من النبوة سبباً والثالث قوله تعالى: ﴿يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ نُنَّحِدَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً ومنهم من قال إنه رجل صالح حكم بالحق والعدل وما كان نبياً^(٢٧).

(٢٦) ينظر: تفسير الميزان، الطباطبائي: ج١٣، ص٣٨٨، وينظر: دراسات إسلامية، محمد العزب موسى، ص١٢.

(٢٧) ينظر: النور المبين في قصص الأنبياء =



المبحث الخامس:

الإيمان والسلطان في شخص ذي القرنين

جمعت قصة ذي القرنين بين العلم والعمل، والحكم والعدالة؛ والقول والفعل؛ والرأي والشورى؛ والقانون والدستور؛ والصبر والحكمة؛ والسلطة والوجاهة، والقوة الروحية والمادية، فقد كانت شخصية ذي القرنين بين الحاكم العادل والعالم العامل، إلى جانب ورعه وتقواه وخوفه من الله تعالى، وحثه على نشر قيم العدالة بين الناس يستخدم القوة في التعمير والإصلاح، ولا يستغل فتوحاته وسيلة في التجبر، فقد تحمل أعباء السفر ليخدم الناس ويتفقد أحوالهم ويبيث فيهم روح العمل، فقد مكن الله لذي القرنين في الأرض فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم ويسر له أسباب الحكم والفتح وأسباب البناء والعمران وأسباب السلطان والمتاع وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا

= والمرسلين، الجزائري، ص ١٨٠، وأنظر: تفسير الرازي: ج ٢١، ص ١٦٥.

فيه في هذه الحياة^(٢٨).

فذو القرنين رجل مؤمن موحد مؤمن بالله واليوم الآخر وإيمانه وصل إلى درجة اليقين فهو عبد من عباد الله الصالحين أحب الله فأحبه الله ونصح الله فنصح له^(٢٩)، وفي الخبر قال (حدثنا علي بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أبي عبد الله البرقي قال: حدثنا أبي، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن أبيه محمد بن خالد باسناده رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فإسليمان بن داود عليه السلام وذو القرنين، والكافران نمرود وبختنصر، واسم ذي القرنين عبد الله بن -ضحاك بن معد^(٣٠).

فقد كانت مهمته الشكر لله تعالى وإنقاذ المستضعفين والمظلومين، وعندما

(٢٨) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب:

ج ١٦، ص ١١-١٤.

(٢٩) ينظر: الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي: ج ٢، ص ٧٤١، وينظر: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين: ص ١٦٥.

(٣٠) الخصال، الصدوق: ٢٥٥، وينظر:

لبداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢، ص ١٦٢.



وجده الناس فاتحاً قوياً وتوسموا فيه القدرة والصلاح عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاضرين ويغيرون عليهم من ذلك الممر فيعيثون في أرضهم فساداً ولا يقدرّون على دفعهم وصدّهم وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم.

وتبعاً للمنهج الصالح الذي اتبعه وأعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض فقد رد عليهم الذي عرضوه من المال وتطوع بإقامة السد ورأى أن أيسر طريقة لأقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين فهو قائد دفاع رباني نفذ أوامر الله في إقامة إمارات العدل والحق ودفع الظلم والاستعباد ومن خلال رحلاته الثلاث يمكن أن نطلع على منهجه في الحياة وهو أن القوة يجب أن تستخدم في خدمة الناس وإرضاء رب العالمين ولا تستخدم في الطغيان والجبروت وما يسمى بحق الفتح^(٣١).

ففي الرحلة الأولى عفى ذو القرنين عن الأبرياء من القوم الذين يعيشون بالقرب من العين الحمئة وفي الرحلة الثانية لم يتدخل في شؤون القوم الذين ليس لهم ستر من دون الشمس وفي الرحلة الثالثة ساعد القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً على إقامة سد بينهم وبين أعدائهم دون أن يتقاضى على ذلك خرجاً، بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ استغناء من ذي القرنين عن خرجهم الذي عرضوه عليه على أن يجعل لهم سداً يقول: ما مكنتني فيه وأقرني عليه ربي من السعة والقدرة خير من المال الذي تعدونني به فلا حاجه لي إليه^(٣٢).

وهذا هو الدرس الروحي والعبر والدلالات التي تفهم من الآيات الكريمة والذي يمكن أن يفهمه الجميع بدون حاجة إلى معلومات تاريخية أو جغرافية أو علمية فالقرآن الكريم ليس كتاباً في التاريخ أو في الجغرافية أو في العلوم ولكن ما فيه هو الحق الصراح

(٣٢) ينظر: الميزان، السيد الطباطبائي: ج ١٣، ص ٣٦٤.

(٣١) ينظر: دراسات إسلامية في التفسير والتاريخ، محمد العزب موسى: ص ٢٢.



المبحث السادس:

مقاومة الظلم والفساد من أهدافه المقدسة

قلنا في المبحث الخامس أن مهمة ذي القرنين هي مهمة ربانية في الفتح المقدس والتغيير وحماية الإنسان من الطغاة والغزاة فرسلته رسالة كبرى تصل إلى درجة الأنبياء عليهم السلام الذين قاموا برسالة التغيير في هذه الأرض على مر التاريخ، فالظلم حاربه القرآن حرباً لا هوادة فيها فالظالمون يذكروهم القرآن ويوعدهم بالنار والجحيم فليس لهم ناصر ولا شفيع ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٠]، ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [سورة غافر: ١٨]، أعد لهم العذاب الأليم ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢]، ولهم مشوى السوء ﴿ وَيَسَّ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥١]، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [سورة غافر: ٥٢]، اليأس من رحمة الله ﴿ فَادْنِ مَوْدِنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٤٤]، سراق من النار تحيط بهم ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا

الذي كلما زادت معلوماتنا التاريخية والجغرافية والعلمية، أزددنا منها لدراسته ومعانيه وحقائقه. فالواجبات التي نهض بها هذا الفاتح العظيم هي واجبات دينية للإصلاح وبناء المجتمع الفاضل الذي يؤمن بالقيم والمثل العليا فكل واجبات السلطان الإلهي قام بتنفيذها ومنها:

١. الفتح وتحرير العباد والبلاد من أعداء الله المتكبرين والمتجبرين.

٢. نشر السلام والخير والأمان في ربوع الأرض.

٣. حماية المستضعفين والأبرياء من ظلم الظالمين وجور الجائرين.

فالمسؤوليات الملقاة على القائد الرباني:

١. هي إقامة الشعائر الدينية والعبادة لله وحده.

٢. الأمر بالمعروف وإشاعة الخير والصالح في المجتمع.

٣. النهي عن المنكر ومكافحة كل ألوان الفساد والانحراف والظلم والزور.

تلك هي مهمة ذي القرنين فهي وظيفة البناء في التعبير والبناء والعمل الصالح.



لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴿﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

فهؤلاء الظالمون كافحهم الأنبياء والمرسلون وكان ذو القرنين مكافحاً عنيداً لهؤلاء المجرمين في الأرض فقد توكل على الله وسار وطاف في شرق الأرض وغربها وكان فاتحاً عظيماً نشر رسالة التوحيد في الأرض وحكم بالقسط وحارب الظلم وانتصر على الظالمين ببيانه المطلق وتوكله على الله وحده لا شريك له أما الفساد فقد حرمه الله في كتابه المجيد وقال ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦] فالحديث عن ذي القرنين في القرآن لا يشبه ولا ينبغي أن يشبه حديث كتاب السيرة عن الفتوحات التي أتمها فاتح عظيم وإنما يرسم القرآن في غضون هذه الرحلات الثلاث ملامح إنسان شديد الصلة بالله لم يكن سلطاناً بقوته الشخصية بل مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً وهتف به أو

أهمه أو أوحى إليه كما يريد في الملمات ليوجهه أفضل الوجوهات حتى قال له عند العين الحمئة ﴿ يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَامًا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَامًا أَنْ نُنَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (٣٣).

وتبدو صلته بالله شديدة، وثق في قوله للقوم عند بناء السد ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ ثم قوله عند أنتهائه من هذا البناء ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [سورة الكهف: ٩٨]. وقد خلط بعض المفسرين بين ذي القرنين المتدين المؤمن هذا والإسكندر المقدوني الوثني المشهور (٣٤).

(٣٣) ينظر: تفسير الميزان، الطباطبائي: ج ١٣، ص ٣٨٩، والآية ٨٧ من سورة الكهف.
(٣٤) ينظر: سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٢، ص ٣٤٨، وينظر: السيرة الحلبية، الحلبي: ج ١، ص ٢٥٨، وينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢، ص ٢٩٩، الذي شبه له أن الإسكندر الإغريقي هو ذو القرنين، ولك النص ﴿ وَسَأَلْنَاكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ يعني الإسكندر قيصر، وينظر: تفسير القرطبي: ج ١١، ص ٤٥، وتفسير البيضاوي: ج ٣، ص ٥١٩، ينظر: كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي: ج ٢، ص ١٩٤، =



والصالحين من الناس هي محاربة الظلم والقضاء على الفساد وهذا ما شرحه القرآن بدقة وأمر به في كل المناسبات، فذو القرنين في منطق القرآن نموذج طيب للحاكم الصالح الذي مكن الله له في الأرض ويسر له الأسباب فاجتاح الأرض شرقاً وغرباً ولكنه لم يتجبر ولم يتكبر ولا طغى ولا تبطر شأن الطغاة الذين يحكمون الناس بالظلم والبغي ولم يتخذ ذو القرنين من الفتوح وسيلة للغنم المادي واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان.

ولم يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق لأنه كان محرراً لا فاتحاً مستغلاً للشعوب ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه إنما ينشر العدل في كل مكان ويحارب الظلم في كل مكان يحل به ويساعد المتخلفين ويدراً عنهم العدوان دون مقابل ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ولا ينسى وهو في آيات

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام إنه سئل عن ذي القرنين، فقال: سخر له السحاب وقربت له الأسباب وبسط له في النور فقبل له كيف بسط له في النور فقال كان يضيء بالليل كما يضيء بالنهار و أن يبلغ المشرق والمغرب فقال سخر الله له السحاب ويسر له الأسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء، وأنه رأى في المنام كأنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنها في شرقها وغربها فلما قص رؤياه على قومه وعرفهم، سمّوه ذا القرنين فدعاهم إلى الله فأسلموا^(٣٥).

وشتان بين الكفر والإيمان وبين الحق والباطل فرسالة الأنبياء والمرسلين

=وينظر: تفسير الجلالين، السيوطي: ٣٩٣، وينظر: تفسير الثعالبي: ج ٣، ص ٥٤، ينظر: فتح القدير، الشوكاني: ج ٣، ص ٣٠٧.

(٣٥) ينظر: الخرائج والجرائح - قطب الدين الراوندي: ج ٣، ص ١١٧٤ - ١١٧٥، وينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل - الزمخشري - ج ٢ - ص ٤٩٧، وينظر: التفسير الصافي - الفيض الكاشاني - ج ٣، ص ٢٦٠ - ٢٦١.



سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله (٣٦).

وهو في كل تصرفاته وأعماله العظيمة التي قام بها يثبت أن هدفه ليس المجد الشخصي أو إذلال الشعوب بالقوة الغاشمة وإنما أن يعيش ويترك غيره يعيش أي أن المثل الأعلى الذي يحركه هو إرضاء الله تعالى وليس مجرد السيطرة (٣٧).

المبحث السابع:

يأجوج ومأجوج في التاريخ

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْدَا الْقُرَيْنُ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال الأخفش من همز (يأجوج) فجعل الألفين من الأصل يقول يأجوج ويفعل ومأجوج مفعول كأنه أجيح النار قال ومن لا يهمز ويجعل الألفين زائدتين يقول: ياجوج من ييجت وماجوج من مججت وهما غير مصروفين (٣٨).

وفي قوم يأجوج وماجوج روي عن

أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ولد نوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد لحام القبط والبربر والسودان) (٣٩)، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أيضا أنه قال: (لا يموت رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل) (٤٠).

وقال أبو سعيد (هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل) (٤١).

وقال عبد الله بن مسعود (سألت النبي ﷺ عن يأجوج ومأجوج فقال ﷺ: يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمئة ألف وكل أمة لا يعلم عدها إلا الله لا يموت الرجل منهم حتى يولد له ألف

(٣٦) ينظر: في ظلال القرآن: ج ١٦، ص ١٤.

(٣٧) ينظر: دراسات إسلامية في التفسير والتاريخ، ص ٢٢.

(٣٨) ينظر: الصحاح، الجوهري: ج ١،

ص ٢٩٨.

(٣٩) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ١، ص ١٩٣، و فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج ٦، ص ٤٧٣.

(٤٠) عمدة القاري، العيني: ج ١٥، ص ٢٣٢.

(٤١) تفسير القرطبي: ج ١١، ص ٥٦.



سفيان عن أمها حبيبة عن زينب بنت جحش قالت: (أستيقظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول: ويل للعرب من شر قد أقترب وفتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بأصبعيه السبابة والابهام قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم وإذا كثر الخبيث) (٤٥).

وهذه الرؤيا قد مضى عليها (أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن وقد وقعت أحداث جسام وأخطار على الأمة الإسلامية والعربية ووقعت غارات التتار بعدها ودمرت ملك العرب بتدمير بغداد على يد هولاكو عام (٦٥٦ هـ)، وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ﷺ وعلم ذلك عند الله وكل ما تقوله ترجيح لا يقين) (٤٦).

والحقيقة إن يأجوج ومأجوج قبائل متوحشة غير متحضرة تفسد في الأرض ولا تعرف للقانون معنى فهم مفسدون

ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح) (٤٢).
وعن حذيفة بن اليمان قال: سألت رسول الله ﷺ عن يأجوج ومأجوج فقال: يأجوج أمة ومأجوج أمة كل أمة أربعمئة ألف أمة لا يموت الرجل حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه كل قد حمل السلاح) (٤٣).

فهما قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويه، منهم مفرط في الطول ومنهم مفرط في القصر قوم مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر قال المفسرون كانوا من أكلة لحوم البشر يخرجون في الربيع فلا يتركون اخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه) (٤٤).

وهناك الكثير من الروايات الواردة عن الرسول ﷺ في وصف يأجوج ومأجوج منها الحديث المروي عن سفيان الثوري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي

(٤٢) تفسير القرطبي: ج ١، ص ٥٧، وينظر:

الدر المنثور: ج ٤، ص ٢٥٠، وينظر:

قصص الأنبياء، للجزائري، ص ١٨٠.

(٤٣) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٨، ص ٦.

(٤٤) ينظر: صفوة التفاسير: ج ٢، ص ١٨٩.

(٤٥) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج ٦، ص ٤٢٨.

(٤٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ١٦،

ص ١٦.



في الأرض هكذا وصفهم الله تبارك وتعالى (وإفسادهم اختلف فيه العلماء فمنهم من يقول إفسادهم أكل بني آدم وقالت فرقة إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر والله أعلم) (٤٧).

وهناك أساطير حول يأجوج ومأجوج نتركها ونعتمد ما قاله القرآن الكريم والرسول العظيم ﷺ.

المبحث الثامن:

الرحلات الثلاث وأسرارها

يبدأ الحديث عن ذي القرنين بقوله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا ﴾ أي: (بسطنا يده فيها وقويناه «وآتيناه من كل شيء سبباً» ومعناه علماً يتسبب به إلى ما يريده في قول ابن عباس وقتادة وابن زيد والضحاك وابن جريج و «قيل آتيناه من كل شيء سبباً» يعني ما يتوصل به إلى مراده. ويقال للطريق إلى الشيء سبب وللجبل سبب وللباب سبب

(٤٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ١١، ص ٥٦.

«فاتبع سبباً» أي سبباً من الأسباب التي أوتي. ومن قرأ بقطع الهمزة أراد فلحق سبباً، يقال ما زلت أتبعه حتى اتبعته أي لحقته. وقوله «فاتبع سبباً» قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد: معناه طرقاً من المشرق والمغرب وقيل معنى «وآتيناه من كل شيء سبباً» ليستعين به على الملوك وفتح الفتوح، وقتل الاعداء في الحروب «فاتبع سبباً» أي طريقاً إلى ما أريد منه) (٤٨)، فقد مكن الله له في الأرض فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم ويسر له أسباب الحكم والفتح وأسباب البناء والعمران وأسباب السلطان والمتاع وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة (٤٩)، فاتبع سبباً ومضى في وجه من يسر له وسلك طريقه إلى الغرب وقد فصل ذو القرنين إلى المغرب غازياً فاتحاً محارباً مجاهداً لا يصادف في طريقه حزناً إلا سلكه ولا عالياً إلا ظهره ولا عدواً إلا كسر سلاحه وقص جناحه ولا

(٤٨) التبيان، الشيخ الطوسي: ج ٧، ص ٨٦.

(٤٩) ينظر: في ظلال القرآن: ج ١٦، ص ١٠.



الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب وراء الأفق وهو يختلف بالنسبة للمواضع والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي وكان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهي عنده فرأى الشمس تغرب فيه^(٥٢).

و قوله تعالى: ﴿ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ وإن كانت تغرب في ورائها، عن الجبائي، وأبي مسلم، والبلخي، لأن؛ الشمس لا تزايل الفلك، ولا تدخل عين الماء ولكن لما بلغ ذو القرنين ذلك الموضع، تراءى له كأن الشمس تغرب في عين، كما أن من كان في البحر رآها كأنها تغرب في الماء، ومن كان في البر يراها كأنها تغرب في الأرض المساء، والعين الحمئة: هي ذات الحمأة، وهي الطين الأسود المتتن، والحامية: الحارة، والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ وتوجد البرك وكأنها عيون الماء فرأى الشمس تغرب

(٥٢) في ظلال القرآن: ج ١٦، ص ١١.

يبالي في الجهاد الحر ولا القُر ولا السهل ولا الوعر، إذ كان الله تعالى قد مكن له في أرضه ورزقه الطاعة والانقياد في جنده وآتاه من كل شيء يحتاج إليه في توطيد ملكه سببا ومنحه في القتال حظا سعيدا وفتحا مبينا^(٥٠). ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ إِمَامًا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِمَامًا أَنْ نُنَخِّدَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾^(٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا^(٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٥١﴾، أي: موضع غروبها أنه انتهى إلى آخر العمارة من جانب المغرب، وبلغ قوما لم يكن وراءهم أحد إلى موضع غروب الشمس، ولم يرد بذلك أنه بلغ إلى موضع الغروب، لأنه لا يصل إليه أحد^(٥١).

أو هو بمعنى آخر (أن مغرب

(٥٠) ينظر: قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار التربية - بغداد، ص ٢٢٨

(٥١) ينظر: مجمع البيان، الشيخ الطبرسي: ج ٦، ص ٣٨٠.



هناك (٥٣).

القتل والحسن على الإثخان (٥٤).

ولكن يتعذر علينا تحديد المكان لأن النص لا يحدده وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده وكل قول غير هذا ليس مأمونا لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح فقد انتهى ذو القرنين إلى عين اختلط ماؤها وطينها فترأى له أن الشمس تغرب فيها وتختفي وراءها وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو ولا سبيل للجهاد ولكنه رأى عندها قوماً هاله كفرهم وكبر عليه ظلمهم وطغيانهم إذ كانوا قد عتوا في الأرض وأكثروا الفساد وسفكوا الدماء استجابة للشيطان وجريا وراء نوازع النفوس فاستخار الله في أمرهم وما يصنع بهم فخيره الله بين سبيلين يختار إحداهما ويسلك ما يريد منها إما أن يذيقهم القتل ويوقع بهم النكال جزاء كفرهم وطغيانهم وإما أن يمهلهم ويدعوهم لعل منهم من يهتدي أو يرتدع فاختر ذو القرنين الإمهال على

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنَّا ءَمْرًا يُسْرًا ﴿٨٨﴾، وهنا دلالة واضحة على (أن سكان آخر المغرب كانوا كفارا فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم وهذا التخيير على معنى الاجتهاد في أصلح الأمرين وقال الأكثرون: هذا التعذيب هو القتل... وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء) (٥٥)، لذلك أقام فيهم مدة ضرب على يد الظالم ونصر المظلوم وأخذ بيد الضعيف وأقام عمود العدل ونشر لواء الإصلاح، ذو القرنين أعلن دستوره في معاملة البلاد المفتوحة التي دان له أهلها وسلطه الله عليها أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم

(٥٤) ينظر: قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى

ومحمد أبو الفضل إبراهيم: ص ٢٣١.

(٥٥) تفسير الرازي، الرازي: ج ٢١، ص ١٦٧.

(٥٣) مجمع البيان، الشيخ الطبرسي: ج ٦،

ص ٣٨٠.



كانوا عراة وربما أشار إلى أن أرضهم مكشوفة تطلع الشمس عليهم بها بلا ساتر وليس في النص ما يقطع بأسماء القوم ولا باسم الأرض التي كانوا فيها ينزلون^(٥٨). لقد مكن الله لذي القرنين وكان موفقا في رحلته الأولى ثم سار موفقا نحو الشرق ﴿ ثُمَّ أَنْبَغَ سَبَبًا ۝٨٩ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْعُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١

المقصود هو (الموضع الذي تطلع منه مما ليس وراءه أحد من الناس فوجد الشمس «تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا» اي انه لم يكن بتلك الأرض جبل ولا شجر، ولا بناء، لان أرضهم لم يكن يبنى عليها بناء، فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم يغورون في المياه والاسراب، وإذا غربت تصرفوا في أمورهم - في قول الحسن وقتادة وابن جريج - وقال قتادة هي الزنج^(٥٩). لم يحدد القرآن الكريم مكان

فيعذبهم عذابا فضيعا (نكرا) لا نظير له فيما يعرفه البشر أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن والمعاملة الطيبة والتكريم والمعونة والتميسير^(٥٦).

من هذه الرحلة المباركة لذي القرنين نستفيد درسا في معاملة الأرض المفتوحة وهو الإصلاح والعمران والإنتاج ومسلك العفو والمعروف مع الناس وضرب الظلم والاعتداء واحترام الناس المصلحين والعاملين ومعاقبة الظالمين والمجرمين.

فقد بلغ ذو القرنين مغرب الشمس في رحلته الأولى ومشرقها في رحلته الثانية والمنطقة المتوسطة بين السدين في رحلته الثالثة^(٥٧).

وفي الرحلة الأولى (الرحلة الغربية) كان ذو القرنين الفاتح المصلح الذي يدعوا إلى الله تعالى بالحسنى وفي رحلته الشرقية وجد الشمس تطلع على قوم لا ستر لهم دونها فربما أفاد هذا أن القوم

(٥٦) ينظر: في ظلال القرآن: ج ١٦، ص ١٤،

وينظر: صفوة التفاسير: ج ٣ ص ١٨٨.

(٥٧) ينظر تفسير الميزان، الطباطبائي: ج ١٣،

ص ٣٨٨.

(٥٨) ينظر: المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

(٥٩) التبيان، الشيخ الطوسي: ج ٧، ص ٨٨.



ومطلع الشمس، ولكنه وصفها بأنها أرض مكشوفة لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر وهذا الوصف ينطبق على الصحاري والسهوب الواسعة وتحيل أن القوم كان عراة الأجسام لم يجعل لهم سترا من الشمس (٦٠).

وكانوا على حال من الفوضى ونصيب من الجهل فبسط على بلادهم لواء حكمه وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه (٦١).

والمفهوم من ظاهر النص القرآني أن ذا القرنين إتجه في رحلته الثانية شرقا فوجد شعبا مسالما يعيش في العراء لا يرتدي أفراده ملابس كثيرة ربما لأن الشمس في بلادهم قوية أو لأنهم قوم بسطاء فتركهم ذو القرنين وشأنهم بطريقة حياتهم، وهذا ما يفهم من كلمة (كذلك) في الآية الكريمة إذ تدل على أنه (تركهم كذلك) بل وأعتبرهم من

رعاياه وليسوا من أعدائه وأخذ عنهم بعض مناحي حياتهم ويبدو أن بعض أتباعه لم يفهموا سر تصرفه هذا ولكن الله تعالى يؤيده في كل رحلاته (٦٢).

إن اتجاه الرحلة الثانية هو الشرق بالنسبة لبلاد الإغريق وهناك أسباب قوية تدعو إلى اعتبار هذا الاتجاه هو الجنوب الشرقي أي نحو مصر التي زارها ذو القرنين وكان المصريون حينئذ فقراء تعساء تحت السيطرة الفارسية وقد عاملهم ذو القرنين معاملة حسنة وتركهم لمؤسساتهم المحلية ولم يرفع عليهم سيفاً بل أخذ ببعض أساليب الثقافة المصرية العريقة وهنا يريد ذو القرنين أن يثبت أن هدفه ليس المجد الشخصي أو إذلال الشعوب بالقوة الغاشمة وإنما أن يعيش ويترك غيره يعيش أي أن المثل الأعلى الذي يحركه في حملته هو إرضاء الله وليس مجرد السيطرة وهذا هو الفرق بين الفاتحين الربانيين والطغاة المحتلين.

(٦٠) ينظر: في ظلال القرآن: ج ١٦، ص ١١.

(٦١) ينظر: قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى

ومحمد أبو الفضل إبراهيم: ص ٢٣٢.

(٦٢) ينظر: دراسات إسلامية في التفسير

والتاريخ، محمد العزب موسى: ص ٢١.



وتبدو صلته بالله شديدة وثقى في قوله للقوم عند بناء السد ﴿ مَا مَكَتِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي ﴾ ثم قوله عند انتهاء بناء السد ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ [سورة الكهف: ٩٨].

ونستطيع القول بأن قصة ذي القرنين هي إتمام لسنة إلهية محكمة، وهي أن تغيير الواقع أمر لا عسر فيه إذا كان هناك جيل قادر على الأخذ بزمام المبادرة مع تقدير الأمور قدرها في ضوء الظروف المتاحة، وليس بعد ذلك إلا عون الله وتوفيقه مادامت نية الإصلاح متحققة، وأن فكرة المنقذ ما زالت تسيطر على هؤلاء القوم المستضعفين، فالكل يرنو إلى المنقذ، مع أن كل واحد منهم منقذ في موقعه إذا صلح وأصلح.

فهؤلاء القوم المستضعفون الذين كانوا دون السدين، لم يقدرُوا على تغيير واقعهم المرير، الذي ذاقوا فيه الويل والثبور على يد يأجوج ومأجوج، فقد ظلوا ينتظرون المنقذ لهم من شرهم، حتى جاءهم ذو القرنين، وأغلب الظن أن الأوامر التي وجهها ذو القرنين

الرحلة الثالثة: فهي الرحلة المتوسطة بين السدين فكل ما فيها يدعو إلى الرهبة الشديدة التي يفوق الشعور بها أحيانا شعور التهيب لدى مواجهة الغيب وأسراره فالقرآن هنا يذكر موضعا بعينه يسميه بين السدين مثلما يذكر قوما بأعيانهم يسميهم يأجوج ومأجوج ويصفهم بالإفساد في الأرض وما نظن هذه الألوان من الغموض إلا مقصودة في هذا السياق (٦٣).

إن حديث القرآن عن ذي القرنين لا يشبه حديث كتاب في السيرة عن الفتوحات التي أتمها فاتح عظيم وإنما يرسم القرآن في غضون هذه الرحلات الثلاث ملامح إنسان شديد الصلة بالله لم يكن سلطانه بقوته الشخصية بل مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سببا وهتف به كما يريد في الملهمات ليوجهه أفضل الوجوهات حتى قال له عند العين الحمئة ﴿ يَذَا الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ نَنْجِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [سورة الكهف: ٨٦].

(٦٣) ينظر: تفسير الميزان، الطباطبائي: ج ١٣، ص ٣٨٩.



لهؤلاء القوم، كما جاء في قوله تعالى:
﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ
أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم رَدْمًا ﴾ [سورة الكهف:
٩٥] كانت بمثابة تحريك لهمهم وتحفيزاً
وإشراكهم في تغيير هذا الواقع؛ ليعلموا
أن هذا التغيير كان بمقدورهم وبين
أيديهم مقوماته، بيد أنهم لم يلتفتوا
إليها، وظلوا ينتظرون من يلفتهم إليها
ويشعرهم بوجودها، مع أنها موجودة
كل يوم، وأغلب الظن أن هذه الأوامر
تحمل في طياتها نعيًا عليهم؛ لأنهم
ظلوا قابعين تحت وطأة هذا الواقع،
ولم يحاولوا أن يغيروه بما في أيديهم من
وسائل وإمكانات (٦٤).

وبذلك تنتهي قصة ذي القرنين،
(الملك العظيم فقد كان مؤمناً بالله بدين
التوحيد عادلاً في رعيته سائراً بالرفقة
والرفق والإحسان سائساً لأهل الظلم
والعدوان، وقد آتاه الله من كل شيء
سبباً فجمع بين الدين والعقل وفضائل

(٦٤) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ج٩،
ص٣٦٣.

الأخلاق والعدة والقوة والثروة
والشوكة ومطاوعة الأسباب) (٦٥)، فهو
الأنموذج الطيب للحاكم الصالح، فقد
مكّنه الله في الأرض، ويسّر له الأسباب،
فاجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه
لم يتجبر ولم يطغ، ولم يتخذ من الفتح
وسيلة لاستغلال الأفراد والجماعات
والأوطان، ولم يعامل البلاد المفتوحة
معاملة الرقيق، فقد كان فاتحاً عظيماً
داعياً إلى الله العلي القدير، فقد نشر
العدل في كل مكان حل به وساعد
المتخلفين ودرأ عنهم العدوان دون
مقابل واستخدام القوة التي يسرها الله
له في التعمير والإصلاح ودفع العدوان
وإحقاق الحق، وكل خير حققه الله على
يديه أرجعه إلى رحمة الله وفضله وحوله،
ولم ينس وهو في عز سطوته قدرة الله
وجبروته وإنه راجع إلى الله (٦٦). فهو
(عبد أحب الله فأحبه، طوى له الأسباب
وملكه مشارق الأرض ومغاربها، وكان

(٦٥) الميزان، السيد الطباطبائي: ج١٣،
ص٣٩١.
(٦٦) ينظر: في ظلال القرآن: ج١٦، ص١٤ -
١٥.



يقول بالحق ويعمل به) (٦٧).

يكادون يفقهون قولاً.

الخاتمة:

بعد هذه الجولة في رحاب القرآن الكريم وفي مجال السرد القصصي وفي قصة ذي القرنين نفيد وعلى الجملة:

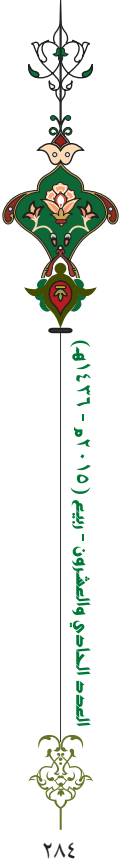
أولاً: أنه حينما يسرد قصة ذي القرنين لم يتعرض إلى تفاصيل حياته، بل اكتفى بذكر ثلاث رحلات منه، كما أن العبرة في هذه القصة تتحقق دون الحاجة إلى تحديد الزمان والمكان، كما هو سائر في معظم قصص القرآن الكريم، فرحلة أولى إلى المغرب حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة (أو حامية) ووجد عندها قوماً، ورحلة ثانية إلى المشرق حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم يجعل الله لهم من دونها ستراً، لم يتدخل في شؤون

مساعدته قوم الرحلة الثالثة في إقامة سد بينهم وبين أعدائهم دون أن يتقاضى على ذلك خرجاً، وهي شكوى القوم إليه إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض وعرضوا عليه أن يجعلوا له خرجاً على أن يجعل بين القوم وبين يأجوج ومأجوج سداً فأجابهم إلى بناء السد ووعدهم أن يبيني لهم ردماً وهو أكبر من السد، ولم يأخذ منهم مقابلاً، وإنما طلب منهم أن يعينوه بقوة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۗ ﴾ (٩٥) **ءَأْتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَقَّ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَقَّ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأْتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۗ** [سورة الكهف: ٩٥-٩٦].

ثانياً: أنه كان مؤمناً بالله واليوم الآخر كما يظهر من قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۗ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۗ ﴾ [سورة الكهف: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۗ ﴾ [سورة

القوم الذين ليس لهم ستر من الشمس بل وجدهم شعبا ضعيفا فساعدهم وعفا عنهم، ورحله الثالثة حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونها قوما لا

(٦٧) موسوعة المصطفى والعترة عليه السلام، الحاج حسين الشاكري (معاصر): ج ١٠، ص ٩٨.



فقد طلبوا سدا فبنى لهم وشاركهم فيه بنفسه.

٣. من أخلاق الحاكم أن يتحلى بصفات الصبر والحلم والأناة، ورفع الحواجز بينه وبين الأفراد من المجتمع وإشعارهم بأنه واحد منهم.

٤. من سلاح القادة المنصفين في الحكم أن يتحلوا بالعلم والمعرفة، فذو القرنين كان له علم بمعارف عديدة منها: العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية. ﴿ءَأَتُونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [سورة الكهف: ٩٥-٩٦].

٥. التوكل على الله في كل شيء وربط الأعمال كلها بمشيئة تعالى، وفي ذلك إشارة في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [سورة الكهف: ٩٨].

وخلاصة الكلام أن السورة تحتوي على مفاهيم تربوية مؤثرة في جميع الأحوال.

الكهف: [٨٧]، كما أنه كان مسددا من الله تعالى ومؤيداً بوحي أو إلهام أو نبي من أنبياء الله كان عنده يوجهه بتبليغ الوحي، وقوله تعالى يشير إلى ذلك: ﴿قُلْنَا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نُعْذِبَ وَإِمَّا أَنْ نَنْخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [سورة الكهف: ٨٦].

ثالثاً: الدروس الرئيسة من القصة: إن الرحلات الثلاث التي قام بها ذو القرنين والمذكورة في سورة الكهف تدل جميعاً على هذا المثل الأعلى إن القوة يجب أن تستخدم في إرضاء الله وفي خدمة الإنسان وليس في الطغيان والجبروت وما يسمى بحق الفتح إنما هو فتح للخير والسلام والدفاع عن المظلومين فمنها:

١. القيادة الصالحة في عمل الخير والإصلاح ومحاربة الفساد، ووضع حواجز بين المفسدين والمجتمع، وأخذ المشورة لأن؛ مبدأ الشورى وسيلة للوصول إلى الحكم الصحيح، ففيه السماح بإبداء الرأي من أهل العلم والاختصاص.

٢. مساعدة الضعفاء وتفقد أحوالهم،



المصادر والمراجع:

- البداية والنهاية، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) تحقيق وتدقيق وتعليق: علي شيري، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م، الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م، المطبعة: لبنان - دار الكتاب العربي، الناشر: دار الكتاب العربي.
- التصور الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت.
- التعبير الفني في القرآن الكريم، بكرى الشيخ أمين، دار الفكر الجامعي، ٢٠١٣ م.
- تفسير البيضاوي، البيضاوي (ت ٦٨٢هـ) المطبعة: بيروت - دار الفكر، الناشر: دار الفكر.
- تفسير الجلالين، المحلي، السيوطي (ت ٨٦٤هـ) تحقيق: تقديم ومراجعة: مروان سوار، الناشر: دار القرآن الكريم.
- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د حفني محمد شرف، الكتاب الرابع - ١٩٧٠ م.
- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المصدر: المجلس العلمي - سحاب محمد.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ، بيروت - لبنان.
- البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.



- المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- تفسير الثعالبي، الثعالبي (ت ٨٧٥هـ) تحقيق: الدكتور عبد الفتاح أبو سنة - الشيخ علي محمد معوض - والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٨، المطبعة: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الناشر: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - لبنان.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٧٧٤)، تحقيق: تقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، سنة الطبع: ١٤١٢-١٩٩٢ م، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- تفسير الرازي، الرازي (ت ٦٠٦هـ) الطبعة: الثالثة.
- تفسير مقاتل بن سليمان، مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ)، تحقيق: أحمد فريد، الطبعة: الأولى سنة الطبع: ١٤٢٤ - ٢٠٠٣م، المطبعة: لبنان/ بيروت - دار الكتب العلمية.
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: تقديم: الشيخ خليل الميس / ضبط وتوثيق وتخرّيج: صدقي جميل العطار، سنة الطبع: ٤١٥ - ١٩٩٥ الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- الجامع لأحكام القرآن، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣هـ) تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، بإشراف السيد محمد باقر الموحد الأبطحي، الطبعة: الأولى، كاملة محققة، سنة الطبع: ذي الحجة ١٤٠٩، المطبعة: العلمية - قم، الناشر: مؤسسة الإمام المهدي - قم المقدسة.
- الخصال، الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) تحقيق: تصحيح وتعليق:



- علي أكبر الغفاري، سنة الطبع: ١٨
ذي القعدة الحرام ١٤٠٣-١٣٦٢
ش، الناشر: منشورات جماعة
المدرسين، قم.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور،
جلال الدين السيوطي، الناشر
(محمد أمين دمج) بيروت.
- دراسات إسلامية في التفسير
والتاريخ، محمد العزب موسى،
ط١، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر-بيروت، ١٩٨٠م.
- سبل الهدى والرشاد، الصالحى
الشامى (ت ٩٤٢هـ)، تحقيق
وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد
الموجود، الشيخ علي محمد معوض،
الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٤-
- ١٩٩٣ م، الناشر: دار الكتب
العلمية-بيروت-لبنان.
- السيرة الحلبية، الحلبي (ت
١٠٤٤هـ)، سنة الطبع: ١٤٠٠،
المطبعة: بيروت-دار المعرفة، الناشر:
دار المعرفة.
- الصافي، الفيض الكاشاني (ت
- ١٠٩١هـ) الطبعة: الثانية، سنة
الطبع: رمضان ١٤١٦-١٣٧٤
ش، المطبعة: مؤسسة الهادي-قم
المقدسة، الناشر: مكتبة الصدر-
طهران.
- الصحاح، الجوهري (ت ٣٩٣هـ)
تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار،
الطبعة: الرابعة سنة الطبع:
١٤٠٧-١٩٨٧ م، الناشر: دار
العلم للملايين-بيروت-لبنان،
ملاحظات: الطبعة الأولى ١٣٧٦-
- ١٩٥٦ م-القاهرة.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني،
الناشر: دار الصابوني للطباعة
والنشر والتوزيع-القاهرة، الطبعة:
الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- عمدة القاري، العيني (ت ٨٥٥هـ)
المطبعة: بيروت-دار إحياء التراث
العربي، الناشر: دار إحياء التراث
العربي.
- الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي
(ت ٢٨٣هـ) تحقيق: السيد جلال
الدين الحسيني الأرموي.



- فتح القدير، الشوكاني (ت ١٢٥٥هـ) المطبعة: عالم الكتب، الناشر: عالم الكتب.
- الفن القصصي، محمد أحمد خلف الله، مكتبة النهضة.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط١، دار إحياء الكتب العربية - البابي الحلبي.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي (ت ١٠٣١هـ) تحقيق: تصحيح أحمد عبد السلام
- الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥- ١٩٩٤ م، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت.
- القرآن والقصة الحديثة، محمد كامل حسن، دار البحوث العلمية-بيروت.
- قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، دار الجليل-بيروت.
- قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل-بيروت.
- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) سنة الطبع: ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- لباب النقول في أسباب النزول، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، الناشر: دار إحياء العلوم - بيروت
- لسان العرب، ابن منظور، المحقق: عبد الله علي الكبير، محمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي.
- مجمع الزوائد، الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- المعجزة الكبرى القرآن الكريم، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.





المَدُلُواتُ النفسِيَّةُ في سُورَةِ يُوسُفَ

محمد مهدي ياسين الخفاجي

الكلية التربوية المفتوحة - ذي قار

فحوى البحث

يشير العنوان بكل وضوح الى فحواه. فهو بحث تطبيقي يتخذ من سورة يوسف في القرآن الكريم أنموذجا للانطلاق الى بحث يبرز المدلولات النفسية في شخوصها واحداثها يبدأ البحث الحديث عن الدلالات النفسية الألفاظ فيها معرجاً على موضوعة المدلول النفسي للرصد في القصة، ليدخل الى تفصيل الحديث عن شخصيات القصة وهم: النبي يوسف عليه السلام والنبي يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف وامرأة العزيز والملك وغيرهم ، ليختتم البحث بما توصل اليه الباحث من نتيجة.

المقدمة:

القصص ظاهرة في القرآن الكريم، ويشكل تكرار هذا المصطلح وحرص القرآن على وصفه بأحسن القصص، وافتخاره وتميزه بخصوصية الدقة في عرضها، وتكرار ذكر قصص الأقوام والأنبياء، وحرصه على ذكرهم ولو بالإشارة إلى أسمائهم أو أوصافهم، أو أهم الأحداث التي مروا بها.

نقول: إن هذه الظاهرة، تحتاج إلى وقفة ودراسة وتمعن في أبعادها النفسية ولو بصورة مقتضبة كما حصل في دراستنا هذه واتخذنا من قصة نبي الله يوسف عليه السلام نموذجا ومن الله التوفيق.

أهداف القصص القرآني

إن الهدف الأول من القصص القرآني لا يتجاوز المحور الأعظم لأهداف القرآن الكريم، ألا وهو كونه هداية للناس أجمعين فالقصة القرآنية تمثل جزءاً كبيراً من القرآن الكريم، وهي تتحد مع ما سواها مصدرًا وموضوعًا وغايةً، ولكن إذا ما أردنا شيئاً من التفصيل فإننا نستطيع أن نجمل أهداف

القصص القرآني بالنقاط التالية وذلك من خلال ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم متفرقة في معرض حديثها عن قصص متعددة:

١. تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى:

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا

نُثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [سورة هود: ١٢٠].

٢. إثبات صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته؛

لأن دعوة الأنبياء واحدة ومنهجهم

واحد، وبالتالي فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما

قال جل شأنه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا

مِنَ الرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف: ٩]

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

إِلَّا رِجَالًا نُرِجِيهِمْ فَنَسْتَلُوا أَهْلَ

الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ﴾ [سورة

النحل: ٤٣].

٣. الاعتبار والاتعاظ من خلال النظر

في سنة الله النافذة في هذا الكون،

فالعاقبة دائماً للمتقين، والبوار

والخزي دائماً على الظالمين، وما أكثر

الآيات التي تأمرنا بالسير في الأرض

للنظر والاعتبار بعواقب وآثار

الماضين، وفي هذا يقول سبحانه:



﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي

الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف: ١١١]

ومعنى العبرة: هو التأمل والاعتاظ والاعتبار بأن نقيس أنفسنا على السابقين ممن قصَّ الله علينا نبأهم بالحق، فنعلم أن سنة الله ماضية فينا كما خلت في الذين من قبلنا، إن خيراً فخير.. وإن شراً فشر^(١).

٤. تصحيح العقائد الفاسدة وتثبيت

العقائد الصحيحة - ومحورها أمران:

الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت -، وهذا ظاهر من خلال دعوات الرسل والأنبياء جميعاً لأقوامهم.

٥. تقويم الخلق والسلوك الفردي

والجماعي، وتحقيق خلافة الإنسان في الأرض، وهذا ظاهر من خلال معالجة كل نبي لصفة معينة في قومه (عدا الكفر) ان كان يسعى لإصلاحها؛ فالقصص يصوّر مثلاً شناعة ما كان عليه قوم لوط.. وما كان عليه أهل مدين.. وما كان عليه

[http://7awa.roro.com/vb/1363\(1\)](http://7awa.roro.com/vb/1363(1))

الطغاة والمفسدون من ظلم وجور ومنع للفقراء.. وتصوّر أيضاً شناعة الحسد الذي حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه.. وشناعة طبائع اليهود... وفي جانب آخر تصور ما كان عليه الأنبياء والصالحون من صبر وعدل وعطاء.. وكيف حقق سيدنا سليمان ﷺ وغيره الخلافة في الأرض على أساس من العدل والخلق والاستقامة...

٦. وثمة أهداف أخرى كثيرة لمن تأملها

من أولي الأبواب، مثل التوكل على الله، لاسيما بالنسبة للدعاة والمصلحين، وانتهاج الأسوة الحسنة في الأنبياء، والتجمل بمكارم الأخلاق، وتعلم آداب الحوار، والجدال بالحسنى، وأساليب الدعوة إلى الله تعالى، وكيف يدخل الداعية إلى قلوب المدعوين، ومعرفة طبائع الناس عامةً عند كفرهم وإيمانهم، وطبائع أقوام بعينهم مثل بني إسرائيل، وكيفية التعامل معها، وتشخيص أمراض المنحرفين والمعاندين، وكيفية



معالجتها، وغير ذلك (٢)...

الدلالات النفسية

للألفاظ في قصة يوسف عليه السلام:

إن قصة يوسف عليه السلام في القرآن هي قصة الشخصية والأحداث معاً؛ فهي لا تسجل واقعاً فحسب، بل تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إذ تنتصر للإيمان وللصبر وللعفاف وللأمانة وللإخلاص والطهر، وقد قام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السن، وفي المكانة الاجتماعية، ولكل منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بكل منها؛ كالبراءة والحكمة والحسد والعلم (٣).

إن المتمعن في هذه القصة من القرآن يتلمس شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها؛ فكلمة «الصبر» مثلاً تجدها حاضرة دائماً على لسان يعقوب عليه السلام، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف عليه السلام، وتوكيد الإيمان على لسان أخوته، ولو نظرنا من

منظور علم النفس لوجدنا سلوكاً متبايناً من شخصياتها، كالتبرير والإسقاط والكذب والغيرة والقلق والإحساس بالذنب، ونحو ذلك من الحيل النفسية اللاشعورية التي يلجأ لها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس «آليات عقلية»، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله، وهو يحاول تحقيق رغباته (٤). فأخوة يوسف عليه السلام ضلوا ضحايا الكبت الذي عاشوه؛ كي يخفوا رغبتهم في التخلص من أخيهم يوسف؛ حتى يخلو لهم حب أبيهم، ولكنهم يفشلون في إخفاء وكبت هذه الرغبة؛ بل كثيراً ما تبدو فيما يصدر عنهم من تصرفات ومواقف وكلمات ضد يوسف؛ مما جعل يعقوب عليه السلام يشك في حسن نواياهم عندما دعوا يوسف إلى أن يلعب معهم؛ فقال لهم:

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ
وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ

(٤) سيكلوجية القصة في القرآن: التهامي نقرة،

تونس، الدار التونسية للتوزيع، الطبعة

الثانية، ١٩٨٧، ص ٥١٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) القصص في القرآن الكريم ص ١٢٣.



عَنْفُلُونَ ﴿[سورة يوسف: ١٣].

وكان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم، فكل ما يهمهم تحقيقه هو أن يُحولوا بين يوسف وأبيه؛ فكان اتفاقهم على قتله، وتلطيح قميصه بالدم، وادعاء أن الذئب أكله لما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم، غير أن التلفيق كان واضحاً؛ لأن القميص لم يكن ممزقاً بآثار أسنان الذئب؛ مما جعل يعقوب عليه السلام لا يصدقهم؛ ولهذا كان دائماً يدعوهم إلى أن يتقصوا آثار أخيهم، ولو أنه صدقهم في دعواهم لما أصر على أن يقتنوا آثاره، وقد وقعوا في حالة التبرير كما يفعل المذنب؛ إذ يعمد إلى تفسير سلوكه؛ ليبين لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسباباً معقولة، فهم يقولون: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

أما الإسقاط فهو حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين، يهّمه بالدرجة الأولى أن يلصقها بمن يظنه منافساً له مباشرة، كالصديق الذي يغدر

بصديقه ثم يتهمه بالغدر.

إذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم النفس فإن القرآن روى ذلك عن أخوة يوسف، وذلك حينما دس يوسف عليه السلام صواع الملك في متاع أخيه، وألقى القبض عليه بتهمة السرقة ليستبقه دون أن يكشف لهم عن شخصيته فقالوا: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [سورة يوسف: ٧٧]. وفي السورة آيات أخرى نستخلص من خلالها أدق النظريات التي جاء بها علم النفس الحديث [سورة يوسف ٧٢].

المدلول النفسي للرمز في قصة يوسف:

((شكل القميص رمزاً دلالياً بعيد الدلالة، فقد شكل نقاط تحولٍ بالقصة كاملة، وتكرر في ثلاث قصصٍ جزئية من قصة يوسف، من رؤياه الأولى إلى تحققها بسجود أبويه له. و المواقف التي ظهر بها القميص.

الأول: في المؤامرة التي حاكها أخوته ضده وهي رميه بالجلب، وعودتهم إلى



الثالث: حين عادوا بقميص يوسف إلى يعقوب عليه السلام؛ فقد حل القميص محل يوسف، فالقميص هو الذي يرد البصر إلى يعقوب عليه السلام. فهو من خلال هذا القميص يشم ريح يوسف، قال تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَلَاقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْتَنُونِي (١٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (١٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّدَ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٥).

المدلول النفسي للشخصيات في

قصة يوسف عليه السلام:

تتكون القصة من عدة جزئيات من القصص المكونة للبناء التام لقصة يوسف عليه السلام، وهذه الجزئيات التي تشكلها شخصيات القصة، فيها انماط مختلفة من النفس البشرية، على مختلف الرتب والطبقات الاجتماعية والحياة الدينية، والنزعات المختلفة، فكل الشخصيات (٥) القرآن نظرة عصرية جديدة ص ٢٢١.

أبيهم يحملون قميصه، وعليه دمٌ كذبٌ، فالقميص الملتخ بالدم هو كل ما تبقى من يوسف الغائب، لذا حمل في هذا الموقف «رمز الغياب»؛ وربما حمل دلالة الاحتيال والكذب؛ فقد استخدم هذا القميص الملتخ بالدم الكذب في الدلالة على الكذب؛ فجاء في الشعر العربي: جفونك والدموع تجول فيها وقلبك ليس بالقلب الكئيب نظير قميص يوسف يوم جاءوا

على لباته بدمٍ كذوبٍ الثاني: وذلك حينما حاولت امرأة العزيز الدفاع عن نفسها، وصرف التهمة عنها بادعائها أن يوسف هو المدان، بإرادته السوء بها؛ ولثبوت البراءة شهد شاهدٌ من أهلها، بأن قميصه إذا قُدَّ من أمام فهي صادقة، وهو كاذب، وإن كان قميصه قُدَّ من خلفٍ فإنه صادق وهي كاذبة. قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِيَّ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فصار هذا القميص هو القاعدة الأساسية التي بني عليها الحكم.



الأخرى مأسورة بفكرة معينة أو بحالة نفسية منفردة.

أ. يوسف عليه السلام.

إن شخصية يوسف عليه السلام هي الشخصية المحورية بالقصة، وهي التي تدور حولها كل القصص المكونة لقصته عليه السلام.

ب. يعقوب عليه السلام.

هو ذلك الإنسان الحكيم الذي يمتلك بعد النظر ويستطيع أن يقرأ أو يستشعر ما سيحدث قال تعالى: ﴿ قَالَ

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، فحالته النفسية التي تتسم

بالخوف على يوسف من أن يكيد له أخوته دعت له لتحذيره منهم، وأن يكتم رؤياه عنهم؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُ لَا

نَقْصُ رِيَّكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

ج. أخوة يوسف عليه السلام.

هم أخوة أخذت الغيرة منهم مأخذاً كبيراً، فغمر الحسد قلوبهم، فعملوا على تغييب أخيعهم بالكيد له ورميه بالجب.

د. امرأة العزيز.

امرأة افتنت، همها إشباع رغباتها، وفي

النهاية تعود وتشهد لصالحه بعد سجنه.

ه. الملك.

تتحكم به فكرة الصراع، والاهتمام بشؤون دولته؛ لذا ظهرت في رؤياه السنابل والبقرات التي هي رمز للاقتصاد.

و. السيارة «البدو».

هم مجموعة من البدو، حصلوا على غنيمة وأرادوا بيعها للحصول على المال.

ز. الفتیان.

هما صاحبا في السجن، وهما يمثلان الحياة اليومية، فأحدهما بائع للخبز، والآخر عاصر للخمر.

ح. النسوة.

هن نسوة بالمدينة يثرن الإشاعات على امرأة العزيز.

ط. الشاهد.

وهو الشاهد الذي أشار إلى القميص وموضع قدّه، من القبل أم الدبر.

ونعود لشخصية يوسف عليه السلام؛ فهي الشخصية المحورية، فقد كان دوره تحرير الإنسان من الفكرة المسيطرة عليه، وهو يقف في وجه الحسد ودوافعه، ويواجه الدعوة لإشباع الشهوات خارج النظام



لا تؤكد كلامها إلا إذا كان المخاطب به حاجة إلى ذلك، وتأتي بمؤكد واحد إن كان المخاطب متردداً في تصديق ما يقال أو ظناً ذلك منه، في حين تأتي بأكثر من مؤكد - وقد تشفع ذلك بالقسم - إن كان المخاطب منكرًا ما يسمع كل الإنكار أو ظناً منه ذلك.

ستتوقف أمام آيات من سورة يوسف عليه السلام نعرض خلالها مواقف من القصة، في محاولة منا لتلمس الوجه البياني الذي يمثله أسلوب التوكيد في السورة. ولنقف قبلاً أمام قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وفيه أول ما جاء مؤيداً بالتوكيد في سورة سيدنا يوسف عليه السلام.

ذكر الله تعالى إنزال القرآن مؤكداً بـ (إنَّ) ذلك أن كفار مكة - ومنهم اليهود الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقص عليهم قصة يوسف عليه السلام - كانوا يطعنون بصدق نبوته، وبأن القرآن هو كتاب منزل من الله تعالى. لذلك، وقبل البدء في القصة التي طلبوا سماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء ذكر إنزال القرآن بأنه من

الأخلاقي والاجتماعي، وهو يوجه الملك إلى نظام اقتصادي بديع، وعمل على الدعوة له عز وجل، ودعا لتحرير الإنسان من نوازهه الذاتية الضيقة^(٦) فقد اختيرت هذه الشخصيات لربط الأسباب بمسبباتها في هذه القصة لتضع ابلغ المدلولات النفسية بعد ربطها بهذه الشخصيات على أساسين، فالكل هو متكون من مجموعة من الأجزاء التي تتركب وترتبط بعضها ببعض لتؤثر نفسياً في تكوين الكل.

المدلولات النفسية للتوكيد في

قصة يوسف عليه السلام:

لم يكن أسلوب التوكيد في كلام العرب - على كثرته - لوناً من ألوان الزينة، أو شكلاً من أشكال الحشو الذي يرهق النص ويثقله بما لا فائدة منه ولا جدوى. وإنما هو ركن من أركان البناء اللغوي والبياني الذي زخرت به النصوص العربية شعراً ونثراً. فالعرب

(٦) دراسة لاسلوب القصص القرآني - قصة يوسف عليه السلام نموذجاً: علي الطاهر عبد السلام ص ٢٦-٢٧.



عند الله مؤكداً ب (إن)، لنفي ما زعموه، وتسفيه ما ظنّوه.

أضف إلى ذلك أن إنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ أمر غيبي، والغيبيات تحتاج إلى ما لا تحتاج إليه المحسوسات من التوكيد، إذ يأتي التوكيد - عند ذكرها - رفعاً للشبهة ودفعاً للظنّ، ودرءاً للخاطر إن جاء مشككاً أو منكرأ.

وفي قوله تعالى ﴿ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصِصِ ﴾ وقد جاء دون توكيد، إذ الأمر هنا ليس أمراً غيبياً، بل هو أمر محسوس يحمل في ذاته دلائل مصداقيته، وذلك في قصص القرآن الكريم كلها ومنها قصة يوسف (أَحْسَنَ الْقَصِصِ)، فلا حاجة إذاً للتوكيد، ما دام المثال ظاهراً، والدليل قائماً.

ولما أراد الله تعالى أن يخبرنا أن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف شيئاً عن قصة يوسف عليه السلام جاء بلام التوكيد في قوله: ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ

الْغَافِلِينَ ﴾ وذلك دفعاً لأي شك أو تردد في شأن معرفة النبي ﷺ بهذه

القصة قبل نزول القرآن عليه، فأكد غفلته عن الأمر تأكيداً لا يغص من قدر رسوله، بل يدل على صحة نبوته وصدق دعوته ﷺ (٧).

والأثر البلاغي لأسلوب التوكيد في مواقف من قصة يوسف عليه السلام قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيَنِي رَأْيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾. بهذا أخبر سيدنا يوسف أباه عن أمر رؤياه، وجاء بكلامه مؤكداً ب (إن)، ثم بتكرار فعل

الرؤيا مرتين (رأيت - رأيتهم). وجاء هذا التوكيد في معرض الحديث عن أمر غير مألوف، فيه من الغرابة ما يُحسّى معه أن يشك السامع في صدق ما يسمع، لذا جاء ذكر الرؤيا مقترناً بالتوكيد (إني رأيت - رأيتهم) دفعاً لشك قد يخامر سيدنا يعقوب في صدق ما يقوله هذا الغلام الصغير. يؤول سيدنا يعقوب رؤيا ابنه، ويطلب منه ألا يخبر إخوته بالأمر... إخوة يوسف يكيدون له ها هم

(٧) القرآن والشعر: دلال عباس. بيروت، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م ص ١٢٥ - ١٣٠.



قولهم: ﴿ **أَقْتُلُوا يُوسُفَ** ﴾ ولولا ما قدموه من أعدار مؤكدة، غير قابلة للشك (في زعمهم)، ما كان اقتراحهم (قتل أخيهم) أمراً مقبولاً.

من هنا كان لا بدّ - وصولاً إلى هذا الاقتراح - من توكيد الأسباب المؤدية إليه!!

وربّ قائل يقول: إن وجود المؤكد، والمؤكدين في قول إخوة يوسف يدل على وجود متردد أو منكر بينهم، فهل ثمة منكر أو متردد فيما كانوا يسوقونه من أعدار تسول لهم قتل أخيهم؟

نعم، إن عقولهم تنكر ما تقوله ألسنتهم، وليس أدلّ على ذلك من اعترافهم ﴿ **وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** ﴾. إذا ما يتفقون عليه وينوون فعله تنكره عقولهم، كونه - باعترافهم - ليس من الصلاح، وجاء هذا على ألسنتهم بإقرار واضح، وتصريح فاضح.

بين سيدنا يعقوب وأولاده لما اتفق إخوة يوسف على إلقاء أخيهم في غيابة الحب، ولم يبق أمامهم إلا إقناع أبيهم بأخذه، ذهبوا إليه و ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ**

إخوة يوسف يتشاورون في أمره ﴿ **إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا** ﴾).

وجأوا بقولهم هذا مؤكداً بمؤكد واحد (اللام في ليوسف). ثم أكدوا قولهم

﴿ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ بمؤكدين (إنّ - اللام في لفي). وإخوة يوسف ليس

بينهم من يشك أو يتردد في أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم، ولا بينهم

منكر أن أباهم في ضلال مبين. فلماذا إذاً جاء الكلام مؤكداً وهم في غير حاجة

إلى توكيد ما هم متفقون عليه ومجتمعون بسببه؟! إن مجيء الكلام مؤكداً في قولهم

﴿ **لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا** ﴾ يؤسس لاقتراح غريب سيطرحوه، ووصولاً إلى قرار جريء سيتفقون عليه، وهو التخلص من أخيهم يوسف.

لذا أرادوا تأكيد الأسباب المؤدية إلى هذا الاقتراح حتى يبدو اقتراحاً مقبولاً،

له أسبابه ودوافعه. فبدؤوا بتوكيد أمر

محبة أبيهم أخاهم يوسف بمؤكد واحد

﴿ **لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا** ﴾، ثم صعدوا الموقف بتوكيدين ﴿ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي**

ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ليأتي عقب ذلك مباشرة



لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ ﴿١٥﴾
وفي قولهم هذا مؤكدان: (إِنَّ - اللام في
لننصحون)، فهل يحتاج إقرارهم بالنصح
لأخيهم إلى توكيدين؟.

ثم قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ
وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٥) وهنا جاؤوا
كذلك بمؤكدين، فهل يحتاج أمر حفظهم
لأخيهم مؤكدين أيضاً (إِنَّ - اللام في
لحافظون).

إن مجيء قضيتي (النصح - الحفظ)
مقترنتين بالتوكيد يعني أن سيدنا
يعقوب عليه السلام كان منكرراً للمضمون الذي
جاء فيها، ويبدو أن إخوة يوسف عرفوا
ذلك عن أبيهم، وأيقنوا عدم ثقته بهم،
فجاؤوه بهذه المؤكدات رغبة في إقناعه
بصفاء نيتهم، وصدق ادّعائهم. وليس
أدلّ على ذلك من قولهم ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا
عَلَى يُوسُفَ﴾ ففيه إقرار منهم بعدم ثقة
أبيهم بهم.

فإخوة يوسف كانوا إذاً في معرض
الشبهة من وجهة نظر سيدنا يعقوب
وقد عرفوا ذلك وأيقنوه فاحتاجوا إلى
توكيد خطابهم.

وتأمل رد سيدنا يعقوب على أولاده
حين ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا
بِهِ﴾ (١٥) وجاء هنا بمؤكدين. (إِنَّ - اللام
في ليحزني ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ
الدَّيْتُ﴾) وجاء بالجملة دون توكيد.

فأية دلالة يحملها وجود التوكيد
في الجملة الأولى وغيابه عن الجملة
الثانية؟.

أكد سيدنا يعقوب حزنه لذهاب
إخوة يوسف به، لأحد أمرين:

إما أن يكون ذلك رداً على قولهم
﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ فأراد
بتوكيد الحزن دفع ما ظنوه من عدم
الثقة بهم، فأكد لهم أن سبب ذلك إنما
حزنه على فراقه لا الخوف منهم عليه.
أو أنه أراد أن يؤكد لهم: إن حزني لا
بسبب بُعد عني، بل بسبب ذهابكم
به، فذهابكم به هو الخطوة الأولى التي
تتيح لكم الإساءة إليه. فأكد حزنه على
ذهاب يوسف معهم لأن ذهابه معهم
هو الذي سيجلب عليه الحزن والهم.
أولم يقل سيدنا يعقوب فيما بعد ﴿إِنَّمَا
أَشْكُوا بَنِيَّ وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (١٥) إنه الحزن



(لخاسرون). وهذه المؤكدات كلها جاءت في معرض الردّ على تخوّف أبيهم من أن يأكل الذئب يوسف، فأفراطوا في توكيد نفي حدوث هذا الأمر حتى يطمئنوا أباهم فيرسل أخاهم معهم.

ولعل في هذه المؤكدات ما يدل على أنهم بيّتوا هذا العذر من قبل، وذلك وقت اتفاقهم على طريقة التخلص من أخيهم، فلما لامس سيدنا يعقوب - بذكره الخوف من الذئب - ما كانوا بينوه في أنفسهم، جاء ردّهم أكثر توكيداً في نفي حدوث هذا الأمر، إذ من غير المعقول أن يتفق إخوة يوسف عليه على كيفية التخلص منه، دون الاتفاق على ما سيقولونه لأبيهم عند عودتهم إلى البيت دون أخيهم، وربما اقتضى البيان الإلهي عدم ذكر اتفاقهم هذا كونه سيأتي فيما بعد في سياق القصة، فلا حاجة لتكراره... والله أعلم.

تأتي لحظة إلقاء يوسف عليه السلام في غيابة الجب، وهو طفل صغير، ويأتي وحي الله مبشراً إياه بالنجاة من محنته ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا

نفسه الذي ذكره - متخوفاً - عند ذهاب يوسف مع إخوته.

سيدنا يعقوب عليه السلام لم يؤكد خوفه على يوسف من أن يأكله الذئب لأنه كان على ثقة بأن ذلك لن يحدث، فسيّدنا يوسف قد اجتباه الله لحمل رسالته، وسيعلّمه من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليه (حسب تفسير الرؤيا) ولا سبيل إلى ذلك كله إن أكل الذئب يوسف عليه السلام، لذا جاء كلامه حول هذا الأمر دون توكيد، وإنما ساق هذا العذر (خوفه على يوسف من الذئب) ليدفع عن أولاده ظنّهم عدم الثقة بهم، لعل هذا العذر يتيح له إبقاء يوسف عنده. والغريب في الأمر أن إخوة يوسف تركوا قضية حزن أبيهم على فراق يوسف (وهي مؤكدة) وردّوا على قضية خوفه من أن يأكله الذئب، التي جاءت دون توكيد ف﴿قَالُوا

لَئِن آكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخٰسِرُونَ﴾ وتأمل مؤكدات الجملة:

(لئن) ويرى النحاة أنها تدل على قسم محذوف، و (إنّ) واللام في قولهم



يَسْعُرُونَ ﴿﴾ وقد جاءت البشرى مؤكدة بقسم محذوف قبل (لتنبئهم) دلت عليه اللام الواقعة في جواب القسم، كما جاء الفعل مؤكداً بنون التوكيد الثقيلة، وما هذه المؤكدات في هذا الوقت الحرج إلا زيادة في بث الطمأنينة في نفس يوسف بأن نجاته من محتته أمر كائن لا محالة، وتوكيد الأمر أدهى إلى الثقة والاطمئنان.

ويرجع إخوة يوسف حاملين إلى أبيهم عذرهم ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّبُّ** ﴾، ولئن جاء ذكر ذهابهم للاستباق مؤكداً بـ(إن) فإن الجملة ما دون ذلك خلت من المؤكدات. ويبدو الأمر غريباً، إذ كيف لا يكون عذرهم حافلاً بالمؤكدات، في قضية يقف فيها أبوهم موقف المنكر، غير المصدق، ويقفون أمامه موقف المذنب الذي يحتاج إلى إثبات باطل أتى بحمله؟!.

ذلك نقول: إن إخوة يوسف كانوا واثقين من أن وسائل التوكيد، التي

قد يلجؤون إليها في كلامهم، عاجزة عن إقناع أبيهم بما جاؤوا به، ولذلك اتبعوا قولهم ﴿ **فَاكَلَهُ الذِّبُّ** ﴾ ﴿ **وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** ﴾ ﴿﴾ أي لن ينفعنا أن نؤكد كلامنا أو نشفعه بالقسم، دعماً لحجتنا وتأيداً لقولنا، لذا ﴿ **وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** ﴾ ﴿﴾ أي هذا دليل ملموس (حسب زعمهم) لعله - مع نفاذ الحجج الكلامية - يقنع أباهم بما يزعمون. وبما أنهم حملوا دليلاً محسوساً، فلا حاجة إذاً لوسائل توكيد القول التي لن تجدي - في هذه القضية - نفعاً أو تؤيد - في هذا الموقف - قولاً.

وجاءت سيارة، وحمل يوسف ﴿﴾ إلى مصر، لبيع عبداً، وينشأ في بيت العزيز^(٨).

المدلولات النفسية لتكرار القصصي

في القرآن الكريم

من ظواهر تكرار القصة في القرآن الكريم، ظاهرة تكرار القصة الواحدة

(٨) موقع جامعة ام القرى:



وجه واحد بل يختلف من الطول والقصر واللين والشدّة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر^(١٠). ومن حكمة التكرار أكثر من فائدة وموعظة وتذكير ويمكن إيجازها بالآتي:

١. بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها. فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر وتصاغ في قالب آخر ولا يمل القارئ من تكرارها بل تتجدد في نفسه معان لا تصل له بقراءتها في المواضيع الأخرى^(١١).

٢. إن التكرار إنما يكون بسبب تعدد الغرض الديني الذي يترتب على القصة الواحدة إن أهداف القصة متعددة فقد تجيء القصة في موضع لأداء غرض معين وتأتي في موضع

في مواضع مختلفة من القرآن وقد أثّرت بعض المشاكل حول هذه الظاهرة حيث يُقال: إن هذا التكرار قد يشكل نقطة ضعف لأن القصة بعد أن تذكر في القرآن الكريم مرة واحدة تستنفذ أغراضها الدينية والتربوية والتاريخية وقد أثّرت هذه المشكلة عند الإشارة إليها في مفردات الراغب الأصفهاني^(٩) ومن الجدير بالذكر إن القرآن الكريم يشتمل على الكثير من القصص المكررة وفي غير موضع وبأنماط وإشارات مختلفة فمرة يذكر بالتفصيل الدقيق وأخرى بالإشارة العابرة ومرة يسهب لأجل أن تستوعب بما تحمل من دروس وقيم للتذكير وللربط في موضع الآية وبالتالي تكون جزءاً من المفهوم العام للسورة القرآنية.

ومن القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة مثل قصة لقمان الحكيم وأصحاب الكهف ومنها ما يأتي مكرراً حسب ما تدعو إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة ولا يكون هذا التكرار على

(١٠) أصول في التفسير: محمد بن صالح العثيمين ص ٥٤-٥٥.

(١١) أصول في التفسير: محمد بن صالح العثيمين ص ٥٤-٥٥.

(٩) التبيان: الطوسي ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي ت(٤٦٠هـ) ج ١ ص ١٤.



آخر لأداء غرض آخر وهكذا...^(١٢).
 ٣. إن القرآن الكريم اتخذ من القصة أسلوباً لتأكيد بعض المفاهيم الإسلامية لدى الأمة المسلمة وذلك عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الأمة وربطها بوقائع القصة من حيث وحدة الهدف والمضمون وهذا الربط بين المفهوم الإسلامي في القصة والواقعة الخارجية قد يؤدي إلى فهم خاطئ للمفهوم المراد إعطاؤه للأمة فيفهم انحصاره في نطاق الواقعة التي عاشتها القصة وظروفها الخاصة^(١٣).

فتأتي القصة الواحدة في القرآن مكررة من أجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم من أجل تأكيد شموله واتساعه لكل الوقائع والأحداث المتشابهة ليتخذ صفة القانون الأخلاقي والتاريخي الذي ينطبق على كل الوقائع والأحداث...

(١٢) مباحث في علوم القرآن: القطاني، ص ٣١٨-٣١٩.

(١٣) علوم القرآن: محمد باقر الحكيم، ص ٣٦٧.

فضلاً عن فاعليته كمنبه للأمة على القضية الخارجية التي تواجهها في عصر النزول أو بعده بالمفهوم الإسلامي لتستمد منه روحه ومنهجه.

ولعل هذا السبب هو ما يمكن أن نلاحظه في تكرار قصة موسى والفرق بين روحها العامة في القصص المكي وروحها في القصص المدني، فأنها تؤكد في القصص المكي منها على العلاقة العامة بين موسى من جانب وفرعون وملئه من جانب آخر دون أن تذكر أوضاع بني إسرائيل تجاه موسى (عليه السلام) نفسه إلا من موردين يذكر فيها انحراف بني إسرائيل عن العقيدة الإلهية بشكل عام وهذا بخلاف الروح العامة لقصة موسى مع بني إسرائيل، وتحدث عن هذه العلاقة وارتباطها بالمشاكل الاجتماعية والسياسية^(١٤).

فقوة الإعجاز القرآني - بايراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة مثلها، فيها

(١٤) علوم القرآن: محمد باقر الحكيم، ص ٣٦٨.



ذلك إلى شكل أكثر تفصيلاً في
السورة المكية المتأخرة أو السورة
المدنية^(١٧).

الخاتمة:

إن القصة القرآنية تتمتع بحيوية
إلهية لم تستنفذ أغراضها فتتفرد بسحر
أخاذ لا يشابهه سحر وكأنك عندما
تقرؤها تعيش أجواءها وهذا يبين
عظمة السارد (جل جلاله) حيث بدت
هذه القصة متكاملة الأجزاء رصينة
البيان مملوءة بالإعجاز بليغة التعبير،
ولا شك انه كان للتأثير النفسي لبعض
المختارات في قصة يوسف عليه السلام وقع
خاص يتماهى مع مغزى القصة وسبب
سردها، وهذا إن دل على شيء فانما
يدل على أنّ هذا البعد ألتعجيزي الذي
يفوق الوصف لا يمكن أن يوصف إلا
انه معجزة يستحيل على أي قاص أو
راو أن ينظم على منوالها فانها معجزة.

ابلق التحدي^(١٥). ومن هذا التحدي:
١. الاهتمام بشأن القصة لتمكين
دخولها في النفس فإن التكرار من
طرق التأكيد وإمارات الاهتمام كما
هو الحال في قصة موسى عليه السلام مع
فرعون لأنها تمثل الصراع بين الحق
والباطل أتم تمثيل مع إن القصة لا
تكرر في السورة الواحدة مهما كثر
تكرارها^(١٦).

٢. إن الدعوة الإسلامية مرت بمراحل
متعددة في سيرها الطويل، وقد كان
القرآن الكريم يواكب هذه المراحل
ويأشبهها في عطائه وطبيعة أسلوبه،
وهذا كان يفرض أن تُعرض القصة
الواحدة بأساليب متفاوتة في
الطول والقصر نظراً لطبيعة الدعوة
وطريقة بيان المفاهيم والعبر فيها،
كما نجد ذلك في قصص الأنبياء
حين تعرض في السورة القصيرة
المكية، ثم يتطور القصص بعد

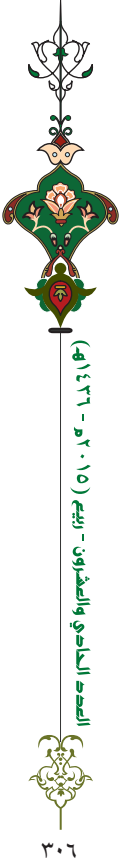
(١٥) يُنظر: مباحث في علوم القرآن: القطاني،

ص ٣١٨-٣١٩.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣١٩.

(١٧) علوم القرآن: محمد باقر الحكيم،

ص ٣٦٨.



أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أصول في التفسير: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
- التبيان: ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي، ت ٤٦٠هـ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
- دراسة لأسلوب القصص القرآني- قصة يوسف ﷺ نموذجاً: علي الطاهر عبد السلام، بلا.
- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: اسماعيل حامد خليل، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان.
- سيكولوجية القصة في القرآن: التهامي نقرة، تونس، الدار التونسية للتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
- علوم القرآن: محمد باقر الحكيم، ط ٨، سنة ١٤٢٨هـ، مجمع الفكر الإسلامي - مطبعة ظهور قم.
- القرآن والشعر: دلال عباس. بيروت، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م ١٣٠.
- لسان العرب، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، دار النشر ادب الحوزة قم، ايران، ١٤٠٥هـ، مج: ٢.
- مختار الصحاح: محمد بن ابي بكر عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي بيروت.
- مفردات ألفاظ القرآن: الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني ابو القاسم، دار القلم، دمشق.
- مباحث في علوم القرآن: مناع القطاني، مكتبة وهبة، ط ١١- القاهرة، ٢٠٠٠م.



فَمِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ
لَمَسُوا مَنْ كَانُوا فِيهَا
أَعْيُنًا وَمَنْ عَمِيَ بَصَرُهُ
فَأَعْرَضُوا عَنْهَا
وَمَنْ جَاهَلَ أَهْلَهُ
فَعَبِهَ اللَّهُ مَا جَاهَلَ
أَهْلَهُ
وَمَنْ كَانَتْ لَهُ
أَرْبَابٌ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ
فَأَعْرَضَ عَنْ يَوْمِئِذٍ
فَأَعْرَضُوا عَنْهَا
وَمَنْ كَانَتْ لَهُ
أَرْبَابٌ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ
فَأَعْرَضَ عَنْ يَوْمِئِذٍ

١٤٣١

أثر التعبير القرآني في النصوص العلوية

عادل عبد الرحمن البدري
مجمع البحوث الإسلامية
مشهد - إيران الإسلامية

فحوى البحث

بحث لغوي مقارن، عرض فيه السيد الباحث لاستعمال الامام علي مفردات، وردت في القرآن الكريم بمعناها ومبناها في خطبه التي رويت في نهج البلاغة.

وقد قدم للبحث بمقدمة عرض فيها لاسلوب الإمام علي ابن ابي طالب في خطبه، ثم اختار طائفة من المفردات اللغوية التي استعملها الامام بالمعنى نفسه الذي يقابها في القرآن الكريم.

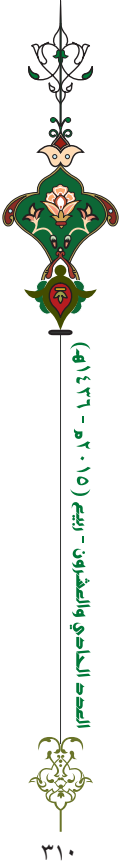
بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على النبي المصطفى العربي الهاشمي الأبطحي التهامي، وعلى آله الأئمة الأبرار، وعلى صحبه المنتجبين الأخيار. وبعد، فليس من شك في أنّ التعبير القرآني هو أرفع الكلام وأبلغه على الإطلاق، وقد بهر العرب وأعجزهم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، فهم مهروا في فنون الكلام وتركيبه في التعبير عن أفكارهم وعواطفهم وأحاسيسهم، وفي نقل تفصيلات حياتهم اليومية، وحتى معاركهم وحروبهم، مع مافيه من آثام ومظالم، فقد جاءت تعابيرهم وجلهم التي صاغوها بها مسحة من الصدق والجمال الأخاذ، ربّما كان وما زال يثير إعجاب دارسي الأدب ونقّاده، فتفننوا بفنون من الكلام البديع في الشعر والأمثال والحكمة والخطابة وغيرها. وهذا الإبداع الرائع الذي عرف به العرب-رغم جاهليتهم^(١) الدينية، حيث

(١) المعروف أنّ مفهوم الجهل والجاهلية يطلق على ما هو خلاف العلم والمعرفة والإبداع الفني والأدبي، وهذا لا يعني أن إطلاق مصطلح الجاهلية على الفترة التي =

أثمّ لم يدركوا أسرار التوحيد، فتاهوا في وثنية حسنتها لهم وساوس الشياطين الذين صدّوهم عن عبادة الواحد القهار- عبّر عن إدراك عقلي وأدبي، وذوق رفيع في تركيب الكلام وانتقاء مفردات رشيقة موسقة، وبالإضافة إلى ما في كلامهم من جمال وموسيقى، ربّما نجد أنّ هناك إحياءات قد تكون كثيرة وقويّة ترشّح

=سبقت البعثة النبوية المباركة يعني الفخر العلمي والثقافي والأدبي للعرب في تلك الفترة، وإنّما هو وصف للحالة التي كان عليها العرب قبل الإسلام، من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين، وما عليه العرب من المفاخرة بالأباء والأنساب، والكبر والتجبر، وغير ذلك. ينظر مجمع البحرين ٥: ٣٤٦ (جهل). وقد رسّخت هذه التسمية النصوص القرآنية، وكما جاء في قوله تعالى ﴿يَطْنُونَ بِإِلَهِ غَيْرِ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤]، وقوله ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥٠]، وقوله ﴿تَبَرَّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [سورة الأحزاب: ٣٣]، وغيرها من الآيات التي وصفتهم بالجهل الاصطلاحي. وأقوى عامل يظهر ويرز للباحثين في سبب توكيد تسميتهم بالمصطلح الجاهلي هو الشرك الذي غلب عليهم، والعكوف على الأصنام والأوثان التي غزت أرض العرب.



من الجملة التي صنعوها، إلا أن البراعة الأدبية والبلاغية التي كانت لديهم، في الإيجاز والإشارة والكناية والمجاز وغير ذلك من فنون الكلام البليغ، لم تصمد أو تظهر محاسنها في إنشاء العبارة البليغة المؤثرة - وإن كانت لديهم ملكة وقريحة في نظم الكلمة والعبارة التي تفصح عن نفسها في قوتها وجزالتها - أمام النص القرآني البليغ المحكم الذي سحر العقول والقلوب بجماله وروعته المتناهية، وليس هناك من تفسير سوى أنه كتاب منزل من الله العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء صنعه، وحتى المخلوقات الأخرى التي لانعرف كنهها وماهيتها، مثل الجنّ الذين حجب الله رؤيتهم وإدراكهم وملاقاتهم بالجنس البشري، انبهروا بالقرآن الكريم، وبما جاء فيه، وتعجّب نفر منهم كما ذكرت السورة المسماة باسمهم، وربما كانت هناك أشياء آخر أدركها عقلاء الجنّ ولم نفهمها نحن، وقد أشار الخالق جلّ وعلا لنفر من هؤلاء بمحكم كتابه في أول سورة الجنّ بقوله ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا

قُرْآنًا عَجَبًا﴾ فسرى هذا الكلام الرفيع في أوساط المخلوقات التي لانعرف أعدادها ولا أسرارها، فالله تعالى أنشأ من غير بني آدم خلقا لانعلم الشيء الكثير عن هذا الخلق، ولكنّ الوحي أخبر بأنّ هذا القرآن النازل إلى بني آدم قد أثر في طائفة من مخلوقاته تعالى وأبرها وأعجبها، وفي هذا تعريض وتذكير للإنسان لأن يلتفت إلى أسرار هذا الكتاب وعظمته. وربما حدّث فصحاء العرب وبلغاؤهم أنفسهم - مع ما وجدوا في ملكتهم من طاقة وقدرة في الإنشاء - في أن يأتوا بشيء يسير من نحو هذا الكلام الرفيع، ولكن لم تتمكّن هذه القدرة لديهم من أن تقترب أو تشاكل أو تضارع أيّا كان من التعبير القرآني البليغ، والذي فاق وتحدى أيّ نصّ أو تعبير آخر أنشأه مبدع بشريّ. وهذا ماسمّي في اصطلاحات الباحثين بالمعجز أو المعجزة^(٢) الذي لا يمكن الإتيان به. وفي كلام أورده النيسابوري

(٢) التعجيز في اللغة: هو الشيطان، والنسبة إلى العجز، ومعجزة النبي ﷺ: ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة. القاموس المحيط ٢: ٢٩٠ (فصل العين).



و وصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء، والقرآن جاء فصيحاً في كل فن من فنون الكلام^(٣) ولاريب في أن القرآن قد حير علماءهم، فهم لم يستطيعوا أن ينكروه، لأن له وقعا في القلوب، وتأثيرا في النفوس عند سماعه، وصعب عليهم أن يعترفوا به لتمسكهم بعقائدهم وعاداتهم التي جاء القرآن لتغييرها، ولهدايتهم فعند نزوله توهم أرباب الفصاحة منهم لما وجدوا فيه من بعض أساليبهم في الشعر والسجع، فوصفوه بالشعر، والرسول بالشاعر، كما وصفوه بالكاهن، فهم ماثلوا بينه وبين ما عرفوه من الشعر والكهانة لما وجدوا فيه ما يشبه قوافي الشعر، كما سمعوا الإيقاع والانسجام والتناسق في عباراته، لكن كبار قريش أدركوا أن كلام الوحي يختلف عن الشعر والكهانة لديهم، وصارحوا قومهم بما أحسوا بسماعه، كما كان لعتبة بن ربيعة حين أنصت لقراءة آيات من القرآن، فبهت وعاد إلى قومه يقول لهم: سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر

(٣) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ١: ٢٠٣.

المفسر بهذا الشأن يقول: إن فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات، كعبير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب، وليس في القرآن من هذه الأشياء مقدار كثير. إنّه تعالى راعى طريق الصدق، وتبرأ من الكذب، وقد قيل: إن أحسن الشعر أكذبه، ولهذا فإن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت - لما أسلما وتركوا سلوك سبيل الكذب والتخيل - رك شعرهما. إن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق في بيت أو بيتين من قصيدة، والقرآن كله فصيح بكل جزء منه. إن الشاعر الفصيح إذا كرر كلامه لم يكن الثاني في الفصاحة بمنزلة الأول، وكل مكرر في القرآن فهو في نهاية الفصاحة وغاية الملاحظة. إنّه قصر على إيجاب العبادات وتحريم المنكرات والحث على مكارم الأخلاق والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، ولا يخفى ضيق عطن البلاغة في هذه المواد. إنهم قالوا: إن شعر إمرئ القيس يحسن في وصف النساء وصفة الخيل، وشعر النابغة عند الحرب، وشعر الأعشى عند الطرب



ولا السحر ولا الكهانة..^(٤) ومن هنا أدرك العرب - وهم كارهون - أن التعبير القرآني معجزة آخر مبعوث سماوي الى الأرض، الذي حمل هذه النصوص وقرأها على مسامع أمة عرفت بأنها أمة الأدب والفصاحة، ولم تجد قبائل العرب التي أنجبت الشعراء والخطباء والبلغاء شخصا تناهت إليه الفصاحة والبلاغة غير فتى قريش، وبتعبيرهم الذي انحدر إليهم من القرشيين أنفسهم: يتيم قريش^(٥) وهو الرسول العربي القرشي محمد بن عبد الله الأمين المصطفى ﷺ، الذي اختاره الله لرسالته فأنزل عليه كتابه المجيد، هذا الكتاب الذي تكاملت به فنون الأدب والبلاغة وعلوم اللسان التي عرفتها الأمم والشعوب ومنهم

العرب، وبه كان هذا النبي ﷺ يتحدّى العرب ويفحّمهم ويحاججهم، ومن خطابهم كان يتحرّك وينطلق نحو الأمم والجماعات الأخرى، وامتدّ التبشير بهذا الخطاب المعجز لأزمان لم يشهدها العرب ومن عاصرهم من أمم وشعوب، فهو خطاب مازال في غضاضته وقوّته وروعتهالباهرة، فالقرآن معجزة باقية متجدّدة لم تختصّ بزمان معين، ولا تختصّ بقوم دون قوم، ولا أمة دون أخرى، وقد أكمل المصطفى ﷺ هذا البيان القرآني الرائع بفصاحته المشهورة، وقد عبّر عن هذا بقوله: ((أنا أعرب العرب)) و((أنا أفصح العرب))^(٦) ولو قايستنا وقارنا نصوص الحديث النبوي مع النصّ القرآني لوجدنا أن النصّين يتقاربان ويتماثلان في الموضوع والأفكار، وكأنّ النصّين يعطيانك نتيجة واحدة^(٧) وهذا التكامل المشاهد بين النصّين - القرآني والنبويّ - جاء

(٤) الدكتور زهير غازي زاهد، ملامح من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، مجلة المصباح الصادرة عن الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة، العدد الثالث عشر ربيع (٢٠١٣م - ١٤٣٤هـ) ص ١٦٠.

(٥) روى الشيخ الصدوق بإسناده عن عبد الله بن عباس أنّه قال: إنّها سمّي محمد ﷺ يتيما لأنّه لم يكن له نظير على وجه الأرض من الأوّلين والآخرين. علل الشرائع ١٣٠.

(٦) ينظر كنز العمال ١١: ٤٠٢، الاختصاص

للمفيد ١٨٧، بحار الأنوار ١٧: ١٥٨.

(٧) عادل البدرى، فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته ١٠٣.



لطلاب الفصاحة في القول إبراز مهاراتهم وقدراتهم البيانية..^(٨) وقد كان الإمام عليّ عليه السلام واحدا من الذين أبرزوا مهارتهم وقدرتهم الفائقة

في صنع الكلام الرفيع و البيان البديع، والذي عرف به العرب من بين الأمم، وكلامه عليه السلام حاز المرتبة العليا من بين روائع التراث العربي، والذي مازال يتداوله الأدياء كأرفع كلام وأروع، وقد تفاعلت نصوص الكتاب الكريم في روح عليّ عليه السلام، وتلاحمت مع

كلامه. وكيف لا يكون هذا!! وقد تشرب عليّ عليه السلام بحبّ الكتاب فتأثر بهذا الخطاب السماوي الثقيل، فملاً كيانه بلغة التنزيل، وظهر ذلك في علمه وفقهه، وصارت لغته عليه السلام صنوا للغة الكتاب، وشعاعا من شعاعه، فيلمس من فهم نصوص القرآن، وإدراك بعض أسراره

نتيجة الفصاحة المتناهية والبيان الرائع الرفيع الذي امتاز به النبي صلى الله عليه وآله عن بقية العباد، وقد علل الباحثون هذه الفصاحة والبلاغة الرائعة لديه بعوامل منها:

١. النسب، وهو انتماءه إلى قبيلة قريش التي عرفت بالفصاحة والسيادة، بيد أنّ لغة قريش كانت أوسع وأشمل وأفصح من لغات سائر القبائل العربيّة، وكذا هي الأعراف من بينها، من جرّاء محورية البيت الحرام، وقصد العرب له من كلّ الأرجاء لزيارة البيت.

٢. النشأة في بني سعد، وهم من العرب الفصحاء الذين يرجع نسبهم إلى النبيّ إسماعيل عليه السلام الذي كان أوّل من فتق لسانه بالعربيّة، كما هو منقول.

٣. الرضاعة في بني زُهرة، وهم بيت عرف بالفصاحة.

٤. ترعرعه في حجر حليلة السعدية.

٥. نزول القرآن بلسانه.

٦. المؤدّب له هو الله تعالى.

٧. مقومات اللغة العربيّة باعتبار أنّ لها قابليّة للتوسّع والاشتقاق، ممّا يتيح

(٨) ينظر عباس تبريزيان، أسماء الرسول

المصطفى، موسوعة الرسول المصطفى ١:

٢٥٢.



أن طائفة من معاني القرآن وبيانه قد توزعت في فقرات من خطب عليّ عليه السلام وكلامه البليغ، فكأنه ينتزع من جواهر الكتاب لآلئ يطرز بها منسوج كلامه، فهو عليه السلام مع القرآن، ومن القرآن ومن صنيع القرآن. وقد روى الشيخ الطوسي بإسناده إلى أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض^(٩) وروى المحدث محمد بن مسعود بن عيَّاش السلمي عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها وأملاها عليّ، فأكتبها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليّ، فكتبته منذ دعا لي بها دعا، وما

ترك شيئاً علمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي، كان أولاً يكون، من طاعة أو معصية، إلاّ علمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً. ثم وضع يده على صدري، ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً، لم أنس شيئاً، ولم يفتني شيء لم أكتبه، فقلت: يا رسول الله، أو تخوّفت عليّ النسيان فيما بعد؟. فقال: لست أخوّف عليك نسياناً ولا جهلاً، وقد أخبرني ربّي أنّه استجاب لي فيك، وفي شركائك الذين يكونون من بعدك، فقلت: يا رسول الله، ومن شركائي من بعدي؟. قال: الذين قرّنه الله بنفسه وبني، فقال: الأوصياء منّي إلى أن يردوا عليّ الحوض، كلّهم هاد مهتد، لا يضرّهم من خذلهم، هم مع القرآن والقرآن معهم..^(١٠).

وهذا التلازم الذي ذكرناه بين عليّ عليه السلام والكتاب المنزل من الله تعالى، جعل النصوص العلوية ترتفع إلى

(٩) أمالي الطوسي ٤٦٠ الرقم ١٠٢٧ / ٣٣.

(١٠) تفسير العيَّاشي ١: ١٤ ح ٢.



بهر الألباب وأثار إعجاب عقلائهم وحسّادهم، فهم مدعون له بذلك، ولاشك في الفصاحة العالية التي يلمسها المتلقّي في النصوص العلوية التي حملتها لنا ذاكرة التاريخ، والتي دوّن بعضها من هذه النصوص الشريفة أبو الحسن محمد بن الحسين الرضيّ المتوفّى ٤٠٦ للهجرة، وقد فرغ الرضي من جمع هذه النصوص في رجب من سنة أربعمئة للهجرة، ووضع لها تسمية ((نهج البلاغة)) هذا وقد وصف الشريف الرضي صاحب هذه النصوص، وهو الإمام عليّ عليه السلام (١١)

(١١) لقد ظهر شيء غريب على لسان بعض الباحثين بأنّ نهج البلاغة من كلام الشريف الرضي، وليس من كلام الإمام علي عليه السلام، وإنّما نسبه الرضي لعليّ عليه السلام لكي يروج، و لكي تقبله المجامع الأدبية والعلمية. ولا يمكن قبول ذلك بأيّ تعليل كان، لأنّ البلاغة والفصاحة المتناهية التي جاءت بها نصوص نهج البلاغة لا يمكن للرضي أو غيره أن يسطرها، أو حتّى يقارنها نحتا ومعنى. وربّما كان تعبير الأديب سليمان كتّاني هذا الخصوص جوابا كافيا لهم حين قال: ونهج البلاغة سواء أكان صقل حروفه على يد ابن أبي=

مصاف كلام الله وكلام النبيّ محمد صلى الله عليه وآله في روعتها وسموّها وعلوّ بيانها، ومع هذا البيان الرائع الذي عرفته العرب للكتاب العزيز، و للنبيّ المبعوث الذي جاء به وخاطبهم صلى الله عليه وآله به، وأقرّته أئمة الأدب والبيان، في أرض العرب أو خارجها، إلّا أنّها لم تنكر أو تتغاضى عن الفصاحة المتناهية المشاهدة في البيان والكلام العلوي الرفيع، والذي ورثه عليّ عليه السلام من قومه وأرومته بوصفهم أفصح العرب، وزاد من فصاحته وبلاغته أنّه تأثر بملازمته ومدارسته للكتاب العزيز، وتعلّمه وتلمذه على يدي النبيّ صلى الله عليه وآله الذي علّمه مفاتيح العلوم وفتح له من أبوابها، فتمازج وتماهى عاملان انصبّا في فصاحته وبيانه الخلاب، فتشظّى من نورهما قبس من بيانين ومصدرين عظيمين، هما القرآن الكريم والحديث النبويّ، تجلّى في نصوص فقأت عيون البلاغة والبيان في ماضي الزمان وحاضره. فعبرّت جموع البلغاء والخطباء عن إعجابها وخضوعها للخطاب العلويّ الذي



بالقول: إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها، ومنشئ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه عليه السلام أخذت قوانينها، وعلى أمثلتها هذا كل قائل وخطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وقد تقدّم وتأخروا، لأنّ كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي^(١٢) وتصدّى عدد من أدباء اللغة العربيّة للتعبير والكشف عن سرّ هذه الفصاحة، ومنهم عبد الحميد ابن أبي الحديد المعتزلي الذي قال: اعلم أننا لا يتخالجا الشكّ في أنّه عليه السلام أفصح من كلّ ناطق بلغة العرب من الأوّلين والآخرين، إلّا من كلام الله سبحانه، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك لأنّ فضيلة الخطيب والكاتب في خطابته

وكتابته تعتمد على أمرين، هما: مفردات الألفاظ ومركّباتها. أمّا المفردات فإنّ تكون سهلة سلسلة غير وحشيّة ولا معقّدة، وألفاظه عليه السلام كلّها كذلك، فأما المركّبات فحسن المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام، واشتماله على الصفات التي باعتبارها فضّل بعض الكلام على بعض، وتلك الصفات هي الصناعة التي سمّاها المتأخرون البديع، من المقابلة والمطابقة، وحسن التقسيم، وردّ آخر الكلام على صدره، والترصيع، والتسهيم، والتوشيح، والمثالة، والاستعارة، ولطافة استعمال المجاز، والموازنة والتكافؤ، والتسميط والمشاكله. ولاشبهة في أنّ هذه الصفات كلّها موجودة في خطبه وكتبه، ماثورة متفرّقة في فرش كلامه عليه السلام، وليس يوجد هذان الأمران في كلام أحد غيره، فإن كان قد تعلّمها وفكّر فيها، وأعمل رويته في رصفها ونثرها، فلقد أتى بالعجب العجاب، ووجب أن يكون إمام الناس كلّهم في ذلك، لأنّه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها

=طالب - وهو الأصوب - أم كان على يدي مقحم فنّان، فإنّه يبقى دائماً تعبيراً عميق البلاغة عن نفسية رجل واحد سمّي عليّ بن أبي طالب. الإمام عليّ عليه السلام (نبراس ومتراس ١٩٠).
(١٢) شرح نهج البلاغة الميسر ١٢.



ابتداء، وفاضت على لسانه مرتجلة، وجاش بها طبعه بديهية، من غير روية ولا احتمال، فأعجب وأعجب! وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره. وبحق ما قال معاوية لمحفن الضبي - لما قال له: جئتك من عند أعيان الناس - يا ابن اللخناء، أليّ تقول هذا؟. وهل سنّ الفصاحة غيره! (١٣) وقد وصف الشيخ محمد تقي التستري كتاب النهج بالقول: وبعد، فإن علماء الإسلام الخاصّ منهم والعامّ، وإن صنّفوا من الصدر الأوّل في كلّ فنّ إلاّ أنّه لم يؤلّف أحد مثل كتاب الشريف الرضيّ هذا، فإنّ أهميّة كلّ كتاب بمقدار فائدته، وقيّمته بقدر عائديته، ولم يبلغ بكتابه هذا بعد كتاب الله تعالى كتاب، فإنّه تاليه في الفصاحة والبلاغة، وفي الاشتمال على كلّ نصح وحكمة، ولقد أجاد من قال فيه:

كتابٌ كأنّ الله رصّع لفظه

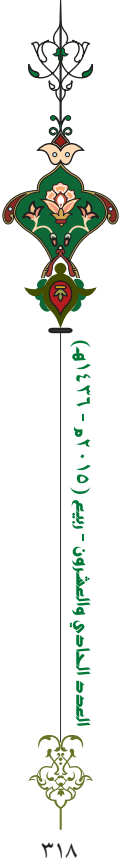
بجوهر آيات الكتاب المنزّل

حوى حكماً كالدرّ ينطق صادقاً
فلا فرق إلاّ أنّه غير منزل (١٤)
فلا غرابة في أن تجد كلام عليّ عليه السلام
معروفاً ومتداولاً لدى أنصاره وأعدائه،
فكانت نصوص نهج البلاغة حاضرة في
محافل الأدب ودواوين الشعر، ومجالس
الخلفاء ودواوينهم على مرّ العصور، ولذا
يمكن لنا أن نقول: لا حاجة للتعريف
بهذه النصوص، فهي نصوص قائمة
بنفسها.

وكما تقدّم القول بأنّه يعود ويرجع
هذا السموّ في النصّ والخطاب العلويّ
أساساً إلى تأثر الإمام عليّ عليه السلام بالنصّ
القرآنيّ وامتناله في قريحته، ومن ثمّ
انعكاسه في تراكيب كلامه وجمله التي
وصلت إلى أذهان السامعين فتناقلوها
كنصوص عالية في فصاحتها وروعيتها
وجملها، حتّى أنّ الشريف الرضيّ الذي
طرّز كتابه الرائع العظيم نهج البلاغة،
بهذه الروائع من نصوص اللغة العربية
المكتنزة، قد اكتسب شهرته وخلوده من

(١٤) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ١: ١٧
مقدمة المؤلّف.

(١٣) شرح نهج البلاغة ٦: ٢٧٨.



هذا الكلام الذي انتخبه من درر كلامه وعواليه، وقد جمعه من مصادر موثوقة شتى، و مازال يتجدد ذكره مع إيراد هذه الروائع في فنون الكلام المختلفة، بفضل هذه النصوص العالية المباركة، والتي عدت من أعلى وأرفع ما روي عن العرب من درر الكلام والخطب والحكم. وهذه النصوص التي بهرت المتلقين امتشجت مع نصوص قرآنية، وكأنتها كانت صدى لها، أو تأثرت بها فجذبتها وانجذبت معها، فانعكست برشاققتها وإشراقها في نفس عليّ عليه السلام وروحه، وانتظمت في بديع كلامه عليه السلام من جديد بثوب قشيب نضيد.

طائفة من الألفاظ القرآنية في

منظوم الكلام العلوي

دخلت الألفاظ والتعابير القرآنية في بنية كلام الناطقين بالضاد من عصر التشريع إلى وقتنا الحاضر، وهناك ألفاظ قرآنية مختلفة تناولها الأدباء والشعراء بدراية وفن جميل، لكنّها على العموم جاءت بجمال ونسق أدنى ممّا جاء في منظوم كلام عليّ عليه السلام، ومن هذه الألفاظ

القرآنية، على سبيل المثال: العذب والأجاج والبرزخ والفرات والحجر التي جاءت في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٥٣] والعذب هنا ضدّ الملح، وكلّ مستساغ من طعام أو شراب ^(١٥) وقال الخليل: عذب الماء عذوبة فهو عذب طيب ^(١٦) وقد انعكس هذا اللفظ في كتاب كتبه إلى معاوية بن أبي سفيان يصف فيه إيذاء قريش لبني هاشم بقوله: ومنعونا العذب وأحلسونا الخوف ^(١٧) وأحلسونا الخوف، جاء من قولهم: استحلس فلان الخوف، إذا لم يفارقه الخوف ولم يأمن. مأخوذ من الحلس، بكسر الحاء وإسكان اللام أو بفتحهما، وهو ماولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرّج، ويقال لبساط البيت: الحلس، بكسرها أيضا، وقولهم: فلان حلس بيته، إذا لم

(١٥) ترتيب جهرة اللغة ٢: ٥١٣ (عذب).

(١٦) العين ٢: ١٠٢ باب العين والبدال والباء معها.

(١٧) نهج البلاغة ٣٦٨ كتاب رقم ٩.



أعذب عن الشيء، إذا امتنع منه. وفي الحديث ((فأعذبوا عن النساء)) أي امتنعوا عن ذكرهنّ. وبات الرجل عاذبا وعضوبا، إذا كان ممتنعا عن النوم جائعا^(٢٢) والأجاج في قوله تعالى جاء بمعنى الماء المرّ المالح، والشديد الملوحة والمرارة مثل ماء البحر^(٢٣) وانعكس في وصف عليّ عليه السلام للأولياء الراغبين في الله بقوله عليه السلام: وشملتهم الذلّة فهم في بحر أجاج^(٢٤) والبرزخ جاء في الآية بمعنى الحاجز بين الشيئين. وهو من وقت الموت إلى القيامة أيضا، ومن مات دخله^(٢٥) وكلّ فصل بين شيئين برزخ^(٢٦) ومن هذا جاء قوله تعالى ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٠] أي حاجز بين الموت والبعث إلى يوم القيامة من القبور. وقيل: هو حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا^(٢٧)

يرحه على المثل^(١٨) واستعار عليّ عليه السلام العذب الفرات لمصادر العلم الربّاني واليقين الوجداني للمتقين الذين آمنوا واهتدوا بهدى الإيوان في قوله عليه السلام: وارتوى من عذب فرات سهلت له موارده^(١٩) قال ابن ميثم: شبه العلوم والكمالات النفسانيّة التي تفاض على العارف بالماء الزلال، فاستعار له لفظ العذوبة، ورشح تلك الاستعارة بذكر الارتواء^(٢٠) وأمّا ما جاء في قول عليّ عليه السلام: اعذبوا عن النساء ما استطعتم. فمعناه اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهنّ، وامتنعوا من المقاربة لهنّ، لأنّ ذلك يفتّ في عضد الحميّة، ويقدح في معاهد العزيمة، ويكسر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو. وكلّ من امتنع من شيء فقد عذب عنه. والعاذب والعضوب: الممتنع من الأكل والشرب، كما فسّره الرضي^(٢١) وقال ابن دريد:

(٢٢) ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٥١٣ (عذب).

(٢٣) العين ٦: ١٩٨.

(٢٤) نهج البلاغة ٧٥ ضمن خطبة ٣٢.

(٢٥) القاموس المحيط ١: ٣٥٤ (البرزخ).

(٢٦) تفسير التبيان ٧: ٣٩٤.

(٢٧) ينظر ترتيب جمهرة اللغة ١: ١١٩ (برزخ).

(١٨) ينظر لسان العرب ٦: ٥٤ و ٥٥ (جلس).

(١٩) نهج البلاغة ١١٨ ضمن خطبة ٨٧.

(٢٠) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٩١.

(٢١) نهج البلاغة ٥١٩ فصل في غريب

كلامه عليه السلام المحتاج إلى التفسير الرقم ٧.

وإليه أشار عليّ عليه السلام بقوله: سلكوا في بطون البرزخ سبيلا سُلِّطت الأرض عليهم فيه فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم^(٢٨) وكانّ قوله عليه السلام في بطون البرزخ هو كناية عن حفر المقابر والأرماس^(٢٩) وقال ابن ميثم: بطون البرزخ: ما غاب وبطن منه من علومنا ومشاهداتنا^(٣٠) والحجر المحجور في

الآية بمعنى الحرام، وهو يرجع إلى معنى قوله تعالى المتقدّم في الآية ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِمُمْجِرِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٢] قال ابن دريد: وفي التنزيل ﴿حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حراما محرّما^(٣١) وقال الزمخشري: جاءت الصفة في وصف الحجر بالمحجور لتأكيد معنى الحجر،

(٢٨) نهج البلاغة ٢٣٨ ضمن خطبة ٢٢١.

(٢٩) قال ابن دريد: الرمس: مصدر رمسته أرّمسه رساء، إذا دفتته، وبه سمّيت الرياح روامس، لأنها ترمس الآثار، أي تدفنها. ثمّ كثر ذلك في كلامهم فسُمّي القبر رساء، والجمع أرماس ورموس. ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٨٢ (رمس).

(٣٠) شرح نهج البلاغة ٤: ٦١.

(٣١) ترتيب جمهرة اللغة ١: ٣٦١ (حجر).

كما قالوا: ذيل ذائل، وموت مائت^(٣٢) وقال ابن معصوم المدني في معنى الآية: أي بين البحرين حائلا من قدرته، وحداً محدودا - لا يفسد أحدهما الآخر - وتنافرا شديدا، كأنّ كلاّ منهما يقول للآخر: جعل الله عليك ممازجتي حراما محرّما، كما كان يقول الرجل في الجاهلية إذا لقي من يخافه^(٣٣).

وعبر القرآن الكريم عن القلوب القاسية العاصية والممتنعة عن الهدى والصلاح بالحجارة، بل جعل بعض الحجارة لها من الإحساس والخشوع لعظمة الله ما ليس لقلوب المنافقين والكافرين، كما جاء في قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

[سورة البقرة: ٧٤] تعريضا بالمنافقين الذين استحالت أفئدتهم إلى حجارة

(٣٢) الكشّاف ٣: ٢٧٤.

(٣٣) الطراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة

العرب المعول ٧: ٢٥٨ (حجر).



هذه الآية ((رياشا)) بدل ((ريشا))^(٣٥) قال الفراء: إن شئت جعلت رياش جميعا واحده الريش، وإن شئت جعلت الرياش مصدرا في معنى الريش، كما يقال: لبس ولباس^(٣٦) وقال الفيروز ابادي: الريش، بالكسر، للطير، كالراش ج: أرياش ورياش، واللباس الفاخر، كالرياش، كاللبس واللباس، والخصب والمعاش. وأعطاه مئة بريشها، أي بلباسها وأحلاسها، أو لأن الملوك كانوا إذا حبوا حباء، جعلوا في أسنمة الإبل ريش النعام، ليعرف أنه حباء الملك^(٣٧) والريش في قول الزمخشري هو: لباس الزينة، استعير من معنى ريش الطير، لأنه لباسه وزينته^(٣٨) وقد جاء هذا اللفظ في خطبة علي^{عليه السلام} بقوله: أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقت لكم

صلدة لاحياة ولاشعور ينبض فيها. والحجر: هو الصخرة، والجمع في القلة أحجار، وفي الكثرة حجارة. وألحقوا الهاء فيها لتأنيث الجمع، كما ذهب إليه سيبويه في البعولة والفحولة. وقال الجوهري: حجر وحجارة، كقولك: جهل وجمالة، وذكر وذكرارة. ويقال في المجاز: رمي فلان بحجر الأرض، إذا رمي بداهية من الرجال. وفي حديث الأحنف بن قيس أنه قال لعلي^{عليه السلام} حين سمى معاوية أحد الحكمين عمرو بن العاص: إنك قد رُميت بحجر الأرض، فاجعل معه ابن عباس فإنه لا يعقد عقدة إلا حلها. أي بداهية عظيمة تثبت ثبوت الحجر في الأرض^(٣٤).

ومن هذه المفردات القرآنية التي انعكست في كلام علي^{عليه السلام}: الريش الذي جاء في قوله تعالى ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْرِي سَوْءَ تَكْمٍ وَرِيْشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف:

[٢٦] وبعض القراء قرأ قوله تعالى في

(٣٤) لسان العرب ٤: ١٦٥ (حجر).

(٣٥) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٣: ٢٧٠١.

(٣٦) معاني القرآن ١: ٣٧٥.

(٣٧) القاموس المحيط ٢: ٤٢٥ فصل الرءاء.

(٣٨) الكشاف ٢: ٩٧.



الأجال، وألبسكم الرياش^(٣٩) ولفظ الأمثال ونحوه في قوله ﷺ قد ورد في اللفظ القرآني في موارد عديدة كقوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعٰكِلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] وكقوله ﴿ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱمْتٰلَهُمْ ﴾ [سورة محمد: ٣] وكقوله ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَآ قَوْمٌ مِّنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧] وكقوله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الزخرف: ٨] وكقوله ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِلُوا ٱلتَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [سورة الجمعة: ٥] وكقوله ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ أَخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أُوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤١] وكقوله ﴿ ضَرْبٌ لَّكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [سورة الروم: ٢٨] وغير ذلك من آيات كريمة. والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله^(٤٠) وأصل المثل، محرّكة: الحجّة

(٣٩) نهج البلاغة ١٠٧ ضمن خطبة ٨٣.

(٤٠) لسان العرب ١١: ٦١١ (مثل).

والحديث^(٤١).

والمثل والأمثال الذي جاء في الآية والنص العلوي يختلف في بلاغته وتعبيره عن المثلات التي جاءت في قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثَلُتْ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرٍ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة الرعد: ٦].

وكلمة المثلات فيها قراءات، فينقل العكبري بأن بعضهم قرأ بضميتين للحرف الأول والثاني، وبعضهم قرأ بضمّ الأول وإسكان الثاني^(٤٢) ويروي الفراء عن قبيلة تميم بأنها تقول: المثلات، بتسكين الثاء^(٤٣) وذكر الزمخشري قراءة ثالثة لها فيها، بفتح الأول وضمّ الثاني^(٤٤) وبهذه القراءة الثالثة ضبط الرواة والمصححون النصّ الوارد في قول عليّ ﷺ في خطبته بعد انصرافه من صفين: واحتجاجا

(٤١) القاموس المحيط ٣: ٦١٣ فصل الميم.

(٤٢) إملاء ما منّ به الرحمن ٢: ٦١.

(٤٣) معاني القرآن ٢: ٥٩.

(٤٤) الكشّاف ٢: ٥١٤.



وذكر منذر بن سعيد أن الإملاق: الإنفاق، يقال: أملتق ماله بمعنى: أنفقه^(٥١) وأصل الإملاق الإنفاق، يقال: أملتق مامعه إملاقا، وملقه ملقا، إذا أخرجته من يده ولم يجسه، والفقر تابع لذلك، فاستعملوا لفظ السبب موضع السبب حتى صار به أشهر^(٥٢) ومنه جاء قول علي^(٥٣): إذا أملتقم فتاجروا الله بالصدقة^(٥٣) والمَلَق: التضرع والطلب^(٥٤) ومنه يفسر قول علي^(٥٤): الشاء بأكثر من الاستحقاق ملق^(٥٥).

والنُصْبُ الذي جاء في قوله تعالى ﴿أَفِي مَسْنَى الشَّيْطَانِ يُنْصَبُ وَعَدَابٌ﴾ [سورة ص: ٤١] هو بمعنى الداء والبلاء^(٥٦) وقرئ بضمّ النون وفتحها مع سكون الصاد، وفتحهما، وضمّهما. قال الزمخشري: فالنُصْبُ بضمّ النون

بالبيّنات، وتحذيرا بالآيات، وتحويفا بالمثلات^(٤٥) وقوله ^(٤٥) أيضا من هذا المعنى: وكيف محق من محق بالمثلات^(٤٦) والمثلات واحدها مثلة بفتح الميم وضمّ الثاء، وقالوا: مثلة بضمّ الميم وإسكان الثاء: وهو التنكيل^(٤٧) وقال الطبرسي: المثلات، أي العقوبات التي يقع بها الاعتبار. وقيل: هي العقوبة الفاضحة التي تسير بها الأمثال^(٤٨) ولهذا قيل: كأنّ المثل مأخوذ من المثل، لأنّه إذا شنع في عقوبته جعله مثلا وعلما^(٤٩).

والإملاق في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١] بمعنى قلة ذات اليد. ورجل ملق: ضعيف، ومملق: فقير، والمصدر الإملاق^(٥٠) وحكى النقّاش عن مؤرّج أنّه قال: الإملاق الجوع بلغة لحم.

(٥١) تفسير القرطبي ٣: ٢٦٥١.

(٥٢) لسان العرب ١٠: ٣٤٨ (ملق).

(٥٣) نهج البلاغة ٥١٣: ٥١٣ حكمة ٢٥٨.

(٥٤) ترتيب جهمرة اللغة ٣: ٣٦٩ (ملق).

(٥٥) نهج البلاغة ٥٣٥: ٣٤٧ ح.

(٥٦) القاموس المحيط ١: ١٧٧.

(٤٥) نهج البلاغة ٤٦: ٤٦ ضمن خطبة ٢.

(٤٦) نهج البلاغة ٢٠٤: ١٤٧ ضمن خطبة ١٤٧.

(٤٧) ترتيب جهمرة اللغة ٣: ٣١٥ (مثل).

(٤٨) مجمع البيان ٣: ٢٧٨.

(٤٩) لسان العرب ١١: ٦١٥ (مثل).

(٥٠) ترتيب جهمرة اللغة ٣: ٣٦٩ (ملق).



والنصب بفتح النون، كالرُشد والرشد، والنصب بفتح النون والصاد على أصل المصدر^(٥٧) ومنه جاء حديث عليّ عليه السلام: فاتّقوا الله عباد الله تقيّة ذي لبّ شغل التفكّر قلبه، وأنصب الخوف بدنه^(٥٨) قال ابن دريد: النصب: تغيّر الحال من مرض أو تعب، يقال: أنصبه المرض ونصبه، لغتان، وأنصبه أعلى، وكذلك الحزن إذا أثر فيه^(٥٩).

وأما ما جاء في قوله تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [سورة الشرح: ٧ - ٨] فالمعنى: انصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة. وقال الصادق عليه السلام: هو الدعاء في دبر الصلاة وأنت جالس. وقيل: معناه إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل. وقيل: فانصب فيما رغبك الله فيه من الأعمال^(٦٠) ومن هذا جاء وصف عليّ عليه السلام للعبد الصالح:

قد نصب نفسه لله- سبحانه - في أرفع الأمور، من إصدار كلّ وارد عليه، وتصيير كلّ فرع إلى أصله^(٦١) قال ابن ميثم البحراني: أي لما كمل في ذاته نصب نفسه لأرفع الأمور، من هداية الخلق، وإفادتهم لقوانين طريق الله، فصار كالمصباح يقتبس منه أنوار العلم، فهو لكونه متلبساً بها (خ: ملياً بها) قايم بإصدار الأجوبة عن كلّ ماورد عليه من الأسئلة التي استبهم أمرها على الأذهان، وافٍ بردّ كلّ فرع من فروع العلم إلى أصله المتشعب عنه^(٦٢) والرغب والرغب والرغب والرغبة: الضراعة والمسألة^(٦٣) وإليها أشار عليّ عليه السلام في قوله: والرغبة مفتاح النصب، ومطيّة التعب^(٦٤) وقولهم: رغبه: أعطاه مارغب، وأرغبني في الشيء ورغبني بمعنى. والرغبة من العطاء: الكثير^(٦٥) ومن هذا جاء قول

(٦١) نهج البلاغة ١١٨ ضمن خطبة ٨٧.

(٦٢) شرح النهج ٢: ٢٩٤.

(٦٣) لسان العرب ١: ٤٢٢ (رغب).

(٦٤) نهج البلاغة ٥٤٠ ح ٣٧١.

(٦٥) لسان العرب ١: ٤٢٢ (رغب).

(٥٧) الكشاف ٤: ٩٧.

(٥٨) نهج البلاغة ١١١ ضمن خطبة ٨٣.

(٥٩) ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٤٣٤ (نصب).

(٦٠) مجمع البيان ٥: ٥٠٩.



عليّ: ولا فيما رغبت رغبوا (٦٦).

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ بُدِيَ السَّرَائِرُ﴾ [سورة الطارق: ٩] انعكس في قول عليّ عليه السلام: قد انجابت السرائر لأهل البصائر (٦٧) وقوله: الأفاويل محفوظة، والسرائر مبلوّة (٦٨) والسّر المراد هنا: مايكنتم، كالسريرة، والجمع أسرار وسرائر (٦٩) وقال الليث: السّر ما أسررت به. والسريرة: عمل السّر من خير أو شرّ (٧٠) وفسر ابن ميثم البحراني في شرحه لنهج البلاغة السرائر بما أضمر في القلوب من العقائد والنيّات (٧١) وروي عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ ما هذه السرائر التي تبلى بها العباد في الآخرة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة، لأنّ الأعمال كلّها سرائر خفية (٧٢).

والشحّ في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُوقِ

شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[سورة الحشر: ٩] (٧٣) جاء بمعنى البخل والحرص. والمشاحة: الضنّة، وتشاحّا على الأمر، لا يريدان أن يفوتها، وتشاحّ القوم في الأمر، شحّ بعضهم على بعض حذر فوته (٧٤) ومن هذا جاء قول عليّ عليه السلام: وتشاحوا على الحرام (٧٥) ومنه كتب عليه السلام إلى مالك الأشتر في وصف التجار: أنّ في كثير منهم ضيقا فاحشا، وشحا قبيحا (٧٦).

وقال ابن معصوم المدني: الشحّ، بالضمّ ويكسر، وقرئبها: البخل، أو مع حرص، أو لؤم النفس وانقباضها عن المعروف، وحرصها عن المنع، وأمّا البخل فهو المنع نفسه (٧٧).

وطحها في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ

وَمَا بَدَنَهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحْنَهَا﴾ [سورة

(٦٦) نهج البلاغة ١٥٩ ضمن خطبة ١٠٩.

(٦٧) نهج البلاغة: ١٥٦ ضمن خطبة ١٠٨.

(٦٨) نهج البلاغة ٥٣٥ حكمة ٣٤٣.

(٦٩) القاموس المحيط ٢: ١٠٩ فصل السين.

(٧٠) لسان العرب ٤: ٣٥٧ (سرر).

(٧١) شرح النهج ٥: ٤١٠.

(٧٢) مجمع البيان ٥: ٤٧١.

(٧٣) [سورة التغابن: ١٦].

(٧٤) القاموس المحيط ١: ٣١٦ فصل الشين.

(٧٥) نهج البلاغة ٢٠١ ضمن خطبة ١٤٤.

(٧٦) نهج البلاغة ٤٣٨ كتاب رقم ٥٣.

(٧٧) الطراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة

العرب المعول ٤: ٣٧٨ فصل الشين.



الشمس: ٥ - ٦] أي: خلقها.

وعن ابن عباس: طحاها: قسمها^(٧٨)

وعن ابن عباس أيضا: بسطها على الماء^(٧٩).

وجاء في خطبة لعليّ عليه السلام: وأشهد أن

لا إله إلا الله، الذي رفع السماء فبناها،
وسطح الأرض فطحها^(٨٠).

والطحو، كالدحو: وهو البسط، وفيه

لغتان، طحا يطحو وطحا يطحي^(٨١).

واللغب في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ

خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي

سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [سورة

ق: ٣٨] جاء بمعنى الإعياء^(٨٢) وقال

ابن دريد: اللغب: التعب والإعياء،

يقال: لغب يلغب لغبا بفتح اللام،

ولغب لغوبا، بضم اللام، وهي أفصح

اللغتين^(٨٣) وقرأ السلمي ((لغوب)) في

(٧٨) صحيفة عليّ بن أبي طلحة ٥٣٤.

(٧٩) تنوير المقباس ٥١٢.

(٨٠) أمالي الطوسي ٦٨٤ الرقم ١٤٥٦ / ٩.

(٨١) لسان العرب ١٥: ٤ (طحا).

(٨٢) العين ٤: ٤٢١ باب الغين واللام والباء

معها.

(٨٣) ترتيب جهرة اللغة ٣: ٢٨٧ (لغب).

قوله تعالى ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا

فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [سورة فاطر: ٣٥] بفتح

اللام، كأنه جعله ما يلغب^(٨٤) والفرق

بين النَّصَبِ واللُّغُوبِ أَنَّ النَّصَبَ التعب

والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر

المزاوِل له. وأمَّا اللُّغُوبُ فما يلحقه من

الفتور بسبب النصب، فالنصب: نفس

المشقة والكلفة. واللُّغُوبُ نتيجته وما

يحدث منه من الكلال والفترة^(٨٥) ومنه

جاء كلام عليّ عليه السلام في وصية كان يكتبها

لمن يستعمله على الصدقات: ولا توكل

بها إلا ناصحا شفيقا وأمينا حفيظا،

غير معتف ولا مجحف، ولا ملغب ولا

متعب^(٨٦).

والوَرِقُ في قوله تعالى ﴿فَابْعَثُوا

أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾

[سورة الكهف: ١٩] بمعنى الدراهم

والفضة، وقال أبو عبيدة: الوَرِقُ

الفضة، إذا كانت مضروبة كدراهم أو

لا. وقيل: الذهب والفضة. وقالوا:

(٨٤) معاني القرآن للقرآء ٢: ٣٧٠.

(٨٥) الكشاف ٣: ٦١٤.

(٨٦) نهج البلاغة ٣٨١ ضمن وصية رقم ٢٥.



أهم المصادر والمراجع

- الاختصاص، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد المتوفى ٤١٣ للهجرة، تحقيق علي أكبر غفاري، منشورات مكتبة الزهراء قم ١٤٠٢ للهجرة.
- الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى ٤٦٠، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، نشر دار الثقافة - قم، الطبعة الأولى ١٤١٤ للهجرة.
- بهجة الخاطر ونزهة الناظر في الفروق اللغوية والاصطلاحية، الشيخ يحيى بن حسين بن عشيرة البحراني، من أعلام القرن العاشر الهجري، تحقيق السيّد أمير رضا عسكري زاده، مجمع البحوث الإسلامية - مشهد، الطبعة الثانية ١٤٣٠ للهجرة.

الورق: المال الناطق كـ^(٨٧) وقال ابن دريد: والورق: الدراهم بعينها، وربّما جمعت ف قيل: أوراق^(٨٨) وقرأ حمزة وأبو عمرو وخلف وأبو بكر وروح ((بِوَرَقِكُمْ)) بإسكان الراء، وقرأ الباقون بكسرها^(٨٩) وقرأ الإمام عليّ عليه السلام ((بوارقكم)) بصيغة اسم الجمع، على زنة فاعل، في قوله تعالى هذا، والوارق على زنة فاعل جعله عليه السلام اسم جمع كباقر وجائل^(٩٠).

ووصف عليّ عليه السلام البناء الفخم الذي بناه رجل من عمّاله بقوله: أَطْلَعَتِ الْوَرِقُ رَوْوَسَهَا^(٩١) في كناية جميلة عن الغنى.

(٨٧) لسان العرب ١٠: ٣٧٥ و ٣٧٨ (ورق).

(٨٨) ترتيب جمهرة اللغة ٣: ٥٨١ (ورق).

(٨٩) النشر في القراءات العشر ٢: ٣١٠.

(٩٠) الدكتور أنهار عبد الجبار، الطواهر اللغوية في قراءة الإمام عليّ عليه السلام للقرآن الكريم، الجزء الثالث، مجلّة المصباح العدد الثالث، خريف ٢٠١٠ م ص ٢١٦.

(٩١) نهج البلاغة ٥٣٧ ح ٣٥٥.



مَرْجِعِيَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْقُرْآنِ (الإمام الحسن عليه السلام أنموذجاً)

ساجد صباح ميسر العسكري

العراق - ذي قار

فحوى البحث

يجري البحث في سياق تراث الامام الحسن السبط عليه السلام القرآني والذي يرى الباحث انه غيب طويلاً، ولم تكتب فيه الاقلام كثيراً. ومع قلة ماورد عنه عليه السلام في هذا المجال من روايات، فهي لا تزيد على عشرين رواية (بحذف المكررة منها). وقد قسم البحث على مبحثين، جاء الاول عن مرجعية الامام الحسن عليه السلام في التعامل مع القرآن الكريم وحقائقه الغيبية. وجاء الثاني ليبين دوره عليه السلام في التأسيس لفهم القرآن الكريم وبيان بعض القواعد التي اسسها نظرياً او عملياً.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين. وبعد...
لقد أولى المسلمون إهتماماً وعنايةً خاصة بالقرآن الكريم وتفسيره منذ بداية نزول آياته ولاشك في أن بحوث علوم القرآن تمتد الى عصر رسول الله ﷺ ولا يخفى على كل باحث علاقة أهل البيت ﷺ بالقرآن الكريم فهم عدل القرآن بدلالة حديث الثقلين، وللأئمة المعصومين جهود كبيرة في مجال علوم القرآن، وكان لهم الريادة في هذا العلم فقد ذكر السيد محسن الأمين في كتابه (أعيان الشيعة: ١/ ٩٠) نقلاً عن عقدة الكوفي: أن الإمام علي عليه السلام عنده ستون نوعاً من أنواع علوم القرآن ثم جاء بعده الإمام الحسن عليه السلام فكان له دورٌ كبيرٌ في مواصلة الحفاظ على علوم الشريعة امتداداً لدور أمير المؤمنين علي عليه السلام بالرغم من منع التدوين.

المبحث الأول:

مرجعية الإمام الحسن عليه السلام في التعامل

مع القرآن

القرآن الكريم كالوجود بشكل

عام له مراتب وجودية متعددة والذي بين أيدينا هو مجموعة الألفاظ (الوجود الكتبي واللفظي) وحقائق القرآن غير منحصرة بهذا الوجود فإن وراء الألفاظ معاني ووراء المعاني حقائق ووراء الحقائق حقائق أخرى إلى أن تصل إلى مراتبها العليا عند الله متجاوزة لمجموعة من العوالم كعالم الملك^(١) والملكوت^(٢) والجبروت^(٣) وعالم اللاهوت^(٤) إلى غيرها من العوالم الغيبية التي أحاط بها مَنْ أحاط بكل شيء.

ومع أن القرآن الكريم له مستويات وتجليات في كل عالم تتناسب معه إلا

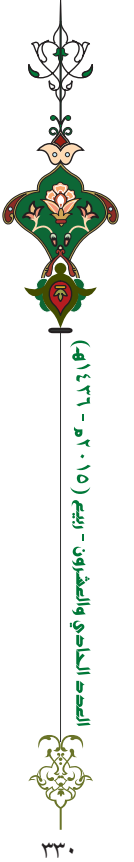
(١) عالم الملك: هو الكرسي أعني الأجسام والجسمانيات وهو من عوالم الغيب (الفردوس الأعلى، محمد حسين كاشف الغطاء: ٤٩).

(٢) عالم الملكوت: هو عالم الذر الثالث وهو علم النفوس الكلي.

(٣) عالم الجبروت: هو عالم الذر الثاني و عالم العقول النورية.

(٤) عالم اللاهوت: هو عالم الذر الأول ومرتبة الأسماء والصفات الملزمة للأعيان الثابتة.

(الهامش ٤، ٣، ٢ ينظر: شرح الأسماء للملا هادي السبزواري: ٦١).



أن له حقيقة وجودية واحدة^(٥) ولقد أشار القرآن الكريم بصورة إجمالية إلى وجود مراتب له ففي مرتبة يكون بلسان عربي مبين وفي مرتبة، علي حكيم قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٣].

ففي هذه الآية يشير إلى المراتب الوجودية التي بين أيدينا وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُولَىٰ الْأَكْتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الزخرف: ٤].

ففي هذه الآية يشير تعالى إلى المراتب العالية للقرآن الكريم فيصفه بالعلي الحكيم.

وقال تعالى ﴿ كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا، ثُمَّ فَصَّلْنَا ﴾ [سورة هود: ١].

فالإحكام في المراتب الوجودية العالية والتفصيل في هذه المرتبة (مرتبة الوجود اللفظي والكتبي) ففصلت آياته وجاء بلسان عربي مبين لتدركه وتفهمه عقول البشر أما في تلك المراتب

فهو عليّ وحكيماً عن أن تدركه العقول، ولما تنزل القرآن الكريم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة احتجب بحجب كثيرة يقول (مُلاً صدرا) أنه احتجب بألف حجاب حتى وصل إلينا^(٦) وسبب وجود تلك الحجب، اختلاف العوالم التي نزل بها القرآن الكريم، لذا قال الرسول ﷺ: (إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)^(٧) لذا فإن الوصول إلى أعلى مراتب القرآن الكريم لا تتم ولا يمكن الإحاطة به إلا لمن كان له ارتباط وجودي مع القرآن الكريم فكان مساره في نزوله مساراً متزامناً مع القرآن الكريم في كل مرتبة من مراتبه الوجودية فأحاط بالقرآن ما لم يحط به غيره، وهذا ما يشير إليه قول النبي ﷺ في حديث الثقلين (لن يفترقا)^(٨) فهو يشير إلى إرتباطها في

(٦) مفاتيح الغيب صدر الدين الشيرازي: ٢٢.

(٧) الكافي للكليني: ١ / ١٢.

(٨) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة والتي نقلتها كتب الفريقين، ينظر: حديث الثقلين للسيد علي الحسيني الميلاني: ٢٠.

(٥) بتوضيح أكثر: الضوء له حقيقة واحدة ولكن له مستويات مختلفة فضاء الشمس يختلف عن ضوء المصباح.



فعندما نتحدث عن الآثار التكوينية لبعض الآيات القرآنية فبعضها شفاء وبعضها يدفع الضرر... الخ، فهذه الآثار ليست عجيبة لأنها تعود إلى حقيقة القرآن الذي مر بعوالم متعددة حتى وصل إلينا، ولكون هذه الآيات نبتت من جانبها الغيبي، امتلأت وجوداً حتى أصبح هذا المقدار من الآية كافياً وشافياً ونافعاً... الخ، وهذا يعطينا معنى تقديس القرآن فهو ليس ألفاظاً كأي ألفاظ أخرى لذا لا يجوز لغير الطاهر مس القرآن^(١١) ولا يجوز تصغير لفظ القرآن ففي الرواية عن الإمام علي عليه السلام قال: (لا تقولوا رمضان.. ولا يسمى المصحف مصيحف)^(١٢) ويجب توقير القرآن وتعظيمه^(١٣).

ومن خلال ما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام من روايات سنذكر مجموعة

(١١) أجماع المذاهب الفقهية على عدم جواز مس المصحف إلا بطهور (ينظر: الفقه على المذاهب الخمسة، محمد جواد مغنية: ٣٧.

(١٢) مسند الإمام علي عليه السلام: ١ / ٢٦٥.

(١٣) لأنه كلام الله سبحانه ولأن له حقيقة وجودية عالية.

العالم المادي وفي تلك العوالم الغيبية الأخرى لذا قال الإمام علي عليه السلام أنا النقطة تحت الباء، عندما تحدّث عن كون كل ما في الكتب في القرآن وكل ما في القرآن في الفاتحة وكل ما في الفاتحة في البسملة وكل ما في البسملة في الباء^(٩) لأن الكلام الإلهي فيه من التكثيف^(١٠) ما يتجاوز مستوى إدراكنا فالمعصوم الذي نفترض فيه العصمة التامة إنما بلغ ما بلغ، لكرامته عند الله ووصلوا إلى مرتبة عدل القرآن الكريم وعلموا بكل مراتبه ولم ينفكوا عنه في مرتبة من مراتبه الوجودية، ونحن عندما نلتجئ إليهم لإخبارهم إيانا بحقيقة القرآن وإحاطتهم التامة به، وهم يريدون أن يوجدوا فينا هذا التعامل مع القرآن فلا نتعامل معه على أنه ألفاظ ومعانٍ وإنما وراء تلك الألفاظ حقائق وإلا لما افترض أن لا يمسه إلا المطهرون وهذا المس يأخذ مجاله المادي والمعنوي،

(٩) ينابيع المودة: ١ / ١٩٠.

(١٠) التكثيف: هو تراكم الشيء بعضه فوق بعض. (ينظر تحليل الخطاب الشعري لمحمد العمري: ٦٤).



من النقاط التي تكشف الجانب الغيبي للقرآن الكريم، وتبين حقيقته وعظمته وأهمية العمل به وفي الوقت نفسه تبين علاقة أهل البيت بالقرآن فإن هذه الحقائق لا يخبر عنها إلا عدل القرآن.

أولاً: بيان عظمة القرآن الكريم:

أشار القرآن الكريم في مناسبات كثيرة إلى بيان عظمته وأهمية العمل به والآثار المترتبة على ذلك، قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ [سورة

الرعد: ٣١] وقد وردت روايات كثيرة عن المعصومين في هذا الجانب ومما ورد عن الإمام الحسن بن علي المجتبي عليه السلام في بيان عظمة القرآن وأهمية العمل به ما رواه الديلمي، قال الحسن عليه السلام:

(ما بقي في الدنيا بقية غير هذا القرآن فاتخذوه إماماً يدلکم على هداکم وإن أحق الناس بالقرآن من عمل به وإن لم يحفظه، وأبعدهم منه من لم يعمل به وإن كان يقرؤه)^(١٤)، فالإمام عليه السلام يشير إلى سبيل الهداية من خلال العمل

(١٤) أرشاد القلوب للديلمي: ٧٩.

بالقرآن الكريم لا من خلال حفظه وقراءته وإن كان لها ثوابٌ كبيرٌ ولكن الهداية تكمن في اتخاذه إماماً وقِيماً على أعمالنا وسلوكياتنا فنصحح المسار من خلال العرض على القرآن الكريم، وما رواه المجلسي عن الدعوات للراوندي:

قال: قال الحسن بن علي عليه السلام من قرأ القرآن كانت له دعوة مجابهة إما معجلة وإما مؤجله^(١٥)، في هذه الرواية يبين الأمام عليه السلام أثراً من آثار قراءة القرآن هو استجابة الدعاء فالإمام يعدُّ قارئ القرآن باستجابة دعائه إما معجلاً أو مؤجلاً، فمن يستطيع أن يكشف هذه الآثار لولا المعصوم عليه السلام فهو يخبر عن حقيقة واقعية مترتبة على قراءة القرآن ويكشف عن أثر من آثارها.

ثانياً: الإستشفاء بالقرآن الكريم:

وصف القرآن الكريم نفسه بأنه ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة يونس: ٥٧]، ويمكن أن يفهم منها الشفاء المعنوي والمادي^(١٦) من خلال ما كشف

(١٥) بحار الأنوار للمجلسي: ٩٢ / ٢٠٤.

(١٦) كتب في ذلك كتب عديدة منها: =



ثالثاً: الحفظ ودفع الضرر من خلال القرآن الكريم:

ورد في روايات المعصومين الكثير من الأعمال التي تحفظ الإنسان وتدفع عنه الضرر^(٢٠)، فيدفع الله عنه بالقرآن الحسد، والسرقه، والسباع، والسحر... الخ، فقد جاء عن الرسول ﷺ: (يا علي من خاف من السباع فليقرأ، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾^(٢١) [سورة التوبة: ١٢٨]، ولدفع السحر والشياطين، ورد عن الرسول ﷺ أنه قال، (يا علي من خاف ساحراً أو شيطاناً فليقرأ، ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٢٢) [سورة الأعراف: ٥٤]، ولدفع السارق فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (يا علي أمان لأمتي من السارق: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٢٣) [سورة الإسراء: ١١٠].

عنه المعصومون من آثار لبعض السور في شفاء بعض الأمراض وقد ذكرت في كتب الحديث روايات كثيرة منها: عن الرسول ﷺ: (من لم يشفه الحمد فلا شفاء له)^(١٧) وعن الصادق عليه السلام عن الرسول ﷺ (إذا أصابته عين أو صداع بسط يديه فقراً فاتحة الكتاب والمعوذتين ثم يمسح بها فيذهب عنه ما كان فيه)^(١٨)، ومما جاء عن الإمام الحسن عليه السلام في الإستشفاء بالقرآن ما رواه الطبرسي عنه انه قال: أكتب على ورقة يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وعلقه على المحموم وإذا أخذته الحمى يكتب في قرطاس هذه الآية ويشد على عضده، ﴿قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١٩) [سورة يونس: ٥٩] فالإمام الحسن عليه السلام يكشف لنا علاج الحمى من خلال الإستشفاء ببعض آيات القرآن الكريم.

=الأستشفاء بالثقلين، باسم الأنصاري، والأستشفاء بالقرآن، حيدر الموسوي (ينظر مجلة المصباح، العدد ١٦: ٣٧٨).

(١٧) بحار الأنوار للمجلسي: ٦٢ / ٧٤.

(١٨) المصدر السابق: ٩٢ / ٣٦٤.

(١٩) مكارم الأخلاق: ٤٢٩.

(٢٠) ينظر الآثار الوضعية من الكتاب والسنة: ٧٩، ١١٠، ١٢٨، ٣٤٣، ٣٨١.

(٢١) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ٤ / ٩٦٨.

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) المصدر السابق.



ومما جاء عن الإمام الحسن عليه السلام في دفع الضرر ما رواه أبو نعيم بسنده عن الحجاج بن فراضه عن الحسن بن علي عليه السلام قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية إذا أصبح وإذا أمسى أن لا يمسه لصُّ عادٍ، ولا سبع ضارٍ، ولا سلطان ظالم، ولا ماء غالب، وهي آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف، إن ربكم الله الذي خلق... (الصفات)، وثلاث آيات من آخر الحشر، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة إلى آخرها، وثلاث آيات يا معشر الجن إلى قوله أنس ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان^(٢٤).

وفي رواية البغدادي (أنا ضامن لمن قرأ بهذه العشرين آية في كل ليلة أن يعافيه الله من كل شيطان مارد ومن كل شيطان حاسد ومن كل لص عادٍ ومن كل سبع ضارٍ وهي، (آية الكرسي وثلاث آيات من آخر الحشر... الخ)^(٢٥).

(٢٤) أخبار أصبهان: ١ / ٣١٥، الدر المنثور للسيوطي: ٣ / ٩١.

(٢٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٤ / ٣٥٠.

فالإمام الحسن عليه السلام في هذه الرواية يتعهد بأنه ضامن وهذا يدل على إخبار بحقيقة واقعية ويدل على دور أهل البيت في الكشف عن الجانب الغيبي للقرآن لأنهم سايروا القرآن في كل مراتبه، فمن خلال قراءة مجموعة آيات يدفع الله بها الحسد، واللص، والشيطان، والسبع الضاري، والسلطان الظالم، والماء الغالب^(٢٦)، فلو كان الأمام لم يصل إلى مرحلة الكشف عن الجوانب الغيبية لآثار قراءة هذه الآيات فلا يقول أنا ضامن ومن يستطيع أن يكشف عن ذلك ولماذا هذه الآيات دون غيرها فهذا دليل على علمهم (سلام الله عليهم).

وفي رواية أخرى ينقلها الهيثمي عن الحسن عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ آية الكرسي في دبر الصلاة المكتوبة كان في ذمة الله إلى الصلاة الأخرى)^(٢٧) فقراءة آية الكرسي بعد الصلاة الواجبة تحفظ صاحبها وهذا يدل على استحباب

(٢٦) الماء الغالب: هو الطوفان (ينظر تاج

العروس للزبيدي: ١٢ / ٣٦١).

(٢٧) مجمع الزوائد: ١٠ / ١٠٢.



القواعد من منبعها الأصلي من أهل بيت النبوة حتى نصل إلى معنى مقارب للمراد الإلهي.

وقد ذكر لنا الأئمة المعصومون (عليهم السلام) العديد من القواعد المهمة في تفسير القرآن الكريم ذكر معظمها محمد فاكّر المبيدي في كتابه (قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة).

وهذا المجال لم يؤلّف فيه كثيراً فنأمل أن نجد قريباً توجهها من الباحثين للكتابة فيه لتتعرف على دور أهل البيت في التأسيس لقواعد فهم القرآن الكريم ومحكمة التفاسير في ضوء تلك القواعد فإن أكثر الذين فسروا القرآن الكريم بَعُدوا عن المراد الإلهي لأنهم لم يعتمدوا تلك القواعد في تفاسيرهم واعتمادهم على الإجتهد والأخبار الضعيفة، ومن خلال تتبع ما ورد عن الأمام الحسن (عليه السلام) في هذا المجال وجدت أنه يوصل لبعض القواعد نظرياً ويؤسس لقواعد أخرى من خلال التطبيق العملي في تفسير بعض الآيات وأهم القواعد التي أسس لها الإمام الحسن (عليه السلام) هي:

أولاً: قاعدة تفسير القرآن بالقرآن: تعدُّ هذه القاعدة منهجاً من مناهج التفسير وهي أحد أقسام المنهج النقلي (تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالرواية) وهذا المنهج من أقدم المناهج المتبعة في تفسير القرآن الكريم وقد أستحسن جميع المفسرين والمتخصصين هذه الطريقة في التفسير إلا بعض الأخباريين على ما يفهم من أدلتهم (٣٢).

وسار على هذا المنهج الكثير من المفسرين المعاصرين ومن أبرزهم عملاً بهذا المنهج العلامة الطباطبائي فترى تطبيقات هذه القاعدة هو ما يتميز به تفسير الميزان.

وهذا المنهج صحيح لا غبار عليه وقد نصت نصوص الأئمة (عليهم السلام) وعلماء السلف على صحته، فقد روي عن الإمام علي (عليه السلام) في خطبة يصف بها القرآن: (كتاب الله تبصرون به وتنطقون، تسمعون به، ينطق بعضه

(٣٢) ينظر: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، محمد علي الرضائي: ٤٨، ٤١.



ومن نماذج إستعمال قاعدة تفسير القرآن بالقرآن عند المعصومين ما روي عن الرسول الأكرم ﷺ عندما سُئل عن الظلم في الآية الكريمة: ﴿ **وَلَمْ يَلْسُوا** **إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ** ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢].

فأجاب أن المقصود بالظلم في الآية هو الشرك بدلالة قوله تعالى ﴿ **إِنَّ** **الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ (٣٦) [سورة لقمان: ١٣]، وفي حادثه مشهورة أستنتج الإمام علي عليه السلام من خلال الجمع بين آيتين أن أقل مدة للحمل ستة أشهر وبرأ بذلك امرأة قُذفت بالزنا (٣٧)، فمن خلال قوله تعالى ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ** **ثَلَاثُونَ شَهْرًا** ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] وقوله تعالى ﴿ **وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ [سورة لقمان: ١٤] فعندما نطرح مدة الرضاعة والتي هي أربعة وعشرون شهراً من الثلاثين شهراً (فترة الحمل والرضاعة) فتكون أقل فترة للحمل ستة أشهر.

(٣٦) ينظر صحيح البخاري: ٤ / ١٣٧.
(٣٧) ينظر: تفسير الرازي: ٢٨ / ١٥، وينظر: تفسير الصافي: ٥ / ١٤.

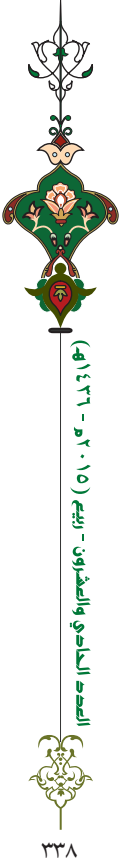
بعض ويشهد بعضه على بعض) (٣٣).
وقد عد العلماء منذ زمن طويل أن هذا المنهج من أحسن المناهج في التفسير قال ابن تيمية (فما أُجْمِلَ في مكان فقد فسر في موضع آخر وما أختصر في مكان بُسُط في موضع آخر) (٣٤).

وإذا رجعنا إلى روايات المعصومين عليه السلام نجد تطبيق هذه القاعدة كثيراً في رواياتهم من خلال إرجاع المتشابهات إلى المحكمات ومن خلال الجمع بين الآيات المطلقة والمقيدة و بين العام والخاص و بين الناسخ والمنسوخ وتوضيح الآيات المجملة بواسطة الآيات المبينة.

وتعيين مصداق الآية بواسطة الآيات الأخرى، فكل ذلك يمكن أن يعد طرقاتاً فرعية لمنهج تفسير القرآن بالقرآن (٣٥).

(٣٣) نهج البلاغة بشرح محمد عبده: ٢ / ١٧.
(٣٤) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية: ٩٣.

(٣٥) ينظر: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، محمد علي الرضائي: ٦١ وما بعدها.



والروايات في ذلك كثيرة ومما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام في التأسيس لقاعدة تفسير القرآن بالقرآن قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [سورة الشورى: 7]، قال: أم القرى مكة سميت أم القرى لأنها أول بقعه خلقها الله من الأرض لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَوْلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (٣٨) [سورة آل عمران: ٩٦]، فالإمام الحسن عليه السلام يؤسس لقاعدة تفسير القرآن بالقرآن عملياً من خلال تفسير آية بأخرى فاستدل على أن المقصود بأم القرى مكة المكرمة من خلال آية أخرى.

وروى الواحدي في تفسير "الوسيط" ما يرفعه بسنده إن رجلاً سأل الإمام الحسن وهو في مسجد المدينة: أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ فقال: نعم، أمّا الشاهد فمحمّد صلى الله عليه وآله وأمّا المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾ وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

(٣٨) تفسير القمي: ٢ / ٢٦٨.

مَشْهُودٍ﴾ (٣٩)، فالإمام يبين المقصود بالشاهد والمشهود من خلال الرجوع الى القرآن الكريم.

ثانياً: قاعدة منع التفسير بالرأي: وردت كثير من الأحاديث والتي قد تصل إلى حد التواتر (٤٠) عن النبي والأئمة عليهم السلام والتي تمنع التفسير بالرأي فعن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (من فسر القرآن برأيه فقد أفترى على الله الكذب) (٤١).

وعنه صلى الله عليه وآله: (من تكلم بالقرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) (٤٢). ومما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال: (من قال بالقرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) (٤٣).

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (من فسر القرآن

(٣٩) بحار الأنوار: ٤٣ / ٣٤٥.

(٤٠) البيان للسيد الخوئي: ٢٦٩.

(٤١) وسائل الشيعة: ٢٧ / ١٩٠.

(٤٢) تفسير الطبري: ١ / ٥٥، بحار الأنوار: ١١١ / ٨٩.

(٤٣) إرشاد القلوب: ٧٩.



وإستخدام قوة العقل في فهم آيات القرآن ومقاصده^(٤٥) من خلال تتبع ظواهر القرآن أو حكم العقل الفطري مع موافقة القرآن والسنة ومراعاة سائر الشروط^(٤٦).

٢. التفسير الممنوع: وهو الذي حذرت منه النصوص المقدمة وليس هو ما يقابل المنهج النقلي كما يرى البعض مما دعاهم إلى رفض المنهج الاجتهادي في التفسير^(٤٧)، بل المقصود بالتفسير بالرأي المحرم هو محاولة تفسير الكتاب الكريم مع جهل المفسر بقواعد اللغة وأصول الشرع وأصول التفسير الأخرى أو هو تفسير الكتاب مع الجزم بأن مراد الله تعالى هو كذا من غير برهان قطعي^(٤٨).

(٤٥) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقران، محمد علي الرضائي: ١١٣.

(٤٦) ينظر: البيان للسيد الخوئي: ٢٦٩، وينظر قواعد التفسير لدا الشيعة والسنة: ٣٥٨.

(٤٧) مقدمة جامع التفاسير: ٩٣.

(٤٨) ينظر مباحث في علوم القران، صبحي الصالح: ٢٩١.

برأيه، إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ خر أبعد من السماء^(٤٤) فبعد أن تبين شدة نهي المعصومين عليهم السلام عن التفسير بالرأي والتحذير منه فما المقصود بالتفسير بالرأي هل هو ما يقابل التفسير النقلي كالتفسير الاجتهادي أم هو أمر غيره.

وعند الرجوع الى القرآن الكريم نجد في آياته دعوه للتفكر والتدبر وإعمالاً للفكر للوصول إلى حقائق القرآن كقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ** **الْقُرْآنَ** **أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

وقوله تعالى ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** **وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وعليه لا بد أن يكون المقصود بالتفسير بالرأي المنهي عنه غير التفسير الاجتهادي، وقد قسم العلماء التفسير بالرأي وفق ما تقدم من آيات وروايات على:

١. التفسير الجائز وهو ما يسمى بالتفسير الاجتهادي نقصد به (بذل الجهد

(٤٤) وسائل الشيعة: ٢٧ / ٢٠٢.



فالروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام في النهي عن التفسير بالرأي إنما تقصد التفسير بالرأي الممنوع لا التفسير الإجتهادي وهذا ما يفهم من رواية الإمام الحسن عليه السلام أيضاً.

فالإمام الحسن عليه السلام عندما يقول: (من فسر القرآن فأصاب فقد أخطأ) إنما يشير إلى التفسير بالرأي الممنوع ليؤسس لقاعدة منع التفسير بالرأي لأن التفسير بالرأي لا يمكن أن يكشف عن المراد الإلهي لأنه محض إجتهاذ غير قائم على دليل.

وللتفسير بالرأي المنهي عنه ألوان عديدة منها:

١. تفسير القرآن الكريم وفق القبليات التي يحصل عليها المفسر في مجال العقائد واللغة والأصول فإن الكثير من المفسرين يفسر بعض الآيات وخصوصاً المتشابهة منها وفق الإتجاه العقائدي الذي ينتمي له المفسر مع أن ذلك يخالف القرآن نفسه ويخالف ما ثبت بالسنة الصحيحة^(٤٩) أو من

(٤٩) ينظر مجلة مآب القرآنية: ٢٤، القبليات=

خلال تطبيق المصطلحات التي يحصل عليها المفسر في مجال معين كالفقه والأصول واللغة والفلسفة على القرآن الكريم.

٢. الجزم بالمراد الإلهي دون دليل فإن هناك من الألفاظ أو التراكيب ما يحتمل أكثر من معنى فإن ترجيح أحد المعاني من دون دليل وبدون الرجوع إلى القرائن العقلية أو النقلية يعد من ألوان التفسير بالرأي.

٣. التفسير وفق ظواهر اللغة مع أن اللغة لا تكشف إلا مستوى معيناً وليست هي الفيصل والمرجع الأساس في فهم القرآن فالكثير من الألفاظ المجازية لا يمكن أن تفسر وفق ظاهر اللغة لأن في ذلك تقوُّل على الله ونسبة التجسيم له كما في قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الفتح: ١٠] فإن تفسيرها وفق ظواهر اللغة يعد من التفسير بالرأي.

٤. تفسير آيات الأحكام وفق الإجتهاذ

=وأثرها في التفسير -الرازي مثلاً-، د. حيدر مصطفى هجر.



هذا، فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال للشامي: يا هذا أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟ فقال الشامي: بل ربي انظر لخلقه، قال: ففعل بنظره لهم ماذا؟ قال، أقام لهم حجة ودليلاً كيلاً يتشتتوا أو يختلفوا، يتألفهم وقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم قال: فمن هو؟ قال: رسول الله ﷺ، قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ؟ قال: الكتاب والسنة، قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا؟

قال الشامي: نعم، قال: فلم اختلفنا انا وأنت وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إياك؟ قال: فسكت الشامي، فقال أبو عبد الله ﷺ للشامي: ما لك لا تتكلم؟ قال الشامي: إن قلت: لم نختلف كذبت، وإن قلت: ان الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يمتلان الوجوه وان قلت: قد اختلفنا وكل واحد منا يدعي الحق فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة الا ان لي عليه هذه الحجة^(٥٣)، وجاء تأسيس

الأمام الحسن ﷺ لهذه القاعدة عملياً من خلال نقله لحادثة حدثت بين عمر بن الخطاب وكعب الأحمري بين فيها دور المعصوم في الكشف عن حقيقة آيات القرآن الكريم التي يعجز عنها غيره، ففي رواية طويلة الذيل، سأل عمر بن الخطاب كعب الأحمري عن وصي رسول الله فأجابه بأنه الإمام علي ﷺ لأنه يعرف حقيقة آيات القرآن الكريم فأعرض عمر على ذلك، فسأله كعب عن قوله تعالى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ فأين كانت الأرض وأين كانت السماء وأين كان جميع خلقه، فقال عمر ومن يعلم بغيب الله منا، فقال له كعب، ولكن أحاك أبا الحسن ﷺ لو سُئِلَ عن ذلك لشرحه...

فلما اختلف المجلس سأل كعب الإمام علي ﷺ، فأخذ الإمام يشرح ذلك بإخبارات عن الحقيقة الغيبية التي لا يعلمها إلا المعصوم^(٥٤)، والرواية طويلة ولكن الشاهد منها أن الإمام الحسن ﷺ أراد أن يؤسس لقاعدة

(٥٤) تفسير فرات الكوفي: ١٨٣.

(٥٣) المصدر السابق: ١ / ١٧٢.



- تفسيره للآيات القرآنية.
٤. قاعدة تفسير القرآن بالقرآن من القواعد المهمة التي لها أصول تاريخية تصل الى عصر الرسول ﷺ.
٥. هناك فرق بين التفسير بالرأي والتفسير الإجتهادي وليس من الصحيح عد كل تفسير إجتهادي تفسيراً بالرأي كما هو عند البعض.

أهم المصادر

١. الآثار الوضعية من الكتاب والسنة، عبد الرسول ال عنوز، ط ١.
٢. أرشاد القلوب، الحسن بن محمد الديلمي، ط ٢، ١٤١٥، انتشارات الشريف الرضي.
٣. أسرار الصلاة، جواد آملی، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ط ١، ١٤١٥، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.
٤. بحار الأنوار لجماعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، ط ٢، ١٩٨٣،

- (لا يعرف القرآن إلا من خوطب به) عملياً ويبين كيف أن الحقيقة القرآنية لا يمكن أن يكشف عنها إلا المعصوم لأنه عدل القرآن ولكن هذا لا يعني أن نغلق الفهم فالفهم مستويات ولكن تمام الفهم لا يصل له إلا من خوطب بالقرآن وسائر القرآن في النزول وعلم بحقيقة القرآن في تلك العوالم.

الخاتمة

- أهم النتائج التي تحصل عليها البحث:
١. أن القرآن الكريم له مراتب متعددة وفي كل مرتبه يتناسب مع العالم الذي يكون فيه.
٢. المعصوم عندما يتكلم عن حقيقة القرآن الغيبية يكشف عن حقيقة واقعة لاشك فيها لأنه ساير القرآن في مراحل نزوله فهو عدل القرآن وعلم تلك الحقيقة القرآن في تلك العوالم.
٣. أسس الإمام الحسن عليه السلام لمجموعة من القواعد التفسيرية بعضها أسسها بشكل نظري والبعض الآخر من خلال تطبيقات تلك القواعد في



- مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان.
٥. بحوث في علم الأصول، تقرير
بحث السيد محمد باقر الصدر
للسيد محمود الشاهرودي، ط ٣،
٢٠٠٥، مؤسسة دائرة المعارف
الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل
البيت عليه السلام.
٦. البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم
الخوئي، ط ٤، ١٩٧٥م، دار
الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع -
بيروت - لبنان.
٧. تاج العروس، محب الدين أبو
فيض السيد محمد مرتضى الحسيني
الواسطي الزبيدي الحنفي، (ت
١٢٠٥)، تحقيق: علي شيري،
١٩٩٤م، دار الفكر للطباعة
والنشر والتوزيع - بيروت.
٨. تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن
علي (ت: ٤٦٣)، تحقيق: دراسة
وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا،
ط ١، ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية -
بيروت - لبنان.
٩. تحليل الخطاب الشعري، محمد
العمري، الدار العالمية للكتاب،
ط ١، الدار البيضاء، ١٩٩٠م.
١٠. التفسير الصافي، محمد محسن الفيض
الكاشاني (ت ١٩٠١هـ)، صححه
وقدم له وعلق عليه العلامة الشيخ
حسين الأعلمي ط ٢، ١٤١٦،
الناشر: مكتبة الصدر - طهران.
١١. تفسير القمي، علي بن ابراهيم
القمي (ت نحو ٣٢٩هـ)، صحيح
وتعليق وتقديم: السيد طيب
الموسوي الجزائري، ط ٣، صفر
١٤٠٤، الناشر: مؤسسة دار
الكتاب للطباعة والنشر - قم
١٢. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي
(ت: ٦٠٦)، ط ٣ مكتبة أهل البيت
الألكترونية، إصدار ٢.
١٣. تفسير فرات الكوفي، فرات بن
ابراهيم الكوفي (ت ٣٥٢هـ)،
تحقيق محمد كاظم، ط ١.
١٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن
(تفسير الطبري)، محمد بن جرير
الطبري (ت ٣١٠هـ)، تقديم:
الشيخ خليل الميس / ضبط وتوثيق



- وتخريج: صدقي جميل العطار،
١٩٩٥هـ، دار الفكر للطباعة
والنشر والتوزيع-بيروت-لبنان.
١٥. حديث الثقلين، السيد علي الحسيني
الميلاني، ط ١، ١٤٣١، مركز
الحقائق الإسلامية.
١٦. الدر المنثور في التفسير بالمأثور،
جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)،
دار المعرفة للطباعة والنشر -
بيروت-لبنان.
١٧. دروس في المناهج والاتجاهات
التفسيرية، محمد علي الرضائي،
ط ١، ١٤٢٦هـ، منشورات المركز
العالمي للدراسات الإسلامية.
١٨. ذكر أخبار أصفهان، أبو نعيم
أحمد بن عبد الله الإصفهاني (ت:
٤٣٠هـ)، بريل-ليدن المحروسة
١٩٣٤م.
١٩. شرح الأسماء، الملا هادي
السبزواري، منشورات مكتبة
بصيرتي-قم-إيران.
٢٠. صحيح البخاري، محمد بن
إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة
- بن بردزبة البخاري الجعفي (ت
٢٥٦هـ)، ١٩٨١م، دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع.
٢١. علوم القرآن، محمد باقر الحكيم،
مجمع الفكر الإسلامي، ط ٩،
١٤٣٣هـ.
٢٢. الفردوس الأعلى، محمد حسين
كاشف الغطاء، تعليق: السيد محمد
علي القاضي الطباطبائي، ط ٣،
١٤٠٢، مكتبة فيروز آبادي-قم.
٢٣. الفقه على المذاهب الخمسة، محمد
جواد مغنية، ط ١، ٢٠٠٩م، دار
الغدير للطباعة والنشر.
٢٤. قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة،
محمد فاكّر المييدي، ط ١، ٢٠٠٧،
مركز التحقيقات والدراسات
العلمية التابع للمجمع العالمي
للتقريب بين المذاهب الإسلامي.
٢٥. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني
(ت ٩٢٣ هـ)، تصحيح
وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط ٥،
٣٦٣١ش، دار الكتب الإسلامية-
طهران .



دَلَالَةُ (فَعْلَانُ) و(فَعِيلُ) فِي الْبَسْمَلَةِ

أ.م.د. اسعد خلف العوادي

جامعة ذي قار

كلية التربية للعلوم الإنسانية - قسم اللغة العربية

فحوى البحث

تناول البحث موضوعة تأتي أهميتها من كونها أشرف الموضوعات للدراسة والبحث (على حد تقرير الباحث). انهما كلمتا (الرحمن الرحيم) اللذان يحملان من الأسرار ما لاتدركه العقول في لفظهما ومعناهما واللذان اختلف العلماء وكثرت الاقوال قي دلالتها. والبحث محاولة لجمع ما قيل من الأراء في تفسير دلالتهما معتمدا مصادر أغلبها من التفاسير والمعاجم اللغوية العربية. وقد قسم البحث على مقدمة وخمسة مباحث، تبعا للدلالات التي فسرت بها هاتان الصيغتان ودرس الباحث دلالتها على التجديد والثبوت ودلالتها على العموم والخصوص، أو على المبالغة في الرحمة أو على معنى واحد هو الرحمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم،
والصلاة على نبيه الذي جعله على خلق
عظيم، وعلى آل بيته افضل الصلاة واتم
التسليم.

اما بعد...

فإن هذا البحث قد تناول موضوعا
تتأتى أهميته من كون موضوعه اشرف
الموضوعات للدراسة والبحث وهو
كلمتان من كلمات الله تعالى التي لا
تنفد، وهما اسمان من أسائه الحسنى
تبارك بها، وهما (الرحمن الرحيم) اللذان
كان فيهما من الأسرار ما لا تدركه
العقول في لفظها ومعناها مفردتين
ومجتمعتين، واختيارهما نفسيهما لا
غيرهما، فلذلك اختلف العلماء وكثرت
الآراء في دلالتها.

فحاولنا في هذا البحث أن نجتمع ما
قيل من الآراء في تفسير دلالة الرحمن
الرحيم لنستطيع أن نلم -ولو بالشيء
اليسير - بدلالة الصيغتين، فاعتمدنا
مصادر كان اغلبها من كتب تفسير
القرآن الكريم القديمة والحديثة وبعض

المعجمات اللغوية. فقسمنا البحث
تبعاً للدلالات التي فسرت بها هاتان
الصيغتان فدرسنا دلالتها على التجدد
و الثبوت. ودلالتها على العموم و
الخصوص. ودلالتها على المبالغة في
الرحمة. ودلالتها على معنى واحد هو
الرحمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

معنى (الرحمن الرحيم) اللغوي:

الأصل الاشتقاقي لهاتين اللفظتين
الكريمتين هو الرحمة، كما يتبين ذلك من
المعاجم العربية، و الرحمة تعني الرقة و
التعطف و المرحمة مثله، و قدرحه بالكسر
رحمة و مرحمة أيضاً، و ترحم عليه و تراحم
القوم رحم بعضهم بعضاً^(١).

و من ذلك يتبين أن كلمتي الرحمن
و الرحيم مشتقتان من الرحمة و هي
المصدر، فمادة الكلمة هي: ((رح م))
و فعلها: ((رحم)) و اسم الفاعل فيها
هو: ((الراحم)) أما وزنها فإن رحمن
التي أصلها: ((الرحمان)) مبنية على وزن

(١) ينظر لسان العرب: ٢١ / ٢٢٨ - ٢٣٠،
ومختار الصحاح: ١٣٠.



فعلان، ورحيم مبنية على وزن فعيل فقد جاء في جامع البيان: ((أما الرحمن، فهو فعلان، من رحم، والرحيم فعيل منه. والعرب كثيراً ما تبني الأسماء من فَعَلَ يفعل على فَعْلان، كقولهم من غضب غضبان، ومن سكر سكران، ومن عطش عطشان، فكذلك قولهم رحمن من رحم))^(٢).

و قد وافق المفسرون أصحاب المعاجم في الأصل الاشتقائي للرحمن والرحيم وهو الرحمة إذ قال الطبرسي (ت ٥٤٨هـ): ((الرحمن الرحيم اسمان وُضعا للمبالغة، واشتقّا من الرحمة، وهي النعمة...))^(٣) وقال السيد الخوئي (ت ١٤١٣هـ): ((الرحمن: مأخوذ من الرحمة، ومعناها معروف، وهي ضدُّ القسوة والشدة))^(٤) وقال السيد السبزواري: ((الرحمن الرحيم هما من الرحمة ومن مشتقاتهما))^(٥) وقال السيد محمد باقر الحكيم (ت ١٤٢٤هـ): ((الرحمن من

الرحمة، وهي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد دون رقة، وإذا وصف بها البارئ فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة... الرحيم: وتشترك مع (الرحمن) في أصل مادة الاشتقاق (الرحمة...))^(٦).

ومن ذلك يتبين أن كلمتي الرحمن والرحيم مشتقتان من الرحمة فمادة الكلمة هي (رح م) بمعنى الرقة والتعطف والإحسان ولكن البحث في معنى كلمة رحم اظهر لنا أنها تعني وعاءاً في بطن الأم تنبت به البويضة الملقحة إلى أن يتم تكوّن الجنين. وجمعه «أرحام». فالرحم للإنسان هو منبته، أي المكان الذي تكوّنت فيه حياته، وبالتالي فإن الأصل الذي أتى منه الرحمن هو الرحم والعلاقة بينهما وطيدة جداً إذ إن حديثاً قديماً يثبت العلاقة السببية المتينة الموجودة بينهما يقول: ((أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن

(٦) تفسير سورة الحمد: ١٥٥.

(٢) جامع البيان: ١ / ٥٨٤.

(٣) مجمع البيان: ١ / ٥٢.

(٤) البيان في تفسير القرآن: ٤٢٨.

(٥) مواهب الرحمن: ١ / ١٥.

٤. الدلالة على معنى واحد هو الرحمة.

أولاً: الدلالة على التجدد والثبوت:

بما أن (رحمن) صيغة مبالغة على وزن (فَعْلَان) من الرحمة ورحيم صفة مشبهة على وزن (فَعِيل) لذلك ذهب قسم من العلماء إلى أن صيغة (فَعْلَان) في رحمن تدل على الحدوث والتجدد وذلك نحو عطشان وجوعان وغضبان. و أن صيغة (فَعِيل) تدل على الثبوت نحو طويل وجميل وقيح فجمع الله تعالى الوصفين إذ لو اقتصر على رحمن لظن أن هذه صيغة طارئة قد تزول كعطشان وريان. ولو اقتصر على رحيم لظن أن هذه صفة ثابتة، ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجددها إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها. فجاء تعالى بالوصفين للدلالة على أن صفته الثابتة والمتجددة هي الرحمة^(٨).

و قد استحسّن هذا الرأي جماعة من

العلماء احدثهم السيد الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ) في الميزان قائلاً: ((الرحمن،

(٨) يُنظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل:

٢٢٧، ومعاني الابنية في العربية: ٩١.

قطعها بتته))^(٧) فذلك يثبت أن الرحمن و الرحم اشتقاقها واحد.

دلالة الرحمن و الرحيم في البسملة:

عندما نفتتح القرآن الكريم، فإن أول ما نقرأ فيه من كلام الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [سورة الفاتحة: ١] وتسمى اختصاراً البسملة و الشكل التركيبي لهذه العبارة فيه ما يلفت الأنظار من عجائب الأسرار ولا سيما أن الله تعالى قد جعل فيها اسمين من أسماؤه الحسنی، و لم يجعل غيرهما، و هما الرحمن و الرحيم. فأثار ذلك دهشة العلماء و أخذوه بالنظر و التدقيق والتأمل والتفكير، فذهبوا الى أكثر من مذهب في دلالتها و موقعها و اشتقاقها، و من خلال البحث عن ذلك في كتب اللغة والتفسير، تبين لنا أن اللفظة الرحمن و لفظة الرحيم دلالات مختلفة بين العلماء يمكن أن نُجمل فيها يأتي:

١. الدلالة على التجدد والثبوت.

٢. الدلالة على العموم والخصوص.

٣. الدلالة على المبالغة في الرحمة.

(٧) مجمع البيان: ٣ / ٥.



فعلان صيغة مبالغة تدل على الكثرة، والرحيم فعيل صفة مشبهة تدل على الثبات والبقاء ولذلك ناسب الرحمن أن يدل على الرحمة الكثيرة المفاضة على المؤمن والكافر وهو الرحمة العامة، وعلى هذا المعنى يستعمل كثيرا في القرآن، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: ٥]. وقال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [سورة مريم: ٧٥]. إلى غير ذلك، ولذلك أيضا ناسب الرحيم أن يدل على النعمة الدائمة والرحمة الثابتة الباقية التي تقاض على المؤمن كما قال تعالى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١١٧]. إلى غير ذلك))^(٩) و إلى ذلك ذهب السيد الخوئي (ت ١٤١٣هـ) في البيان في تفسير القرآن إذ قال: ((الفارق بين الصفتين: أن الرحيم يدل على لزوم الرحمة للذات وعدم انفكاكها عنها، والرحمن يدل على ثبوت

الرحمة فقط))^(١٠) ومن ذلك استنتج السيد محمد محمد صادق الصدر(ت ١٤١٨ هـ): ((أن رحمة الله تعالى تتصف بكلا الوصفين، فهي واسعة ومنتشرة من ناحية وثابتة ومستقرة وغير قابلة للتزلزل من ناحية أخرى))^(١١) ووجد السيد محمد باقر الحكيم الفرق بين الصيغتين في الدلالة من خلال المبالغة فيها فقال: ((.. يمكن أن نتبين وجود الفرق بين هاتين الصيغتين في الدلالة، وذلك من خلال ملاحظة النكتة في عنصر المبالغة فيها، فقد لوحظ جانبا المبالغة في السعة والشمول للرحمة في لفظ (الرحمن) وهو ما نعبر عنه (بالبعد الأفقي) لها، بينما الملحوظ في صيغة (الرحيم) جانب المبالغة في الثبات والاستقرار للرحمة، وهو ما نعبر عنه (بالبعد العمودي) لها. فقد تكون الرحمة واسعة وشاملة ولكنها لا تكون مستقرة وثابتة إلى الأبد، بل يمكن أن تتبدل وترفع لأي سبب من الأسباب

(١٠) البيان في تفسير القرآن: ٤٣٠.

(١١) منة المنان في الدفاع عن القرآن: ٤٥.

(٩) الميزان: ١ / ١٨ - ١٩.

وتتحول حينئذ إلى عذاب ونقمة...))^(١٢) و لم يستحسن السيد السبزواري هذا المذهب من العلماء ورده واصفاً إياه بالمخدوش لان ذلك يصح ((بالنسبة إلى ذات اللفظين حين الإطلاق على المخلوق، أما من حيث إضافتهما إلى الله عز وجل فلا وجه للمبالغة بالنسبة إليه تعالى؛ لان صفاته بالنسبة إليه تعالى غير محدودة فلا تجري المبالغة فيها))^(١٣) و قال السيد السبزواري: ((و أما في بعض التفاسير من أن فعلان لا يدل على الثبوت بخلاف فعيل، وإنما ذكر تعالى الرحيم لأجل إظهار ثبوت الرحمة بالنسبة إليه تعالى. مخدوش، لان التفرقة بين اللفظين إنما تصح في الممكنات دون الواجب تبارك و تعالى))^(١٤).

و من ذلك يتبين أن القول بدلالة فعلان و فعيل على التجدد و الثبوت قد قال به أصحاب التفاسير و رده السيد السبزواري، وتابع ذلك الدكتور فاضل

السامرائي في كتابيه (لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ومعاني الأبنية في العربية) إذ قال: ((الرحمن فعلان من الرحمة و الرحيم فعيل منها. وصيغة فعلان تفيد الدلالة على الحدوث و التجدد... و صيغة فعيل تدل على الثبوت في الصفة... فجاء بالوصفين للدلالة على أن صفته الثابتة و المتجددة هي الرحمة للاحتياط في الوصف. فانه لو وصف نفسه بأنه رحيم فقط لوقع في النفس أن هذا وصفه الثابت و لكن قد يأتي وقت لا يرحم فيه كالكريم و الخطيب. و لو قال رحمن فقط لظن أن هذا وصف غير ثابت كالغضبان و العطشان وهذا الوصف يتحول فيذهب الغضب و يزول العطش، وكذلك الرحمة، فجمع بينهما ليدل على أن وصفه الثابت و المتجدد هو الرحمة، فرحمته دائمة لا تنقطع و هو من أحسن الجمع بين الوصفين و لا يؤدي الوصف بأحدهما ما يؤدي اجتماعهما))^(١٥) و قد ضرب الدكتور السامرائي لذلك مثلاً

(١٥) لمسات بيانية: ٢٧.

(١٢) تفسير سورة الحمد: ١٥٧.

(١٣) مواهب الرحمن: ١ / ١٥ - ١٦.

(١٤) نفسه: ١ / ١٦.



من لغتنا الدارجة إذ قال: ((تقول هو ضعفان إذا أردت الحدوث فإذا أردت الثبوت قلت: هو ضعيف، و كذلك سمنان و سمين. إلا ترى انك تقول لصاحبك: أنت ضعفان فإرد عليك: أنا منذ نشأتني ضعيف، و تقول له: أراك طولان، فيقول: أنا طويل منذ الصغر)) (١٦).

و قد لا يمكن التسليم بذلك؛ إذ السامرائي اعتمد تحليل بنية ((فعلان و فعيل)) من دون النظر إلى ما احتملته من ظلالٍ معنوية بعد أن اختصت باسمه تعالى، ولا سيما أن الرحمن اسم من أسمائه تعالى، ولم يتسمَّ به أحدٌ غيره تعالى، أما الرحيم فهو من صفته هذا ما حَقَّقَه العلماء فقد قالوا: إن الرحمن اسم، والرحيم صفة (١٧) وهاتان الصفتان يطلق عليهما العلماء اسم الصفة النفسية أو الفعلية، فالصفة النفسية هي الصفة القائمة بذاته تعالى، والصفة الفعلية هي

(١٦) معاني الأبنية: ٩١.

(١٧) ينظر: جامع البيان: ١ / ٥٨، ولسان العرب ١٢ / ٢٣١، والتبيان في تفسير غريب القرآن/ ٥٠.

التي تتعلق بفعله سبحانه في خلقه (١٨). ولاشك في أن الصفة القائمة بالذات أدل على الثبوت من الصفة التي تتعلق بالفعل والحدث، ومن هنا قال العلماء باسمية الرحمن، وأنه ((عَلِمَ مَخْتَصُّ بالله تعالى لا يشاركه فيه غيره، فليس هو كالصفات التي هي العليم والقدير والسميع والبصير؛ ولهذا تجري على غيره تعالى... ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى حسن مجيؤه مفرداً غير تابع، كمجيء اسم الله كذلك)) (١٩)، فظهر أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً، وهو أدل على الثبوت من الرحيم لِعِلْمِيَّتِهِ واختصاصه، وعدم وقوعه تابعا كالصفات. وفضلاً عن ذلك فإن الرحيم معدول عن راحم، وراحم اسم فاعل، وليس كاسم الفاعل في الدلالة على الحدوث والتجدد؛ وإنما عُدل بفعيل إلى فاعل في هذه البنية؛ لأنه مأخوذ من ((فعل

(١٨) ينظر: معنى لا إله إلا الله: ١ / ١٣٣.

(١٩) بدائع الفوائد: ١ / ٢٧.



و فضلا عما تقدم نستطيع أن نقول: إن في البسمة لمسات جمالية من الناحية الصوتية المأتية من المشاكلة اللفظية للكلمتين (الرحمن و الرحيم) فضلا عن المشاكلة المعنوية لهاتين الكلمتين المشتقتين من الرحمة، فكلمة الرحمن جاءت مشاكلة لكلمة الرحيم في الأصوات فحرف الراء ذو الصفة التكرارية تبع بالحاء الحلقي المهموس يلحقه صوت مد يزيد في المبالغة الصوتية و المعنوية كل ذلك ولد جمالية التركيب فضلا على الأسرار الإلهية في البسمة.

ثانيا: الدلالة على العموم والخصوص: من المعاني التي تدل عليها صيغتنا فعلان و فعليل في البسمة هي العموم و الخصوص. فالرحمن بجميع الخلق و الرحيم بالمؤمنين فقط، أو إن الرحمن في الدنيا و الآخرة و الرحيم في الآخرة فقط. وقد تدل الصيغتان على عكس

يفعل))، وهذا الباب هو باب الصفات العارضة، كما حقق ذلك الدكتور السامرائي نفسه^(٢٠)، ف(فعليل) من هذا الباب لا يدلُّ على الثبوت؛ وإنما الذي يدلُّ على الثبوت هو فعليل الذي من باب ((فَعُل - يَفْعُل))، باب السجايا والطباع الدالة على الثبوت، كشرَّف فهو شريف وعظَّم فهو عظيم، وغيره، فالثبوت في بنية فعليل إنما هو متأت من بنية فعله اللازم، الذي هو على الباب الخامس؛ وإنما حُمِل الرحيم وغيره على هذا الباب للمبالغة في الوصف، وليس في فعله معنى الثبوت. وبقي أن نقول في هذا الباب: إن النظر إلى الحدوث والثبوت يجب أن تراعى فيه أصل البنية، فبنية فعليل وفعلان قبل اختصاصهما بأسماء الصفات؛ إنما هما من أبنية المبالغة في ((رحمن ورحيم))، وليست من أبنية الصفة المشبهة؛ وذلك لأن فعلهما فعلٌ متعدِّ، ولا تأتي الصفة المشبهة من المتعدِّي إلاَّ شذوذاً^(٢١).

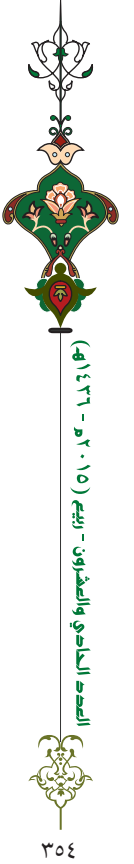
=القرآني، اطروحة دكتوراه، محمد ياس

خضر الدوري، كلية التربية، جامعة بغداد

٢٠٠٥، ص: ٢٧٨ - ٢٨٣.

(٢٠) ينظر: معاني الأبنية في العربية: ٧٨.

(٢١) يُنظر: دَقَائِقُ الفُرُوقِ اللُّغَوِيَّةِ فِي البَيَانِ =



هذه الدلالة فيكون الرحمن خاص بالله تعالى و الرحيم عام مشترك فيقال: رجل رحيم و لا يقال رحمن.

وقد قال بهذه الدلالة فريق من العلماء، و لم يستحسن الفريق الآخر ذلك. إذ يرى الطبري (ت ٣١٠هـ) أن: ((... الرحمن بجميع الخلق و الرحيم.. بالمؤمنين))^(٢٢) و يقول أيضا: ((قال رسول الله ﷺ: إن عيسى بن مريم قال: الرحمن رحمن الآخرة و الدنيا، و الرحيم رحيم الآخرة))^(٢٣) و قد استحسن الطبري كلا القولين لان ((.. الرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، إما في كل الأحوال، و إما في بعض الأحوال))^(٢٤).

وقد رد هذا الرأي السيد الخوئي في بيانه و السيد السبزواري في مواهبه و السيد الحكيم في تفسير سورة الحمد. إذ قال السيد الخوئي: ((... ورد في

(٢٢) جامع البيان: ١٠ / ٨٥، ويُنظر: معاني القرآن للنحاس: ١ / ٥٣.

(٢٣) نفسه.

(٢٤) نفسه.

بعض الروايات: أن «الرحمن» اسم خاص ومعناه عام وأما لفظ «الرحيم» فهو اسم عام، ومعناه خاص ومختص بالآخرة أو بالمؤمنين، إلا أنه لا مناص من تأويل هذه الروايات أو طرحها، لمخالفتها الكتاب العزيز، فانه قد استعمل فيه لفظ «الرحيم» من غير اختصاص بالمؤمنين أو بالآخرة ففي الكتاب العزيز ﴿فَمَنْ يَعْنِي فِائْتَهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٦]. ﴿نِعَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الحجر: ٤٩]. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحج: ٦٥] و ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٦]. ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنْفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٤]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، وفي بعض الأدعية والروايات: ((رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما))^(٢٥).

(٢٥) الصحيفة السجادية: ٣٠٨.



قائلا: ((.. وهو أيضا مردود فإن ذكر بعض الأفراد وأشرفها لا يدل على نفي ما عداه))^(٢٨) وقال السيد محمد باقر الحكيم راداً هذا المذهب: ((ويمكن أن نلاحظ على هذا الفرق بأننا نجد أن كلمة (رحيم) تعني من شملت رحمته كل شيء أيضا المؤمن والكافر في الدنيا والآخرة، شأنها شأن كلمة (رحمان)، إذ ورد في الاثر: «يا رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما»))^(٢٩).

وربما - والله اعلم - كل هذه المعاني المذكورة في تفسير دلالة الرحمن و الرحيم مطلوبة و لا يتم المعنى إلا بها جميعا، و هي جميعها صحيحة لأنها من باب التوسع في المعنى^(٣٠).

ثالثا: الدلالة على المبالغة في الرحمة: يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن لفظي الرحمن و الرحيم تدلان على المبالغة في الرحمة و عندهم أن لفظة الرحمن أكثر مبالغة في الرحمة من الرحيم

ويمكن أن يوجه هذا الاختصاص بأن الرحمة الإلهية إذا لم تنته إلى الرحمة في الآخرة، فكأنها لم تكن رحمة وما جدوى رحمة تكون عاقبتها العذاب والخسران؟. فإن الرحمة الزائلة تندك أمام العذاب الدائم لا محالة، وبلحاظ ذلك صح أن يقال: الرحمة مختصة بالمؤمنين أو بالآخرة))^(٢٦) و لم يقبل السيد السبزواري القول بذلك لان ((العوامل بالنسبة إليه تبارك و تعالى في عرض واحد و انه محيط بالزمان و الزمانيات و خارج عنها إلا أن يلحظ ذلك بالنسبة إلى المخلوق و قد ورد الرحمن بالنسبة إلى الآخرة في قوله تعالى

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾

[سورة الفرقان: ٢٦]... كما ورد

الرحيم بالنسبة إلى الدنيا في قوله تعالى

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ

رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٩] ((^(٢٧)

وقد رد قول من قال إن الرحيم عام للجميع و الرحيم خاص بالمؤمنين

(٢٨) نفسه: ١٦ / ١ - ١٧.

(٢٩) تفسير سورة الحمد: ١٥٧.

(٣٠) يُنظر: الجملة العربية و المعنى: ١٧٧.

(٢٦) البيان: ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢٧) مواهب الرحمن: ١ / ١٦.



فيتولد تدرج في الرحمة بين الرحمن و الرحيم.

إذ جاء في الكشاف: ((... وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم ولذلك قالوا: رحمان الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ويقولون إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى))^(٣١) وقال أبو هلال العسكري: ((وعندنا أن الرحيم مبالغة لعدوله، وأن الرحمن أشد مبالغة؛ لأنه أشد عدولاً، العدول على المبالغة كلما كان أشد عدولاً كان أشد مبالغة))^(٣٢).

فمعنى المبالغة في الرحمن متأت لما فيه من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به، فهم يقولون: غضبان للممتلى غضباً، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مُليء بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول^(٣٣). إذ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الاعراف: ١٥٦] فلذلك تكون ((الرحمة الشاملة لكل محتاج إليها و

بجميع مراتبها التفضيلية بلا اختصاص لها بنوع دون نوع من الجماد والنبات و الحيوان و الإنسان و سائر المخلوقات فلأجل إهمال المتعلق استفيد العموم و الشمول لجميع الأنواع الممكنة...))^(٣٤) و من ذلك يتبين أن صيغة الرحمن تدل ((على المبالغة والكثرة في الرحمة مع السعة والشمول، وأما صيغة الرحيم فهي تدل على المبالغة والكثرة في الرحمة، لكن دون هذه السعة والشمول، أي دلالتها على الكثرة في جانب الكم فقط، لا الكم والكيف))^(٣٥) وذهب السيد الصدر إلى أن الرحمة في الرحمن واسعة ثابتة، و في الوقت نفسه فإن الرحمة في الرحيم تكون خاصة واسعة وإن لم تكن واسعة لكل الخلق و لكنها واسعة لكل مستحقيها و طالبيها^(٣٦). و رأى السيد الحكيم أن الرحمن تدل على سعة رحمة الله تبارك وتعالى، بينما تدل الثانية على استمرار هذه الرحمة واستقرارها^(٣٧).

(٣٤) مواهب الرحمن: / ١ / ١٧.

(٣٥) تفسير سورة الحمد: ١٥٦ - ١٥٧.

(٣٦) يُنظر: منة المنان: ٤٦.

(٣٧) يُنظر: تفسير سورة الحمد: ١٥٨.

(٣١) الكشاف: / ١ / ٣٤.

(٣٢) الفروق اللغوية: ١٦٠ - ١٦١.

(٣٣) ينظر: التفسير القيم / ٣٣، ومعاني

الأبنية في العربية / ٩٣.



على كلمة واحدة مع اختلاف لفظيها و قد كَرَّرا لضرب من التوكيد إذ جاء في الصحاح: ((الرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة، ونظيرهما في اللغة نديم وندمان، وهما بمعنى، ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد كما يقال فلان جاد مجد))^(٤١).

وقال السيد الصدر: ((ويمكننا أيضا أن نركب بينهما فيكون (الرحمن الرحيم) اسما واحدا فنفس الرحمة واسعة وهي ثابتة فكانها صفتان لشيء واحد وهي مادة الرحمة))^(٤٢).

و هناك دلالات اخرى للصيغتين اذ نقل عن ابن عباس انه قال: ((الرحمن الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب. قال: الرحمن الرحيم: الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه))^(٤٣) وقيل إن لفظة الرحمن ليست

رابعا: الدلالة على التوكيد:

و هذه الدلالة مفادها أن لفظي الرحمن و الرحيم في البسمة كُرِّرَتَا دلالة على التوكيد للرحمة فقد قال قطرب (ت ٢١٦هـ): ((يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد وهذا قول حسن وفي التوكيد أعظم الفائدة وهو كثير في كلام العرب))^(٣٨) و قال الجوهرى (ت ٣٩٣ هـ): ((ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على وجه التأكيد كما يقال فلان جاد مجد))^(٣٩) و قد رد ذلك السيد محمد باقر الحكيم بقوله: ((فما نرجحه -إذن- هو أن يكون للفظه الرحمن معنى مغاير للفظه الرحيم وأن إحداهما ليست تكرارا للأخرى^(٤٠))).

خامسا: الدلالة على معنى واحد هو

الرحمة:

الرحمن و الرحيم عند أصحاب هذه الدلالة لفظان مختلفان يؤديان معنى واحدا و هو الرحمة، أي أنهما يدلان

(٤١) الصحاح: ٥ / ١٩٢٩، و اللسان: ٢١ /

٢٣١.

(٤٢) مئة المنان: ٤٥.

(٤٣) جامع البيان: ١ / ٨٦.

(٣٨) معاني القرآن للنحاس: ١ / ٥٤.

(٣٩) الصحاح: ٥ / ١٩٢٩، مختار الصحاح:

١٣٠.

(٤٠) تفسير سورة الحمد: ١٥٨.



بعربية، وإنما هي بعض اللغات مستدلاً بقوله تعالى ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ إنكاراً منهم لهذا الاسم^(٤٤). وقد رد بأنه ليس بصحيح لأن هذه اللفظة مشهورة عند العرب موجودة في أشعارها، قال الشنفرى:

أَلَا ضَرَبْتَ تِلْكَ الْفَتَاةُ هَجِينَهَا

أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِي يَمِينَهَا
وقال سلامة بن جندل: «وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق»^(٤٥).

ورد ذلك الطبري قائلًا: ((وقد زعم بعض أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف الرحمن ولم يكن ذلك في لغتها ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ: وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا إنكاراً منهم لهذا الاسم. كأنه كان محالاً عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته، أو كأنه لم يتل من كتاب الله قول الله: الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه يعني محمداً كما يعرفون أبناءهم وهم مع ذلك به مكذبون،

(٤٤) يُنظر: مجمع البيان: ١ / ٥٢.

(٤٥) يُنظر: المصدر نفسه.

ولنبوته جاحدون. فيعلم بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقة ما قد ثبت عندهم صحته واستحكمت لديهم معرفته. وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهلاء:

أَلَا ضَرَبْتَ تِلْكَ الْفَتَاةُ هَجِينَهَا

أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِي يَمِينَهَا
وقال سلامة بن جندل الطهوي:
عجلتم علينا عَجَلْتِنَا عَلَيْكُمْ
وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق^(٤٦)

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث يمكننا أن نثبت مجموعة من النتائج المقتطفة وهي كالاتي:

١. اختلف العلماء في تفسيرهم دلالة الرحمن و الرحيم فكثرت أقوالهم في ذلك، ولاشك في أن كل ما قالوه من معان كانت تصب في خدمة المعنى العام للبسملة وكل هذه المعاني مطلوبة مرادة وهي من باب التوسع في المعنى.

٢. إن الرحمن اسم من أسماء الله تعالى و

(٤٦) جامع البيان: ١ / ٨٧ - ٨٨.



- هو خاص به لا يسمى به غيره دال على ذات الله و لا يدل على التجدد و الحدوث لانه اسم ثابت.
٣. الرحيم لا يدل على الثبوت و إنما الذي يدل على الثبوت ما اخذ من باب (فعل يفعل) مثل شرف يشرف و كرم يكرم و عظم يعظم كعظيم و كريم اما رحيم فمشتق من رَحِمَ يرحم فهو فعيل.
٤. جاء الرحمن مشاكلا للرحيم في اللفظ من حيث الأصوات و في المعنى من اشتقاقهما من الرحمة فزاد ذلك في جمالية البسملة الصوتية.
- المصادر و المراجع**
- أولاً: القرآن الكريم.
- ثانياً: الكتب المطبوعة.
- بدائع الفوائد: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية ((ت ٧٥١هـ)) تح: هشام عبد العزيز عطا و عادل عبد الحميد العدوي وأشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط/ ١، ١٤١٦هـ.
- البيان في تفسير القرآن للامام الاكبر زعيم الحوزة العلمية السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت ١٤١٣هـ) الطبعة الرابعة دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ١٣٩٥ - ١٩٧٥ م.
- تاج اللغة وصحاح العربية تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار الجزء الاول دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٨٧ م.
- التبيان في تفسير غريب القرآن: شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري ((ت ٨١٥ هـ))، تح: د. فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث بطنطا - القاهرة، ط/ ١، ١٩٩٢ م.
- تفسير سورة الحمد: السيد محمد باقر الحكيم، الطبعة الاولى، مجمع الفكر الإسلامي قم ١٤٢٠.
- التفسير القيم: ابن قيم الجوزية، جمع: محمد أويس الندوي، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩ م.



- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر ((ت ٣١٠هـ))، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الجملة العربية و المعنى: الدكتور محمد فاضل صالح السامرائي، الطبعة الاولى، دار ابن حزم، بيروت لبنان ٢٠٠٠
- الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري، رتبه وضبطه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط/ ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: د. فاضل السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٩٩م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي ((ت
- ٥٦٠هـ)) تح: لجنة من العلماء والمحققين، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- معاني الأبنية في العربية: د. فاضل السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ط/ ١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- معاني القرآن: أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي أبو جعفر النحاس ((ت ٣٣٨هـ)) تح: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ط/ ١، ١٤٠٩هـ.
- معنى لا إله إلا الله: بدر الدين الزركشي ((ت ٧٩٤هـ)) تح: علي محيي الدين علي القره داغي، دار الاعتصام - القاهرة، ط/ ١، ١٩٨٥م.
- منة المنان في الدفاع عن القرآن آية الله العظمى السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر (ت ١٩٩١م) الطبعة الاولى، مطبعة الكوثر رقم ايران ١٤٢٦هـ.



وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

صلى
١٤٢٢



وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَمْرِجِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْتَبَةً فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي وَأَدْخِلِي جَنَّتِي

كَبَائِرُ الذُّنُوبِ كَمَا وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَحْدِيدُ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَام) لِعَدَدِهَا

أ.د. عبد اللطيف حمودي الطائي
جامعة بغداد - كلية الآداب

محتوى البحث

يبسط السيد الباحث كباير الذنوب التي نهى الله - سبحانه - عنها في القرآن الكريم وأولها، الشرك، فعرف كل واحدة منها وشرح مضارها على الفرد والمجتمع في بحث وعظي إرشادي اعتمد فيه أوثق المصادر في التفسير والحديث الشريف وقد اقتصر حديثه على ثمانية عشر ذنباً من كباير الذنوب (بحسب تحديد الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)).

والبحث خطاب مباشر خص شريحة الذين يجهلون الدين من الناس والذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الذَّنُوبُ: هي المعاصي والموبقات التي يرتكبها الإنسان في الحياة الدُّنيا؛ وهي من الأعمال التي لا يرتضيها الله سبحانه وتعالى للعبد المؤمن الصالح؛ والذَّنُوبُ نوعان؛ منها ذَّنُوبٌ صغيرةٌ وهي التي لا تضرُّ إلا من يرتكبها؛ وبإمكان العبد المؤمن التخلص منها من خلال التوبة والاستغفار وعدم العودة إليها؛ والصنف الثاني من الذَّنُوبِ هي التي يسبب ارتكابها ضرراً في المجتمع؛ وتؤول نتائجها إلى الفساد الذي هو بالضد من الصلاح الذي يامر به الله سبحانه وتعالى؛ وعقوبة هذه الذَّنُوبِ أكبر بكثير من عقوبات الذَّنُوبِ الأخرى؛ وستكون هذه الدراسة مسلطة على الصنف الثاني من الذَّنُوبِ والمسماة بكبائر الذَّنُوبِ؛ ولتقف أولاً على جذر كلمة الذَّنُوبِ كما ورد في لسان العرب.

الذَّنُوبُ: هو الإثم والجرم والمعصية؛ والجمع ذَّنُوبٌ^(١)؛ وهذا المعنى أكده

(١) لسان العرب: مادة ذنب.

القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان موسى ﷺ: ﴿ **وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ** ﴾ [سورة الشعراء: ١٤]؛ وعنى بذلك قتله للرجل الذي وكزه بالعصا ففضى عليه؛ ومن هذا الجذر تتفرع معانٍ آخر لسنا بصدد الوقوف عندها؛ ولكن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الذَّنْبُ والجمع أذنب؛ ومثلها ذنبُ الفرس^(٢)؛ أي ذيله؛ وفي هذا الصدد قالت العرب: ذنبُ الفرس؛ وذناي الطائر^(٣)؛ ومنه قولهم جاء فلانٌ بذنبه^(٤)؛ أي جاء بأتباعه؛ قال الخطيئة يهجو بني سعد بن زيد مناة المشهورين ببني أنف الناقة^(٥):

قَوْمٌ هُمُ الرَّأْسُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ
وَمَنْ يُسْوِي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا
فَالْأَذْنَابُ هُمُ الْآتِبَاعُ؛ وَالذَّنْبُ يَتْبَعُ
الرَّأْسَ؛ وَذَنْبٌ كُلُّ شَيْءٍ آخِرِهِ^(٦).

وَأَمَّا كَبْرُ: فَقَدْ كَبَّرَ الْأَمْرُ: إِذَا شَقَّ

(٢) لسان العرب مادة ذنب.

(٣) لسان العرب مادة ذنب.

(٤) لسان العرب مادة ذنب.

(٥) ديوان الخطيئة: ١٥.

(٦) لسان العرب مادة ذنب.



عليك ولم تستطع تحمله^(٧)؛ وقد دلَّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الشورى: ١٣]؛ والكِبْرُ: الإثم الكبير والخطب العظيم؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [سورة النجم: ٣٢]؛ والكِبْرُ: الشرك؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: ٦٠]؛ وَكَبُرَ يَكْبُرُ كِبْرًا: عَظُمَ يَعْظُمُ عِظْمًا^(٨)؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَلَيَّ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتُهُ﴾ [سورة يوسف: ٣١] أي عَظُمَ في صدورهن؛ ومن هذا المعنى نفهم أن كبائر الذنوب والآثام: هي أعظمها عند الله؛ وأشدّها عقوبة ونكالا لمن يرتكبها، وعلى كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ أن يعرف تلك الكبائر ليكون بعيداً عنها بالأقوال والأفعال، ليسلم مما يترتب عليها من عذابات أليمة مُخْزِيّة؛ فالكبائر إذا هي الذنوب التي أوجب الله سبحانه وتعالى عليها

عقوبة النار^(٩)، وخلاصة القول يمكن القول: إن الكبائر هي ما نهى الله سبحانه وتعالى؛ ورسوله الكريم مُحَمَّدٌ ﷺ عنها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ وقد اشترط الله على المؤمنين إذا اجتنبوا المحرمات وكبائر الذنوب؛ أَنَّهُ سَيَكْفُرُ عَنْهُمْ صَغَائِرَ سَيِّئَاتِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ جَاءَنِي كَبَائِرٌ مَّا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [سورة النساء: ٣١]؛ وقبل الشروع بتفاصيل هذه الكبائر؛ لا بدّ من معرفة عددها!. ذلك لأنّ علماء المسلمين لم يتفقوا على عدد معين؛ ولكنهم حصروها بين السبعِ والسبعين؛ ولنقف على هذه الأعداد وهي كما يأتي:

١- قال بعض العلماء هي سبعٌ؛ مُحتجّين بالحديث الشريف^(١٠): (اجتنبوا السبع الموبقات)؛ وهي: الشرك بالله؛ والسحر؛ وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ وأكل مال اليتيم؛ وأكل

(٩) أصول الكافي: ٢ / ٢٩٦.

(١٠) صحيح البخاري: الحديث رقم ٢٧٦٧؛

وصحيح مسلم الحديث رقم ٨٩.

(٧) أساس البلاغة مادة: كبر.

(٨) لسان العرب؛ مادة كبر.



كباثر الذنوب كما وردت في القرآن الكريم..... **التصنيف**

(الكبائر تُخْرَجُ من الإيمان)، فقد قال الإمام أبو جعفر الثاني محمد الجواد عليه السلام (١٤): (سمعت أبي يقول: سمعت أبي موسى بن جعفر عليه السلام يقول: دخل عمرو بن عُبيد على أبي عبد الله عليه السلام؛ فلما سلم وجلس؛ تلا هذه الآية ﴿ **وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشِ** ﴾ [سورة الشورى: ٣٧]؛ وأمسك.

فقال له أبو عبد الله: ما أسكتك؟ فقال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله عز وجل.

فقال: نعم، يا عمرو: أولاً: أكبر الكبائر الإشراك بالله عز وجل؛ والشرك نوعان:

١. أن تجعل لله نداً تشركه في عبادته؛ مثل الأصنام والأوثان والأحجار والشجر وغيرها؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ **مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ** ﴾ [سورة المائدة: ٧٢]، فالشرك هو أكبر الكبائر وأعظمها كما قال الإمام الصادق عليه السلام، لذلك فإن الله سبحانه

(١٤) أصول الكافي: ٢ / ٢٠٣ - ٢٠٤.

الربا؛ والتولي يوم الزحف؛ وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

٢- قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١١): (هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع) ولم يقطع برقم محدد.

٣- حددها الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام بثماني عشرة كبيرة في حديثه مع عمرو بن عُبيد (١٢).

ومع كبير احترامنا وتقديرنا لآراء علماء المسلمين كافة؛ فإننا نعول في حكمنا على ما وردنا عن آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وبذلك يكون الرأي المعول عليه في هذه الدراسة هو ما قال به الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام؛ إذ سيكون ما تحته خطاً هو رواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام؛ وما بعده من تبسيط وتوضيح فهو للعبد الفقير إلى رحمة ربه كاتب السطور.

فقد روي عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام قوله (١٣):

(١١) سنن البيهقي في الشعب رقم الحديث: ٢٩٤.

(١٢) أصول الكافي: ٢ / ٢٠٣ - ٢٠٤.

(١٣) أصول الكافي: ٢ / ٣٠٢.



وتعالى قال في محكم كتابه الحكيم:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا

دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [سورة النساء:

٤٨] قال المحققون^(١٥): (هذه الآية

أرجى آية في القرآن؛ لأنَّ فيها

إدخال ما دون الشرك من جميع

المعاصي في مشيئة الغفران؛ وقف

اللهُ المؤمنين الموحدين بهذه الآية

بين الخوف والرجاء؛ وبين العدل

والفضل وذلك صفة المؤمن)،

لذلك قال الإمام الصادق^(عليه السلام): (لو

وَزِنَ رَجَاءُ الْمُؤْمِنِ وَخَوْفُهُ لَاعْتَدَلَا)؛

أي أنَّ الله سبحانه وتعالى يغفر

الذنوب جميعاً إلا الشرك، ويعفو

عَمَّا كَانَ دُونَ الشَّرْكِ، ومعنى ذلك

أنَّ باب التوبة للمؤمن مفتوحٌ

على مصراعيه؛ بشرط الإخلاص

وعدم العودة إلى ارتكاب المعاصي

والموبقات والكبائر، وقد عدَّ الله

سبحانه وتعالى الشرك ظلماً عظيماً

وذلك في وصية لقمان لابنه وهو

يعظه في قوله تعالى: ﴿ يَبْنِي لَكَ شُرَكَاءَ

بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

[سورة لقمان: ١٣] أي إنَّ المشرك

ظلم نفسه من خلال عدم إيمانه

بوحداية الله عزَّ وجل؛ وتماديه في

الشرك وعبادة الأصنام والأوثان؛

لذلك ستكون النار مثواه؛ ولبئس

المصير، لأنَّ الله في قوله السابق حرم

الجنة على المشركين.

٢. والنوع الثاني من الشرك هو الرياء

بالأعمال فقد قال تعالى: ﴿ فَمَنْ

كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا

وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة

الكهف: ١١٠]؛ أي يجب أن

يكون عمله خالصاً لله وحده؛ وقد

وصف رسول الله مُحَمَّدٌ^(صلى الله عليه وآله) الرياء في

قوله^(١٦): (إياكم والشرك الأصغر؛

ف قيل له: يا رسول الله؛ وما الشرك

الأصغر؟. قال: الرياء؛ يقول:

إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَخَاطَبُ هَؤُلَاءِ

المشركين بقوله: اذهبوا إلى الذين

كنتم تراؤونهم بأعمالكم في الدنيا

فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟.

كَبَائِرُ الذُّنُوبِ كَمَا وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ النَّصِيحَاتُ

على الزراعة معتمدين الأمطار؛ والأمطار تخضع لمشيئة الله بين الكثرة والشح؛ فعندما تكون الأمطار كثيرة ترى الإنسان يسيطر عليه الخيلاء والزهو والفرح إلى حد التعالي والتكبر؛ وعندما تكون الأمطار شحيحة يحيط اليأس به من كل مكان؛ فيصل به إلى درجة اليأس والقنوط؛ وهذا هو حال الجهلة من الناس؛ فيخاطبهم الله عز وجل قائلاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [سورة الشورى: ٢٨] أي أن الله سبحانه وتعالى رؤوف بعباده؛ يجتبر صبرهم في الحياة؛ ثم يمن عليهم؛ بأن يرسل لهم السماء مدراراً؛ مطراً كريماً يسقي الزرع والحراث.

وكان النبي محمد عليه الصلاة والسلام يخاطب المسلمين منذ اليوم الأول للرسالة المباركة؛ أن يكونوا مسلمين مؤمنين؛ خالصة عبادتهم لله وحده؛ وأن يحيوا ويموتوا وهم مسلمون ففي الحديث الشريف (١٧): (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظنَّ

(١٧) صحيح مسلم الحديث: ٢٨٧٧.

ثانياً: اليأس من رَوْحِ الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة يوسف: ٨٧]، يخاطب الله سبحانه وتعالى عباده الذين أسرفوا على أنفسهم؛ من خلال ارتكابهم المعاصي والآثام والذنوب والإيغال فيها؛ ألا يفقدوا الأمل ولا يقنطوا من رحمة الله التي وسعت كل شيء؛ فَرَوْحِ الله هي رحمته التي لا حدود لها؛ فقد وسعت كل الشيء؛ فضلاً عن كونه تعالى عفوٌ غفورٌ رحيمٌ على من تاب من عباده توبة خالصة لوجهه؛ وأصلح شأنه، وسار بخط مستقيم يرضاه الله ورسوله؛ ولا يعود إلى ارتكاب المعاصي والذنوب والموبقات التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها.

خلق الله الإنسان ليعمر الأرض؛ ويعمل فيها صالحاً؛ ولكنَّ العمل في الحياة الدنيا فيه الصالح والظالم؛ والعمل يتطلب من الإنسان أن يكون صبوراً؛ وبما أن معظم الناس يعيشون



بالله تعالى)؛ أي عليه ألا يفقد الأمل بالله؛ فإنه قادر على كل شيء؛ وأمره بين الكاف والنون؛ يقول للشيء كن فيكون.

فالله عزَّ وجل حجب عفوه ومغفرته عن الكفار وجعلهم من الضالين؛ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [سورة الحجر: ٥٦].

فعلى المسلم المؤمن ألا يفقد الأمل برحمة الله؛ ففقدانها يعني الخروج من الدين الإسلامي؛ وهذا ما لا يرضاه الله ورسوله للمسلمين أصحاب العقيدة الراسخة.

ثالثاً: الأمن لمكر الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٩٩]، المكر هو خديعة؛ وعلى المسلم المؤمن الحفاظ على دينه وعقيدته ويتمسك بهما بقوة؛ وعليه أن يحذر من أن ينخدع فيهما؛ ويعني ذلك يجب على المؤمن أن يكون رقيقاً على أفعاله وتصرفاته خوفاً من انحرافها عن

طاعة الله ورسوله؛ فعليه أن لا يغفل؛ ويأمن عقاب الله؛ ومكر الله سبحانه وتعالى لا يعني الخديعة المتعارف عليها اليوم في المجتمعات؛ وإنما تعني الإختبار لقدرات المسلم المؤمن؛ فالله سبحانه وتعالى يختبر العبد في تصرفاته وأفعاله؛ فيمد له ويزيد في عطائه؛ حتى يميز المؤمن من الكافر؛ فالعبد المؤمن عبد شكور؛ والعبد الكافر عبد جحود؛ فيفرح العبد الكافر الجحود بما آتاه الله؛ ويتهادى في كفره وطغيانه؛ ثم يأخذه الله سبحانه وتعالى على حين غرة وهو غافل؛ لا يعي ما يدور حوله؛ فقال تعالى في ذلك: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤]؛ وعطاء العبد الكافر الجاحد والزيادة فيه هو مهلة واستدراج؛ والمهلة تتمثل في: لعل العبد يرعوي ويثوب إلى رشده؛ فيأخذ بهدى الله؛ وينجو بنفسه من عذاب أعدد للكافرين؛ والاستدراج يتمثل في أن الكافر يغرق في الضلالة تدريجياً حتى تغمره كلياً؛ فعند ذلك يأخذه الله



الجليل سهل بن سعد الساعدي يتمثل في قوله ﷺ (٢٠): (إِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَيَعْمَلَ بِعَمَلِ الرَّجُلِ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ)؛ وكان النبي عليه الصلاة كثير القسم بـ (٢١): (لا ومقلب القلوب)؛ وهذا الحديث الشريف مرتبط بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [سورة الأنفال الآية: ٢٤].

رابعاً: عقوق الوالدين، لقد جعل الله سبحانه وتعالى العاق جباراً شقيماً، لأنَّهُ قرن وحدانيته بطاعة الوالدين بدلالة قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٣]، القضاء هو الأمر النهائي الذي لا رجعة عنه؛ وهكذا قيدت الآية الكريمة العبادة بالله وحده وذلك من خلال أداة الحصر إلا؛ أي أَنَّ العبادة والربوبية يجب أن

بغته؛ وفي هذه المرحلة لا تنفعه توبةٌ ولا عَضُّ الأنامل ندماً على ما اقترفت يدها؛ والإلباس هنا اليأس المطلق من النجاة؛ واللافت للنظر أَنَّ الآية الكريمة الأولى التي وردت في صدر الفقرة؛ لا تشمل الأنبياء والمعصومين والمتقين؛ لأنهم ليسوا من الخاسرين؛ بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [سورة الدخان: ٥١].

لذلك على العبد المؤمن أن يثبت على دينه وعقيدته ويحافظ عليهما؛ ولا ينحرف عنها أبداً؛ فالنبي الكريم مُحَمَّدٌ ﷺ كان يكثر من قول (١٨): (يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك) ف قيل له: يا رسول الله؛ أتخاف علينا؟ فقال رسول الله (١٩): (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلِّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يَصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)؛ ثم قال: اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)؛ ويترتب على هذا الحديث حديث آخر رواه الصحابي

(٢٠) صحيح البخاري رقم الحديث: ٤٢٠٢؛
وصحيح مسلم رقم الحديث: ٢٦٥١.
(٢١) صحيح البخاري رقم الحديث: ٦٦١٧.

(١٨) مسند أحمد: رقم الحديث: ١٧٦٣٠.
(١٩) صحيح مسلم رقم الحديث: ٢٦٥٤.



تكون خالصة لله وحده؛ وعلى العبد أن لا يشرك بعبادة ربه أحداً؛ وذلك تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥]؛ فتقديم المفعول به هنا على الفعل والفاعل هو من باب التخصيص الحصري؛ ونلاحظ في هذه الآية الكريمة؛ أن الله سبحانه وتعالى قرن عبادته المشروطة بالتوحيد مع طاعة الوالدين والإحسان إليهما؛ وبذلك لا تقبل عبادة الموحّد مهما كانت درجة إيمانه؛ إلا إذا كانت مقرونة بالإحسان للوالدين؛ وطاعتها في كل شيء؛ إلا إذا دعواه إلى الشرك بالله، وعلى العبد المؤمن أن يكون باراً بهما؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٢] فضلاً عن أن الله سبحانه وتعالى قرن شكره بشكر الوالدين في قوله تعالى: ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْوَالِدَيْنِ﴾؛ فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه؛ وكل فعل أو تصرف مهما كان صغره؛ سواءً كان بالقول أو الفعل يؤذي الوالدين فهو من العقوق

فقد قال عزّ من قائل: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أُقِرِّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿ [سورة الإسراء: ٢٣ - ٢٤]؛ وفي هذا المقام قال النبي محمد ﷺ (٢٢): (رضا الله من رضا الوالدين؛ وسخط الله في سخط الوالدين)؛ أي أن الله سبحانه وتعالى يرضى لرضاهما ويسخط لسخطهما؛ وقد قال النبي عليه الصلاة (٢٣): (لعن الله العاق لوالديه) ثم قال (٢٤): (لعن الله من سبّ أباه؛ لعن الله من سبّ أمه)؛ واللعن في اللغة العربية يعني الإبعاد من رحمة الله؛ والعق هو الشق (٢٥)؛ ومن عق والديه فقد شقّ عصا طاعتها؛ وعقّ الوالدين يعني قطعها وعدم صلة رحمةها.

خامساً: قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق قال تعالى: ﴿وَمَنْ

- (٢٢) سنن الترمذي؛ رقم الحديث: ١٨٩٩؛ والبيهقي رقم الحديث: ٧٨٢٩.
(٢٣) مستدرک الحاكم: ٤ / ١٣٥.
(٢٤) صحيح مسلم رقم الحديث: ١٩٧١.
(٢٥) لسان العرب مادة: عقّ.

في قوله (٢٦): (لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا)؛ لذلك اكتسب العبد المؤمن منزلة كبيرة عند الله سبحانه وتعالى حتى جعل قيمة العبد المفرد مثل قيمة العباد كافة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة: ٣٢]؛ ولم ينس الإسلام العباد من غير المسلمين؛ فقد أشار الرسول الكريم إلى جريمة قتل الذمي فقال (٢٧): (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة؛ وإنَّ رائحتها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً) والمراد بقوله المعاهد: اليهودي والنصراني؛ فإذا كان هذا الحال مع قتل غير المسلم؛ فكيف تكون عقوبة من يقتل المسلم؟. وعليك أن تتصور نوع العقوبة وحجمها؛ وذهب النبي عليه الصلاة والسلام في هذه العقوبة

يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿ [سورة النساء: ٩٣]؛ النفس هي رمز للإنسان على المجاز المرسل من باب تسمية الكل باسم الجزء؛ وهذا مذهب بلاغي مشهور عند العرب؛ والإنسان هو أكرم خلق الله؛ وكان خلقه مميزاً خاصاً؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: ٤] ذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يكون خليفة له في الأرض ليعمرها فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: ٣٠]؛ وتبعاً لذلك فهذا المخلوق الكريم عند الله له وزن كبير وشأن عظيم؛ فهو إذن خط أحمر؛ لا يمكن المساس به بغير حق؛ لذلك عدَّ الله سبحانه وتعالى قتله بغير ذنب من كبائر الذنوب؛ فإذا كان هذا الحال مع الإنسان بصورة عامة؛ فما بالك في قتل الإنسان الصالح المؤمن؛ وقد أكد هذه المعاني رسول الله محمد ﷺ



(٢٦) سنن النسائي: رقم الحديث: ٣٩٨٦؛
الترمذي رقم الحديث: ١٣٩٥.
(٢٧) صحيح البخاري؛ رقم الحديث: ٣١٦٦.

بعيداً حين أشار إلى قاتل المسلم عمداً في قوله (٢٨): (كَلَّ ذَنْبَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ؛ إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا؛ أَوْ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا).

سادساً: قذف المحصنة، قال الله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور: ٢٣]؛ المرأة المحصنة هي المرأة الحرة العفيفة الطاهرة البعيدة عن الزنا والفواحش؛ والإنسان الذي يرمي المحصنة بلا بينة يجلد ثمانين جلدة؛ نكالاً وعقاباً لما قام به من كذب وافتراء على امرأة مسلمة بريئة مما قال فيها؛ فقد قال تعالى في هذه العقوبة وهي من عقوبات الحدود التي حدها الله سبحانه وتعالى بحق صاحب هذه الجريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة النور: ٤]؛ نلاحظ أن هذه الآية الكريمة اشترطت عدة شروط لقبول صحة هذه التهمة؛ وهي أن

يأتي القاذف بالتهمة بأربعة شهداء على وجه التحديد؛ والشهادة في الحالات الطبيعية لا تحتاج الى أكثر من شاهدين من الذكور؛ أو رجل وامرأتان؛ والاثبات بأربعة شهداء هو لخطورة هذه التهمة؛ فإذا بطلت التهمة وفسدت؛ يعاقب القاذف بعدة عقوبات منها: يجلد ثمانين جلدة؛ ولا تقبل له شهادة أبداً ما دام حياً؛ ومن ثم فهو من الفاسقين؛ هذه العقوبات دنيوية؛ وله عقوبة أخروية يوم القيامة تتمثل في عذاب عظيم؛ علماً بأن القذف يشمل الألفاظ النابية من التي تجرح المشاعر من مثل: زانية؛ باغية وغيرهما من الألفاظ التي تعف الأذان من سماعها؛ وعقوبات القذف تطبق على حد سواء على الأسياد (الأحرار) والمسودين (العبيد والمملوكين)؛ وإذا ما قذف حرٌّ جاريتته أو مملوكه بتهمة الزنا؛ ولم يأت بأربعة شهداء؛ فقد قال في هذه القضية المهمة رسول الله ﷺ (٢٩): (من قذف مملوكه بالزنا؛ أقيم عليه الحدُّ

(٢٨) سنن النسائي: رقم الحديث: ٣٩٨٤؛ ومسنند أحمد: رقم الحديث: ١٦٤٦٤.

(٢٩) صحيح البخاري رقم الحديث: ٦٨٥٨؛ صحيح مسلم رقم الحديث: ١٦٦٠.



الرشد ويكونوا قادرين على تصريف أمورهم؛ والقيم أو الوصي يفضل أن يكون من ذوي أرحامهم؛ وكذلك من القيمين من هم فقراء مادياً؛ ومنهم الأغنياء؛ فالغني لا يحق له أن يأكل من مال اليتيم مطلقاً؛ وعليه أن يستعفف؛ وأما الفقير فعليه أن يأكل بالمعروف؛ بما يرضي الله ورسوله ولا يخرجهم من نطاق الشريعة السمحة؛ فقد قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: ٦]؛ وقد أكد الإسلام الحفاظ على أموال الأيتام وعدم التصرف بها إلا بما يرضي الله ورسوله ولا يخالف الشريعة؛ فأما الذين لا يلتزمون بما أمر الله؛ فيأكلون أموال اليتامى بالباطل؛ فقد قال الله سبحانه فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٠]؛ ثم نهى القيم أو

يوم القيامة إلا أن يكون كما قال؛ وقد عدَّ رسول الله قذف المحصنات من الموبقات السبع في قوله (٣٠): (اجتنبوا السبع الموبقات) وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات واحدة منها.

سابعاً: أكل مال اليتيم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٠]، اليتيم هو الطفل الصغير الذي فقد والديه أو أحدهما؛ وهو عاجز وليس له من يعيله ويكفيه مؤونة الحياة حتى يشتد ساعده؛ فيعتمد نفسه في تدبير شؤونه وأموره؛ ولكن هذا الصنف من الأيتام الذين عنتهم الآية الكريمة؛ هم ليسوا ضعفاء مادياً؛ بل هم الذين ترك لهم الوالدان مالا يكفيهم شر الحاجة؛ لكنهم من جانب آخر هم لا يستطيعون اعتماد أنفسهم في إدارة شؤون ما يملكون؛ فهم إذاً بحاجة إلى قيم أو وصي يقوم بمهام والدهم حتى يكبروا ويبلغوا سن

(٣٠) صحيح البخاري رقم الحديث: ٢٧٦٧؛ صحيح مسلم رقم الحديث: ٢٨٧٤.



الوصية في الأيتام فقال (٣٣): (أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم).

ثامناً: الفرار من الزحف، قال

الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِرْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال:

١٦]، الزحف هو مقاتلة الأعداء بقوة موحدة؛ والزحف إليهم يعني التوجه إليهم لقتلهم أو طردهم؛ وكلمة الزحف

تكاد تكون موقوفة على الجهاد في سبيل الله لرفع راية الدين الإسلامي عالياً؛

ولابد من العودة قليلاً إلى الجاهلية لنرى أن القتال كان عندهم عبارة عن

عملية كُرٌّ وفرٌّ؛ كُرٌّ عند النصر للحصول على الغنائم؛ وفرٌّ عندما يشعر المقاتل

أنَّ الموتَ يرفرفُ فوق رأسه؛ فيفر من ساحة القتال للحفاظ على حياته

إنطلاقاً من المبدأ القائل: الحفاظ على الحياة خير من فقدانها؛ أما في الإسلام

فقد تبذلت هذه المعادلة؛ ولاسيما في

(٣٣) صحيح البخاري رقم الحديث: ٣٦٧٩.

الوصي من التصرف بأموال اليتامى إلا بما كان فيه فائدة تعود على اليتيم

فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [سورة الإسراء:

٣٤]؛ فقد روى الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رحمه الله عن النبي ﷺ

عندما عرج به إلى السماء قوله (٣١): (إذا أنا برجال وقد وكل بهم رجال يفكون

لحاهم؛ وآخرون يجيئون بالصخور من النار فيقذفونها بأفواههم وتخرج من

أدبارهم؛ فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟. قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً

إنَّها يأكلون في بطونهم ناراً)؛ وأكد النبي عليه الصلاة والسلام الإهتمام

باليتيم ورعايته ولاسيما القيميين منهم والأوصياء فقال (٣٢): (أنا وكافل

اليتيم في الجنة هكذا؛ وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما)؛ أي أنَّ النبي

وكافل اليتيم في الجنة على حدٍّ سواء؛ وكان عليه الصلاة والسلام يكثر من

(٣١) سنن البيهقي رقم الحديث: ٣ / ٣٩٠.

(٣٢) صحيح البخاري رقم الحديث: ٦٠٠٥؛ ٥٣٠٤.



مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَفَدَّ
بِكَاءٍ يَعْضِبُ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَنُهُ جَهَنَّمُ
وَبَسَّ الْمَصِيرُ ﴿ [سورة الأنفال: ١٦]؛ ووجدنا الله سبحانه وتعالى مع النبي والمسلمين يشد أزرهم؛ ويرفع معنوياتهم لمواصلة قتال الكفار؛ فقال تعالى: ﴿ **إِن يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [سورة الأنفال: ٦٥]: أي أن سبحانه وتعالى جعل قدرة المسلمين وقوتهم عشرة أضعافها قبل الزحف؛ وهذه الأضعاف مشروطة بأن يكونوا صابرين وقد أخلصوا النية لله ولرسوله؛ ولكن الله تبارك وتعالى مع ذلك وجد ضعفاً في صفوف المسلمين فقال: ﴿ **أَلَكُنَّ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [سورة الأنفال: ٦٦]؛ وإذا كان جيش العدو أكبر من جيش المؤمنين وأقوى؛ فعلى المؤمنين أن يقاتلوهم بصبر كبير؛ فضلاً عن

شقها السليبي؛ فأصبحت المعادلة كما يأتي: النصر أو الشهادة؛ وأصبحت كلمة الفرار مرفوضة عند المقاتلين المسلمين؛ وحلَّ شعار جديد مكان الشعار القديم يتمثل في نيل إحدى الحُسنيين النصر أو الشهادة؛ ومن هذا المنطلق عدَّ الله سبحانه وتعالى كلَّ من يفر من ساحة الجهاد كافراً وخارجاً عن الدين الإسلامي؛ وسيؤول مصيره إلى نار جهنم وبئس المصير؛ وقد حدد الله سبحانه صنفين ممن يولون الأدبار هما: متحرفاً: تاركاً القتال؛ أو منحازاً إلى كفة العدو؛ فخطب الله عزَّ وجل المؤمنين في قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ** ﴾ [سورة الأنفال: ١٥] ففي هذه الآية الكريمة أمرٌ بقتال الكفار أولاً؛ ونهياً عن الهرب منهم ثانياً؛ وتولية الأدبار هو جعل ظهورهم باتجاه العدو استعداداً للهرب من الجهاد؛ ثم جاءت الآية الثانية لتوضح عقوبة من يتولى عن الجهاد ومقاتلة الكافرين: ﴿ **وَمَنْ يُؤَلِّهمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ**



الإبتهال إلى الله سبحانه وتعالى؛ ودعوته لاستغاثتهم؛ ليمنّ عليهم بالقوة والنصر؛ فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٩]؛ نلاحظ في هذه الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى استجاب لدعاء المؤمنين بإرساله جيشاً من الملائكة قوامه ألف ملك يقاتلون معهم؛ وكانوا جيشاً رديفاً وسانداً لجيش المسلمين؛ وعند ذلك تحقق النصر للمسلمين؛ وكان النبي محمد ﷺ قد عدّ الفرار من الزحف من الموبات السبع.

تاسعا: أكل الربا قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥]، يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده؛ ما الرِّبَا؟ فالربا في معناه الاجتماعي المتعارف عليه؛ هو الربح الفاحش الذي يصل إلى عدة أضعاف الربح الطبيعي؛ وهو محرم جملة وتفصيلاً؛ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٠]؛ ومن أنواع الربا القروض أو البيع والشراء بعملة نقدية من جنس واحد؛ من مثل: تقرض محتاجاً ألف دينار عراقي لمدة كذا على أن يعيده لك بعد مدة معينة مضاعفاً؛ أو أن تستبدل عملة من الفئة الكبيرة بعملة أخرى من الفئة الصغيرة بسعر يفوق قيمتها الحقيقية؛ أو أن تستبدل عملة من الفئة الصغيرة بعملة كبيرة بادننى من قيمتها الحقيقية: أما المعنى اللغوي للربا فهو مأخوذٌ من: ربا يربو ربواً: أي زاد ونما؛ وأربيتته: نميته (٣٤)؛ وقد أكد هذا القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّرَبِّوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [سورة الروم: ٣٩].

عاشراً: السحر، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلْقٍ مِّنْ خَلْقٍ﴾ [سورة البقرة الآية: ١٠٢]، السحر من الأعمال (٣٤) لسان العرب مادة: رب.



وكان كثيرٌ من السحر يُعمل على هيئة رُقِيَّةٍ أو تميمة تعلق على الصدور؛ فقد حرمها رسول الله بقوله (٣٦): (الرقِي؛ والتائم؛ والتَّوَلَة؛ شركٌ)؛ وقد استثنى من ذلك الرقية إذا كانت بالقرآن الكريم؛ ذلك لأنَّ رسول الله محمد ﷺ كان يرقى سبطيه الحسن والحسين ﷺ فيقول (٣٧): (أعيذكما بكلمات الله التامة؛ من كلِّ شيطان وهامة؛ ومن كلِّ عين لامة)؛ واختتم هذه الفقرة بقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): الكاهن ساحر؛ والساحر كافر.

الحادي عشر: الزنا: قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَعِفْ لَهُ أَلْعَادَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَخَلِّدْ فِيهِ مَهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

[سورة الفرقان: ٦٨]؛ والزنى يعني ممارسة الجنس بطريقة غير شرعية، وبدون عقد نكاح وشهود، وممارسة

(٣٦) سنن ابن ماجة رقم الحديث: ٣٥٣٠؛
ومسند أحمد بن حنبل رقم الحديث:
٢٦٠٤.

(٣٧) سنن الترمذي رقم الحديث: ٢٠٦٠؛
ومسند أحمد بن حنبل رقم الحديث:
٢١١٣.

الشريرة التي نهى الله سبحانه وتعالى عن ممارستها وتعاطيها بين الناس؛ لأنَّها بالأصل من عمل الشياطين؛ والسحر يمارس للتفريق بين الناس؛ بين الزوج وزوجه؛ وبين الأخ وأخيه؛ والسحر أداة هدامة، المراد منها هدم المجتمع الصحيح الذي يدعو الأنبياء والمرسلون إلى تشييده وفق التعاليم السماوية؛ وجنود السحر كلهم من الشياطين سواء كانوا من الإنس أو الجن؛ وأنَّ السحراء بالمحصلة النهائية كفار؛ فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ ﴿٣٥﴾ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة البقرة: ١٠٢]؛

والسحر ليس من الذنوب المحرمة فحسب بل هو ضلال وكفر وشرك؛ فقد عدَّ النبي محمد ﷺ السحر من الموبقات السبع؛ والسحر هي العقوبة التي حدَّها رسول الله في قوله (٣٥): (حدُّ الساحر؛ ضربه بالسيف)؛ ذلك لأنَّه كفر بالله؛

(٣٥) سنن الترمذي رقم الحديث: ١٤٦٠؛
سنن البيهقي: ٨ / ١٣٦.



هذا العمل في الظلام خلصة من أهل المرأة والمجتمع، فالزنى إذاً هو إساءة للمرأة والرجل على حدٍ سواء؛ ولاسيما المرأة التي كرمها الله سبحانه وتعالى، وجعلها عنواناً للعفة والطهارة، لذلك أحل الله سبحانه وتعالى النكاح وحرم الزنى، وبما أنّ الزنى محرّمٌ من قبل الله؛ فإنّ عقوبته من عقوبات الحدود التي حدها سبحانه وتعالى، فقد قال علماء المسلمين^(٣٨): إنّ عقوبة الزنى نوعان الأولى: الجلد بالسوط مائة جلدة لغير المتزوجين، طبقاً لما جاء في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَدَاؤُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور: ٢]؛ أي أنّ العقوبة يجب أن تكون علنية؛ وعلى مرآى ومسمع من جمع من المؤمنين وبحضورهم؛ وذلك للتشهير بهم ليكونوا عبرة لمن يعتبر؛ ويجب أن يكون جلدتهما بقلبٍ قاسٍ خالٍ من الرحمة والشفقة، لأنّ الله يأمر

(٣٨) الكبائر: ٥٠.

بعدم التسامح والتهاون معهم مهما كانت مكانتهم، وأما النوع الثاني فهو للمتزوجين، فهم يرمجون بالحجارة من قبل المؤمنين حتى يموتوا، فقد قال رسول الله ﷺ^(٣٩): (إنّ الإيـان سربالٌ يسربله الله من يشاء، فإذا زنى العبدُ نزع الله منه سربال الإيـان، فإنّ تاب رُدَّ عليه)، فالزاني والزانية يخرجان بفعلتهما هذه من قائمة المؤمنين؛ والزنى من الكبائر التي تسلب المسلم روح الإيـان؛ فقد قال رسول الله محمد ﷺ^(٤٠): (إذا زنى الرجل فارقه روح الإيـان)؛ فيما قال الإمام أبو عبد الله الصادق^(٤١): (يُسلبُ منه روح الإيـان مادام على بطنها؛ فإذا نزل عاد الإيـان)؛ والزنى من فواحش الكبائر: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٢].

الثاني عشر: اليمين الغموس الفاجرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(٣٩) سنن البيهقي رقم الحديث: ٥٣٦٦.

(٤٠) أصول الكافي: ٢ / ٢٩٩.

(٤١) أصول الكافي: ٢ / ٢٩٩.



بيمينه؛ فقد أوجب الله له النار؛ وحرّم عليه الجنة).

الثالث عشر: الغلول، قال الله تعالى:

﴿ **وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾

[سورة آل عمران: ١٦١]، الغلُّ في

المعنى الوضعي تعني شدة العطش

المصحوب بالحرارة^(٤٥)؛ والغلُّ والغلول

لا تكون إلا في الغنائم والصدقات؛ أما

في المعنى الاصطلاحي فتعني الغلول

السرقه من بيت مال المسلمين أو من

الصدقات؛ وهذه السرقه تعدُّ من اسوأ

أنواع السرقات؛ ذلك لأنَّ السارق مؤتمنٌ

على هذا المال؛ فيخون الأمانة فيسرق

خفية من ما أوتمن عليه من غير أن يشعر

به أحد؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ**

﴿ **الْخَائِنِينَ** ﴾ [سورة الأنفال الآية: ٥٨]؛

وهذا السارق من بيت مال المسلمين

ومن الصدقات وحسب اعتقاده أنَّ

أحداً لم يره؛ وهذا السارق سيؤتى به

يوم القيامة مع ما سرق؛ فيفتضح أمره

أمام الحشر؛ فيدخل نار جهنم مهاناً؛

قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ**

(٤٥) لسان العرب مادة: غلّ.

يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا

أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿ [سورة

آل عمران: ٧٧]، اليمين الغموس هي

اليمين الكاذبة ليحوز بها على مال الآخر

بغير وجه حق؛ فهذا الصنف من الناس

يوم القيامة: ﴿ **وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا**

﴿ **يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ**

﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [سورة آل عمران:

٧٧]؛ أي أنَّ الله سبحانه وتعالى لا

يسرهم بكلام ولا ينظر إليهم برحمة؛

ولا يزيدهم خيراً؛ وقد نزلت هذه الآية

الكريمة برجلين اختصا عند رسول

الله ﷺ قي ضيعة؛ فهم المدعى عليه أن

يخلف؛ فنزلت هذه الآية الكريمة^(٤٢)؛

وروي عن رسول الله عليه الصلاة

والسلام قوله^(٤٣): (مَنْ حَلَفَ عَلَى

مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله

وهو غضبان عليه)؛ وروي عنه ﷺ أَنَّهُ

قال^(٤٤): (مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ

(٤٢) الكبائر: ١٠٣.

(٤٣) صحيح البخاري؛ رقم الحديث: ٢٦٦٩؛

صحيح مسلم رقم الحديث: ١٣٦.

(٤٤) صحيح مسلم رقم الحديث: ١٣٧؛

ومسند أحمد رقم الحديث: ٢١٧٣٦.



يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿ [سورة آل عمران الآية: ١٦١]؛ وقد عدَّ النبي محمد الغلول عارا في قوله ^(٤٦): (أدوا الخيط والمُخيط؛ وإياكم والغلول؛ فإنه عارٌ على صاحبه يوم القيامة)؛ وكان النبي محمد ﷺ لا يصلي على الغال؛ فقد روي عنه امتناعه من الصلاة على رجل مات؛ فقال ^(٤٧): (صلوا على صاحبكم إنَّه غلٌّ في سبيل الله)؛ ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزاً من خرز اليهود قيمتها درهمان؛ كما عدَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام الهدايا التي يتقبلها عمال الغنائم والصدقات خلال جمعها غلولاً في قوله ^(٤٨): (هدايا العمال غلول).

الرابع عشر: منع الزكاة المفروضة، قال الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ** ﴾ [سورة التوبة: ٣٥]، الزكاة وفعلا زكَّى يزكِّي تزكِيَة

(٤٦) مسند أحمد رقم الحديث: ٢٢٢٠٧؛ مستدرک الحاكم: ٤٩ / ٣.

(٤٧) صحيح البخاري رقم الحديث: ٣٠٧٤.

(٤٨) سنن النسائي رقم الحديث: ١٩٥٩.

تعني في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح ^(٤٩)؛ وزكَّى بمعنى أصلح؛ قال تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾ [سورة النور: ٢١]؛ أي يصلح؛ وزكاة المال تطهيره؛ إذا أدى عن ماله زكاته ومنه قوله تعالى: ﴿ **حَدِّثْ مِنَ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ [سورة التوبة: ١٠٣]؛ وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ [سورة الشمس: ٩]؛ أي من طهر نفسه؛ وقوله: ﴿ **بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾ [سورة النساء: ٤٩]؛ والزكاة تعني صفوة الشيء؛ وتزكى تصدق ^(٥٠)؛ ذلك لأنَّ المال الذي يملكه الإنسان؛ هو ملك لله سبحانه وتعالى؛ وليس ملكا للإنسان؛ وبذلك يكون الإنسان وكِلا لله في مال الله؛ وله حقَّ التصرف بهذا المال؛ قال تعالى: ﴿ **ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ [سورة الحديد: ٧]؛ واشترط في الإنفاق أن يكون بما يرضي الله ورسوله؛ وبموجب

(٤٩) لسان العرب مادة زكا.

(٥٠) لسان العرب مادة: زكا.



أَنَّهُ قَالَ (٥١): (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته؛ مثلاً له يوم القيامة شجاعاً أقرعاً (أفعى) له زبيبتان يطوقه يوم القيامة؛ فيأخذ بلهزمتيه (أي بشدقيه) يقول: أنا مالك؛ أنا كنزك) ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٠]؛ والقرآن الكريم ينذر مانعي الزكاة ويعددهم من المشركين في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [سورة فصلت: ٦-٧].

الخامس عشر: شهادة الزور، وكتمان الشهادة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣]، شهادة الزور هي شهادة كاذبة مفتراة؛ لا أساس لها من الصحة؛ وهذه الكبيرة اجتمع فيها ذنبان عظيمان هما: الكذب والإقراء؛ وأما كتمان الشهادة؛ والمقصود منها إخفاء الحقيقة؛ ليظهر

(٥١) صحيح البخاري رقم الحديث: ١٤٠٣.

الشريعة الإسلامية السمحة؛ وأن الله سبحانه وتعالى جعل في هذا المال نسبة معينة على المتصرف بهذا المال دفعها للفقراء والمحتاجين تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [سورة المعارج: ٢٤-٢٥]؛ ونلاحظ في القرآن الكريم إن الزكاة وردت في سبع وثلاثين آية؛ وفيها كافة وردت مقترنة بالصلاة ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [سورة البقرة: ٤٣]؛ والذين يمتنعون عن أداء الزكاة لمستحقيها؛ ويقومون بتحويل أموالهم إلى ذهب وفضة؛ ومن ثم يكتنونه ولا يدفعون زكاته؛ سيعاقبون بما اكتنوا لأنفسهم ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الزَّكَاةَ وَالذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَلَوْأَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٤-٣٥]؛ فقد روي عن رسول الله ﷺ



الباطل على الحق؛ نلحظ في هذه الآية الكريمة؛ أن الله سبحانه وتعالى خصص الإثم ونسبه إلى القلب؛ ذلك لأنَّ القلب هو مركز فكر الإنسان ومدبر أمره؛ ولشهادة الزور أسباب ومبررات واهية؛ لتحقيق رغبات النفوس المريضة والضمائر الميتة؛ وهذه الرغبات الفاسدة عمرها قصير؛ إذ سرعان ما يفضح الله أمرها للناس؛ وقد زكى الله سبحانه وتعالى المؤمنين من ارتكاب هذه الكبيرة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [سورة الفرقان: ٧٢] [سورة الحج: ٣٠]؛ وقبل ذلك نهى الله عزَّ وجل المؤمنين عن ارتكاب هذه الكبيرة فقال: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾؛ وروي عن النبي محمد ﷺ قوله (٥٢): (عدلت شهادة الزور الشرك بالله مرتين)؛ وهذا يعنى أن الرسول عدَّ هذه الكبيرة أعظم من الشرك بضعفين؛ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة غافر: ٢٨]؛ والمسرف الكذاب

(٥٢) سنن الترمذي رقم الحديث: ٢٣٠٠؛ مسند أحمد رقم الحديث: ١٧١٥١.

هو شاهد الزور؛ وقال النبي محمد عليه الصلاة والسلام (٥٣): (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراف بالله؛ وعقوق الوالدين؛ ألا وقول الزور؛ ألا وشهادة الزور؛ فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت).

السادس عشر: شرب الخمر، لأن الله تعالى نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان، شرب الخمر حُرِّمَ على ثلاث مراحل؛ وبشكل تدريجي؛ فالخمر تعدُّ من كبائر الذنوب، فقد حرمها الله سبحانه وتعالى، لما فيها من أضرار على الفرد والمجتمع، والخمر كانت شائعة ومنتشرة في المجتمع العربي قبل الإسلام، فهم يعاقرونها في أي وقت متاح لهم، لذلك اتبع الإسلام معهم منهجاً تربوياً خالصاً حينما أراد تحريمها، فحرمها بشكل تدريجي وعلى دفعات ولم يجرمها دفعة واحدة، وهي كما يأتي:

١. حذر الله المسلمين من معاورة الخمر وشربها، بطريقة النصح

(٥٣) صحيح البخاري رقم الحديث: ٢٦٥٤؛ صحيح مسلم رقم الحديث: ٨٧.



أفعال وحركات منافية للأداب والأخلاق، فنزلت الآية الكريمة الآتية ناسخة الآية السابقة؛ ومبطلة عملها، فأمرت المسلمين بعدم التقرب من الصلاة وأدائها إلا إذا كانوا خارج تأثير الخمرة، وبما أنّ الصلاة تؤدي خمس مرات في اليوم الواحد، فقد قلّ عدد شارب الخمرة، وبدأت أعدادهم بالإنحسار، وأصبحوا أفراداً قليلين جداً، وهنا نزل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [سورة النساء: ٤٣].

٣. بعد أن قويت شوكة المسلمين؛ وازداد عددهم بشكل لافت للنظر؛ وتعمق إيمان الناس بالإسلام، هنا حرم الله سبحانه وتعالى الخمرة ففسخ الآيتين السابقتين؛ وأبطل العمل بهما؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ

والإرشاد وعدم استفزازهم، فهم حديثو الإسلام، ولم يستوعبوه بعد، وكذلك تحسباً من ارتدادهم، أو تجنبهم الإسلام، وعدم الدخول فيه، فقال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِّنْ نَّفْعِهِمَا﴾ [سورة البقرة: ٢١٩] نلاحظ هنا أنّ المعادلة القرآنية قد رجحت جانب الإثم على جانب النفع، فعلى وفق ذلك على المسلم الأخذ بأبيها أكثر فائدة، وهي الإبتعاد عن الإثم؛ والذي يعدُّ نوعاً من المعاصي يعاقب عليه المسلم.

٢. في بداية شروق شمس الإسلام، وإلى مدة ليست بقصيرة كانت الآية الكريمة السابقة سارية المفعول، ولم تنسخ بعد، وحينها شُرعت الصلاة بدأ المسلمون يؤدون الصلاة، وبعضهم يأتي إلى الصلاة وهو مخمور، لا يعي ما يقول، ولا يسمع جيداً، مما ولد إرباكاً في الصلاة، فضلاً عن أنه كانت تصدر عنه



الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ
فِي الْخَيْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصِدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ ﴿ [سورة
المائدة: ٩٠ - ٩١].

السابع عشر: ترك الصلاة أو شيء مما فرض الله، لأن رسول الله محمد ﷺ قال (٥٤): (من ترك الصلاة فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله). الصلاة ركن مهم من أركان الدين الإسلامي الحنيف؛ فهي فرض يجب على العبد المؤمن المسلم تأديته؛ مهما كانت الأسباب والموانع؛ ولا يعذر كائن من يكون من تأديتها؛ فهي تُؤدى قياماً وقعوداً؛ وركوعاً وسجوداً؛ وهو الأصل الواجب؛ فإن لم يستطع المسلم أداءها لسبب ما؛ فعليه أن يؤديها من وضع الجلوس؛ فإن لم يستطع فعليه أن يؤديها بالإشارة والإيحاء؛ وإن لم يستطع فليؤدها باللسان وذلك أضعف الإيمان؛ ذلك لأن الصلاة تمثل عماد الدين؛ فإن صلحت صلح ما سواها؛ وإن خابت خاب ما سواها؛ فقد قال (٥٤) أصول الكافي: ٢ / ٣٠٤.

رسول الله ﷺ (٥٥): (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح؛ وإن نقصت فقد خاب وخسر)؛ وسئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله تعالى في الإسلام؟ قال (٥٦): (الصلاة لوقتها؛ ومن ترك الصلاة؛ فلا دين له؛ والصلاة عماد الدين)؛ قال الله سبحانه وتعالى في الصلاة: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [سورة النساء: ١٠٣].

الثامن عشر: نقض العهد، وقطيعة الرحم، قال الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [سورة الرعد: ٢٥]، هذه الكبيرة تتكون من جزأين الأول العهد؛ والعهد لغةً: هو اتفاق بين طرفين على أن لا يغدر أحدهما بالآخر ولا يعتدي عليه؛ والعهد هو كلمة شرف أخلاقية؛ وعلى العبد المسلم الالتزام؛ والتمسك بشروطها؛ وعدم الخروج عليها ونقضها؛ إلا

(٥٥) سنن الترمذي رقم الحديث: ٤١٣.

(٥٦) الكبائر: ٢١.



وإذا أؤتمن خان؛ وإذا عاهد غدر؛ وإذا خاصم فجر).

وأما الجزء الثاني فهو قطعة الرحم؛ والرحم منتزعة من الرقة والتعطف والرحمة؛ والرحمة تعني المغفرة؛ ومنه الرَّحْمُ والرُّحْمُ: أي العطف والرحمة؛ والرَّحِم: قرابة تجمع بني أب وبينهما الرَّحْم؛ أي بينهما قرابة قريبة^(٥٩)؛ الرحم هي قرابة الدرجة الأولى؛ وتشمل من يرتبط معك عن طريق الأب والأم والأخ والأخت وما يتصل بهم؛ قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ

أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [سورة الأنفال: ٧٥]؛ أي أن أولوا الرحم هم أولياء أولي رحمتهم؛ ولكن الله عز وجل أراد أن تكون صلة الرحم إيجابية تصب في مصلحة أولي الرحم فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [سورة النساء: ١]؛ ونهى الله سبحانه وتعالى

نهيًا قاطعاً قطع صلة الأرحام وأمر

(٥٩) لسان العرب مادة: رحم.

إذا خرق الطرف الآخر بنودها؛ وأفضل العهود ما كان مكتوباً موثقاً بالشهود؛ وفي هذا الصدد تعد كلُّ الأوامر الإلهية فضلاً عن النواهي عهوداً بين الله وعباده؛ وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه^(٥٧): (العقود: تعني ما أحلّ؛ وما حرم؛ وما فرض؛ وما حدّ في القرآن)؛ والقرآن الكريم يؤكد الإيفاء بالعهود؛ وعدّ العهد من الأمور المهمة والكبيرة؛ وأمر المؤمنين بالإلتزام بها والوفاء للطرف الآخر؛ فقال تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ

﴾ [سورة المائدة: ١]؛ وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [سورة

الإسراء: ٣٤]؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعد الغدر وعدم الإلتزام بالعهد خصلة من النفاق في قوله^(٥٨): (أربعاً من كنَّ فيه؛ كان منافقاً خالصاً؛ ومن كانت فيه خصلة منهن؛ كانت فيه خصلة من النفاق؛ حتى يدعها: إذا حدث كذب؛

(٥٧) الكبائر: ١٧٦.

(٥٨) صحيح البخاري رقم الحديث: ٢٤٥٩؛

صحيح مسلم رقم الحديث: ٥٨.



المؤمنين بالتمسك بها في قوله تعالى:
﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢٢) **أُولَئِكَ الَّذِينَ
لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ** ﴿
[سورة محمد: ٢٢ - ٢٣] هاتان الآيتان
الكريمتان تختصان بالعلاقة بين أولي
الأرحام حين يتبوأ أحدهم منصباً أو
مركزاً في الدولة فيتكرر لأولي رحمه؛
وكأنه لا يعرفهم فيقطع علاقته بهم؛
هذا الصنف من أولي الأرحام لعنه الله؛
وسيحشره يوم القيامة أصمّاً وأعمى؛
أعمى بصراً وبصيرة؛ أي هو أعمى عيناً
وقلباً؛ وقبل ذلك قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ
يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**
أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [سورة
الرعد: ٢٥]؛ أي أنّ هؤلاء مبعدون من
رحمة الله؛ وعاقبتهم يوم القيامة داراً في
جهنم يصلها مذبذباً مذموراً؛ فيها
قال أبو عبد الله الصادق عليه الصلاة
والسلام (٦٠): (إِنَّ الرَّحْمَ مَعْلُوقَةٌ بِالْعَرْشِ
تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ مِنْ وَصْلَتِي؛ واقطع

من قطعني؛ وهي رحم آل محمد؛ وهي
قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾ [سورة
الرعد: ٢١]؛ فعلى المؤمن الحق أن يبر
والديه ويصلهما؛ وأن يطبق ذلك مع
كل من تربطه به صلة رحم؛ عند ذلك
يرحمه الله؛ وإن جحد والديه وذوي
أرحامه قطع الله وأدخله ناراً حامية.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أساس البلاغة - لجار الله أبو القاسم
 محمود بن عمر الزمخشري (ت
 ٥٣٨هـ) تحقيق الأستاذ عبد الرحيم
 محمود، دار المعرفة، ١٤٠٢هـ -
 ١٩٨٢م، بيروت •
- أصول الكافي - للمحدث الخبير ثقة
 الإسلام محمد بن يعقوب الكليني
 الرازي؛ دار الأسوة للطباعة والنشر؛
 مطبعة القرآن الكريم الكبرى؛ ط ٦؛
 ١٤٢٨هـ؛ طهران - إيران.
- البيان والتبيين - الجاحظ، تحقيق عبد
 السلام هارون، ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م،
 مصر.



كِبَائِرُ الذُّنُوبِ كَمَا وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ التَّصْنِيفُ

- تاريخ الطبري - أبو جعفر الطبري - صحيح مسلم بشرح النووي - مطبعة دار إحياء التراث العربي، ط ٣، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ديوان الخطيئة - بروية ابن السكيت (ت ٢٤٦هـ)؛ تحقيق د. نعمان محمد أمين طه: مكتبة الخانجي؛ ط ١؛ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م؛ القاهرة.
- سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح - باب المناقب - للإمام المحدث أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٩٧هـ)، ضبطه وصححه خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، بيروت.
- سنن النسائي - دار الكتب العلمية، طبعة بيروت.
- السنن الكبرى للبيهقي، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند.
- صحيح البخاري - طبعة عيسى الحلبي، القاهرة.
- قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - للعلامة الشيخ محمد تقي التستري، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ، طهران.
- الكبائر - للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ٨ شارع جوهر، الدراسة، القاهرة، (د.ت).
- المستدرک علی الصحیحین - عبد الکریم النیسابوری (ت ٤٠٥هـ) تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، ط ١، القاهرة، ١٣٩٨هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، رقم أحاديثه محمد عبد السلام الشافعي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، بيروت لبنان.



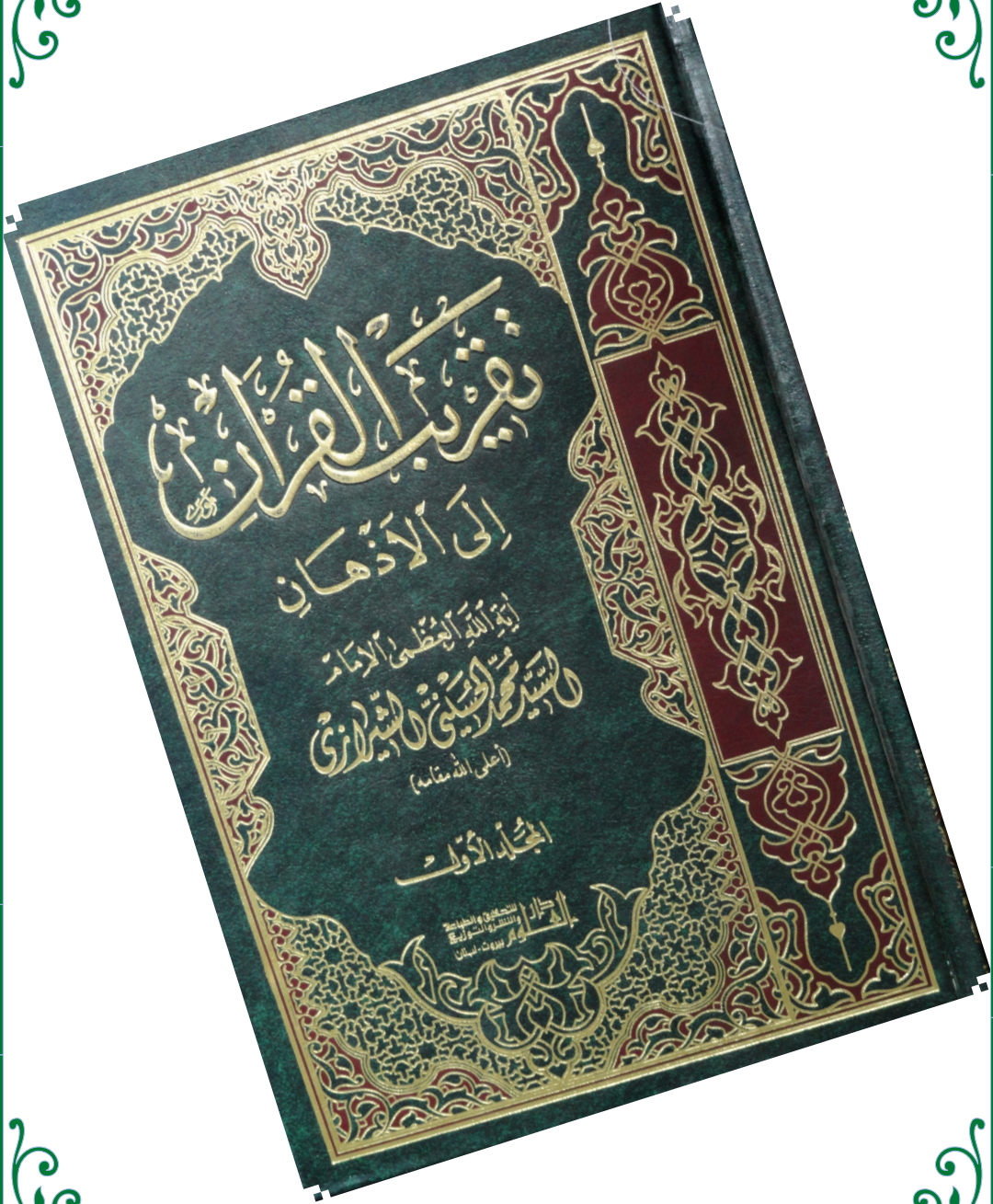
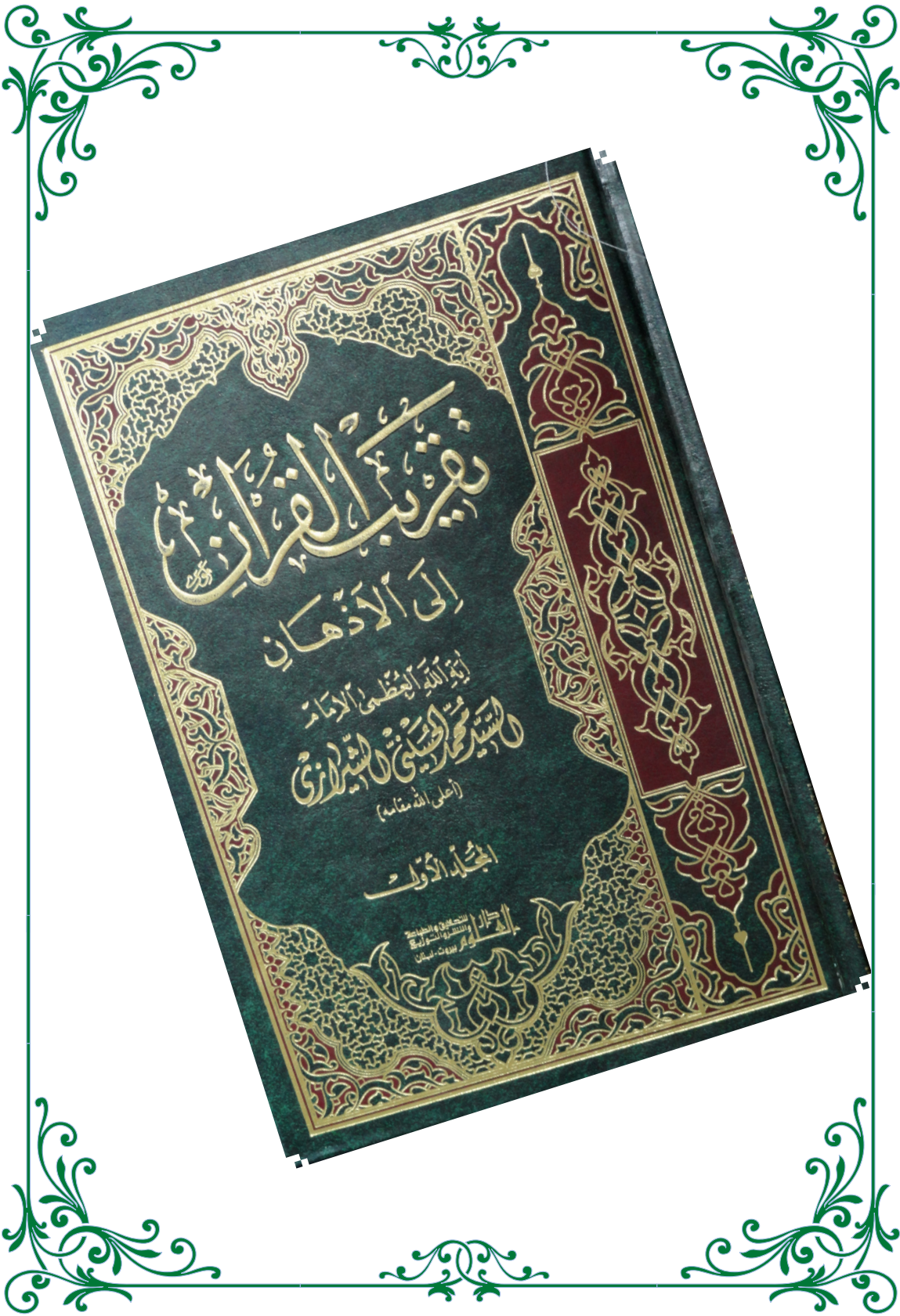
نافذة

المصباح

العرض والنقد والتخريف

المحتويات

- جهود علماء الشيعة في تفسير القرآن وتجديد مناهجه
عرض: الشيخ الدكتور فاضل الصغار
- التدبر وتجلياته في كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي
د. خالد حوير الشمس



رسالة القرآن

إلى الأذهان

آية الله العظمى الإمام
الشيرازي

(أعلى الله مقامه)

المجلد الأول

دار النشر والبيروت
بيروت

جُهُودُ عُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَتَجْدِيدِ مَنَاهِجِهِ

(تفسيرُ تَقْرِيْبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ)

لِسَمَاحَةِ الْعِلْمَةِ الْعِلْمِيِّ مُحَمَّدِ الشَّيْرَازِيِّ تَمَثَّلْ - أُنْمُوذَجَا)

عرض

الشيخ الدكتور فاضل الصفار

كربلاء المقدسة - العراق

التمهيد

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الرسل بشرا يوحى إليهم فكانت الحاجة إلى الآيات تبين صدقهم فكانت المعجزة قرينة الرسالة فلولاها لأشكك الأمر على الناس، ومصطلح المعجزة لم يظهر إلا بعد نزول القرآن وإنما عبرت عنها الآيات والروايات بالآية، والبينة، وبالبرهان، وبالسلطان)، لتضمن هذه الألفاظ معاني الإعجاز، لقد اتفقت الكلمة على انحصار الطريق إلى معرفة صدق دعوى الأنبياء بظهور المعجز على أيديهم (وطريق معرفة صدق ظهور المعجزة على يده) ^(١)، وهو المرتكز في أذهان البشر، ولذا كان أول نداء يطلقه الكافرون في مواجهة دعوى الرسل والأنبياء وهو المطالبة بإظهار الآيات والمعجز، فكل حرف وكلمة وجملة وآية وسورة بل كل حركة وسكنة ورفع ونصب في القرآن الكريم يدل على إعجاز وعلو وسمو، فهو كما قالوا عنه: ليست معجزة واحدة فحسب بل موسوعة معجزات، فاجتماعاته معجزة لعلماء الاجتماع، وسياسياته معجزة للسياسيين، وأخلاقياته معجزة للأخلاقيين، وعسكرياته معجزة للعسكريين، واقتصادياته

(١) تجريد الاعتقاد: ٢١٤.

معجزة للاقتصاديين وتربوياته معجزة للتربويين، وفوق ذلك فهو معجزة الغيبات والابحاث العقلية، فهو كتاب اعطى الفلسفة الكاملة الصحيحة للبشر فهو كتاب الكون، بل هو عدل الكون إذ الكون كله كلمة من كلمات الله، والقرآن كلمة اخرى من كلمات الله فهي وتلك كلمتان مترادفتان، الكون والقرآن ولكن بمظهر تكويني، والقرآن كون ولكن بمظهر تكويني، وبعد ذلك وقبله فإن من القرآن ما فيه الشفاء والرحمة للعالمين ولا يزيد الظالمين الا خساراً، ولكل اختصاصي معجزة في اختصاصه، بل إن القرآن معجزة لكل إنسان في الجانب المنسجم من أولويات ذلك الإنسان، فهو معاجز الخلائق، لان كلمات القرآن وآياته وحروفه وكل ما فيه ينطق بأنه وحي ممن خلق الأرض والسماوات العلى وما خلقتة عقول البشر، أو فاهت به ألسنتهم.

المبحث الأول: الإعجاز لغة واصطلاحاً:

المعجز في اللغة له أكثر من معنى الا أن الأقرب منه إلى الفهم العرفي ما ذكر في أقرب الموارد، وهو: (أعجز فلان أي صيره عاجزاً)^(٢).

لكن في مجمع البحرين فسره بالمعنى المصطلح عليه وكأنه تفسير بالمصداق، فقال: المعجز: الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى، المقرون بالتحدي، وقد ذكر المسلمون للنبي ﷺ الف معجزة منها القرآن^(٣) وقد عرف بتعريفات مختلفة بعض الشيء باختلاف قيودها. ففي تجريد الاعتقاد: وطريق معرفة صدقه ظهور المعجزة على يده، وهو ثبوت ما ليس أو نفي ما هو معتاد مع خرق العادة ومطابقة الدعوى^(٤).

وقريب منه ما في مجمع البيان: وحاصله أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق النواميس الطبيعية ويعجز عنه غيره، شاهداً على صدق دعواه^(٥) وينبغي إضافة قيد التحدي لهذين التعريفين لينطبق على موازين الحد التام المنطقي، هذا وهناك

(٢) اقرب الموارد: ج ٣، ص ٤٨٢، مادة (عجز).

(٣) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٢٥ (عجز).

(٤) تجريد الاعتقاد، ص ٢١٤.

(٥) مجمع البيان: ١ / ١٥.



شروط أخرى ينبغي توافرها في الإعجاز منها: مطابقة المعجزة للدعوى، وأن يكون هناك من يعارض مدعى النبوة فيما يتحدى به، بحيث يستطيع غيره إن يأتي بمثل ما أتى به إذ لا يكون حينئذ ما أتى به ذلك النبي معجزاً ومن المناسب أن نشير هنا إلى بعض مزايا القرآن الكريم التي اتفق أهل الرأي فيها على أنها إعجاز:

١. إن القرآن الكريم معجز من حيث اختصاصه بمرتبة عليا في الفصاحة والبلاغة خارق للعادة لأيمن لأحد أن يأتي بمثلها أو أن يدانيها.
٢. من حيث كونه مركباً من نص الحروف الهجائية التي يقدر على تأليفها كل أحد ومع ذلك عجز الخلق عن تركيب مثله بهذا التركيب العجيب.
٣. من حيث امتيازه عن غيره من كلام العرب بامتياز مليح لأنه نوع ثالث من كلام يجمع نوعي الكلام العربي ليس بشعر ولا نثر وتنطبق عليه خصوصية كل منها فالشعر يقرأ باللحن والصوت الجميل، والنثر يستعرض الأفكار دون نظم والكلام لا يخلو من أحدهما لكن القرآن توافر على الخصيصتين وهذه ميزة فاق بها الكلام ولغاته.

٤. وما تضمنه من الأخبار في قضايا الأمم السالفة، وخفايا القصص الماضية، وعلى الرغم من سعة مضامينه ووفرة آياته وكثرة سوره فهو خال من الاختلال والتناقص والتهافت ﴿ **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [سورة النساء: ٨٢] وبهذا فاق الكلام منطقياً لان الكلام عند المناطقة إما إخبار أو إنشاء إلا أن كلام الوحي تضمن الاثنين في سياق واحد فكثيراً ما ترد آياته بصيغة جملة خبرية تتضمن الإنشاء وبالعكس نظير قوله تعالى ﴿ **ذَلِكَ أَنْ كَتَبَ لَرَبِّ فِيهِ** ﴾ فإنها في الوقت الذي تخبر عن نفي الشك والارتياب فيه لدقة نظمه وعلو مضامينه وسمو الفاظه تلزم الناس بالتصديق به والادعان له.

ومن هنا قسم الأصوليون الخطابات الشرعية على أربعة أصناف من الجمل، جمل خبرية محضة، وإنشائية محضة وخبرية في مقام الإنشاء وإنشائية في مقام إخبار، وهذه



ميزة خاصة بالوحي الإلهي.

٥. من حيث اشتغال القرآن الكريم على احسن الآداب، وأمتن الحكم، وأكمل المواعظ، وأصوب القوانين، وأتم الأحكام في العبادات والمعاملات والمعاشرات في أمور الحياة والأسرة والمجتمع، وفي الحدود والأقضية في السفر والحضر والأمن والخوف والسلم والحرب والعسرة والغلبة.

٦. من حيث اخباره عن ضمائر المنافقين وبواطن الكافرين ونوايا المشركين الخفية التي لم يطلع عليها احد. بل اخبر عن الامور المستقبلية والحوادث المقبلة والغيب الصادق والنبأ المطابق مما لم يطلع عليه الا اعلام الغيوب مع كمال المطابقة والصدق كما في قوله تعالى: ﴿سَيَهْمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ [سورة القمر ٤٥]، وقوله تعالى ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [سورة الفتح: ٢٧] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة هذا فضلا عن أخباراته عن الحقائق العلمية التي لم ينكشف اليسير منها إلا في الاونة الأخيرة والقرون المتأخرة على رغم تطور العلوم والمعارف.

٧. من حيث خواصه المعنوية وخصائصه الذاتية في التأثير في الارواح، وشفائه للقلوب والضمائر، وعلاجه للأجسام، وطمأنته للقلوب، وبركاته في النفوس، فضلا عن الآثار الوضعية الأخرى التي تلازمه في النظر والقراءة والاستشهاد والاحتفاظ ونحو ذلك.

٨. من حيث طراوته وحلاوته وعدم الملل منه عند تلاوته وقراءته مهما زادت وتكررت، فهو كلام الله البالغ، وحكمه الساطع، وهو نور لا يطفأ، وسراج لا يخبو كما ورد في خطبة مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة^(٦) إلى غير ذلك من جهات وأسرار لا يسع المجال لبيانها هنا.



المبحث الثاني: المسار التاريخي لاهتمام الشيعة بالقرآن الكريم وتفسيره:

إن القرآن الكريم احدث في المجتمع البشري أعظم انقلاب وتغير شمل كل مناحي الحياة، وامتد شعاعه إلى ابعد الأصقاع وأذهل أقوى الأدمغة، واكتسح أعظم الحضارات، وأقام فوق ركامها أنظف حضارة وأجمل حياة وأكمل سيادة وسياسة. هذا وقد كانت للشيعة اليد الطولى والسهم العظيم في الاهتمام به، والعمل على دراسته وتفسيره، وبيان معانيه ومضامينه، واكتشاف أسراره وآياته وبيناته بهدى من ائمتهم عليهم السلام الذين هم عدل القرآن وأهله الذين انزل القرآن في بيوتهم. فكتبوا ونشروا وحثوا ايما حث على قراءته وحفظه ونشره وتجويد الاستناد إليه في كل حقول المعرفة، وكان السبب في اهتمام الشيعة بالقرآن في الدرجة الأولى هو أهمية القرآن نفسه وعظمة أمره، ثم الإقتداء بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام في ذلك.

فمن ينظر في الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والتي تحدثوا فيها عن القرآن الكريم يواجه عناية بالغة وكبيرة منهم بهذا الكتاب الإلهي الخالد، ثم من يطلع على بقية أحاديثهم في شتى جوائب الدين يجدها مليئة بالاستدلالات من القرآن الكريم مما يكشف عن شدة حرصهم على البقاء الى جانب القرآن والانطلاق منه والرجوع اليه، ويشهد بذلك ما ألفه علماء الأمامية سددهم الله تعالى ورواتهم حول فضل القرآن وخصائصه وعلومه ومزاياه وفي شتى المجالات. نذكر منها على سبيل المثال:

- كتاب فضل القرآن ليونس بن عبد الرحمن من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام.
- كتاب فضل القرآن لمحمد بن الحسن الصفار المتوفي سنة ٢٩٠ هـ.
- كتاب نوادر القرآن لعلي بن إبراهيم بن هاشم في القرن الثالث الهجري.
- كتاب فضل القرآن لمحمد بن مسعود العياشي في القرن الثالث الهجري.
- كتاب فضائل القرآن لأحمد بن محمد بن عمار المتوفي سنة ٣٤٦ هـ.
- كما عقد جمع من علماء الأمامية أبوابا خاصة حول القرآن في كتب الحديث مثل:
- كتاب فضل القرآن في الجزء الثاني من (أصول الكافي) للكليني.



- كتاب فضل القرآن في الجزء الثاني من موسوعة من لا يحضره الفقيه.
- كتاب القرآن في الجزء الرابع من موسوعة (وسائل الشيعة).
- كتاب القرآن في الجزء الاول من (مستدرك وسائل الشيعة).
- كتاب القرآن في الجزء الثاني والتسعين من موسوعة (بحار الانوار).

وهذا يدل على مدى اهتمام الشيعة بالقرآن الكريم، كما أن التاريخ يشهد لهم مدى تفانيهم وبذلهم لأرواحهم على مدى التاريخ في سبيل القرآن الكريم والعترة الطاهرة عليهم السلام. وقبل كل ذلك كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أول من سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وخالجه آياته، وهو أول من جمعه بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وكتب تفسيره وتأويله وشأن نزوله كما في متصافر الأدلة^(٧).

أما في علوم التفسير فكان للشيعة القدم الأول في ذلك، وقد ذكر الشيخ الذهبي من علماء الأزهر في كتابه (التفسير والمفسرون) عددا من ذلك بعد أن استعرض بنحو مجمل من كتب في العصر الإسلامي الأول، وعد على رأسها التفسير، ثم قال في كتابه: وقد عد السيوطي في (الإثقان) من اشتهر بالتفسير من الصحابة وساهم، ومن ساهم ابن مسعود، وأبن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت وغيرهم.. ثم قال أما علي بن أبي طالب عليه السلام فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير^(٨).

وفي مكان آخر قال: جمع علي عليه السلام الى مهاراته في القضاء علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفي معانيه فكان اعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد روى عن ابن عباس قال: ما أخذت تفسير القرآن فعن علي ابن أبي طالب عليه السلام^(٩).

وليس الذهبي منفردا في هذا القول، فقد ذكره الكثيرون غيره^(١٠).

(٧) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣١٦-٣١٧-الذريعة: ٤ / ٢٣١.

(٨) التفسير والمفسرون / ١ / ٦٣ - ٦٤.

(٩) التفسير والمفسرون: / ١٩ - ٩٠.

(١٠) بين الجدران: / ١ / ١٧ - ١٨، دائرة المعارف الاسلامية الشيعية: ١١ / ٥٢.



أما أول من صنف في التفسير فهو ترجمان القرآن عبد الله بن العباس المتوفى سنة ٦٨، ثم تلميذه سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج عام ٩٤^(١١) وقيل: سنة ٩٥ وكان من المشهورين في التفسير، بل روي عن قتادة أن سعيداً كان اعلم معاصريه بالتفسير^(١٢) وأسند أبو عمر الكشي في كتاب الرجال عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: سعيد بن جبير كان ياتم بعلي بن الحسين عليه السلام، وكان علي بن الحسين عليه السلام يثنى عليه. وما كان سبب قتل الحجاج له الا على هذه الامر - يعني التشيع وكان مستقيماً^(١٣). وقد اهتم الشيعة اهتماماً كبيراً بالتفسير، وكتبوا فيه الكثير من الكتب، منها في تفسير كل القرآن، ومنها في بعضه.

المبحث الثالث: القرآن والعترة عليه السلام:

إن من يتتبع احاديث العترة النبوية الطاهرة يجدها تسير جنباً الى جنب مع القرآن، تتمسك بآياته، وتستدل بإشاراته، كما أن القرآن الكريم نفسه يشيد بمواقفهم وأقوالهم عليه السلام إذ وصفهم بالطهارة من الرجس المعنوي والمادي ذلك الوصف المؤكد الذي يقتضي تنزيههم عن أي خطأ وخلل، ومخالفة للكتاب، بل يقتضي كونهم مع القرآن في هدف واحد، وعلى جادة واحدة، ولا غرابة إذا قيل: إنهم عليه السلام ورثوا الكتاب وعلمه وفهمه وفقه أسرارهِ ومقاصده وأبعاده وبطونه دون غيرهم، فذلك أمر قد جرى بعض منه في الانبياء السابقين و اوصيائهم كما يصرح القرآن الكريم بذلك وقد صرح أئمة أهل البيت المطهرون عليه السلام بهذا الامر في تصريحات مستقلة، مثلما روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إذ قال: (نحن الذين اصطفانا الله عز وجل، وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء)^(١٤) على ان العقل يحتم مثل هذه الوراثة للكتاب

(١١) الدررعة: ٤ / ٢٣٣.

(١٢) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٥٥ انظر الاتقان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٢٣٤ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص ٣٢٤.

(١٣) رجال الكشي: ج ١، ص ٣٣٥.

(١٤) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٢٦، ح ٧.



وعلمه وفهمه وفقهه إذا لولا الصفوة التي ترث مسؤولية الحفاظ على الرسالة لضاعت الرسالة، فهم تحملوه وحملوه كمسؤولية كبرى، وتجشموها في سبيل المحافظة عليه عناءً كبيراً، وقتلوا الناس على تنزيله، ثم قاتلوههم على تأويله، ثم إن البراهين والأدلة العملية التي قدمها النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام في مجال تفسير القرآن وفك رموزه وبيان بطونه وأبعاده بنفسها خير شاهد على ذلك، ونذكر هنا جملة من الأحاديث الواردة بهذا الشأن تيمناً وتبركاً.

فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) (١٥) وعن أبي جعفر عليه السلام قال: (قال رسول الله ﷺ: أنا أول وافد عزيز على الجبار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي، ثم أممي ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وأهل بيتي) (١٦) وقال عليه السلام: (هم مع القرآن والقرآن معهم ولا يفارقونه حتى يردوا علي الحوض) (١٧) وفي الوقت الذي تدل (المعية وعدم المفارقة) على التلازم وعدم الافتراق أو الاختلاف في كل شيء حتى يوم القيامة فإنها تدل على ثلاثة أمور أخرى:

أولاً: أن الأرض لا تخلو من إمام معصوم عليه السلام كما لا تخلو من القرآن. ثانياً: أن بالقرآن وحده وبالعترة وحدها لا تتحقق الغايات الإلهية في الوجود بل بهما معا وعليه تبطل المقولة (حسبنا كتاب الله).

ثالثاً: بطلان نظرية ولادة خاتم الأوصياء والأئمة صلوات الله عليهم في آخر الزمان بل هو مولود حي قائم بأمر الله سبحانه إذ لا يعقل أن ينفك زمان الامامة عن القرآن الكريم ومن هنا تواترت الأخبار الدالة على كونهم عليهم السلام عدل القرآن والثقل الذي أوصى به النبي الأعظم ﷺ، والدال على تلاحمهم المطلق مع القرآن فكراً وقولاً وعملاً،

(١٥) مستدرک الوسائل: ج ٧، ٢٥٤، ٢٥٥، ح ٨١٨١، باب ٤٧ من كتاب الزكاة بحار الأنوار: ج ٢، ص ١٠٠، ح ٥٩.

(١٦) وسائل الشيعة: ج ٦، ص ١٧٠، ح ٢، باب ٢ من أبواب قراءة القرآن.

(١٧) بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ١٥٠، ح ١٤٢.



بل هم القرآن الناطق الذي لا ينطق عن الهوى، وقد وردت أكثر من ثلاثين رواية بهذا الشأن من طرقنا، وأكثر من ستة عشر رواية من طرق الجمهور تدل على ذلك، كما أورده العلامة البحراني^(١٨) وغيره وقد اتفق اصحابنا على أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي ﷺ والأئمة الطاهرين^(عليهم السلام)، وحرّموا القول فيه بالرأي والاجتهاد، وهذا ما رواه العامة أيضا عن النبي ﷺ أنه قال: (من فسر القرآن بنفسه وأصاب الحق فقد أخطأ)^(١٩) والظاهر انهم التزموا من حيث الكبرى وإن خالف جمع غير قليل من مفسريهم الالتزام بذلك من حيث الصغرى. خصوصا ما يتعلق بالآيات الواردة بشأن اهل البيت^(عليهم السلام) وبيان فضائلهم ومقاماتهم الربانية ولعلمائنا الأعلام في علمي التفسير والأصول كلام مفصل في بيان المقصود من التفسير بالرأي وحل بعض التشابه البدوي الذي قد يتصوره البعض تعارضا وتحلص في أمرين:

أحدهما: تفسير القرآن اعتمادا على الظنون والأستحسانات الخاصة كتفسير أولي الأمر في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء: ٥٩] بالحكام الظلمة مع أن العقل يأبي أن تكون طاعتهم واجبة كطاعة الله ورسوله.

ثانيهما: تفسيره اعتمادا على أقوال الصحابة والتابعين والإعراض عن تفسير المعصومين^(عليهم السلام) ومما يشهد للملازمة الدائمة بين القرآن والعترة الطاهرة حديث الثقلين المتواتر جيلا بعد جيلا فقد -أورد الجمهور في كتبهم من روايته عن الصحابة الذين سمعوه من رسول الله ﷺ أكثر من ثلاثين صحابيا، وبقي على ذلك متواترا في كل عصر إلى العصر الراهن، ونص الحديث هو قوله ﷺ (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإني لئن يفترقا حتى يرادا علي الحوض)^(٢٠).

(١٨) الرهان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٩- ١٥ و ٢٦- ٢٨.

(١٩) التبيان: ج ١، ص ٤، مقدمة المؤلف.

(٢٠) وسائل الشيعة: ج ٢٧، ص ٣٤، ح ٣٣١٤٤، باب ٦ من أبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضى به و انظر الخصال: ج ١، ص ٦٥، ج ٩٧ سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٦٣، ح ٢٧٨٨ مسند أحمد: ج ٣، ص ١٤ و ١٧ و ٢٦ المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٤٨.



وقد تضافرت الأدلة من الآيات والروايات فضلا عما يحكم به العقل وقام عليه الإجماع أن أهل البيت عليهم السلام عدل القرآن الكريم، وهما القيمتان المتكاملتان والمتلاحمتان في الجوهر والمضمون، ولا يفصل بينهما مكان أو زمان أو رأي أو مفهوم ولا يوزعها فكر أو تطبيق^(٢١). وهناك روايات كثيرة تبين فيمن نزل القرآن.

فعن أبي الجارود قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: (نزل القرآن على أربعة أرباع، ربع فينا، وربع في عدونا، وربع في فرائض وأحكام، وربع في سنن وأمثال، ولنا كرائم القرآن)^(٢٢) وعن عبد الله بن سنان قال: (القرآن جملة الكتاب وأخبار ما يكون، والفرقان المحكم الذي يعمل به. وكل محكم فهو فرقان)^(٢٣) وفي رواية الأصبغ بن نباته قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (نزل القرآن أثلاثا، ثلث فينا وعدونا وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام)^(٢٤).

ولا تنافي بين الأخبار لأن بناء هذه التقسيم ليس على التسوية الحقيقية، ولا على التفريق من جميع الوجوه، بل على أصل التصنيف، فإطلاقه لا ينفي ما عداه لكونه ليس في مقام البيان، وعليه فلا بأس باختلاف الأخبار بالثلث والتريع، ولا بزيادة بعض الاقسام على الثلث والربع أو نقصه عنها، ولا دخولها بعضها على بعض. هذا وقد وردت أخبار جملة عن أهل البيت عليهم السلام في تأويل الكثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وأعدائهم، حتى أن جماعة من أصحابنا صنفوا كتباً في تأويل القرآن، على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام في التأويل آية آية إما بهم أو بشيعتهم أو بعدوهم على ترتيب القرآن، وقد روي في الكافي وفي تفسيري العياشي وعلي بن إبراهيم القمي والتفسير المسموع من الإمام أبي محمد الزكي أخبار كثيرة من هذه القبيل^(٢٥).

(٢١) انظر علوم القرآن عند المفسرين: ج ١، ص ٢٠٤، تقريب القرآن ١ / ٢٨.

(٢٢) تفسير العياشي: ج ١، ص ٩، ح ١.

(٢٣) تفسير العياشي: ج ١، ص ٩، ح ١.

(٢٤) تفسير العياشي: ج ١، ص ٩، ح ٣، و (ظ): ١ / ١٠ ح ٧.

(٢٥) انظر علوم القرآن عند المفسرين: ج ١، ص ٢٠٩، أصول الكافي: ج ١، ص ٤١٢، ح ١ =



المبحث الرابع: المسار التاريخي لعلوم القرآن عند مفسري الشيعة:

لقد أدركت الطلائع المؤمنة من أصحاب رسول الله ﷺ أهمية العلم، ووعت أن الشخصية الإسلامية عمادها الأساس هو التوحيد، وأن طريق التوحيد هو العلم، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: ٩] وتسابقت نيلا للرفعة والمنزلة السامية لديه ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١١].

وفهم المسلمون الفرق بين الجهل والعلم باعتبارات القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٥٩] في الوقت الذي أشاد الله تعالى بشهادة أهل العلم على وحدانيته: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨].

وقد كان رسول الله ﷺ النمير العذب والسلسل الرقراق لمختلف العلوم والمعارف، فأحاط به جمع من الصحابة الأجلاء، يقتبسون منه سناء العلم، ويستضيئون بهداه غير أن العلوم القرآنية لم تدون جميعا عند تدوين القرآن في العهد الرسالي وذلك لأسباب عديدة منها: وجود رسول الله ﷺ بين المسلمين يوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه، فهو ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٥] ومنها قدرتهم على الفهم المباشر والاستيعاب الصحيح لفصاحتهم وبلاغتهم العربية الأصيلة ولأن القرآن الكريم ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٦﴾ ومنها

= تفسير الصافي: ج ١، ص ٢٢-٢٤، و ١/ ٢٤ و ١/ ٢٤-٢٦، تفسير الإمام العسكري: ص ٨٣، ح ٤٦، بحر الأنوار: ج ٢٦، ص ٢٧٢، ح ١١، ج ٢٥، ص ٢٠، ح ٣١. (٢٦) للمزيد انظر: الاتقان، السيوطي، ١/ ١٦١، ج ٢، ص ١٢٢٧، الارشاد: ج ١، ص ٣٥، بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ١٧٦، ح ٦١. اصول الكافي: ج ٢، ص ٨، ح ١، و ٢، عوالي اللآلي: ج ٤، ص ١٢١، ح ٢٠٠ - عوالي اللآلي: ص ١٢٤، ٢٠٨، مفاتيح الغيب: ص ١٤، موسوعة اهل البيت ﷺ الكونية: ج ١، ص ٢٣٣، الخصال، ج ١، ص ٢٥٧ - الإرشاد: ج ١، ص ٣٤.

عسرة الكتابة وندرة أدواتها وقلة الكتاب للتعلم والتعليم، وبعد أن اختار الله سبحانه وتعالى الصادق الأمين عليه السلام إلى جواره تبارى المسلمون الغيارى على الدين في تدوين العلوم وتصنيفها حسبما توافرت لديهم من الوسائل والأدوات، ولعل من أهم الأسباب التي دفعتهم إلى التدوين هي: الرغبة في أن يكونوا مصاديق تتحقق فيهم إرادة الله الأزلية في حفظ القرآن وتخليده في الأمة، وتزكية ما لديهم من علم بنشره بين المسلمين، فإن في نشره زكاة له، فضلا عن نيل الثواب العظيم في طلب العلم ونشره وترويجه.. هذا وقد كان مولانا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام الرجل الأول ومحرز لقب السبق في مضمار تدوين القرآن وتفسيره وبيان علومه ولقد أبان القرآن الكريم عن منزلة أمير المؤمنين عليه السلام ومقامه في آية المباهلة في قوله تعالى ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ [سورة آل عمران: ٦٢]. فقد أجمع المفسرون على أن المقصود من الأبناء في الآية الشريفة هما الحسنان عليهما السلام، والنساء فاطمة عليها السلام، والأنفس رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام إلى غيرها من الآيات الشريفة والروايات المتواترة كما في حديث الثقلين ^(٢٧) والمنزلة ^(٢٨)-^(٢٩).

مفسرو الشيعة:

من الصحابة الأوائل في التفسير والتأويل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت ٦٨هـ). وهو أول من أملى في تفسير القرآن الكريم، وقد حكى عن أبي الخير قوله في طبقات المفسرين عند ذكره ابن عباس: فهو ترجمان القرآن وحبر الأمة،

(٢٧) قوله صلى الله عليه وآله: (أني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى

الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنما لن حتى يردا على الحوض) انظر ميند أحمد: ج ٣، ص ١٤.

(٢٨) قوله صلى الله عليه وآله: (انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بي بعدي) انظر الكافي: ج ٨، ص ١٠٧،

ح ٨٠.

(٢٩) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٨٤.



ورئيس المفسرين^(٣٠) وقال الزركشي: وصدور المفسرين من الصحابة علي^{عليه السلام} ثم ابن عباس، الا أن ابن عباس كان اخذ عن علي^{عليه السلام}^(٣١). ومن المفسرين جابر بن عبد الله الأنصاري (ت ٧٤ هـ) الذي عده أبو الخير في طبقات المفسرين من الطبقة الأولى، ومنهم عبد الله بن مسعود، ومنهم الصحابي الجليل أبي بن كعب، وهو أول من صنف في فضائل القرآن، وهو سيد القراء، وعده أبو الخير في الطبقة الأولى من المفسرين وغيرهم كثير^(٣٢).

المبحث الخامس:

منهج السيد محمد الحسيني الشيرازي قدس في التفسير:

لعل (التفسير الشمولي) هذا أفضل أنواع التفسير وأكمله وأدقّه لما له من خصوصية فهم القرآن في أصل معناه أو حدوده أو مصداقه الأكمل على ميزان أهل البيت^{عليهم السلام} ورؤيتهم، كما أن القرآن يمثل الميزان الذي يميز كلامهم^{عليهم السلام} من غيره المشتبه على الناس في السند أو في الدلالة، وهذا ما قد نجده جلياً في تفسير المرجع الديني الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (أعلى الله مقامه) حيث جمع بين اللغة والعقل والنقل الوارد عن المعصومين^{عليهم السلام} في فهم معاني الآيات وكشف مضامينها هذا ولا يخفى عليك أن إعجاز القرآن لا ينحصر بألفاظه وظواهره، بل في رموزه وإشاراتة ولطائفه وحقائقه، ففي كل سورة بحار من المعارف، وتتجلى في كل آية منه أنوار من الحقائق والهدايات، وكيف لا يكون كذلك وقائله عز وجل لا نهاية لعلمه وكماله، ولا حد لعظمته وجلاله، وما حصل من تحديات إنما هو من مقتضيات الاستعدادات لطفاً بالعباد، لا أن يكون تحديداً منه، وربما يتوصل من يراجع مختلف أنحاء التفاسير

(٣٠) البرهان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٥٧، ج ١، ص ٨.

(٣١) لمعرفة المزيد انظر: تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: مقدمة الكتاب و ص ٣٢٣، مجمع البيان:

ج ١، ص ٧ التفسير والمفسرون: ج ١، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٣٢) انظر لسان العرب: ج ٥، ص ٥٥، (فسر) مجمع البيان: ج ١، ص ١، كلمة في التفسير دائرة

المعارف الاسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٤٧.



أنه فسر كل صنف من العلماء القرآن بما هو المأنوس عندهم، فالفلاسفة والمتكلمون فسروه بمذاهبهم من الآراء الفلسفية والكلامية أو العرفاء والصوفية على طريقتهم، والفقهاء فسروا ما يرتبط بغرضهم في فقه الأحكام والمسائل، والمحدثون فسروه بخصوص ما ورد من السنة الشريفة من الآيات، كما أن الأدباء فسروه من زاويتهم الأدبية، وهكذا أهل المعارف والعلوم الإنسانية والطبيعة ومع كل ذلك يظهر العجب في انه كلما كثر في هذا الوحي المبين والنور العظيم من هذه البيانات والتفاسير فهو على كرسي رفعة لا ينقص، فما نجده من مزايا وخصوصيات لبعض التفاسير إنما هي قضية نسبية تعتمد على ذكاء المفسر وسعة اطلاعه وطول باعه في العلوم المختلفة وهذا ما امتاز به الأمام الشيرازي قده إذ له في كل فن معرفة وله في مختلف مجالات الثقافة والفكر رؤية ومنهج، ومن هنا كانت له إشراقات وإماعات ربما لم يصل إليها قبله مفسر أو يسبقه أليها ذهن عالم أو أديب، كما ستجد ذلك جليا من خلال مطالعتك لهذا السفر القيم.

الطريقة الجديدة في تفسير القرآن الكريم:

إن مفسري القرآن وبالأخص القدامى منهم أبلوا بلاء حسنا في تفسير الآيات الشريفة المتعلقة بالعقائد والأحكام، ولا سيما مواضيع التوحيد والشرك والنبوة والإمامة ونحوها، والتي تشكل جوهرة الإسلام، والعنصر الذي اتفقت عليه الشرائع الإلهية، لكن الملحوظ أن منهج القدماء قام على أساس التسلسل السوري في القرآن إذ أخذوا في الشيء الواحد على مختلف السور والآيات، فصار الطالب يحتاج إلى المزيد من الجهد والتتبع حتى يحصل على الحقيقة الكاملة الجلية على الرغم من وجود نقاط قوة عديدة في هذا النهج، أما طريقة التفسير الجديد فانها جاءت تكملة لجهود المتقدمين و إغناءً لتجارهم ودراساتهم لتعطي لنا صورة بالغة الوضوح ومكملة لما أعده السابقون من المفسرين، وهذا التفسير يسمى (التفسير الموضوعي) وهو يُعنى بتفسير آيات القرآن الكريم بحسب الموضوعات والمفاهيم، أي بحسب التبويب والتقسيم



الموضوعي للقرآن الكريم وتتلخص هذه الطريقة في جمع الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد في مكان واحد، ثم تصنيفها على حسب التسلسل الموضوعي، ثم القيام بعملية جمع بين الأصناف لاستنباط نظرة واحدة متكاملة وفكرة جامعة شاملة من مجموع هذه الآيات، خصوصاً أن القرآن الكريم جاء (تبيانياً لكل شيء) (٣٣) وهناك فوائد أخرى منها الوقوف على النظرة القرآنية متكاملة وفهم حيثيات بعض الآيات التي يصعب علينا فهمها لابتعادنا عن زمن نزول النص ولهذا قيل: (إن القرآن يفسر بعضه بعضاً) (٣٤) وورد عن مولانا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) تأكيد لذلك: (كتاب الله تبصرون به و تنطقون به وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض) (٣٥) وهذا التفسير الشريف الذي نبحت عنه وان كان قد جرى طرق القدامى في نهجه وطريقته ألا أنه حاول فيه المصنف (أعلى الله مقامه) أن يقترب بعض الشيء إلى الطريقة الجديدة، فسعى إلى إيجاد ربط بين الآيات المختلفة، وأشار إلى الجهات الأخرى المكملة لمعاني الآيات المفسرة في موردها، وفي بعضها أشار إلى عنوانها، وبذلك يكون قد سهل على القارئ الوصول إلى بعض الحقيقة الكاملة وكان موفقاً في ذلك لأن من أصعب ما يجده الكاتب في مثل هذا النوع من الكتابات أن يجمع المعاني المتعددة في عبارة موجزة ومختصرة، خصوصاً وأنه يفسر القرآن.

القرآن يفسره الزمان:

إن تطور الزمن وتقدم العلوم أكسب المحققين والمفكرين نمطاً جديداً من الرؤية، حيث تتأكد هنا أهمية وضرورة التفسير الموضوعي، فقد أصبح كل فريق من هؤلاء المفكرين والمحققين وبالاعتماد على هذا النوع من التفسير يستخرج من القرآن الكريم مفاهيم وأمور علمية جديد تطابق اختصاصه، فالاستفادة من القرآن

(٣٣) بحار الأنوار: ج ٥٤، ٢١٨.

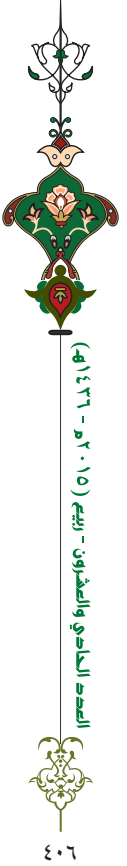
(٣٤) نهج البلاغة: ص ١٩٢، الخطبة ١٣٣.

(٣٥) نفسه.



الكريم على الأصدعة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية في تصاعد واتساع مستمرين، وقد أستخرج المحققون الإسلاميون المعاصرون، بفضل ما أوتوا من الطرق الحديثة المبتكرة في البحث العلمي والدراسة والتحليل، حقائق مهمة من القرآن الكريم ربما لم تخطر على بال المفكرين والمحققين القدامى، فأضافوا على علوم القرآن الكثير، كما اكتشفوا من المعاني والمضامين الشيء الكثير. من هنا انفقت الكلمة على أن الاستفادة من القرآن الكريم لا تنحصر بالعرفاء والفقهاء والفلاسفة وأرباب العلوم القديمة والإلهيات خاصة.

إن استنباط نكات دقيقة وجديدة من القرآن من قبل علماء الطبيعة والرياضيين ورواد العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم فلسفة التاريخ خير دليل وأفضل شاهد على أن هذه المعجزة الخالدة تنطوي على بطون عديدة وأبعاد متنوعة، إن مرور الزمن وتقدم العلوم لم يمنحها علماء الطبيعة وحدهم إمكانية استنباط حقائق وأبعاد مهمة وجديدة عن القرآن في حقول علوم الطبيعة وخلقة الإنسان والأرض والسماء وغيرها من الظواهر الطبيعية، بل ومكن المفسرين أيضا من استخراج حقائق مهمة وجديدة من هذا السفر الإلهي الخالد جنبا إلى جنب مع توسع العلوم واتساع نطاق المعارف وفتحها وظهور المناهج العلمية الإنسانية الجديدة والآن نحن نشاهد شروع التحقيقات العلمية حول القرآن من طريق أجهزة الحاسوب (الكمبيوتر) وقد كشفت للأجيال الحاضرة والقادمة الكثير من الحقائق والآفاق التي عجز العقل والذهن البشري العادي عن اكتشافها والتوصل إليها، بمجردده فتفتح له من العلم أبواب وأبواب، قال سبحانه و تعالى ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] وقال عز من قائل ﴿ **هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [سورة الجاثية: ٢٠]. وجاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام): (كثرة النظر في العلم يفتح العقل) (٣٦) لكن المشكلة في البشر أنفسهم



لعجزهم وقصورهم أو تقصيرهم في الإمعان فيه وأكتشاف أسراره و غوامضه، لكن كلما سعى البشر في فهمه ودراسته أوصل إلى مطلوبه لأن القرآن كتاب هدى ونور، ومن الهدى الإيصال إلى الطريق ولعل مما يؤيد ذلك ما ورد من بعض الأخبار من أن القرآن الكريم يفسره الزمان، والذي قد يكون من معانيه أمور:

١. أن القرآن الكريم صالح لكل عصر وزمان.
٢. أن تطور العلم والتكنولوجيا الحديثة كشف الكثير من الحقائق القرآنية، ولعل من ذلك أن الشمس وردت في القرآن الكريم ٣٢ مرة وبمعان فلكية رائعة تحكي الحقيقة العلمية بكل وضوح فإن ما يتوصّل إليه العلماء في مجال الفلك في هذا العصر الحديث المليء بالاكتشافات الباهرة حول هذا الجرم السماوي هو يؤكد ويؤيد يوماً بعد آخر ما ذكره ديننا الإسلامي حول الشمس في جميع خصوصياتها.
٣. أن عقول البشر في تطور ونمو، الحياة السائرة نحو المزيد من العلم والمعرفة والتجارب تتكاثر على كشف الكثير من الأسرار فكلمها تطور الزمن وتطور معه الإنسان، توصل إلى حقائق وأبعاد جديدة في فهم الآيات واستنار يهديها فكل جيل منهم يختلف عن السابق كما سيختلف عن اللاحق حتى تكتمل العلوم باكتمال الإنسان في عصر ظهور ولي الله الأعظم ﷺ فحينئذ يصل إلى درجات سامية من المعرفة والفهم والإدراك.

تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان:

مهما كانت الدوافع الكامنة وراء كتابة التفسير وضمن الشروط التي ذكرناها فيما تقدم والتي يجب أن تتوفر في المفسر فإن ما كتب في هذا المجال يعد إنجازاً علمياً له خصائصه ومميزاته، حيث أن كل تفسير كتب، وضمن الشروط الموضوعية والمقررة لذوي الاختصاص - يضيف معلومات جديدة وفناً وذوقاً آخر لهذا العلم الذي لا ينضب، لكن تبقى لمن اتخذ أهل البيت ﷺ نهجاً وطريقاً ومدرسة وتألّقوا وعلوا وارتفعا فيها يستنبط من آراء ويبنى من أفكار ويؤسس من رؤى، السمة



العليا في ذلك، وهذا ما أتسم به السيد الراحل أعلى الله مقامه وتميزت به كتبه الوفير، وخصوصا هذا التفسير، حيث زانته من ضمن ما زانته اعتماد المطلق على ما ورد منهم عليه السلام، مسلماً لهم منقادا إليهم فيما يقولون ويعملون ويهذبون، وهذه سمات لا يراها إلا الفائزون الناجحون، والعالمون الصادقون لأنهم صلوات الله عليهم باب الله الذي منه يؤتى، وهم عيبة علمه، وحبله المتين، وصراطه المستقيم وعندهم عليه السلام جوامع الكلم والعلم كما ورد عن ابن العباس أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (أعطاني الله خمسا، وأعطى عليا خمسا، أعطاني جوامع الكلم، وأعطى عليا جوامع العلم) (٣٧).

فلا اعتماد عليهم صلوات الله عليهم يكشف الكثير من الحقائق والمعارف و تطور الزمن والاكتشافات حيث أشاروا صلوات الله عليهم وبينوا جميع الأمور للبشرية، وبقي علينا أن نجد أكثر ونسعى لإظهار هذه الحقائق والاعتراف من منهلهم العذب، وهذا لا يأتي إلا بالمعرفة التامة لأهل البيت عليهم السلام، وقد ورد عن الصادق عليه السلام: (فمن عرف من أمة محمد صلى الله عليه وآله واجب حق إمامه، وجد طعم حلاوة إيمانه،... إلى أن قال: حجج الله ودعواته ورعاته على خلقه، يدين بهديهم العباد، وتستهل بنورهم البلاد، وينمو بركتهم التلاد... فليس يجهل حق هذا العالم إلا شقي، ولا جحده إلا غوي، ولا يصد عنه إلا جري على الله جل وعلا) (٣٨) فمن هنا كانت مدرسة أهل البيت عليهم السلام هي الأولى والأخيرة في هداية البشر ونقلهم إلى شاطئ الأمان، والتأريخ هو خير دليل وشاهد على ذلك، وأعظم مدرسة للإسلام كانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام حيث كانت جامعة كبرى شملت كل العلوم والفنون والمعارف، وقد خرّجت الكثير من العلماء الذين قدّموا للبشرية والحضارة الإنسانية بكل إخلاص

(٣٧) بحار الأنوار: ج ٨، ص ٢٨، ح ٣١، ج ٢٦، ص ٣٠، ح ٤٢، ج ٢، ص ٢١٤، ح ٣، ج ٢٦، ص ٣١، ح ٤٤.

(٣٨) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٠٣، ٢٠٥، ح ٢، إلزام الناصب: ج ٢، ص ٣٣٣ بحار الانوار، ج ٢٥، ص ٣٦٤، ح ١.



وتفان الشيء الكثير، فإنّ الذي يتتبع كتب الرجال وتاريخ الأعلام يجد أن لعلماء الشيعة الذين ورثوا علوم أهل البيت عليهم السلام دوراً أساسياً ومهماً في تأسيس فنون المعرفة.

السيد الشيرازي أعلى الله مقامه في تفسيره:

إن الأمم الحيّة والشعوب اليقظة في كلّ عصر من عصور التاريخ وعلى امتداد الأرض المعمورة تعرف بتقديرها للعلم واحترامها للعلماء والأخذ عنهم والاعتراف من مناهلهم العذبة الروية، فهم المقياس الحق لحياة الأمم والشعوب أو موتها، وأمّتنا الإسلامية أشرف الأمم، ويزخر تاريخها بالمكانة السامية التي يحتلها العلماء في نفوس الناس، ونجد القرآن الكريم يعطي العلماء منزلة تجعلهم في مصاف الملائكة المنزهين فيقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨] كما نراه جلّ وعلا يمنحهم منزلة الخشية منه سبحانه وتعالى على سبيل الحصر، فيقول جلّ وعلا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٢٨] وهو بعد هذا وذاك يرفعهم درجات فيقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١٢] إلى الكثير من الآيات القرآنية التي تكشف عن مكانة العلماء عند الله سبحانه وتعالى. وهكذا برز العلماء، وخرجت الحوزات العلمية المقدسة للفتاحل من الذين تركوا أثراً وتراثاً اسقوه من فكر ونهج أهل البيت عليهم السلام، ومن بين هؤلاء النوادر الذين أثروا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم وعلمهم صاحب هذا التفسير العظيم (تقريب القرآن إلى الأذهان) سماحة المرجع الديني الكبير السيد محمد الحسيني الشيرازي (أعلى الله درجاته)، المولود في عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨ م) و المتوفى في شوال ١٤٢٢هـ، (٢٠٠١م) فهو (رضوان الله عليه) من أجلى مصاديق قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله (إذا مات المؤمن الفقيه ثلم في الإسلام ثلمه لا يسدها شيء) ^(٣٩) لقد تميز الإمام الشيرازي رحمته الله بفكره المعطاء الغني المختصر بالتجارب، والمفعم بالنضج والنظرة



الواقعية إلى الأمور، والأصيل المستلهم من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، والذي يعالج شتى القضايا الحيوية ومشاكل العصر ورغم الحياة الصعبة والقاسية جدا التي كان يعيشها الإمام الراحل تقديراً طوال حياته الشريفة والظروف التي ألمت به من كل حذب وصوب من البعيد وربما القريب كان كما قالوا عنه: نادرة التأليف في التاريخ وسلطان المؤلفين^(٤٠) حيث عرف بكثرة الإنتاج والعطاء الفكري والعلمي والتربوي، حيث تنوعت مؤلفاته من حيث المادة العلمية، وبلغت ألفا وثلاثمائة كتاب وكتيب وموسوعة، فشملت الفقه والأصول والفلسفة والكلام والبلاغة والنحو وسائر العلوم الحوزوية من جهة، والسياسة والاقتصاد والاجتماع والنفوس والحقوق والإدارة والقانون والبيئة والأخلاق والتاريخ والطب وإدارة الدولة الإسلامية وسائر العلوم الإنسانية المستحدثة من جهة أخرى حتى عجزت أصابعه من الإمساك بالقلم من كثرة ما كتب وكان (طاب ثراه) لا يضع لحظة واحدة من عمره الشريف دون الاستفادة منها.

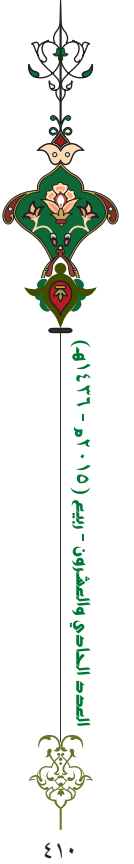
وكان تقديراً بارعا بعلوم التفسير:

وتفسير تقريب القرآن إلى الأذهان هو حصيلة جهد مبارك قام به السيد المؤلف تقديراً حيث أسهم في إغناء التراث الحضاري والمكتبة الإسلامية، فيعد من مصادر التفسير في مختلف شؤون المعرفة، إمتاز هذا التفسير الشريف بجملة أمور قلما حظي بها غيره من التفاسير:

أولاً: إن السيد المؤلف تقديراً فضلا عن كونه مرجعا وزعيما دينيا متميزا فإنه بعد أحد رجالات الفكر المعاصرين الذين نظّروا للعالم البشري في مجالات مختلفة حيث أنه (طاب ثراه) جمع بين الفكر الجديد والقديم في التفسير.

ثانياً: اعتمد السيد المؤلف تقديراً بشكل أساسي في تفسيره على منهجية أهل

(٤٠) لقب أطلقه عليه الاتحاد العام للكتاب العرب بدمشق الشام خلال الحفل التأييني الذي أقيم في سوريا في الحوزة الزينية (مجلة النبأ العدد - ٦٦ - ١٤٢٣ هـ ص ١٦٨).



البيت ﷺ، وعلى الأخبار والآثار المروية عنهم عليهم السلام مع وضوح في الرؤية ونضوج في الأفكار، وردّ للشبهات التي أثيرت وقد تثار على الآيات الواردة بشأن أهل البيت ﷺ.

ثالثاً: أن أسلوب الكتاب وطريقة بحثه تمتاز بأنها بعيدة عن العبارات المنمّقة والاصطلاحات المعقّدة، حيث أنه بين المعاني بأسهل الألفاظ والكلمات كما أنه أمتاز بالاختصار وشموليّة المطلب، فكان سهلاً ممتنعاً على ما يعبرون.

رابعاً: التّعرّض في تفسير الآيات الكريمة إلى الدقائق العلمية والأحكام المتعلقة بها كما أنه اعتمد على الجانب التدبري في الآيات واستنباط النتائج وقراءة ما وراء الألفاظ بالاعتماد على نهج أهل البيت ﷺ، وهذه سمة هامّة فلما أتمم بها تفسير .

خامساً: الرابط الوثيق بين القرآن والحياة في مختلف المجالات الشخصية والعامّة والعبادية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، حيث دعا السيد المؤلّف تتهذّب إلى:

١. الأمة الواحدة لإنقاذ بلاد المسلمين من التفرقة العنصرية والقومية والإقليمية التي هي أساس الحروب والصراعات مستندا في ذلك إلى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ والآية في منطوقها اشارات إلى أهم العوامل التي تقوم عليها نهضة الأمة وهي وحدة الهدف ووحدة الطريق والتماسك الداخلي لأن الأمة هي الجماعة من الناس التي تجمع على هدف واحد وعبادة الله سبحانه توحد المناهج والأساليب وتنفي عناصر الفرقة^(٤١).

٢. الأخوة الإسلامية لتكون الروابط المعنوية والمحبة بين الناس هي الحاكمة على الأجواء العامة والعلاقات لا الطبقيّات والفئات ونحوها مستندا إلى قوله تعالى **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**^(٤٢).

(٤١) مترجم عن كتاب قصص وخواطر (باللغة الفارسية): ج ١، ص ١٠٨.

(٤٢) تقريب القرآن / ١ / ٦٢.

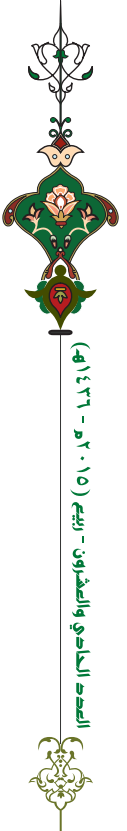


٣. الحرية الإسلامية لكونها غاية البعثة وهدف الرسل والأنبياء ﷺ وخصوصا خاتمهم وسيدهم ﷺ مستندا إلى قوله تعالى ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الاعراف: ١٥٧] فإن النبي الأعظم ﷺ خلص الناس من أغلال الاستبداد والجاهلية بصورها المختلفة ومن خصائص هذا التفسير كذلك والتي تضيفي عليه طابعا متميزا آخر هو:

أ. في تفسيره للكلمات والحروف المقطعة من القرآن الكريم، حيث أجرى استقراءً لهذه الحروف وقال في مستهل تفسيره عنها: يأتي زمان يدرك الناس هذا الكنز المعنوي، كما أنه لا يمر زمان إلا ويدرك الناس كنوزا كونية مثل: قانون جاذبية الأرض.. وفي ذلك يقول تَعْتَذِرُ: وهذا رمز بين الله ورسوله والراسخين في العلم^(٤٣) وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يقف عند هذا السر العظيم بين الله سبحانه ورسوله ﷺ، بل حاول أن يظهر في كل مورد من موارده بعض غموضه، فمثلا في سورة يونس: فسر حروفها المقطعة بالتحدي والإعجاز لكون (الم) التي تفتح بها السورة تتركب منها القرآن المعجز، فإنه من جنس كلام البشر لكنه معجز لا يتمكن أحد أن يأتي بمثله، كما أن من جنس المعادن والنبات يتركب الإنسان لكن لا أحد يقدر على أن يأتي بمثله، وكذلك جميع صنع الله سبحانه.. على الاختلاف في أوائل السور.

وفي سورة هود قال عنها أيضا: إنها رموز بين الله والخلق فوسع دلالتها لتشمل عموم الناس وفي سورة الرعد ذكر أن الأقوال في بيان معاني الحروف في فواتح السور تبلغ أربعة عشر قولاً لكنه قال تَعْتَذِرُ: الظاهر أنه يمكن الجمع بين كثير منها ولعل جامعها هو الرمزية والتي مال إليها بين الله ورسوله ﷺ، فإنه المتيقن من المعاني.

ب. أمتاز تفسيره تَعْتَذِرُ بالترابط الموضوعي بين معاني الآيات وهذه ميزة قلما فعلها



مفسر أو وردت في التفسير إلا في موارد قليلة: فمثلاً:

الآيات (٢٠٥ - ٢٥٤) من سورة البقرة تعرضت إلى مواضع عديدة بعضها يرتبط بأحكام الحج، وبعضها بصفات الجاهلين وتعصبهم، وبعضها بالمنافقين، هذه العنوانات والمواضيع المختلفة التي لا تتراعى للناظر بدءاً، بينها ترابط وثيق يجمعها السيد تت بسياق واحد، فيجمع سابقها بلا حقها وبالعكس حتى يحصل من الكلام حديث عن صورة واحدة بكل ما يحتف بها قرائن وشواهد تكمل المعنى وتثير الغرابة والإعجاب والآيات (٦٣ - ٦٥) من سورة المائدة تعرضت إلى صفات المنافقين وأهل الكتاب وأثارهم السلبية على المجتمع، وقد أمتاز في تفسيره لها فضلاً عن ذلك كله أو وجد ترابطاً موضوعياً بين تفسير أول سورة وآخر سور من القرآن الكريم، مما يجعل سور القرآن وآياته منظومة واحدة مترابطة كجملة وحدة نظمت في غاية الإعجاز في اللفظ والمعنى والإحكام والإتقان (٤٤).

ت. أورد السيد المؤلف تت أسباب تسمية السور قبل الشروع في تفسيرها، ثم بين الجو العام للسورة والمحور الكلي الذي تدور حوله آياتها، ثم ذكر مائة وعشرين معنى للبسملة في تفسيره هذا.

وفي سورة الأنفال شرحها بالعلاقة على إحكام ما قبلها وافتتاح ما بعدها من الآيات (٤٥).

وفي سورة يونس عللها بتلطيف الجو وإعطاء الإنسان الأمل والطمأنينة. وفي سورة النحل جعلها الحد الفاصل بين الإيمان والكفر والمؤمن والكافر وفي سورة هود علل بها في الاسم المبارك من الخواص المعنوية على نفس القارئ وفي سورة الرعد

(٤٤) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٠، ص ١٩، ذيل الآية ٤٧ من سورة الانفال.

(٤٥) أنظر التسلسل والربط بين سور الممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والملك والقلم والحافة، وهكذا بين سور النساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة.



علل الابتداء بالاسم دون الذات لأن الله سبحانه لا يتبدا به وإنما يبدأ باسمه وفي سورة الحجر قال عنها نستعين بالله الرحمن الرحيم في أمورنا وهكذا بذكر معاني عديدة لأصل البسملة، أو بيانا لفوائدها وأغراضها، وهذه ميزة أخرى من مزايا هذه التفسير الذي قلما يحظى بمثله تفسير.

ث. تصدى أعلى الله مقامه للإجابة عن جملة من الشبهات التي قد يثيرها البعض تجاه الإسلام في العقائد أو في الأحكام، ولم يتوقف على بيان المعاني الظاهرة للآيات، وهذا نهج جديد أيضا فمن باب المثال: في بيان معنى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [سورة التوبة: ٢٨]. تعرض إلى فلسفة الحكم بنجاسة الكفار، فبينها واختصرها في أمور ثلاثة.

١. الوقاية الفكرية من الخرافة.

٢. الحماية الاجتماعية من التأثير بسلوكه.

٣. تحفيظه لترك عقيدة الكفر والالتزام بالإسلام.

يقول تَدُّ النجاسة في الشريعة في القذارة التي توجب الغسل للشيء الذي يباشر برطوبة، وهذه النجاسة قد تكون لأضرار خارجية كالبول والغائط، وقد تكون لأضرار معنوية كالكافر.

وهذا التفسير الضخم يتسم بالتواضع والإقرار والعجز أمام الله سبحانه، فعنوانه تقريب القرآن إلى الأذهان وليس تفسيره، وقد تكرر من السيد المؤلف نفسه تَدُّ في أكثر من مرة بأن ما يذكره من مضامين مجرد معان محتملة وليست بتفسير، وهذه منطق من التزم الحقيقة، العارف بقدر الإنسان وحدوده ومداه (٤٦).

وباختصار: إن ما امتاز به التفسير القريب (تقريب القرآن إلى الأذهان) عن أي تفسير الشيء الكثير، أشرنا نحن إلى بعض مزاياه وخصوصياته، ويجد القارئ الكريم الكثير منها لدى تتبعه وقراءته له.



أهم المصادر و المراجع

- الإتيقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار ابن كثير، الطبعة الاولى ١٩٧٨ - م١٤٠٧هـ.
- اختيار معرفة الرجال المعروف بـ(رجال الكشي): للشيخ أبي جعفر الطوسي، مؤسسة آل البيت (عليه السلام)، ١٤٠٤ م.
- إرشاد القلوب: لأبي محمد الحسن بن محمد الديلمي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ - ١٩٧٨ م.
- الأصول من الكافي: لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار صعب ودار التعارف - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠١ هـ.
- أقرب الموارد: لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ ش - ١٤١٦ هـ ق.
- بحار الأنوار: للشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية مصححة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار احياء الكتب العربية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٦.
- بين الجدران: للسيد محمد السويج، دار البيان العربي، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
- تجريد الاعتقاد: الشيخ ابي جعفر محمد بن محمد الحسن نصير الدين الطوسي، مركز النشر - مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة الاولى ١٤٠٧ ق. م.
- التفسير والمفسرون: للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
- الجامع الصحيح ((سنن الترمذي)): لابي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، المكتبة الاسلامية.

التدبر وتجلياته

في كتاب (البرهان في علوم القرآن)

للزركشي (ت ٧٩٤هـ)

د. خالد حويبر الشمس

جامعة ذي قار - كلية الآداب

ديباجة البحث:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين...
يعد التدبر ضرورة ملحة في سيرورة الحياة وديمومتها، وهذا مما لا ينكره أحد، فما بالك بتدبر القرآن، بغية تعلق القلب به، والأدهى من ذلك ذم القرآن الكريم ووبخ الذين لا يتدبرونه في آيات معروفة منها ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾
أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿

من تينك القناعتين أقبلت صوبه، وحددته لدى عالم بعلم الكتاب المكنون، وهو الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن). وحاولت في التمهيد أن أعرف بالزركشي في البدء وبمنهجه في كتابه، ومن ثم جاء المبحث الأول للتعريف بالتدبر وبيان مفهومه بعيداً عن الإطالة في قواعده، ومفاتيحه، وبعدها بيان وجهة نظر الزركشي في مفهومه. ثم بيان تجلياته وصوره لديه في المبحث الثاني، واللافت للنظر أن صور التدبر كثيرة في كتابه، منها: النحوي، والصرفي، والصوتي، والسياقي، والتأويلي، ولسانيات الخطاب، ولسانيات

الحجاج، والبلاغي، والتاريخي، والتعبيري نسبة إلى التعبير القرآني، وغير ذلك كثير مما يتضح في البحث.

فكرة البحث وفرضيته:

بيان منهج الزركشي في تدبر القرآن الكريم بناء على اتساع مفهومه وتجاوز بوتقة التأمل إلى أنه فهم النص القرآني على وفق العلوم المتوافرة عليه. وقد يقود هذا إلى تحيين كتاب الزركشي على وفق العلوم المتداولة اليوم للبرهنة على علو منزلة الكتاب العزيز.

التمهيد: الزركشي ومنهجه:

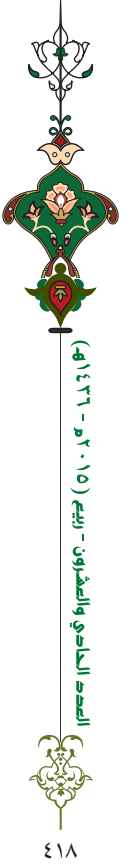
الزركشي هو لقبه، واسمه محمد بن بهادر بن عبد الله، ويكنى بأبي عبد الله، ولادته سنة خمس وأربعين وسبعمائة هجرياً، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، من أشهر أساتذته هما جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني. رحل إلى حلب إلى الشيخ شهاب الدين الأذري، وسمع الحديث بدمشق وغيرها. له مؤلفات عدة، منها: تشنيف المسامع بجمع الجوامع، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، رسالة في كلمات التوحيد. توفي يوم الأحد ثالث رجب الفرد سنة أربع وتسعين وسبعمائة، ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من تربة بكتمر الساقى^(١).

ولو عطفنا الكلام على كتابه ينبغي بيان أهميته، وهي تأتي مطلقة في عنوانه (علوم القرآن)، إذ حوى الكتاب أغلب العلوم القرآنية من اللغات، وأسباب النزول، واللسانيات وغير ذلك.

والغاية من تأليفه يقول عنها: ((فاستخرت الله تعالى -وله الحمد- في وضع كتاب جامع لما تكلم الناس في فنونه... ليكون مفتاحاً لأبوابه، عنواناً على كتابه، معيناً للمفسر على حقائقه، ومطلعاً على بعض أسرارهِ ودقائقهِ، والله المُخْلِصُ والمُعِينُ، وعليه

(١) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٨ / ٥٧٢ - ٥٧٣، و: الأعلام قاموس تراجم: ٦ /

٦٠-٦١، و: البرهان في علوم القرآن (مقدمة المحقق): ١ / ١١ - ١٣.



أتوكل، وبه استعين))^(٢).

هذا النص يجعلك تطمئن إلى أن برهان الزركشي هو فعلاً للبرهنة على نصية القرآن الكريم عبر منهج التدبُّر وهو ليس تفسيراً، وذلك الهدف دلَّ عليه الزركشي باتخاذ منهج يمكن تلخيص سماته على شكل نقاط:

- تناول العلوم المتوافرة على القرآن الكريم.
- اتسم بالتنظيرية، فقد ذكر القواعد الأساسية لفهم النص القرآني ممَّا يحتاج إليها المفسر.
- يتزاوج مع التنظير التطبيقي، إذ يحاول توكيد القواعد التي يذكرها، فيعطي نماذج من القرآن مع استجلاء دلالاتها.
- يستطرد في كل مبحث ويذكر فوائده، وفصول، وتنبهات كما يسميها تتعلق بالموضوع.
- يعتمد على السابقين كثيراً، ويصرح بأسمائهم، قال: مجاهد، سيبويه، ابن فارس، الواحدي، الغزالي، الزمخشري، ابن العربي، الحرالي، الكيهراسي، ابن الحاجب.
- من أبرز المعالم المنهجية لديه استعماله كلمة (قيل)، وأسلوب العطف في فهمه للآيات القرآنية (وكقوله تعالى).
- تنوعت مصادره بين كتب التفسير، واللغة، والبلاغة. والنحو، وغير ذلك.
- يستطرد بالأمثلة على الظاهرة الواحدة^(٣).
- ومن الملاحظ على منهجه، أنه قد يوجد فيه ما هو خارج نطاق التدبُّر، والسير الدلالي، أي دراسة وصفية للظاهرة القرآنية أو تتبعية، نحو: معرفة ما فيه من غير لغة العرب^(٤).

(٢) البرهان: ١ / ٣٠.

(٣) للتأكد من الملاحظ المنهجية التي ذُكرت ينظر: البرهان: ١ / ٤٦٥، ٤ / ١٩٣، ٢ / ٢١٧، ٣ / ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦.

(٤) ينظر: البرهان: ١ / ٣٥٩ وما بعدها.

المبحث الأول: التَّدْبُرُ في المعنى، والمفهوم لدى الزركشي

الهدف من هذا المبحث بيان المعنى المعجمي والتعريفى للتَّدْبُرِ، ومن بعد بيان مفهومه لدى الزركشي من خلال نصوصه في كتابه أو من خلال ما يستشف من كلامه. تكاد لا تختلف المعجمات في مفهوم التَّدْبُرِ والتدبير، فهما مأخوذان من الثلاثي (دبر) وقد أرسى دلالاته الأصلية ابن فارس ت ٣٩٥هـ في مقاييسه، فهو يدل في أصله على خلاف القُبُل، فيقول: ((دبر: الدال، والباء، والراء، أصل هذا الباب، أنَّ جُلَّهُ في قياس واحد، وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قُبَله. وتشذ عنه كلمات يسيرة نذكرها. فمعظم الباب أنَّ الدُّبْرَ خلاف القُبُل))^(٥).

والتَّدْبُرُ هو تفعل لمطاوعة التفعيل (التدبير) معناه سياسة الأمور، والنظر، والتصرف، والتفكر فيها إلى ما تصير إليه عاقبتها بعد حُسن القيام عليها^(٦). وسيكون مفهومه أنَّ الزركشي يتعقب النص القرآني بحثاً عن حسن قيامه، وروعة بيانه على وفق المعطى التكويني له بمساعدة الخيال الخصب له.

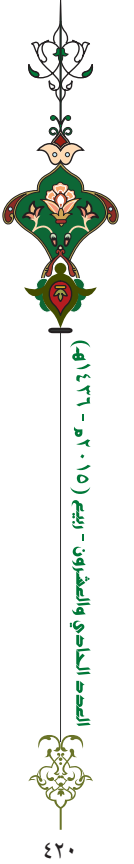
وقد يجيل لبعضهم انحصار مفهوم التَّدْبُرِ وتخصيصه عند قراءة القرآن الكريم، يتأمل القارئ بعد القراءة على مُكث، فيتبادر إلى ذهنه المعاني والدلالات القرآنية بفعل ذلك التَّدْبُرِ. والجزم باطلاق ذلك المعنى يكون غير وجيه، فالأمر ليس كذلك، بل ((هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة، ومعنى تدبر القرآن: هو التفكير والتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه وإدراك معانيه، وحكمه، والمراد منه))^(٧).

والتَّيَّاسُ الدلالة من هذا المنطلق يعني التعامل على أنَّ التَّدْبُرَ منظومة أو قاعدة

(٥) معجم مقاييس اللغة: ٢ / ٣٢٤. وينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٣٠٧.

(٦) ينظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ٤٠٢، والمعجم الوسيط: ٢٦٩، و: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣ / ١٩٣ - ١٩٤.

(٧) مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة: ٣.



كلية يمكن للفرد استعمالها وتوظيفها في مجاري الحياة، وعلى وجه التحديد في القرآن الكريم، انطلاقاً من معناه في اللغة، فيكون مرادفاً للبحث والتنقيب من نظر اللغويين، فقد جعله الرُّماني ت ٤٨٣هـ في فصل (البحث والتنقيب) من كتابه (الألفاظ المترادفة والمقاربة في المعنى): ((فصل: البحث والتنقيب: فَتَّشَ، وَفَحَّصَ، وَنَقَّبَ، وَقَرَى، وَاسْتَقَرَّ، وَاقْتَصَّ أثره، وَتَبَّعَهُ، وَتَطَلَّبَهُ، وَبَحَثَ، وَتَصَفَّحَ، وَنَقَرَ، وَاسْتَبْرَأَ، وَتَدَبَّرَ، وَتَأَمَّلَ))^(٨).

وهذا التبني قد يدخل التفسير في مفهوم التَّدبُّر في نظر المعترض! نعم قد يدخل التفسير في التَّدبُّر، مع الإقرار بالفرق بينهما إذ يكون التفسير على وفق منطلقات وقبليات معروفة، إمَّا لغوية أو فكرية نحو: الأثر، والاعتزال، والأشعرية، والأدبية، والتصوف، وهذا ما يُخرجه من التَّدبُّر فضلاً عن معناه اللغوي الدال على الإبانة والإيضاح من الفسر^(٩). مع لحاظ الفارق المهم أنَّ التَّدبُّر يكون في القلب أحياناً وقد يكون في العلن.

وفي هذا السياق أود التنويه بأنَّ كتاب الزركشي ليس تفسيراً، ومنهجه ليس منهج المفسر فيه، بل هي تأملات لقواعد يضعها في التَّدبُّر.

والأسباب التي دفعته إلى تدبُّر القرآن هي عينها التي تدفع بأي شخص آخر من المسلمين، وبهذا الصدد يقول المفكر الشهيد محمد باقر الصدر: ((ومن الطبيعي أن يتخذ الإسلام هذا الموقف ويدفع المسلمين بكل ما يملك من وسائل الترغيب إلى دراسة القرآن والتَّدبُّر فيه؛ لأنَّ القرآن هو الدليل الخالد على النبوة، والدستور الثابت من السماء للأمة الإسلامية في مختلف شؤون حياتها، وكتاب الهداية البشرية الذي أخرج العالم من الظلمات إلى النور وأنشأ أمة وأعطاه العقيدة، وأمددها بالقوة وأنشأها على مكارم الأخلاق، وبنى لها أعظم حضارة

(٨) الألفاظ المترادفة والمقاربة في المعنى: ٣١-٣٢.

(٩) ينظر: كتاب العين ٧/ ٢٤٧-٢٤٨.



التدبر وتجلياته في كتاب البرهان في علوم القرآن.....التدبر

عرفها الإنسان إلى يومنا هذا))^(١٠).

ويعد التدبر أصل الوقوف على المعنى القرآني في منظور الزركشي، مشروطاً بالصفاء والابتعاد عن أوساخ الحياة وقاذوراتها، فضلاً عن الاطلاع الغزير والعلم الكثير، فيقول: ((أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكر: واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوًى، أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمداً على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعاً إلى معقوله؛ وهذه كلها حجب وموانع))^(١١).

وفي نص من موضع آخر يؤكد الزركشي سعة الاطلاع وأثرها في تدبر القرآن وفهمه: ((وإنما يفهم معانيه، ويطلع على أسراره ومبانيه، من قوي نظره واتسع مجاله في الفكر وتدبره، وامتد باعه، ورقت طباعه، وامتد في فنون الأدب، وأحاط بلغة العرب))^(١٢).

إنعام النظر في هذا النص يؤكد الأطروحة في هذا البحث باتساع مفهوم التدبر خارج نطاق ظرف تلاوة القرآن وترتيبه، لذا يمكن تنميته لدى الزركشي على نمطين: الأول: تدبر رئيس إذا تأمل وتدبر وفكر بالمنتوج القرآني نفسه، بإبراز محاسنه الإعجازية وجمالياته البلاغية.

الثاني: تأسيس قواعد التدبر والتوجيه إليها، إذا نظرنا نظرة إجمالية لعمله، ومنها ما أقره وما أسس له حينما أعطى المفسر القواعد الضرورية لديه.

وكان التدبر لديه بحسب العلوم الكائنة في النص الكريم، مع امتلاكها سمة الاختصار والابتعاد عن الإطالة، فإذا جئنا إلى المنزع النحوي، فهو لم ينل منه نوالاً

(١٠) المدرسة القرآنية: ٣١٦.

(١١) البرهان: ٢ / ١٩٧.

(١٢) البرهان: ١ / ٢٣.



كاملاً، بل مجرد إشارات، وكذلك الصرف، وتفسير ذلك بغية الإمام بعلوم النص القرآني الكريم في موسوعته.

المبحث الثاني: تجليات التدبر في كتاب البرهان

أسهب الزركشي في تدبر القرآن الكريم بفعل فكره ورويته الموزعة على المفاصل القرآنية الواردة ضمنه، فتنوعت تلك الصور التدبيرية بتنوع العلوم القرآنية، وقد ينال البحث من تلك التجليات باختصار مجرد الإشارة إلى ثقافته العالية في منهجه التدبري القرآني، ومن أول التجليات التي أقف عليها هو التدبر السياقي. فلا يستطيع إي واحد من المفسرين تدبر النص القرآني ما لم ينطلق من السياق، إذ إنه عامل أساس في فهمه وتأويله. وعُدَّت نظرية السياق حجر الأساس في استجلاء الدلالة. وقسم السياق في البحث الألسني على السياق اللغوي (ما يسبق الكلمة وما يليها)، والسياق الحالي (الظروف الخارجية التي يقع فيها الكلام)^(١٣)، اهتم الزركشي بهذا النوع الثاني وبيّن فوائده، ومن أهمها: بيان وجه الحكمة في تشريع الحكم وتخصيصه، وإيضاح المعنى، ودفع التوهم والحصص، وإزالة الإشكال. ثم برهن على أثرها في فهم النص من خلال الجانب التطبيقي وأخذ آيات عدة، منها: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٤]، فيقول عن سبب النزول: ((فإن سبب نزولها أن قومًا أرادوا الخروج للجهاد فمنعهم أزواجهم وأولادهم، فأنزل الله هذه الآية))^(١٤).

ومن تلك التجليات التدبر النصي. علم النص من العلوم التي تبحث النصية من جهة الاتساق، والانسجام (الدلالة)، والتداولية في ضوء الأفعال الإنجازية. ومن آليات الاتساق الإحالة^(١٥)، سمّاها القدماء بـ(عود الضمير)، والتزم هذه التسمية أيضا

(١٣) ينظر: دلالة السياق: ٤٠.

(١٤) البرهان: ٥٣.

(١٥) ينظر: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء: ٤٥ - ٤٦.

التدبر وتجلياته في كتاب البرهان في علوم القرآن..... التبرُّك

الزركشي، فقال عنه: ((كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْصُوا الَّذِي يَبْدُوهُ عَقْدَةُ التَّكَاحِ﴾ فالضمير في (يده) يحتمل عوده على الولي وعلى الزوج، ورجح الثاني لموافقة القواعد))^(١٦).

درس في مفصل الدلالة ما سُمِّيَ بعلاقات الانسجام، ومن أبرز خطواته في النص القرآني المناسبة بين الآيات^(١٧)، وعدّها الزركشي ممّا تُبَيِّنُ قدرة القائل، وتجيء لتقارب المعاني: ((وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، مرجعها - والله اعلم - إلى معنى رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العَلَّاقات / أو التلازم الذهني: كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدّين، ونحوه))^(١٨).

وبعد ذلك لجأ إلى مجال التطبيق في القرآن الكريم وتدبّر التناسب بين السور: ((وكافتتاح سورة الحديد فإنّه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به))^(١٩).

وأخذ التّدبّر الدلالي نصيبه في كتاب البرهان، بل نصيبه الغزير، ومن ذلك في موضوع الوجوه والنظائر، وكعاداته بدأ يُنظّر ويتكلم على مفهومها، فعنده الوجوه: ((اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان، كلفظ الأمة، والنظائر كالألفاظ المتواطئة))^(٢٠). ثم تدبّر الأمثلة لذلك في القرآن الكريم على وفق السياق القرآني، ومنها لفظة (الهدى)، فدلّت على سبعة عشر حرفاً، منها: البيان، والدين، والإيمان، والداعي، والمعرفة، والرشاد، والقرآن، والتوراة، والحجة^(٢١).

وقد نوّه بمشتركات مهمة من خلال طريقة أخرى تراها في بيان وجوه (بعل)، فتدل على الزوج أينما وردت في القرآن إلا في موضع واحد فإنّها تدل على الصنم: ((وما في القرآن

(١٦) البرهان: ٢ / ٢٣٠ - ٢٣١.

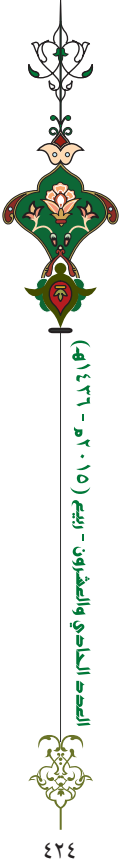
(١٧) ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ٩٩ وما بعدها.

(١٨) البرهان: ١ / ٦٢.

(١٩) البرهان: ١ / ٦٤ - ٦٥.

(٢٠) البرهان: ١ / ١٣٤.

(٢١) ينظر: البرهان: ١ / ١٣٤ - ١٣٦.



من ذكر البعل فهو الزوج كقوله تعالى ﴿ **وَبُعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ** ﴾ إلا حرفاً واحداً في الصفات ﴿ **أَنْدَعُونَ بَعْلًا** ﴾ فإنه أراد صتماً)) (٢٢).

وقد تطلع صاحبنا إلى دلالة النص عبر مقولة الحذف في قوله تعالى: ﴿ **وَأَيْنَا تُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً** ﴾ فقال: ((أي مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، وليس المراد أن الناقة كانت مبصرة لا عمياء)) (٢٣).

وهناك تدبُّرُ التعبيرات القرآنية، أي البحث في روعة التعبير ومقصده لـ ((أنَّ التعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً)) (٢٤). ومن ذلك في روعة الترتيب، فقد ذكر الباري الرحمة قبل العذاب، وما خرج من هذه القاعدة بذكر العذاب قبل الرحمة، بين العلة منه: ((ومنها: قوله في سورة العنكبوت: ﴿ **يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ﴾؛ لأنَّها في سياق حكاية إنذار إبراهيم لقومه)) (٢٥). ومن تلك التعبيرات الفرق بين خطاب الاسم وخطاب الفعل في الاستعمال القرآني: ((وقوله ﴿ **هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ** ﴾ لو قيل: ((رازقكم)) لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئاً بعد شيء، ولهذا جاءت الحال في صورة المضارع)) (٢٦).

لا أريد الإطالة في مبحث التدبيرات التعبيرية (٢٧)، لكي لا نشتغل عن تدبُّره التأويلي للنص القرآني. فقد يعد التأويل للنص القرآني بمثابة الهيكل العظمي للإنسان، بل أكثر من ذلك فيكون ضرورة ملحة عند الاشتغال عليه لكشف أسرارهِ، والمراد به في أرجح مفاهيمه لدى السيد كمال الحيدري بحسب نقله له عن ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)

(٢٢) البرهان: ١ / ١٣٧.

(٢٣) البرهان: ٢ / ٢٣٠.

(٢٤) التعبير القرآني: ١٢.

(٢٥) البرهان: ٤ / ٧٧.

(٢٦) البرهان: ٤ / ٧٩.

(٢٧) ينظر: البرهان: ١ / ١٥٠، ١٨٥، و: ٤ / ١٩٩.

التدبر وتجلياته في كتاب البرهان في علوم القرآن..... **التصنيف** •

في التفسير الكبير ((صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به))^(٢٨)، فتكون وظيفة التأول حينها بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه، وكذلك الدليل الموجب للصرف عن معناه الظاهر^(٢٩)، وهذا المفهوم عينه تجده لدى الزركشي، فيراه ما يحتمل المعنيين أو أكثر^(٣٠)، وصرف المعنى إلى المضمر في ((وكقوله تعالى ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ حَمْلَهُ عَلَى الظَّاهِرِ؛ لِاسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ آدَمِي لَهُ أَجْنَحَةٌ، فَيَحْمَلُ عَلَى الْخُضُوعِ وَحُسْنِ الْخَلْقِ))^(٣١).

تلحظ أنّ مقولة الاحتمال كانت على مستوى الاستعارة، وقد كانت على مستويات أخر لديه، ومنها ما كان في علم المعاني: ((ومما يحتمل قوله تعالى ﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فَإِنَّ ((فليلقه)) يحتمل الأمر والخبر، كأنه قال: فاقذفيه في اليمِّ يلقيه اليم، ويحتمل أن يكون أمرًا بإلقائه))^(٣٢).

وتتضح شمولية كتابه لما تتبع النص القرآني في ضوء فقه اللغة، الذي يُعنى بالتدبير التاريخي للظاهرة اللغوية، فقد بحث اللغات التي نزل بها القرآن الكريم، فذكر أنه على سبعة أو ثلاثة أو أكثر، وأورد أقوال السلف في معاني السبعة، فكانت المشكل أو القراءات أو سبعة أنواع: أمر، نهي، وعد، وعيد، قصص، حلال وحرام، محكم ومتشابه، وأمثال ذلك. أو لغات لسبع قبائل من العرب، أو سبعة أوجه من المعاني المختلفة، أو سبعة أوجه من الإعراب في بعض الآيات، أو بعض علوم القرآن، نحو: الإثبات، والإيجاد، والتوحيد، والتنزيه^(٣٣).

أما التبع الصرفي فقد وقف عنده بعد أن عرّف بالتصريف ((وهو ما يلحق

(٢٨) أصول التفسير والتأويل: ٢٢١.

(٢٩) ينظر: أصول التفسير والتأويل: ٢٢١.

(٣٠) ينظر: البرهان: ١٦٤ / ٢ - ١٦٥.

(٣١) البرهان: ٢ / ٢٢٤.

(٣٢) البرهان: ٢ / ٢١٦.

(٣٣) ينظر: البرهان: ١ / ٢٦٩ - ٢٨٧.



الكلمة بنيتها))^(٣٤)، ثم ذكر أقسامه، وفائدته، إلى أن تدبّر الآيات التي تؤثر فيها البنية الصرفية بمجرد تغييرها، فتتحول من دلالة إلى أخرى ((وقال تعالى: ﴿فَكَانُوا لِحَبَّتِهِمْ حَطَبًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ فانظر كيف تحول المعنى بالتصريف من الجور إلى العدل))^(٣٥).

وكان التشكيل النحوي سبباً للتدبر في الكتاب أيضاً، وبدأ يؤكد أهميته بقوله: ((وعلى الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسراره النظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحلها، ككونها مبتدأ أو خبراً، أو فاعلة أو مفعولة، أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير، أو جمع قلة أو كثرة، إلى غير ذلك))^(٣٦).

ويوجب في الوقت نفسه على المُتدبّر نحويّاً مراعاة أمور، منها معرفة معنى الكلمة المفردة أو التركيب قُبيل الإعراب كما في (كلالة): ((ولهذا قالوا في توجيه النصب في (كلالة) في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً﴾ أنه يتوقف على المراد بالكلالة، هل هو أسم للميت، أو للورثة، أو للمال؟))^(٣٧).

وأجهد الزركشي نفسه بيان الدلالة النحوية، لا سيما في الإعراب: ((احتمال الفعل للجزم والنصب فمنه: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، يحتمل أن يكون ما بعد الفاء مجزوماً، ويحتمل أن يكون منصوباً، وإذا كان مجزوماً كان داخلاً في النهي، فيكون قد نهي عن الظلم، كما نهي عن قربان الشجرة، فكأنه قال: ولا تقربوا هذه الشجرة فلا تكونوا من الظالمين))^(٣٨).

كثر التدبّر النحوي إلى حد الغاية بخاصة في الجزء الأخير من الكتاب، ذكر فيه الأدوات النحوية اللازم معرفتها من لدن المفسر ويكاد يكون الجزء الأخير مختصاً

(٣٤) البرهان: ١ / ٣٧٣.

(٣٥) البرهان: ١ / ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٣٦) البرهان: ١ / ٣٧٨.

(٣٧) البرهان: ١ / ٣٧٨.

(٣٨) البرهان: ٤ / ١٦٧.



التدبر وتجلياته في كتاب البرهان في علوم القرآن..... **التصنيف** •

بهذا الشأن، ومن ذلك الأداة (ثم) في قوله: ((وأما قوله: ﴿حَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ وقد كان قضى الأجل، فمعناه: أخبركم أي خلقتهم من طين، ثم أخبركم أي قضيت الأجل، كما تقول كلمتك اليوم ثم كلمتك أمس)) (٣٩).

ويمثل التدبر البلاغي نمطاً آخر في الكتاب، حتى كاد يغلب على الكتاب فتشاطر مع النحو النصب، وكان في أبواب البلاغة المعروفة على مستوياتها الثلاثة. تجنباً للإطالة نأخذ مثلاً عن الكناية، فيقول: ((فمن أسبابها ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه، كقوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فكنى بالمرأة عن النعجة كعادة العرب، أئها تكنى بها عن المرأة)) (٤٠).

وتدبر الألفاظ تدبراً مجازياً على وفق علاقاتها، ومنها علاقة اطلاق أسم الجزء على الكل: ((كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي ذاته)) (٤١).

وقد ولج الزركشي التدبر الصوتي المترتب على الصوت اللغوي، ولجه مباشرة هذه المرة من دون أن ينظر للمسألة، واستخرج الدلالات المترتبة على الإبدال الصوتي في الحروف، وعقد فصلاً (في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى) وأدرج هذا الفصل ضمن خط المصحف ورسمه ((مثل ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ﴾ فبالسين السعة الجزئية كذلك علة التقييد، وبالصاد السعة الكلية، بدليل علو معنى الاطلاق، وعلو الصاد مع الجهارة والاطباق)) (٤٢).

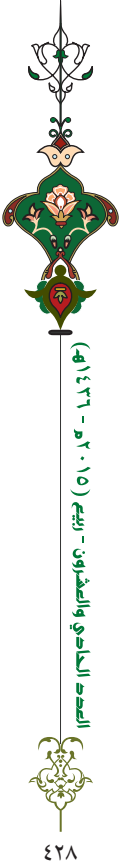
وإذا انتقلت إلى علم الحجاج، أجده قد تدبر مواضعه، ونوّه عليه في فصل (إلجام الخصم بالحجة) وقال في تعريفه: ((وهو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية،

(٣٩) البرهان: ٤ / ٢٩٦.

(٤٠) البرهان: ٢ / ٣٠٥.

(٤١) البرهان: ٢ / ٢٨٠. وتدبر التردد، والالتفات، والتشبيه، والاستعارة، والطباق، والمقابلة، والتعديد، وغير ذلك، ينظر على التوالي: البرهان: ٣ / ٣٤٧، ٣٦١، ٤٧٢، ٤٨٩، ٥١٢، ٥٣١.

(٤٢) البرهان: ١ / ٥٠١.



تقطع المعاند له فيه))^(٤٣). ثم قدّم الأدلة الحجاجية في الاستدلال على المعاد الجسماني: ((ومن ذلك الاستدلال على المعاد الجسماني بضروب: أحدهما: قياس الإعادة على الابتداء، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾، ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾))^(٤٤).

فضلاً عن أنواع الحجج التي بحثها الدرس الألسني الحجاجي الحديث المتمثلة بالقرآن الكريم، نوّه الزركشي بنوع آخر من الحجج هو الحجج المنطقي الذي تبناه (شاييم بيرلمان)، المستنتج من النص: ((ومنه نوع منطقي وهو استنتاج النتيجة من مقدمتين، وذلك من أول سورة الحج إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ فنطق على خمس نتائج من عشر مقدمات؛ فالمقدمات من أول السورة: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، والنتائج من قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾))^(٤٥).

وفي سياق التدبّر المنصوي في الألسنية الحديثة نجد تدبراً في لسانيات الخطاب التداولي لاسيما (مبدأ التأدب) الذي جاءت به (روبين لاكوف)، ومفاده (كن مؤدباً في خطابك)^(٤٦)؛ لاستقامة التواصل الإنساني والتعامل الأخلاقي، وهنا المخاطب هو الله تعالى، راعى في حيثيات خطابه المتلقي بعيداً عن خدش الحياء حفاظاً على ماء وجهه. أدرك الزركشي الأمر، وعقد باباً بعنوان (التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله وأنّ الكل بيده) ((كقوله تعالى ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم. وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، ولم يقل: ((والشر)) وإن كانا جميعاً بيده، لكن الخير يضاف إلى الله تعالى إرادة، ومحبة، ورضا، والشر لا يضاف إليه إلا إلى

(٤٣) البرهان: ٣ / ٥٢٤.

(٤٤) البرهان: ٢ / ٣١.

(٤٥) البرهان: ٣ / ٥٢٥.

(٤٦) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٤٠.



التدبر وتجلياته في كتاب البرهان في علوم القرآن..... التَّبَيُّنُ

مفعولاته؛ لأنَّه لا يضاف إلى صفاته ولا أفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيه)) (٤٧).

ويرتبط بهذا الحقل اللساني أنماط الخطاب لما حاول الزركشي تنميط الخطاب القرآني بعد جولات تدبُّرية، وصلت تلك الأنماط إلى ثلاثة وثلاثين نمطاً أو وجهاً، منها خطاب العام ويراد به العموم كقوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾. ومنه خطاب النوع، نحو: ﴿ **إِسْرَائِيلَ** ﴾ والمراد بنو يعقوب، ومنه خطاب العين ﴿ **يَتَّادُمُ اسْكُنُ أَنْتَ وَرَوْجَكَ الْجَنَّةَ** ﴾، ومنه خطاب الجمادات خطاب مَنْ يعقل ﴿ **يَنْجِبَالُ أَوْيِي مَعَهُ** ﴾ (٤٨).

تندرج تلك التدبيرات التي سجلتها في ما يمكن تسميته التَّدْبِيرُ اللِّسَانِي، يقابله التَّدْبِيرُ غير اللِّسَانِي، ومنه التَّدْبِيرُ التَّنَاصِي بِتسمية النقد الحديث على يد جوليا كرسطيفيا، وسماه الزركشي المعاضدة (٤٩)، وهذا يكثر في المناسبة بين القرآن والحديث النبوي الشريف، وعقد له باباً (في باب معاضدة السنة للقرآن) وتدبر الآيات والأحاديث المتوافقة ((ومن ذلك قوله ﷺ ((إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين)) في مفهوم قوله تعالى ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ إلى أن الصوم ينتهي نفعه إلى اكتساب التقوى)) (٥٠). وأطال الزركشي الوقوف على الخط في القرآن متدبراً؛ أهميته واختلاف الناس في رسم المصحف، فأخذ يقارن بين الخطوط ورسم الكلمات رابطاً الأمر بالدلالة، ومنه سقوط الإلف في بعض الأفعال من بعض المواضع القرآنية لعلَّه ((وكذلك ﴿ **وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ** ﴾ ﴿ **جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا** ﴾ ﴿ **وَجَاءُوا بِأَبَاهُمْ** ﴾، ﴿ **وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ** ﴾، فإنَّ هذا المجيء ليس على وجهه الصحيح)) (٥١).

كان المثال بحذف حرف ويوجد أمثلة أخرى بزيادة حرف في قوله: ((الزائد

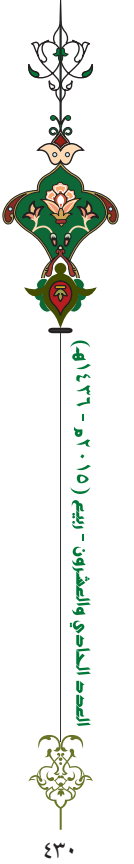
(٤٧) البرهان: ٤ / ٧٠.

(٤٨) ينظر: البرهان: ٢ / ٢٣٧ - ٢٧٠.

(٤٩) ينظر: البرهان: ٢ / ١٣٩.

(٥٠) البرهان: ٢ / ١٥٥.

(٥١) البرهان: ١ / ٤٦٣.



الثاني: الواو، زادت للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعظم رتبة في العيان مثل: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَنَسِقِينَ﴾، ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾. ويدل على ذلك أن الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد^(٥٢).

ومن المشاغل الأخر في كتابه المشغل التاريخي للنص القرآني، فقد حاول إفراز المكي من المدني في الآيات على وفق البعد التاريخي والضوابط التي وضعها من سبقه ففصل القول فيها^(٥٣)، ثم تتبع ما نزل في كل بلد، فبعضه بالجحفة وبيت المقدس، والطائف، والحديبية، وبحث ما نزل في الأزمان، فمنها في الليل ومنها في النهار^(٥٤).

وهناك لون آخر هو دفع التناقض عن القرآن وتنزيهه عن المطاعن، فعرض الزركشي آراء السابقين ثم دفع التعارض بأمثلة قرآنية منها: ((ومثل قوله ((ولا تقتلوا الصيد وانتم حرم)) ونبيه ﷺ عن قتل صيد مكة مع قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ فجعل النهي فيمن اصطاده في الحرم، وخص من اصطاده في الحل وأدخله حياً فيه^(٥٥).

وكم هو جامع كتاب البرهان فلم يترك أحكام ترتيل القرآن وتجويده، ومنه في باب الوقف والابتداء وربطه بالدلالة ((وهو فن جليل، وبه يعرف كيف أداء القرآن. ويترتب على ذلك فوائد كثيرة، واستنباطات غزيرة. وبه تتبين معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات))^(٥٦). والأمثلة كثيرة منها: ((ومثله الوقف على قوله ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ والابتداء بقوله ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك للإعلام بأن الله تعالى جعل الرهبانية في قلوبهم أي خلق، كما جعل الرأفة والرحمة في

(٥٢) البرهان: ١/ ٤٦٦.

(٥٣) ينظر: البرهان: ١/ ٢٣٩-٢٤٨.

(٥٤) ينظر: البرهان: ١/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٥٥) البرهان: ٢/ ٥٨.

(٥٦) البرهان: ١/ ٤١٥.



التدبر وتجلياته في كتاب البرهان في علوم القرآن..... التذبير والتدبير

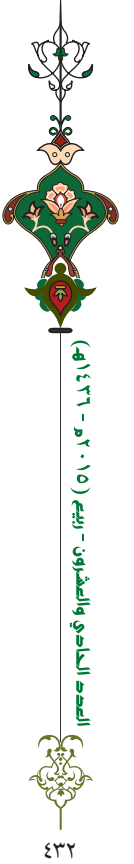
قلوبهم وإن كانوا قد ابتدعوها فالله تعالى خلقها)) (٥٧).

ختام البحث:

في الخاتمة ليس بوسعنا إلا القول إن الزركشي أطال في التدبر القرآني، وإنه يرى عدم فهم القرآن خارج التدبر ونطاقه، بل هو أساس فيه على وفق المعطيات المتوافرة عليه، ولا يكون إلا على وفق التكنيك اللساني والتواصل له عبر النحو، والبلاغة، والصرف، والصوت، والخطاب، والحجاج، والتداولية، والعلوم التاريخية وغير ذلك، شريطة الارتكاز على السياق القرآني، وهذا يقود للاعتراف بأن التدبر هو طريق من طرائق الدلالة القرآنية لدى الزركشي في أقل تقدير.

مصادر البحث:

- أصول التفسير والتأويل، مقارنة منهجية بين آراء الطباطبائي وأبرز آراء المفسرين، تأليف السيد كمال الحيدري، ط ١، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ م.
- الأعلام قاموس وتراجم، تأليف خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط ١٥، ٢٠٠٢ م.
- البرهان في علوم القرآن، تأليف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤ هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤٢٥ - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٥٥ م.
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، تأليف المحقق حسن المصطفوي، ط ١، الناشر: مركز نشر العلامة المصطفوي، مطبعة اعتماد، ١٣٨٥ هـ. ش.
- التعبير القرآني، تأليف الدكتور فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد - بيت الحكمة، بغداد - العراق، د. ط، ١٩٨٦ - ١٩٨٧ م.
- دلالة السياق، تأليف ردة الله بن ردة بن صيف الطلحي، رسالة دكتوراه، جامعة



- أم القرى، كلية اللغة العربية، ١٤١٨هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تأليف شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمود الارناؤوط، دار ابن كثير، دمشق-لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، تأليف الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠٠٠م.
- كتاب الألفاظ المترادفة، تأليف أبي الحسن علي بن عيسى الرماني ت٤٨٣هـ، تحقيق: محمود الشنقيطي، مطبعة الموسوعات، مصر، ١٣٢١هـ.
- كتاب العين، تأليف أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ت١٧٥هـ، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية والنشر، بغداد العراق، ١٩٨٤م.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، تأليف الدكتور طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، الدار البيضاء-المغرب، ٢٠٠٦م.
- لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء، تأليف الدكتور نعمان بو قره، دار الكتب العلمية، محمد علي بيضون، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
- المدرسة القرآنية، تأليف الشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر، مؤسسة الثقلين، سوريا دمشق، كربلا-العراق، د. ط، د. ت.
- معجم مقاييس اللغة، تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت٣٩٥هـ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط، تأليف مجموعة مؤلفين، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة-مصر، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.



إقرأ في العدد القابل ان شاء الله

- مفهوم التأويل في مراحلہ وتطوراتہ التاريخية

د. علي الحوّاني

- هر اهتمام المهشرقين الواهع بعملية جمع القرآن الكريم (القسم الاول)

أ.د. عبد الجبار ناجي

- التصور القرآني للتعامل الربوي - قراءة تحليلية في آيات تحريم الربا

أ.د. عبد الامير كاظم زاهد

- الفهم المعاصر للقرآن في ضوء منهج التفسير الموضوعي

أحمد جاسم الركابي

- الجغرافية الاقتصادية في القرآن الكريم

م. د. محمد جواد عباس شبع

- اثر الحمل على الظاهر في النحو الكوفي في تفسير القرآن الكريم

د. محمد ياسين الشكري

- التطور الدلالي في القرآن الكريم - دراهة صلة التناص بين القرآن والشعر الجاهلي

أ.د. سيد حسين سيدي

- تعدد الدلالة في التراكيب النحوية في تفسير الطوسي

د. محمد هادي البعاج